مهمة في أفغانستان

obeikandl.com

مهمة في أَفغانستان

obeikandl.com

مهمة في أَفغانستان

تجارب دبلوماسي في الأُمم المتحدة

تأليف
نوربرت هاينريش هول

تعريب
محمَّد جديد

مكتبة العبيكان

oberkandil.com

Original Title:
Mission Afghanistan
by: Norbert Heinrich Holl
Copyright © 2002 F.A. Herbig Verlagsbuchhandlung GmbH, München
ISBN 3-7766-2269-5

All rights reserved. Authorized translation from the German language edition.

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع ف.آ. هربغ فيرلاغسبوخها ندلنغ. ميونخ.

الطبعة العربية الأولى 1425هـ ـ 2004م

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص.ب. 62807

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

© العبيكان 1425هـ ـ 2004م

ISBN 9960 - 40 - 545 -1

ح مكتبة العبيكان، 1425هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هول، نوربرت هانيريش

مهمة في أفغانستان. / نوربرت هانيريش هول؛ محمد جديد. ـ الرياض، 1425هـ

478 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك: ISBN 9960 - 40 - 545 -1

1 ـ أفغانستان ـ الأحوال السياسية

أ. جديد، محمد (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 958.104 1425 / 566

رقم الإيداع: 1425 / 566

ردمك: 9960 - 40 - 545 -1

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكيـة، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

obeikandi.com

المحتوى

مدخل إِلىٰ بلاد صعبة 7

1. اللعبة الكبرى ـ ما زالت، أبداً 15

2. الوضع المتعلّق بنهاية الحرب 29

3. وأَبْدأُ بالأُمم المتحدة 39

4. السياسة الألمانيّة في أَفغانستان 53

5. موطني الجديد ـ جلال آباد 67

6. الأحاديث الأولى مع الحكومة في كابول 81

7. لقائي بدُستم والخليلي والطالبان 101

8. رؤية بابار 127

9. سقوط كابول 143

10. الحكام الجدد 165

11. بابار يمسك بزمام المبادرة 185

12. خطوات مؤقتة 215

13. مِنَ الداخل أم من الخارج 229

14. الطالبان 249

15. الازدواجية الأمريكية 269

16. عامل باكستان وإِيران 291

obeikandl.com

المحتوى

17. أزمة مزار الشريف 309

18. ظاهر شاه واللوياجيركا 347

19. الجنرال عبد الملك 375

20. بعثة الإبراهيمي 389

21. انحلال الدولة أم الفراغ 403

22. أسامة بن لادن ومشكلة أفغانستان 411

23. تحالف الشمال 425

24. دور الأمم المتحدة 439

25. نظرة إلى الماضي وإطلالة على المستقبل 455

فهرست الرموز والاختصارات 471

obeikandl.com

مدخل إِلى بلاد صعبة

يقوم مجتمع الدول الغربية بتصميم هندسة أَمنها. وتحرص التكتلات الإِقليميَّة في كل القارات علىٰ الرخاء وعلىٰ كرامة البشر. ومع ذلك فبينما تتجهَّز الشعوب من أجل تحديات القرن الحادي والعشرين تخاض في جبال هندكوش، منذ عشرين عاماً، حرب منسيَّة ردَّت شعباً بأسره إِلىٰ العصور الوسطى بقنابلها. والآن فحسب، يتوجَّه اهتمام يشوبه القلق، مثل قاذف ضوء صارخ، علىٰ الإِقليم البعيد ومنذ أسابيع تومض علىٰ شاشات التلفاز في أوروبا صور السماء في الليل علىٰ كابول وقندهار، وصورة مدن لم يكن يوجد قبل وقت قصير تصوُّر عنها بالقياس إِلىٰ الكثيرين، وتكشف آثار الضوء عن طيران صواريخ موجَّهة عن بُعد، كما تكشف في ضوء الصباح عن صورة المنازل المنسوفة والقتلى الذين اندلقت أحشاؤهم.

ونسمع كيف يعلن المتحدّثون في التلفاز عن الأنباء الباعثة للخوف. فالنظام الذي يزدري البشر لا يحفل بمقاييس القِيَم في

obeikandl.com

عالم الدول، والجنون الديني يرسم له الطريق. وثمة أثر لِلدم بألف ضعف، يفضي، من جحيم مركز التجارة العالمي، إلىٰ رجل وجد في أفغانستان الملاذ.

ثم نتذكَّر أنَّه قبل بضعة أشهر، في بداية آذار، كانت تلك الفعلة الشائنة المتصلة بالروح والفكر. فعلىٰ الرغم من الاحتجاجات التي امتدت علىٰ نطاق العالم، يتم تدمير التماثيل البوذية في باميان، وهي كنوز من التراث الحضاري العالمي لا سبيل إلىٰ استعادتها يضحى بها علىٰ مذبح التشدّد المبني علىٰ ضيق الأفق. ويجري نهب متاحف كابول والمدن الأفغانية الأُخرى، كما يتم تدمير المنشآت غير الإسلامية، ويوصَم الهندوس ويُرْغمون علىٰ أن يخرجوا علىٰ الملأ بزي يُعْرَفون به، أي يعرفون بما كانوا يدينون به منذ آلاف السنين. وتغدو الملايين من النساء الأفغانيات ضحية للتجريد المنهجي من الحقوق. وينفذ قانون عقوبات بربري بحق فاعلين حقيقيين وموهومين، ويتم قمع المخالفين في التفكير، ويُجَرَّد الصحفيّون الأجانب، والسياسيّون، والعاملون في برامج المساعدة علىٰ التنمية، من حريّاتهم، وفي كثير من الأحيان يتعرّضون للتهديد بالموت. وظل المجتمع الدولي طوال سنين ينظر إلىٰ سياسة الغموض والإبهام المفروضة من قبل الدولة من دون أن يفعل شيئاً. فكيف أمكن أن توجد في قلب عالمنا المتنوّر «الذي بات كالقرية» وفي ساحة السوق هذه الحافلة بالمعلومات المتداولة علىٰ نطاق الدول، مثل هذه البلاد

المُقْفَلة علىٰ نحو محكم بحيث لا يتسرَّب إِليها هواء، والواقعة علىٰ ما يبدو، في براثن الجنون؟

وفي العامين 1996/ 1997 اضطلعتُ، بتكليف من الأمين العام للأُمم المتحدة، بمهمة سلام دولية في أَفغانستان. وكانت البلاد قد أصبحت منذ تلك الأيام، من الوجهة الفعلية، بلاداً مقسَّمة. ففي منتصف عام 1996 كانت حكومة الرئيس رباني ما زالت تسيطر علىٰ الشمال والعاصمة كابول. أمّا الجنوب، مع المدينة الملكية القديمة، قندهار، فكان يسيطر عليها الطالبان. وكانت قد تأسَّست في المناطق الهامشية من الناحية الجغرافية دويلات، وكانت أَفغانستان قد استنفدت قواها حرب لا تكاد تجد نهاية. وكان الخبراء الغربيّون يؤكّدون لي، المرة بعد الأُخرى أَن النّاس في جبال هندوكوس يتوقون إِلىٰ السَّلام، وأن مواردهم المعنوية والمادِّيَّة قد استنفدت، ومع ذلك ففي الواقع كان هؤلاء النّاس يتقبَّلون، في مقدرة علىٰ تحمّل المعاناة يبدو أنها لا تنضب، نوباتٍ من بُرَحاء الحرب تظل تتجدَّد أبداً. وفي نيويورك زُوِّدْتُ، وأنا في الطريق، بنصيحة مؤدّاها وجوب استغلال تعب الشعب، المُتَوَهَّم، من الحرب، من أجل مبادرات سلام جديدة، وقيل لي إِن الظروف الأولية الواجب توافرها من أجل المفاوضات حول هدنة، وربما من أجل تشكيل حكومة للمصالحة الوطنية ليست بالظروف غير المواتية، وانطلقت في طريقي يحدوني بعض الأَمل.

ولكن في مستهل أيلول 1996 بدأ الطالبان في الهجوم السريع، فغزوا كابول وقتلوا الرئيس السابق نجيب الله، وأوغلوا في عمق الشمال، وبعيد ذلك انهار زعيم الأوزبك دستم في مزار الشريف، إذ جرَّده من السلطة الجنرال عبد الملك، أحد خلصائه، الذي أشيع عنه فيما بعد أنَّه سفاح الطالبان، وتحوَّل طلبة مدارس القرآن مرتين إلىٰ الهجوم السريع علىٰ النهر الشمالي الحدودي، آموداريا، الذي وصلوا إليه أخيراً في عام 1998. ومنذ ذلك الوقت خيَّم علىٰ البلاد كلها تقريباً هدوء فرضه الملا عمر، ولم يبق من يقاوِم بعدُ سوى أحمد شاه مسعود في شِعاب جبال باداكشان غير السالكة. وفي 10 أيلول 2001 سقط القائد الذي ظل خصومه يستفزّونه منذ عشرات السنين ضحيةً لضربة بسلاح ناري.

وبموته بدا أَن انفراد الطالبان بالسيطرة بات مضموناً أول الأمر. ولكن ذلك لم يدم إلاّ يوماً واحداً: ذلك لأن الحدث الرهيب في نيويورك وواشنطن، في 11 أيلول، والضربات الانتقامية من قبل الولايات المتحدة، يُسجِّلْن في تاريخ أَفغانستان حداً فاصلاً من الوجهة السياسية، بل ربما يمثلن الموضع الذي يفضي الطريق منه إلىٰ السلام. واستعاد تحالف الشمال، الذي سانده القصف الدائم من قبل الولايات المتحدة علىٰ الطالبان، في الثالث عشر من تشرين الثاني عام 2001، كابول، رمز السيادة والمشروعية الوطنيتين، وانفتحت صفحة جديدة في تاريخ جبل الهندوكوش.

وكنت قد تفاوضت من قبل مع كل السياسيين الأَفغان ذوي الأهمية، الذين تشكّل أسماؤهم اليوم عناوين الصحف البارزة، تقريباً، ودخلت معهم في مجادلات ساخنة، واستمتعت أيضاً بتكريمهم للضيف في غمار الحرب الأهلية. ومات بعض هؤلاء في حادث عنف، وآخرهم أحمد شاه مسعود «أَسَد بانجير» الذي سقط ضحية لإِطلاق النار عليه، والذي يشير الفاعل في حادثته إِلىٰ الطالبان، وعبد الحق، ذلك القائد الباشتوني، الذي يبرز فجأة، ويحظى بتشجيع الأمريكيين، والذي حاول، بالاعتماد علىٰ نفسه، أَن يؤسِّس جبهة ضد الطالبان، وألقى الطالبان القبض عليه علىٰ أنّه «خائن»، وأُعدم. وكنت قد دخلت معه أيضاً، وهو الذي لبث منذ سنين، يجاهد متوسِّلاً، من أجل (لوياجيركا) وهي اجتماع قَبَلي كبير، كان يفترض أَن يكون له أثر حاسم في مصير أَفغانستان، في مجادلات طويلة.

وقد تَوَلَّيْتُ، وأنا الألماني الوحيد حتى الآن، قبل أربع سنوات، مهمَّة سلام للأُمم المتحدة في أَفغانستان، وهي بلاد تحب الألمان، وتوليهم ثقة ترجع جذورها التاريخية إِلىٰ مدى بعيد. وبحكم كوني مدير قسم في وزارة الخارجيَّة يختص بجنوبي آسيا المقلقل، زَجَّت بي ظروف غريبة في وضعٍ يتيح لي إِمكانية التحدّث إِلىٰ رجال ونساء يتمتّعون بنفوذ سياسيّ وعسكري، داخل أَفغانستان وخارجها.

وكذلك فأنا لا أريد، متأثّراً بالصدمة التي أحدثها جحيم

مانهاتن، وما زال يحدثها الخوف مجدداً من ضربات جرثومية علىٰ نطاق العالم، أن أسهم في حملة استياء تقوم علىٰ تمييز معين، ضد «أمراء الحرب» في جبال هندوكوش، ولا أن أبادر بنداء الاستنكار الرخيص المبتذل في هذه الأيام ضد الطالبان. لقد حاولت علىٰ الدوام أن أَسْبُر غور طريقة التفكير والمصالح والدوافع عند الأحزاب، وأن أدرس أيضاً الدوافع الحافزة عند الطالبان مهما يَبْدُ لنا توجُّهها خاطئاً في عالم غربي متنوِّر. لقد قال لي قائد من قادة الباشتون لم تكن طريقته في التفكير بعيدة عن طريقتهم: «إنهم يحملون عنك انطباعاً شأن الأطفال الذين أُسيء توجيههم، أجل، فإنهم كالأطفال الذي أُسيء توجيههم، ومثل ورثة تاريخ أفغاني يفيض بالعنف فيضاً، وتقاليد كان يفترض فينا، نحن أبناء الغرب، أن نكون علىٰ شيء من الإطلاع عنها، قبل أن نحكم علىٰ الحاضر.

وكتابي لا يصف فولكلوراً حربياً، ولا يتوقف مندهشاً وراء كواليس ليس الجبال التي تبهر الأنفاس في جبال هندوكوش، بل يحاول، بموضوعية، أن يكشف أيضاً إلىٰ جانب مواقع الجبهة في الصراع بين الأفغان، عن النسيج المتداخل المعقَّد الحافل بالمؤثِّرات الأجنبيَّة التي تحدث مفعولها في الصراع. ذلك لأن هذه البلاد التي أَضَرَّ بها الفقر، واستُنْزِفَ دمها بعد حرب دامت عشرين عاماً، ما زالت بعدُ عند مفترق طرق المصالح الدولية الكبيرة. لقد كان هذا في العصر القديم علىٰ هذه الشاكلة، ولم

يتغيَّر حتى اليوم. وذلك أَن البلاد التي يبدو أنّها ذات موقع هامشي، والتي لا نعرف عنها إِلاّ القليل القليل، تمثِّل الحاجز بين شبه القارة الهندية التي تضم ربع سكّان الكرة الأرضية، وبين المجالات الهائلة في آسيا الوسطى وروسيا.

وهذا الكتاب لا يقدِّم وصفة تحمل براءة اختراع لمشكلة تجاهد هيئة الأُمم المتحدة من أجل حلّها منذ عشرات السنين، ومع ذلك فهو كذلك ما دام يفصِّل القول في بعض فقراته في عملي في تلك الأيام، وقد كتب بالاستناد إِلىٰ القرب من البشر، في معاناة يومية مباشرة. ثم يُعرض لذلك الذي يخوض في المحادثة بما تنطوي عليه من الصعوبات، وما يرافقها من الملاحظات، وشعوره بالسعادة في بعض الأحيان، فهو يعرضه في حالة الوحدة التي تلازم أداء واجب مريح، ويحاول أَن يسبر غور بلد يبدو متوجّهاً إِلىٰ الوراء في وسط عالم منفتح علىٰ التقدّم، يعرضه جزيرةً وحيدة من جزر الحظ المنكود، إِنه ضحية حرب أهلية نسيها العالم وقتاً مفرطاً في الطول، و«صراع يتيم» (Orphan conflict)، كما سمّى الأمين العام السابق للأُمم المتحدة الموت اليوميّ في جبال هندوكوش.

وهذا الكتاب يقصد به أيضاً إِلىٰ الشكر، الشكر لأولئك الرجال والنساء ذوي القوميات المختلفة الذين تعاونوا معي في بعثة الأُمم المتحدة لأَفغانستان (UNSMA)، من أمريكيين وروس وبريطانيين وفرنسيين ويابانيين، وممثلين من بلدان العالم الثالث.

لقد كنا جميعاً نقف معاً. ولولا إِخلاصهم وصداقتهم وروحهم المهنيّ لما أمكن أَن يحدث شيء مما حاولنا الوصول إِليه لمصلحة السَّلام في تلك الأيام.

obeikandl.com

1

اللعبة الكبرى ــ ما زالت، أبداً

نحن لا نعرف إِلاَّ القليل عن هذه البلاد. ففي نظام للقِيَم قائم علىٰ العقيدة المانوية، تستخدمه المناقشة السياسيَّة في الوقت الراهن، قُسِمَ لهذه البلاد دور «الدولة التي تشعل الحرائق»، علىٰ وجه الإِطلاق، فنحن لا نتاجر معها منذ عهد بعيد، ولم يَطُفْ سائح منذ سنين بالبحيرة الجبلية الزرقاء زرقة الياقوت في بند ـ ي ـ أمير، أَو يشاهد تماثيل بوذا في باميان قبل الهجوم عليها بالتشويه. فالأجانب الوحيدون الذين بلغ بهم الضَرْبُ في الأَرض إِلىٰ هناك، هم الطيور العالمية المهاجرة التي هي دائماً في الطريق، علىٰ سفر، والصحفيّون، والعاملون في معونات التنمية، والمفاوضون الدبلوماسيون أيضاً. وهنا لا يوجد، في مستهل القرن الحادي والعشرين، كيلومتر واحد من الخطوط الحديديَّة، ولا يكاد يوجد هاتف يؤدي عمله كما ينبغي، ولا شبكة طرقات سليمة من الأذى، بغض النظر عن الطرقات القليلة البعيدة التي

obeikandl.com

فُرِشَت بالإِسفلت سابقاً، والتي باتت الآن مزروعة إِلىٰ حد مفرط بالحفر التي يفيض عليها ماء المطر والتي لا تكاد تصلح للسفر عليها بعدُ بسبب قلّة المحافظة عليها، وعليها كانت تدرج قافلة مركبات من عهد ما قبل طوفان نوح تنقل سلعها المكدَّسة عالياً بين إِيران وباكستان. وما من شك في أن كابول، العاصمة، كانت تنقذ دائماً، علىٰ الرغم من الدمار الفادح إِلىٰ أقصى الحدود، قليلاً من البنية التحتية العائدة إِلىٰ سنوات سالفة، مما كان يبدو أَنَّه يؤدي وظيفته لدى الوهلة الأولى، ومِنْ ذلك مطار وشبكة طرق سبق استثمارها في حي الأوربيين، حيّ الوزير أكبر خان، وسلسلة من المستشفيات والفنادق الدولية.

ولكن معظم هذه المنشآت تعيش حياة كحياة الأشباح. أما المستشفيات فيفتقد فيها الماء الجاري في الأنابيب، والكهرباء والأسرّة. أما أكبر فندق في كابول، وهو فندق إِنتركونتيننتال الواقع علىٰ سفح الجبل الذي كان المرء يُطِلُّ منه علىٰ منظر رائع فوق العاصمة، فقد تحوَّل إِلىٰ خرائب لا تكاد تُسْكَن. لقد أتى البؤس والفقر علىٰ البنية التحتية للمدينة. وبات من الممكن، منذ عهد بعيد، أَن تُقْرَأَ في وجوه الأَفغانيين، الذين كانوا قبل ذلك يُشادُ بزهوِّهم بأنفسهم وبنزعتهم الحربية، أمارات اليأس، وذلك أَن ملابسهم البالية، وسلوكهم الذي لا يبالي بالتسوُّل العلني يجعلانهم مماثلين لإِخوانهم وأخواتهم في بلدان الأَرض المبتلاة بالبؤس والضنك.

وباتت أَفغانستان يرد اسمها في إِحصائيات الأُمم المتحدة، منذ سنين، علىٰ أنها البلد الذي يحصل علىٰ أدنى مستوى للدخل الفردي في آسيا، وعلىٰ أنَّها ثاني أفقر بلد في العالم. ومع ذلك فبما أنّه ما عاد يوجد، منذ عام 1979، تعداد للسكّان هناك، وحتى هذا التعداد الأخير يُعد مما لا يمكن الركون إِليه، فلا يعرف اليوم أحد مقدار انخفاض دخل الفرد في الواقع، بل إِن هذا المفهوم المتعلّق بالاقتصاد القومي يكاد يتّسم بسِمة المجانية المَرَضية للواقع، بالنظر إِلىٰ هذا البؤس. ولا يُعْرَف حتى الرقم الدقيق لعدد سكّان البلاد، وهو يتراوح، منذ عشرين عاماً، نتيجة لتيارات اللجوء المتواصلة، بين 15 و20 مليون. ففي كابول وحدها كان يعيش، حسب تقديرات الأُمم المتحدة، منذ عام 1998، 50,000 من أولاد الشوارع المشرَّدين.

ومما يسجل من النقاط الأُخرى في «ذروة البؤس»: الحد الأقصى لوفيات الأطفال، والحد الأدنى في معدل محو الأمية. والحد الأدنى لمتوسط العمر المتوقَّع في آسيا. علىٰ أَن الذي يفترض مشاهدته في أَفغانستان هو بيت للمساكين حقيقي في عالمنا الذي بات كأنه قرية واحدة. وما خلَّفته عمليات قصف الأمريكيين والبريطانيين بعد في مدن كابول وقندهار وهراة وجلال آباد، ربما ما عاد يستحق اسماً يدل علىٰ مكان للحياة.

علىٰ أَن الطبيعة أيضاً صاغت هذه البلاد بتطرّف استثنائي المثال. فعندما حلَّقت في الطائرة الصغيرة (البيتش كرافت)،

التابعة للأُمم المتحدة، فوق شمالي أَفغانستان، كنت أطل علىٰ بحر من الجبال ذات الانحدار السحيق التي ترتفع ستة آلاف متر، علىٰ قدر ما تبلغ العين، وفي الشمال الشرقي حيث كان المنظر يفضي إِلىٰ ممر واكهان، الذي أنشأه الدبلوماسيون عام 1893 بطريقة مصطنعة ليفصلوا بين الديكة المتقاتلة، بين روسيا والهند البريطانية. ثم بدأت حتى الجبال ذوات السبعة آلاف متر. وهناك يبدو جبل هندوكوش كشعلة بيضاء يتعالى زبدها، حيث تبدأ هضبة بامير. ولا يكاد يوجد مكان للبشر. وفي الوديان الضيقة تحفر الأنهار بمياهها شيئاً من مملكة الأَرض تنشأ عليها قرى بالغة الضآلة، لا تبعد كثيراً عن المستوطنة البشرية التالية، وقد لا تكون الأبعاد الفاصلة كبيرة، ومع ذلك فهي مفصولة، بعضها عن بعض بجبال لا يمكن التغلّب عليها. وعندما ارتحلت من كويتّا في باكستان إِلىٰ جنوب أفغانستان كان المنظر الطبيعي الصحراوي البنّي تحتي يبدو وكأنّه قد نُحِتَ هضبة سور غار قبل مليون سنة وجعل فيها أسناناً كأسنان الشوكة عملاقة هائلة ومدَّ علىٰ طول هذه الأسنان أخاديد يبلغ طولها الكيلومترات لم يُسَوِّها ما كان يتساقط من الأمطار خلال فصول شتاء لا تحصىٰ. وحتى العاصمة التي كانت تحظى بالرعاية إِلىٰ حد ما في أيام الملك الأخير، ولا بد أنّها كانت تحدث في النفوس انطباعاً مؤداه أنها حديثة، تحدق بها الجبال التي تأكل ذيولها الترابية المغبرّة أحياء المدينة، وتحف بكابول ستارة كالكواليس يغشّيها ثلج خالد، ومع ذلك فإِن من

obeikandl.com

ينتهي به المطاف إلىٰ هنا لا يتخلّص أبداً من الشعور بأنه يقف هنا علىٰ حافة المنطقة المأهولة بالبشر، وأنه يُقَلِّب الطرف في بلاد مقفرة لم يكبح جماح فقرها.

وعلىٰ الرغم من ذلك فقد كانت هذه البلاد الفقيرة التي لا تغري بالمقام فيها، منذ العصور القديمة مثار النزاع في الشقاق الداخلي، وبين الخصوم الخارجيين، ولا يحتاج المرء إلىٰ أن يبدأ نظرته إلىٰ الوراء بجولات الإسكندر الأكبر، الذي مَرَّ في زحفه إلىٰ الهند بتماثيل بوذا في باميان، ووصل بالقرب من ممر خيبر إلىٰ سهل شمالي الهند، ولا بحضارة البكتريين، أو ملوك الحقبة الكوشانية الذين نصبوا، قبل ألفي عام، خيام مقرِّهم الصيفي في باجرام الأَفغانية، أَو بمؤسِّس الأسرة الحاكمة المغولية، الفاتح بابور الذي أخضع اللوديين في دلهي، وأَسَّس مملكة شامخة، غير أنّه اعتزل حتى وفاته، من جديد، في حدائق الورود في كابول التي لم يبق منها شيء، ولا عود ورد، ولا عبير ورد تحمله الريح، ولم يَطُلِ العمر بواحدة منها إلىٰ ما بعد الحرب التي حَمِيَ وطيسها منذ ذلك الوقت في أَفغانستان.

ولكن ربما يتيح القرن التاسع عشر الارتقاء في تاريخ أَفغانستان المطبوع بطابع العنف والتدمير، ذلك البلد الذي يسدّ الطريق علىٰ شبه القارة الهندية الغاصّة بالسكّان، بما تضم من خُمس سكَّان المعمورة، مثل رِتاج لا يكاد يمكن نسفه، إلىٰ الشمال، إلىٰ عتبات آسيا الوسطى، وتحول، في اتجاه معكوس،

بين مملكة القياصرة المتوسعين، وبين المرور إلىٰ المياه الدافئة في المحيط الهندي.

لقد لبث الروس والبريطانيّون طوال مائة عام يتصارعون علىٰ النفوذ في أَفغانستان، ولئن لم تصبح البلاد أبداً مستعمرة بريطانية، ولم يجر أبداً ضمّها إلىٰ دولة القياصرة، فقد كانت تقف مع ذلك دولة ضعيفة حاجزة بين دولتين كبيرتين في ظل كلتا الإِمبراطوريتين، ولم يكن لها بدّ، وهي العاجزة، أَن تتقبَّل أن يقوم دبلوماسي بريطاني، وهو وكيل وزارة الخارجيَّة لشؤون الهند، السير هنري مورتيمر ديوراند، في عام 1893، بعد عقود من النزاع، برسم خط يختم الحدود، ويسجل علىٰ الخارطة خط ديوراند السيء السمعة، الذي يشكِّل منذ ذلك الوقت، الحدود بين أَفغانستان، والهند البريطانية في ذلك الوقت، وهي اليوم باكستان، ووضعت مدينة بيشاور، التي يشعر سكَّانها الذين ينتمي أغلبيّتهم إلىٰ البشتون، حتى يومنا الحالي بأنهم أَفغان، بجرّة قلم، تحت النفوذ البريطاني، وخُصِّصت للهند في تلك الأيام. أما استفتاءات السكَّان فلم تكن مألوفة، ولم يكن الاستفتاء يستحق بذل الجهد في حالة بلد متخلّف يائس إلىٰ هذا الحد كبلد الأَفغان، بلا ريب أيضاً. ومع ذلك فبخط ديوراند هذا الذي بات منسياً في الغرب إلىٰ حد بعيد، وما عاد يذكره إلاَّ المؤرخون، وهو واحد من العمليات التعسفيّة الكبرى في تاريخ العالم، وُضِعت البذرة للصراع الذي ما زال حتى اليوم يثير القلاقل في هذا الإِقليم، إذ

رسمت الحدود الإِقليميَّة بحيث تعبر منطقة الاستيطان التقليديَّة العائدة إِلىٰ البشتون، أي عبر ذلك الإِقليم الذي يسمى منذ ذلك الوقت «بشتونيستان»، وهي بلاد تقوم في الأذهان كالشبح، لا وجود لها في خريطة العالم السياسيَّة، ولا مقعد لها في الأُمم المتحدة، ومع ذلك فهي موجودة بملايين الأفراد، علىٰ الدوام، سواء أكان هذا الوجود أملاً، أم كان تهديداً لعالم الدول الإِقليمي.

ولم تعترف أَفغانستان حتى اليوم بخط ديوراند، حدّاً دولياً، ولا بد لباكستان، التي ورثت الهند البريطانية إِقليمياً، أَن تعيش وجرحها مفتوح. وحتى الطالبان لم يقدموا علىٰ هذه الخطوة علىٰ الرغم من أنّه كان لديهم في البداية كل الأسباب التي تحملهم علىٰ إِظهار الميل إِلىٰ تلبية الرغائب الباكستانية. وحين أَبَوْا علىٰ إِسلام آباد الاعتراف بخط الحدود المرسوم منذ أكثر من مائة عام، علىٰ كل خرائط العالم، كانوا يتابعون الخط السياسيّ الذي سبق أَن رسمه لهم الملك ظاهر شاه وأسلافه. ولا بدّ لباكستان أَن ينتابها الخوف المتعلّق بالحفاظ علىٰ حدودها باتجاه الشمال الغربي، حتى اليوم. وذلك أنّها لا تستطيع، وهي المحصورة بين تأثيرات جامحة معاندة، ومعقولة، من قبل أَفغانستان التي تبدو عسيرة المتناول علىٰ نحو ظاهر جليّ، من ناحية أولى، وبين العملاق والخصم الخالد، من ناحية أُخرى، وهي مركَّبة، في محتواها الخاص، من شعوب شتى، أَن تسلِّم لحركة انفلات الباشتون، من دون أَن تضطر إِلىٰ الخوف، في سائر أجزاء البلاد، من رد فعل

متسلسل. وإِذا كان علىٰ القوم في إِسلام آباد أَن يحولوا دون شيء ما، فذلك هو نشوء هذه الدولة الشبح، دولة باشتونستان التي كان خط ديوراند خليقاً أَن يصحّحها وكان البشتونيون المستوطنون علىٰ جانبَيْ الحدود خليقين أَن يوحدوها في دولة واحدة. وكان الأمر أكثر من حاشية تاريخية، بل كان حدثاً من أحداث الساعة لم يزل يُحْدِث آثاره، عندما لم توافق دولة واحدة عضو في الجمعية العمومية للأُمم المتحدة علىٰ قبول باكستان التي خرجت إِلىٰ الاستقلال لتوها، وهي أَفغانستان. وقد تحوّل طقس قبول بلد متحرِّر من الاستعمار في هيئة الأُمم المتحدة إِلىٰ فصل من فصول المواجهة السياسيَّة، إِذْ كانت كابول في تلك الأيام قد طالبت باكستان بإِعادة للنظر في خط ديوراند، وكانت باكستان قد رفضت تغييراً في الحدود، في منطق منسجم تماماً مع أسيادها المستعمرين البريطانيين الذين كانوا فيها حتى ذلك التاريخ.

وما زال هذا الجزء من أَفغانستان، المتمرّد، الذي حصَّله ديوراند، يزعزع أغلاله حتى اليوم وعندما يخوض البشتون القتال في أَفغانستان، البلد المجاور، لصالح الطالبان أَو ضدهم، يشعر البشتون الذين يعيشون في باكستان، وهم رجال يحملون جوازات سفر باكستانية، أنهم مدعوّون للدفاع عن وطنهم، وتقاليده ووحدته الإِقليمية. فقد عبروا الحدود الباكستانية بالآلاف منذ عام 1979 ليقاتلوا السوڤييت إِلىٰ جانب المجاهدين. وفي عام 1996 فعلوا ذلك من جديد ليقاتلوا إِلىٰ جانب الطالبان، أشقائهم القبليين

البشتونيين، في وجه تحالف الشمال من الطاجيك والأوزبك والهازارا. وظلَّت باكستان زمناً طويلاً تعتقد أنّها توجه الرياح تبعاً لما تشتهيه سفنها. وكانت تأمل أَن تكسب صداقة نظام الحكم الجديد في كابول، وتدفع عن نفسها خطر أَرض غير مستخلصة حيناً من الزمن عن طريق أخوَّة السلاح غير الرسمية هذه، ولاحظت بعد فوات الأوان، أَن نظام الحكم هذا الذي لا سبيل إِلىٰ الإِمساك بزمامه، في جوعه إِلىٰ السلطة، ومطامحه التوسعية التبشيرية، لم يكن يتوقف عند الحدود الباكستانية أيضاً، ويمارس سياسة الأراضي غير المحرَّرة من نوع مختلف كل الاختلاف، ويصدر تراثه الفكريّ الخطير إِلىٰ الشرق، إِلىٰ المساجد والمدارس الشرعية (معاهد القرآن) في باكستان. وتكشف اليوم صور التلفاز لباكستانيين متظاهرين، عن السرعة التي نبتت بها بذرة «التحويل الطالباني».

وبالقدر ذاته من المثابرة والحزم، استأنف الاتحاد السوڤياتي سياسة المجال الكبير الاستعمارية التي اتبعتها القياصرة. ومثلما وَسَّع ألكسندر الثاني مملكته، في نهاية القرن التاسع عشر، حتى المحيط الهادىء، وأسَّس مدينة فلاديفوستوك لتكون حصناً من حصون القوة الروسية في شرقيّ إِمبراطوريته، حاول ستالين، ومن بعده بريجنيف، أَن يتقدّما، عبر آسيا الوسطى إِلىٰ المحيط الهندي. وكانت أَفغانستان تمثّل في مجال تنفيذ هذه المخططات الاستراتيجية خطوة مرحلية هامة، وقد يثور جدال حول مسألة هل

كان بريجنيف يستبق توسعاً أمريكياً في شبه القارة الهندية ـ كما تظل تفيد ذلك حتى اليوم الرواية الروسية من وجوه عديدة، أم كان يريد، في إِطار سياسة للمجال الكبير لا تلوي علىٰ شيء، أَن يجعل من أَفغانستان، الجمهورية السوڤييتية السادسة عشرة، كما يزعم ذلك الغرب. وعلىٰ كل حال فقد أحدث التخريب الشيوعي الذي طال سنين، في كابول سلسلة من ردود الفعل المرتبطة بالانهيار السياسي. ففي البداية أُسْقِط الملك ظاهر شاه (1973) الذي كان يحاول المحافظة علىٰ التوازن بين الشرق والغرب، ثم قُتِل الرئيس الأَفغاني الوطني الأخير، داود (1978)، وأخيراً، وبعد أَن كانت القوات السوڤييتية قد عبرت نهر آموداريا أمام أعين الرأي العام العالمي المتجمدة من الفزع، في عيد الميلاد عام 1970، أُنشئت في كابول أشكال من حكم الطغيان قصيرة العمر سرعان ما قضت عليها فظاظتها هي، من جديد.

ذلك لأن الاستعمار السوڤييتي المتأخّر كُتِبَ في ظله، هو أيضاً، مجرد فصل جديد من فصول تاريخ أَفغانستان الحافل بالخصومات والأعمال المثيرة للفزع، ولم تتمكّن يد موسكو القاسية من فرض الهدوء في جبال هندوكوش. أمّا الرئيس الماركسي الأول، نور محمَّد الرئيس حفيظ الله أمين، الذي دعا السوڤييت بعد ذلك، بالفعل، إِلىٰ دخول البلاد، وقُتل أيضاً بعد يومين من دخولهم، ثم تلاه بابراك كارمال الذي بات، بعد ست سنوات، مكروهاً في بلاده هو إِلىٰ حد اضطر عنده بريجنيف إِلىٰ

استدعائه إلىٰ المنفى في موسكو. وأخيراً تولى نجيب الله منصب رئيس الدولة الأَفغاني. وكان ذلك في أيار عام 1986، ولم يستغرق ذلك ثلاث سنوات، وإِذا نجيب الله يضحَّى به كما يُضحَّى بصنّاجة في كفة ميزان من أجل التوازن الجديد بين الشرق والغرب. وفي شباط 1989 انسحبت القوات السوڤييتية وخلَّفت وراءها المَحْمِيَّ بغير حماية. وصمد نجيب الله لزحف المجاهدين العاصف، إلىٰ أَن أُرغم علىٰ الاستقالة والهرب. وفي السَّابع والعشرين من أيلول 1996 قُتل علىٰ يد الطالبان بعد أربع سنوات في المنفى علىٰ أَرض تابعة لهيئة الأُمم المتحدة، خلال اضطرابات غزو كابول من قِبل الطالبان، وهي جريمة حدثت في أيام وساطتي من أجل السَّلام.

وكان هؤلاء الحكّام الماركسيّون يتصرّفون بتكليف من موسكو، ويرتبطون في السرّاء والضراء بالاتحاد السوڤييتي، ومع ذلك فقد ظلوا من البشتون والوطنيين، ولم يقدموا ما كان تبقّى من سيادة أَفغانستان بصورة كاملة للاتحاد السوڤييتي. ولم تصبح البلاد أبداً، بالفعل، تلك الجمهورية السوڤييتية السادسة عشرة، التي أرادها بريجنيف ذات مرة، بل علىٰ النقيض من ذلك: إِذْ تحوَّلت أَفغانستان إلىٰ ڤيتنام السوڤييت. أما الجيش الأحمر فقد انسحب عام 1989، مهيض الجناح، من جبال هندوكوش. وآتت أُكُلَها إِرادة الحرية عند الأَفغان، وسياسة الدَحْر الأمريكية التي تساندها باكستان، والاحتجاج من قبل رأي عام عالمي يزداد انتقاده

لموسكو علىٰ نحو مطّرد. وبالطبع فإن ما كان يعني واشنطن ليس حرية الأَفغان ـ وكان الاعتقاد بهذا خطأً مؤلماً بالنسبة لكثير من الأَفغان ـ بل كان يعنيها إِغلاق الثقب في السد بالرِّتاج، وهو الثقب الذي نجم في نهاية عام 1979، بزحف السوفييت.

أمّا ما حدث بعد ذلك، حتى الماضي القريب في جبال هندوكوش، وأوَّله الحرب غير المعلنة بين كلتا الدولتين العظميين خلال الثمانينات، ثم الحرب الأهلية المفترضة، فلم يكن شيئاً آخر سوى استئناف «اللعبة الكبرى» التي ظلَّت كلتا الدولتين العظميين تشيعانها علىٰ مدى مائة عام، من قبل. وما من شك في أَن الحرب الأهلية في التسعينات إِنما نجمت عن خصومات عرقية وشخصية، من جراء الصراع علىٰ السيادة بين القبائل التي يفترض أنّها قوية، علىٰ القبائل الضعيفة. ولكنها كانت حرباً بين وكلاء عن دول أجنبية، وانحلّت تحالفاتها متحوِّلة إِلىٰ النماذج المعروفة في الماضي. وعاد الشمال يقف ضد الجنوب، علىٰ الرغم من أَن «الجناح الهندي» كان قد انقسم. ومرّة أُخرى بات في أَفغانستان تحالف مُغْرِض، روسي ـ إِيرانيّ ـ هندي في مواجهة المصالح الأمريكية الباكستانية، في حرب غير معلنة.

علىٰ أَن الثوابت التاريخية ظلت تعيش بعد الاختراقات التي عَرَضت للثورة العالمية بعد الحرب العالمية الأولى وبعد التحرير من الاستعمار الذي تم بعد الحرب العالمية الثانية، وظلت المصالح المرتبطة بالمجال الكبير للدول هي ذاتها، وستظل كذلك

أيضاً في حالة التنظيم الجديد لأَفغانستان المستقبل. ولا ينبغي لهذا أَن يظل خارج إِطار الملاحظة مع وجود الأحداث الدرامية التي نحن شهود عيانها في الوقت الحاضر.

obeikandl.com

obeikandl.com

2

الوضع المتعلّق بنهاية الحرب

عندما توليت، في مستهل التسعينات إِدارة قسم جنوب آسيا في وزارة الخارجيَّة، وشرعت في الاشتغال بأفغانستان، كان الوضع في جبال هندوكوش قد استقر على ما يبدو. وفي 14 نيسان 1988 كانت اتفاقية جنيف حول انسحاب القوات السوفييتية قد تمّ التوقيع عليها. وكان أواخر جنود الغزو قد غادروا أَفغانستان في 15 شباط 1989، وكان الرئيس نجيب الله المعيَّن من قبل موسكو ما زال في السلطة في كابول، ولكن سلطته تداعت. وكان الدعم بالتزويد والإِمداد الذي كانت تتولاه موسكو من أجله لا يكفي لتثبيت دعائم نظام حكمه علىٰ نحو دائم، وكانت مسألة انهيار حكمه مسألة وقت فحسب، وتنمحي بانصرافه آثار تجربة فوضوية لاستعمار سوڤييتي متأخر.

وفي تلك الأيام كان رجال السياسة ذوو الأهمية يوجهون نداءات إِلىٰ نجيب الله لكي يستقيل من أجل السلام، وكنت إِذا

obeikandl.com

تصفَّحت برقيات السفارة الألمانية في إِسلام آباد التي تتحدث عن أمثال هذه المبادرات تَوَلَّتني الدهشة، المرة بعد الأُخرى، من ذلك الأدب الجمّ البالغ الذي كان الدكتاتور الذي يخاف منه شعبه أيّما خوف، والذي ما عاد يطلب منه أكثر، ولا أقل، من أَن يخلي كرسيه، يجيب به عن النداءات. وفي مستهل التسعينات كانت بين ڤيللي براندت ونجيب الله تلك المراسلات التي كان قد استهلّها سياسي الحزب الاشتراكي الألماني (SPD)، فيشينييفسكي. وأكَّد نجيب الله لحامل جائزة نوبل للسلام، في رسالة جوابية مستعذبة، أَنَّه مستعد للتخلي عن منصب رئيس الدولة من دون مماطلة ما لم ينشأ من جراء ذلك فراغ في السلطة، ويترتب علىٰ أَفغانستان أَن تنساق إِلىٰ الهاوية.

ولم يكن للرسائل مفعول يمكن تمييزه بالطبع. ولم تؤدِّ حتى إِلىٰ تهدئة نظام الإِرهاب الذي كان نجيب الله وزبانيته قد أنشأوه، ومع ذلك فقد أَلِف لرأي العام العالمي الفكرة التي توجب أَن لا يرى المرء في البشتوني سوى مجرد رئيس إِلىٰ أجل. وفي عام 1991 شارك نجيب الله في مؤتمر عالمي حول المعونة الخاصة بالتنمية في باريس، وكان هذا ظهوره الأخير علىٰ المسرح الدولي. علىٰ أَن ظهوره لم يثر احتجاجاً من قبل سائر المشاركين في المؤتمر فحسب، ولا سيما من قبل المضيف، الرئيس ميتران، بل كاد يثير مزيداً من الانزعاج. إِذ كان يحدث أثراً كما لو كان جثة سياسيّ ما زال علىٰ قيد الحياة، وبعد نهاية نجيب الله التي

obeikandl.com

يمكن التنبؤ بها، كما كانوا يأملون في الغرب، كان المجاهدون خليقين أَن يقيموا نظام حكم ديمقراطي يحترم حقوق الإِنسان. ذلك لأن المقاتلين الأَفغان في سبيل الحرية، الذين ظلوا عشر سنين يرغمون أنف الغازي السوڤييتي، كان يتمتعون في الغرب باحترام كبير. لقد حدَّثني الرئيس اللاحق رباني فيما بعد، ذات مرة، بلهجة لا تخلو من المرارة، أَن المستشار الاتحادي كول قطع، حتى مناقشة في مجلس النواب أثناء زيارة سابقة له لبون، لكي يستقبله. وقال إِن هذا كان أثناء الجهاد، وكان رباني يتمتع بسمعة عالية في العواصم الغربية. أمّا الآن، وقد انسحب السوڤييت، فما عادت ترتفع في بون يد وزير لتحييه.

وإِذاً فعلىٰ الرغم من أنّه لم يكن هناك في مستهل التسعينات مفهوم جدّي للسلام عند المجاهدين كان يسود في العواصم الغربية التي وجدت نفسها في مواجهة مع المسرحية المثيرة للدهشة، مسرحية الاتحاد السوڤييتي وهو ينهار، كانت ترى، من وجوه متعدِّدة، التوقُّع الذي يلازم صحوة الموت، وهو توقعها أَن يعود السَّلام إِلىٰ أَفغانستان بانتصار المقاتلين من أجل الحرية علىٰ نجيب الله.

والفرنسيون يعرفون المثل القائل: «ما من شيء يدوم كالحل المؤقت»، وكذلك لبث حكم نجيب الله، مع التحفّظ المذكور، الخاص بالاستقالة المعقّدة بالاشتراطات، يجرِّر ذيوله بعد انسحاب السوڤييت، ثلاث سنوات أُخرى. وكان يحكم مملكة من

العالم الآخر، ففي العاصمة كان نظام الحكم القائم علىٰ التخويف وإِثارة الفزع من قِبل مخابراته، الخاد (KHAD) (خدمات أَمْنيّاتي دولتي) (وهي دائرة الأمن الوطني) مُهاب الجانب. وكان ثمةَ بعضٌ من مدن الأقاليم ما زال رازحاً تحت سيطرته، ولكن علىٰ بُعد كيلومترات قلائل من كابول كان يكمن المقاتلون في سبيل الحرية علىٰ قمم الجبال، ويظهرون بنيران صواريخهم اليوميَّة أنهم أسياد البلاد الحقيقيّون وكانت قد تشكَّلت في العاصمة الإِقليمية الباكستانية، بيشاور، حكومة منفى أَفغانية، وهي تمثِّل تحالفاً من المجموعات السنية السبع الأكثر أهمية، برئاسة العلاّمة مجدِّدي ذي النفوذ الضئيل. وتشكل ائتلاف مماثل من قادة الأحزاب الشيعيَّة في مدينة مشهد الإِيرانية. وكانت المطامح الهادفة إِلىٰ توجيه المجموعتين لتشكيل حكومة مصالحة وطنية، تجري علىٰ طريق حسن ممهَّد. وحين انتهى الأمر في مستهل عام 1992، إِلىٰ شقاق بين نجيب الله، وأقوى قواده، الأوزبكي رشيد دستم، وسحب هذا مساندته للرئيس الشيوعي، انهار نظام حكمه خلال أيام، وتولى السلطة المجاهدون الزاحفون، وانتقلت حكومة المنفى من بيشاور إِلىٰ كابول.

أمّا ما حدث في الساعات الأخيرة قبل استقالة نجيب الله فلم أتمكن من متابعتها بالمطالعة في أوراق البعثة الخاصة التابعة لهيئة الأُمم المتحدة التي لا ريب في أنّها لعبت في تلك الأَيام دوراً هاماً. ومن الثابت بالطبع أن المفوض الخاص المبعوث من قِبل

هيئة الأُمم المتحدة، وهو القبرصي بينون سيڤان، تمكن من إِقناع نجيب الله، بالتقليل من مقاومته للمجاهدين، ومغادرة البلاد بغير قتال، وبات نجيب الله بعد ذلك مستعداً بصورة نهائية للرحيل بشرط ضمان خروجه دونما عائق إِلىٰ الهند. ولكن محاولته مغادرة كابول علىٰ ظهر طائرة تابعة للأُمم المتحدة، أخفقت. وعُرِف الرئيس المجرد من السلطة في المطار، ورُدَّ من قِبل الحرس، ولمّا كان سافان يشعر أَنَّه ملتزم تجاه نجيب الله شخصياً بناءً علىٰ الضمان المتقدم، وكان الأمين العام للأُمم المتحدة، بطرس غالي يمثِّل وجهة النظر القائلة إِن الرئيس الذي أُطيح به قد أسهم عن طريق استقالته بغير قتال، إِسهاماً جوهرياً في انتقال السلطة بطريق سلمي، فقد أتيح لهذا، في غمرة حُمَّى الأحداث، ربما بأسلوب مرتجل إِلىٰ حد ما، منفى في مبنى عائد للأُمم المتحدة كان يفترض أَن يتيح له الحماية طوال أربع سنوات، إِلىٰ حين قتله علىٰ يد الطالبان عام 1996. وفي هذه الڤيلا المتداعية التي كانت تعود فيما سلف إِلىٰ الرئيس داود، قمت بزيارة نجيب الله مراراً بحكم كوني ممثلاً لهيئة الأُمم المتحدة، وكان آخر هذه الزيارات قبل موته بأسبوع. وأضافت إِلىٰ ذلك سخرية التاريخ أَن نجيب الله سكن في المنزل الذي كان يفترض أَن يتم فيه إِيواء مكتبي أنا في الحقيقة.

ولم يتضح في الغرب إِلاَّ علىٰ نحو تدريجيّ أَن النزاع الأَفغاني لم يتَوَصَّل إِلىٰ حلّه بانتصار المجاهدين علىٰ النظام

obeikandl.com

الشيوعي، إذ نشأ فراغ فكريّ. وكان الاستقرار الظاهري في الوضع السياسيّ يرتكز على قرار خاطئ مؤداه أَن مشكلات أَفغانستان إنما نجمت في جوهرها عن عوامل أجنبية، وسرعان ما تبيّن أَن الممثلين، والأزياء، والحوارات، وأمراء الحرب، وبزّاتهم الرسمية، وحلولهم، تبدَّلت منذ عام 1989، ومع ذلك ظلت اللعبة هي ذاتها. وكل ما حدث بعد سقوط نجيب الله أَن النزاع غيَّر اتجاه صِدامه، وارتدّ من الخارج إِلىٰ الداخل، وانفجر انفجاراً داخلياً، وتبدَّل من مواجهة مع الغزاة الأجانب إِلىٰ حرب أهلية، إِذْ سرعان ما أفسح الاتفاق الظاهري الذي شكَّلت بموجبه أحزاب المقاومة، الحكومة الأَفغانية المؤقتة، المجال لصراع علىٰ السيطرة يتسم بالغيرة. وكان يتم تغيير تشكيلة التحالفات، وصور الأعداء بالخَضْخَضة مثلما يحدث في المِشْكال (Kaleidoscope)، وتحوَّلت العاصمة قبل كل شيء إِلىٰ مسرح لصراعات الأحزاب الدموية، وباتت الطرقات في الأَرض التي لا تعود إِلىٰ أحد تشكِّل حدود الدولة. وهناك بعض المجموعات التي تنتمي اليوم إِلىٰ تحالف الشمال كانت تقتتل في تلك الأيام اقتتالاً مريراً، في أضيق المجالات.

وحتى خارج كابول كانت قد تشكَّلت بعد عزل نجيب الله مراكز قوى مختلفة. وبينما شكّل في العاصمة برهان‌الدين رباني الذي ينتمي إِلىٰ قبيلة طاجيكية، والذي يدعمه رجله القوي، القائد أحمد شاه مسعود، وبعض الجماعات المتشظية، من سنية

وشيعية، حكومة ذات أغلبية طاجيكيَّة، أسَّس الأوزبكي دوستم، في الإِقليم الشمالي الغربي، مزار الشريف، دويلة مستقلَّة، وكذلك أسَّس الشيعي، قائد الهزارا، كريم خليلي، في إِقليم باميان في وسط أَفغانستان، دويلته، وفعل مثله حاكم نانجارهار، حاجي عبد القادر، في المنطقة التي يُقال إِنها «محايدة»، والمؤلفة من أقاليم أَفغانستان الغربية الثلاثة: نانجارهار، وكونار، ولاغمان، وتحطَّمت وحدة دولة أَفغانستان.

وأضيف إِلىٰ ذلك أَن قادة محليين ذوي عدد جمّ ظلوا هناك، ومنهم زعماء قبليون وزعماء مقاومة شعبية، أنشؤوا مناطق فرعية بحكم حقّهم الخاص، وجعلوا حياة السكَّان لا تطاق من جراء نظام الرشوة ورفع مبالغ الضرائب بطريقة تعسفيَّة، وفي المدينة الملكية القديمة، قندهار، التي يذكِّر فيها مسجد الضريح بمؤسِّس أَفغانستان الحديثة وموحِّدها الملك أحمد شاه دُرّاني، توجد في عام 1994 أربعة مناطق نفوذ متباينة ينفصل بعضها عن بعض بحدود ونقاط تفتيش. وكانت قندهار قد تحوَّلت إِلىٰ مدينة ذات أربعة قطاعات. ولم يكن من قبيل المصادفة أَن حركة الطالبان نشأت عام 1994 في هذه المدينة، وجرفت قادة الفساد في عملية عفوية واحدة. وشعر سكَّان قندهار بالحكم الجديد الذي يحكمهم أَنَّه ينطوي علىٰ باعث للارتياح ورحَّبوا بعودة الشريعة الإِسلامية والنظام الإِسلامي أول الأَمر مع الامتنان. أمّا أَن باكستان كان لها ضلع في العملية، بل كانت تمهِّد لها منذ عهد بعيد، فذلك أمر لم يكن له خطر بالقياس إِلىٰ هؤلاء البشر.

وكما يحدث علىٰ الدوام تقريباً في مسار التاريخ الأَفغاني كانت دولة مركزية ضعيفة، حتى بعد سقوط نجيب الله، ونظام أقاليم قويّ يقف كلٌ منهما في مواجهة الآخر وقفة لا تقبل مصالحة. وكان التماسك الوطني ينوء تحت عبء التعدد العرقي والديني. وكانت التبعية لعشيرة معينة تبدو لمعظم الأَفغان، علىٰ الدوام أهمَّ من الانتماء إِلىٰ الأمة. ولم يكن ثمة عرق قوي بما يكفي ليفرض سيادته علىٰ سائر الباقين. والحق أَن البشتون يعدون شعب الأكثرية، والحملة الشرعيون لادعاء الحق في السيادة، وبالفعل كان الملوك الأَفغان، علىٰ وجه العموم من البشتون، ومع ذلك فقد كان البشتون علىٰ وجه الخصوص هم الذين دفعوا في الحرب ضد السوڤييت ضريبة دم عالية، أَو هربوا إِلىٰ الخارج بسبب الاضطهاد السياسي. وعندما اتحد الآن كل من عدا البشتون جاؤوا بقوى تعدل في كثرتها البشتون الباقين. علىٰ أَن تحالف الأقليات العرقية، من الطاجيك والأوزبك والهزارا ليس من الأمور البعيدة عن التصوُّر. وحتى في هيئة الأمم المتحدة كنا نعبث بفكرة اختبار نظام العلاَّمة برهان الدين رباني من ناحية إِمكانية إِثقال كاهله، وكنا نريد أَن نعطيه الفرصة لكي يخدم بصفة نقطة بَلْوَرة في حكومة للمصالحة الوطنية. وبأمر المسير هذا شرعت في مهمتي.

علىٰ أَن الخصومات التقليدية داخل المجموعات كانت تحول دون بقاء التحالفات الدائمة التي كانت تمسُّ الحاجة إِليها من أجل مثل هذه الحكومة، وكان يجري الإِحساس بنظام رباني من قبل

السكّان، علىٰ الرغم من إدخال بعض الممثلين لأعراق أُخرى، لا علىٰ أنها حكومة الأفغان، بل علىٰ أنها حكومة الطاجيك، وذلك أَن البشتون، وكذلك الأوزبك، أَو الهزارا أَو البولاجيين، لم يكونوا يرون أنفسهم ممثّلين فيها، ولم يكونوا يعترفون بها قيادة لهم.

وحاول ربّاني أَن يتجاوز هذا النقص في المشروعية، فبعد سقوط نجيب الله الذي طال اشتياق الناس إِليه، رَحَّب المجتمع الدولي بتولي المجاهدين للسلطة ترحيباً مصحوباً بالنشوة، وفي ظل ذلك الرجل الذي كان استقال من منصبه قبل عشرة أعوام عند الغارة السوفييتية، بعد ذلك، مدة أيام قلائل ليصبح رئيساً لوزراء تحالف الشمال، قبل أَن قضي نحبه في حادث طائرة، وكان قد خلَّف أصدقاءً له في ألمانيا علىٰ وجه الخصوص.

أمّا ما انتهى إِليه أمر حكومة ربّاني منذ عام 1992، وهل تستطيع في المستقبل أَن تلعب دوراً من جديد، فذلك ما سيُصار إِلىٰ تفصيل القول فيه في موضع آخر. وكل ما نلاحظه هنا أَن ربّاني قد أتيح له في الحقيقة، أَن يظل من حقه حتى اليوم بصفته الممثل الوحيد المعترف به، لبلاده في الجمعية العمومية للأُمم المتحدة، أَن يدعي لنفسه الحق في مقعد بلاده هناك وفي صوتها. ومع ذلك فإِن الحكم الدائم لهذا الرئيس الذي ما عاد مبرَّراً منذ عهد بعيد، يبدو مثل صرامة الطالبان أيضاً، مفارقة تاريخية، إِذ يمسك بزمام البلاد كما يمسك المرء بشيء بين فَكَّيْ ملزمة أَو

obeikandi.com

كمّاشة، ويحول دون إمكانية إعادة توحيدها سلمياً في إطار المجتمع الدولي.

وبالنظر إلىٰ أحداث الحاضر المحمومة المشوبة بالقلق، قد تبدو النظرة إلىٰ الوراء، إلىٰ ما حدث قبل أربع سنوات أَو خمس في كابول، مجانباً لروح العصر. وفي عناوين الصحف التي تفيض علينا في كل يوم، دخل اسم أحمد شاه مسعود في طور النسيان، ومع ذلك فإن موته لا يرجع إلىٰ أكثر من شهرين، وخلال الكفاح الذي دام عشر سنين ضد السوفييت، كان يُشاد بهذا القائد الطاجيكي من قبل جنده، وفي عالم الغرب، علىٰ أَنَّه «أسد وادي بنجير». ولكن في حالة النظرة الأدق تتضح الثوابت السياسية من خلال طوفان الصور الذي يُعَرِّضنا له التلفاز، ومن خلال الاستجابة الانفعالية من قبل الجمهور حيال المتغيرات اليومية في الحدث. وقد تمَّ أيضاً، قبل أربعة أعوام أَو خمسة، إدراك ما كان يخيف العالم، وهو المقدرة التدميرية عند رجل مثل أسامة بن لادن، أَو تطرف رجل كالملاّ عمر، وعاد معظم الممثلين في تلك الأيام يهيمنون اليوم علىٰ الحدث، مرة أُخرى. وما تغيَّر في الآونة الأخيرة ليس الموقف في أَفغانستان، بل ردّ فِعلنا حياله.

3

وأَبْدأُ بالأُمم المتحدة

أمّا أَن الأمين العام للأُمم المتحدة، بطرس غالي، عيَّنني في 29 حزيران 1996، رئيساً للبعثة الخاصة للأُمم المتحدة في أَفغانستان (United Nations Special Mission to Afghanistan) المسماة (UNSMA) فذلك ما لم يكن مفاجأة كبيرة إلاَّ لي أنا، وكنت خليقاً، قبل شهرين فحسب، أن أَعُدَّ هذه اللفتة شيئاً يخرج عن إطار كل تفكير معقول، وما كنت لأعمل، في وزارة الخارجيَّة خلال الثلاثينات أبداً في مجال الأُمم المتحدة، ولا أَن أضع مجرَّد قدم لي في «القصر الزجاجي على النهر الشرقي (إيست ريڤر)، وكان الزملاء الذين كانت لهم هناك قدم راسخة، يُعَدّون من الأنواع الخصوصية المتميِّزة التي تختلف عن الدبلوماسيين وسط الدبلوماسيين، وكانوا يزعمون، في شيء من النظرة الفوقية، أَن السياسة العالمية الفعلية لا تمارس إلاَّ في مقر الأُمم المتحدة، ويقولون إن خيوط المصالح العالمية لا يواكب بعضُها بعضاً إلاَّ

obeikandl.com

هناك، حيث يتم الفراغ من التفاوض علىٰ الاتفاقيات التي يفترض أَن تغير وجه الأرض، وهي أعمال تعاقدية ما كان «الثنائيون» أَو أصحاب الجانبين (Bilateralist)، الذين كنت أنا واحداً منهم، ليجرؤوا علىٰ أَن يحلموا بها. وكنا نحن الآخرين نلتزم بالصمت، كأننا معشر خُرْسٌ إِذا ما تحدث هؤلاء الزملاء باسترخاء عن التصويت في الجمعية العمومية، أَو عن الأعمال التحريرية في اللجنة الثالثة، أَو عن المناقشات في لجنة أوراق الاعتماد، أَو عن لجنة التصديق في الأُمم المتحدة. وكانوا في الظاهر متمكنين من عِلْمٍ سري يتناول أَخَصَّ المصالح في عالم الدول. كانوا يمارسون السيمياء السياسية البحتة.

أمّا أنني تجاوزت، أنا، نفسي، ذات يوم، العتبة التي تفضي لأن أغدو مجرد عالم خبير، بل عضواً في المنظمة الجليلة، فقد كنت خليقاً أَن أَعُدَّ ذلك، بناءً علىٰ هذا مطلقاً، شيئاً ينتمي إِلىٰ عالم المستحيل.

وكان وزير الخارجيَّة التونسية محمد المستيري، قد تفاوض قبلي في أَفغانستان، بتكليف من الأُمم المتحدة، وكان قد أبلغ الأمين العام، في منتصف مارس 1996، إِذ خاب أمله بعد الكثير من حالات الإِخفاق، أَنَّه يعتزم التنحّي، ويقول «سياسيٌّ» إِن بطرس غالي كان يريد الآن أَن يختبر «خبيراً»، ولما كنت قد لبثت، منذ أيلول 1990، أدير قسم جنوب آسيا في وزارة الخارجيَّة، وارتحلت مراراً إِلىٰ أَفغانستان، وكنت في أثناء ذلك

obeikandi.com

قد تعرفت علىٰ سلسلة من السياسيين الأَفغان، بينهم الرئيس ربّاني، ووزير دفاعه، مسعود، فقد تقبلت ترشيحي بمودة، وما من شك في أَنَّه قد لعب في ذلك دوراً ما حقيقةُ أنني ألماني، وكانت ألمانيا تتمتع، عند معظم الأَفغان بسمعة عالية، علىٰ مر الزمن في تاريخ أفغانستان الحديث، موضوعاً يهمّ القوى الأجنبية، وكانت ألمانيا تعدُّ صديقاً بعيداً عن المنفعة الخاصة، وبالإِنطلاق من هذا الحكم الودي، الذي ربما كان حكماً مسبقاً، جنيت فائدة علىٰ الأرجح.

وفي نهاية نيسان 1996 رحلت بالطائرة إِلىٰ نيويورك، لأقدم نفسي لأهمّ مستشار سياسيّ للأمين العام، إِلىٰ مساعد الأمين العام للشؤون السياسيَّة، مارّاك جولدنغ، وهو بريطاني، وتبيَّن من خلال الحوار أننا درسنا معاً في مدرسة اللغات ذاتها في القرية الجبلية اللبنانية ذاتها، شملان، اللغة العربية، وبذلك بتنا ننتمي إِلىٰ المذهب السري، الشملانية. وقرَّب هذا بيننا. وفي الرابع والعشرين من أيار استقبلني الأمين العام، وبعد ذلك بأربعة أيام أعلن استقالة المستيري، وبعد بعض اعتراضات من قبل الروس والأمريكيين الذين شكوا من أنهم لم يستشاروا قبل تعيين، وقدموا احتجاجاً ملطّفاً علىٰ تصرّف الأمين العام «الاستبدادي»، عُيِّنتُ، في 29 حزيران 1996 رئيساً للمهمة الخاصة، بدرجة أمين عام مساعد، وهي مهنة مستحسنة بالقياس إِلىٰ رئيس قسم في بون.

پەملگروملتوکنی دافغانستان
داسلامی دولت دایمی نمایندگی

نمایندگی دایمی
دولت اسلامی افغانستان
در سازمان ملل متحد

PERMANENT MISSION OF THE
ISLAMIC STATE OF AFGHANISTAN
TO THE UNITED NATIONS

360 LEXINGTON AVENUE
11TH FLOOR
NEW YORK, NY 10017

TEL: (212) 972-1212
FAX: (212) 972-1216

TRANSLATION

Islamic State of Afghanistan
Office of the President

Excellency,

Let me express my most sincere greetings to Your Excellency and my warm thanks for your letter of May 24, 1996 informing me about the resignation of Ambassador Mahmoud Mestiri for health reasons and the appointment of Ambassador, Dr. Norbert Heinrich Holl as the Special Representative of the Secretary General and Head of Special Mission of the United Nations to Afghanistan.

I am very thankful to Your Excellency for your serious and continuous attention to the question of peace process in Afghanistan.

Ambassador Dr. Holl is well known to myself and to the high officials of the Afghan Ministry for Foreign Affairs. We highly appreciate his great interest in the different aspects of the peace process in Afghanistan.

We assure Your Excellency that Ambassador Dr. Holl can count, with great confidence, on our full cooperation in his significant assignment as your Special Representative and the Head of the United Nations Special Mission to Afghanistan.

We appreciate the long efforts deployed by Ambassador Mestiri to whom we always provided cooperation and concurrence for the success of his mandate.

I would like to express, Mr. Secretary General, my best wishes for your success in your consequential endeavors for peace and welfare of humanity.

Please accept, Excellency, the assurances of my highest consideration,.

(Signed)
Burhân-ud-din Rabbâni
President

Kabul, June 5, 1996.

H.E. Dr. Boutros Boutros Ghali
Secretary General
United Nations, New York.

رسالة الرئيس رباني إلى الأمين العام للأُمم المتحدة بطرس غالي، في السادس من حزيران 1996 بصدد تعييني مفوَّضاً خاصاً.

obeikandi.com

وكان المستيري يمارس مفاوضاته برحلات دورية في الإقليم، وظل مع ذلك مقيماً في تونس. أمّا في حالتي فقد كان من المفروض، بناء على رغبة الأمين العام، أن يتم التصرّف بطريقة أُخرى. كان عليّ أَن أتخذ لنفسي مقرّاً في أَفغانستان، وكان نقل مكتبي إِلى كابول خليقاً أَن يُفْهَمَ، بالطبع، من قبل الكثيرين من الأَفغان، على أَنَّه انحياز لمصلحة نظام رباني، ولذلك تم اختيار المدينة الأَفغانية الشرقية جلال آباد، عاصمة «المنطقة المحايدة»، التي كان يسيطر عليها حاجي عبد القادر، لتكون «جنيف أَفغانستان»، كما تمت صياغة هذا التعبير من قبلي في مؤتمر صحفي في وزارة الخارجيَّة بشيء من التسرُّع. ومن تُراه كان يدري أَن هذه المدينة غير ذات الشأن، والمهملة إِلى حد بعيد، والتي كانت لا يكاد أحد يسمع بها خارج أَفغانستان في أي يوم من الأيام، كان مقدَّراً لها أَن تصبح بعد خمسة أعوام هدف الهجمات الأمريكية بالصواريخ، وأن تبلغ درجة من شهرة عالمية باعثة للأسى!

وما هي إِلاّ أيام قلائل قضيتها في نيويورك، في جولات إِدارية، وإِذا انطباعات أخرى في انتظاري. إِذ كنت، في غُدُوّي ورَواحي أشهد، أنا، بلحمي ودمي أَنَّه يوجد، في هيئة الأُمم المتحدة أيضاً، أشكال من العجز التنظيمي أيضاً، كما يوجد الإِهمال والفوضى والقصور، وربما كان ما يزال في ذاكرتي، أَنَّه كان يوجد في تلك الأيام، ألمانيّ آخر، وهو رئيس قسم المراجعة

الداخلي في هيئة الأُمم المتحدة (مكتب خدمات المراجعة الداخليَّة)، وهو كارل تيودور باشكِه، الذي كان مكلفاً من قبل الجمعية العمومية بتسوية بعض أشكال الانحراف والتخلص من أشكال الشذوذ في الإِدارة المالية للأُمم المتحدة. ولمّا كنت معتاداً علىٰ نظام وزارة الخارجيَّة في بون فقد لفت نظري أَن هيئة الأُمم المتحدة التي تأتلف من كتلة من الموظفين القادمين من الكثير من دول الأرض، لم تكن تبلغ دائماً الدرجة الرفيعة من التكامل والتطابق الشخصيَّيْن مع الهدف السياسيّ الذي يتم إِقراره، وهو ما كان مألوفاً علىٰ وجه الإِطلاق في وزارة مشكَّلة من موظفين وطنيين.

وعندما اضطلعت بإِدارة الأونسما في تموز 1996، قرَّرْتُ أَنَّه كان ثمة نقص في الإِدارة في بعض الأمور ورأيت أَنَّه لا بدَّ من تداركه. ومثال ذلك أَنَّه لم يكن هناك نظام لرموز الملفات، يدار علىٰ الوجه الصحيح، ولا كان هناك تمييز بين الملفات «المكشوفة» و«السرية» و«المكتومة»، وكانت الرسائل الواردة والصادرة، والبرقيات، والتقارير الخطية والبرقية يتم إِدراجها في المجلدات حسب تسلسلها الزمني، من دون مراعاة لسياق الموضوع. وربما كانت الذاكرة تقوم مقام سجل البطاقات غير الموجود، ولكن عندما كان المرء يبحث عن رسالة بعد أربعة أسابيع كانت الرسالة يتعذر العثور عليها في الأغلب. وفي أكثر الأحوال توفيقاً كان المرء ينتهي إِليها بعد تقليب يدوم ساعات،

ولذلك كان يستحيل عليَّ، مثلاً أن أرجع إِلىٰ ملاحظات حول مفاوضاتٍ لأسلافي، إِذ كانت تختفي اختفاءً يتعذر معها الإِتيان بها مرة أُخرى، وكأنَّ مساعي السَّلام في تلك الأيام كانت تجري في كوكب آخر.

وربما لم يكن لأمثال هذه التأملات تأثير علىٰ القارئ القليل الاطلاع علىٰ مسائل الإِدارة ولعله يحسب أَنَّه كان يفترض فيَّ، بحكم كوني مفاوِضاً في بلد يعاني من حرب أهلية، أَن تكون في ذهني أمور أكثر أهمية من رموز السجلاّت. ولكن مَنْ عَمِلَ في منظمة كبرى، أَو وزارة، أَو مؤسسة تجارية، فسوف يفهم أَن المسألة لها صلة وثيقة الآن أيضاً بوسائل مساعدة دقيقة، مثل قسم السجلات ورموز الأضبير. ولكي يُصار إِلىٰ إِدخال شيء من النظام علىٰ هذا العَماء، رأيت نفسي مضطراً إِلىٰ ابتداع نظام لرموز الملفات بنفسي، بمعونة مستشاري الفرنسي. وأبلغت نيويورك بذلك، ولم يعترض أحد. وانتهى هذا بي إِلىٰ استنتاج مؤداه أَنَّه لم يسبق حتى الآن بالفعل وجود نظام داخليّ للملفات في هيئة الأمين العام، كان في وسعي، بمنجزاتي أَن أدخل فيه الإِرْباك والاختلاط. وكان الأمر يحتاج بالطبع إِلىٰ جهود كبيرة لإِقناع أعضاء الأونسما الذين كانوا حتى الآن قد اعتادوا التعامل اللامبالي مع الأوراق، بجدوى الإِجراء الجديد. وأنا لا أستطيع أيضاً أَن أزعم أنه قد أتيح لي أَن أعيد تربية هؤلاء العاملين السياسيين معي، من ذوي التأهيل العالي، بحيث يتحوَّلون إِلىٰ فتيان إِداريين

أنموذجيين. ومع ذلك فقد بدا لي، حيناً من الزمن أَن الظلمة أخذت تنقشع بعض الشيء في قسم السجلات، قبل أَن ينبثق فجر جديد من قِبَل الآلة فوق ملفاتنا.

وحين أثنيت، في اليوم الأول من تعيين، بحماسة القادم الجديد غولدنغ، رئيس القسم السياسي في هيئة الأُمم المتحدة التي سيترتب عليَّ أن أعمل معه في المستقبل، علىٰ تأهيل العاملين معه، وعلىٰ ما ينطوي عليه عملهم من ضمير حيّ، رفع البريطاني المتمرس يديه ساخراً، وقال لي ناصحاً إِن هناك شيء أهم من بيروقراطية الأُمم المتحدة التي تئن من كل مفاصلها وعُراها.

وبعد أن قبلت، في تموز 1996، العمل في أَفغانستان، وبدأ الروتين اليومي، زايلتني الحماسة البدئية حول البُنى المعقَّدة لهيئة الأُمم المتحدة وآليّاتها المنسجمة بعضها مع بعض انسجاماً دقيقاً علىٰ ما يبدو، شيئاً فشيئاً. وبات من المفروض الآن أن أحسّ أنا أيضاً، عما قريب، بالإِحباط الذي يواكب بعثة السَّلام، ومعاناة العجز وإِمكانية التنبؤ بالإِخفاق. وفي صدد هذه المعاناة لعدم النجاح كان ما يعنيني بالطبع، ليس معالجة العجز الشخصي، بل التبصُّر المتنامي بمشكلة مبدئية من مشكلات الأُمم المتحدة تستحق تأمّلاً وجيزاً متروِّياً.

وإِذا صح الادعاء القائل إِن كل نزاع سياسيّ يكون قابلاً للحل إِذا تمّت تعبئة الوسائل الملائمة (وقد يستطيع المرء علىٰ الأرجح

أن يدعي النقيض، أيضاً، أي أن يقول إن كل نزاع هو في أعمق نواةٍ له غير قابل للحل، علىٰ الرغم من أكبر الجهود)، فإن ضروب النزاع التي ترجع مسؤولية التغلّب عليها علىٰ مر العقود من السنين، إلىٰ الأُمم المتحدة ـ وهذا يعني في الممارسة: إلىٰ الأمين العام وإلىٰ العاملين معه، هذه الألوان من النزاع تتميَّز بأنّه ما من قوة (أَو تحالف من القوى) هي علىٰ استعداد لتعبئة وسائلها الخاصّة من أجل إنهاء هذه الألوان من النزاع، وذلك لأسباب مختلفة. وفي حالة الموازنة بين كل المصالح كان من الواضح الجلي أن هذه الدول التي كانت تتوافر لديها وسائل القوة اللازمة من أجل فرض ألوان الحسم في أَفغانستان، وفي مقدمتها جميعاً الدول العظمى، كانت ترى في اللحظة التي مرّت في تلك الأيام أن الوضع الراهن، مهما يكن غيرَ مُرْضٍ يظل دائماً أكثر إمكانيةً للقبول و«إمكانية للاتفاق عليه دونما تكلفة» من تعبئة وسائل القوة القومية.

وفي هذا الصدد لم تكن المسألة تحتاج إلىٰ حدة نظر خصوصية ليتبيّن للمرء أنّه في حالة الموازنة بين المصالح إنما أُدْرجَت أيضاً تلك المصالح الواهية الصلة بالنزاع الحقيقي والوثيقة الصلة مع ذلك بآثاره غير المباشرة، علىٰ البلد الذي يُطَالَب بالتصرُّف. وحتى عندما تكون بلدان كثيرة في المعمورة مستعدة في اللحظة الراهنة لعقد تحالف ضد التهديد الإرهابي الذي ينطلق من أَفغانستان وأسامة بن لادن، يكون من الواضح بالقياس إلىٰ المراقب اليَقِظ

obeikandi.com

للحدث، بلا ريب، أن روسيا عندما تتحالف مع الولايات المتحدة ضد الطالبان لا تفكر في مجرد مصلحة أَفغانستان ومعاناة الشعب هناك، بل تفكر أيضاً بمشكلاتها الخاصة في بعض الأجزاء العائدة إليها والتي تسودها القلاقل في القوقاز، وكذلك تفكّر الهند، عندما تتخذ موقفاً معادياً من طالبان، بولايتها الاتحادية الشمالية، كشمير، التي يلقى متمردوها المساندة العسكرية من تلاميذ مدارس القرآن منذ سنين، ثم هل يعد من غير المعقول أن نتكهن بأن بريطانيا العظمى تضع نصب عينيها أيضاً الأحداث في إيرلندة الشمالية في حالة تصرّفها العسكري في أَفغانستان؟.

وعندما يطبق المرء أمثال هذه الأفكار علىٰ ألوان النزاع التي عهد بحلها إِلىٰ هيئة الأُمم المتحدة، فإِن هذه كلها تقريباً تتميّز بأنّها كانت قابلة للحل من دون تعبئة وسائل قوة فعلية. وأقاصيص النجاح القليلة، السعيدة، العائدة للأُمم المتحدة يمكن إِحصاؤها بسرعة علىٰ أصابع يد واحدة، وأقاصيص إِخفاقها كثيرة لا تحصى، ونيويورك هي المثل الأخير علىٰ الحالات الميؤوس منها، والإِخفاق، إِذا تحدثنا باللغة الساخرة، جزء من النظام ذاته، فعندما استقبلني في نيسان 1997 في دلهي الأمين العام كوفي عنان، وتحدّثت إِليه عن جهودي في أَفغانستان، قلت وأنا مفعم بالأمل، إِنه بالنظر إِلىٰ الشقاق بين الأحزاب المتحاربة تعد هيئة الأُمم المتحدة المرجع الوحيد الذي يتحدَّث إِليه كل الأَفغان، وقلت إِنها تملك احتكار الحوار ـ وردّ عنان قائلاً: «لا ريب في ذلك ولكنها تملك أيضاً احتكار الإِخفاق».

وقد كان نزاع البوسنة إِحدى تلك الحالات المرضية في السياسة العالمية التي دعيت لشفائها الأُمم المتحدة أَول الأمر، إِلىٰ مهجع المرضى، وما زلت أذكر، كيف كان المفاوض الياباني، أكاشي، يظهر إِلىٰ الاعتراف بإِخفاق مفاوضاته بعبارات تقليدية مهذَّبة. وفي تلك الأيام لم أكن أدري أنني لن ألقى الرجل المتعاطف فيما بعد إِلاَّ قليلاً، ومع ذلك فقد أحسست بنوع من التعاطف تجاه الدبلوماسيّ المثقف، المنطوي علىٰ نفسه الذي كان الاعتراف بالذنب كأنما كان مكتوباً علىٰ وجهه، وأن الأُمم المتحدة لا تستطيع أَن تنجز شيئاً في البوسنة ما لم تكن تحت تصرّفها وسائل الإِرغام المطلوبة. أما الدول الأوروبية والولايات المتحدة فقد تَرَكْنَ المنظمة العالمية وقتاً طويلاً تسلِّم بعجزها الظاهر للعيان، ولم يَغْدُ من الممكن تعبئة القوات، وفرض وقف سفك الدماء إِلاَّ عندما تجاوزت دول حلف الأطلسي موانعها الخاصة المرتبطة بالسياسة الداخليَّة وتغلّبت علىٰ هواجسها المرتبطة بالسياسسة الخارجيَّة. وحين تحدثت فيما بعد، في نيويورك، عن صعوباتي في أَفغانستان إِلىٰ أكاشي، لم تكن تحت تصرفه، هو أيضاً، وصفة مخترعة. وبدلاً من ذلك تحدث الدبلوماسي الحسّاس، من دون أَن يخلو حديثه من أفكار كامنة في الخلفية، عن «عزلة الوسيط». أمّا أمام أعين كاميرات التلفاز فهو يلاحق عمله، ويعيش وراء نوع من الجدار الزجاجي، تراه كل العيون، وهو مع ذلك في عالم غير ذي طائل، في إِخفاق يوميّ لجهوده لا يريد أحد أَن يشاطره إِياه، إِذ يوكَل إِلىٰ نفسه.

وكانت خيبات أمل مماثلة لتلك التي شهدها أكاشي في البوسنة، تنتظرني في أَفغانستان. وكان هذا معروفاً لديَّ بصورة مسبقة. وأنا أطرح علىٰ نفسي الآن، يوماً فيوماً، السؤال ذاته، وقد ناقشته مع المستشارين لديّ، وأوردت تأملات متشكّكة حوله في يومياتي، علىٰ الورق. ما هي وظيفة الأُمم المتحدة عندما تغدو بارعة في النزاعات غير القابلة للحل؟ وما هو دور العجز الشخصيّ في الإِخفاق السياسي؟ وما الشيء الذي كان مفاوض آخر، غيري، خليقاً أَن يبدأ به بداية أكثر براعةً مني؟ أم هل كان الإِخفاق، كما كان يزعم الساخرون، نتيجة للنظام؟ لقد تحادثت، خلال تلك الأسابيع الأولى التي كنت فيها أبحث عن تصوُّر أستطيع أَن أنطلق منه، مع نائب في مجلس النواب الألماني كان يقوم بجولة، وكان ينطوي علىٰ تفكير ودّي تجاهي، وقال يواسيني: «من حقك أَن تسمح لنفسك بكل شيء، وفي حالة عملك الصعب سوف يغفر الناس لك كل إِخفاق، ولكن هناك شيئاً واحداً لا يجوز لك أَن تسمح لنفسك به: لا يجوز لك أَن تهدف إِلىٰ ضروب نجاح، لأنك تجعل مصالح الأقوياء بذلك يتداخل بعضها في بعض».

هل السخرية البحتة، بالفعل، هي التي تضع هيئة الأُمم المتحدة في مواجهة مسائل غير قابلة للحل، أم أَن المسألة هي كما تكون في متوازي أضلاع القوى التي تتمثَّل وظيفتها في إِبقاء نزاع سياسي سابحاً في الهواء، وأن يقدم المرء إِليه ما يشبه أَن يكون

obeikandl.com

مكاناً في قاعة انتظار قبل عملية جراحية حاسمة؟ علىٰ أن اشتغال هيئة الأُمم المتحدة بنزاعٍ ما يسمح للدول الأعضاء فيها بتمهيد الأرض من أجل السلوكِ الخاص. أمّا أَن ننتظر من هيئة الأُمم المتحدة أكثر من هذا فذلك نفاق ما دامت وسائل القوة تُحْجَب عنها، وهي الوسائل التي ليست خليقةً أَن تُسَلَّم إِلىٰ مجلس الأمن، بل إِلىٰ الأمين العام للأُمم المتحدة، لقد اقترح كوفي عنان مراراً إِنشاء قوة تدخّل سريعة توضع تحت توجيهاته، ولكنه لم ينجح في مسعاه.

ومن خلال رفض الدول المجتمعة في مجلس الأمن الموافقة علىٰ إِصلاح ملائم لميثاق هيئة الأُمم المتحدة يتميّز الدافع إِلىٰ عدم وضع المسائل الأخيرة المتعلقة بالأمن القومي تحت إِشراف مرجع دولي. وهذا التناقض في المبادىء والقوانين، والتعارض بين الهدف المعلن للأُمم المتحدة، وهو الإِسهام في الحل السلمي لألوان النزاع من ناحية وإِرادة الدول الأعضاء في الأُمم المتحدة، تلك الإِرادة التي تهدف إِلىٰ إِبقاء هيئة الأُمم المتحدة ضعيفة، وعدم وضع الوسائل اللازمة لتأمين السَّلام تحت تصرفها إِلاَّ في حالة استثنائية ولأجل قصير فحسب، من ناحية أُخرى، أقول هذا التناقض لا تتحمّل مسؤوليته «دول الشر» فحسب كما يفيد الشعار المصمَّم من قبل أمريكا، بل تتحمّل مسؤوليته بالقدر ذاته الدول العظمى وديمقراطيات الغرب المجرَّبة المتمرِّسة.

4

السياسة الألمانيَّة في أَفغانستان

في السادس عشر من تشرين الثاني 2001 يطرح المستشار الاتحادي شرودر مسألة الثقة بحكومته بصدد إِرسال جنود البنديسفيهر إِلىٰ أَفغانستان في مجلس النواب الألماني. ووضع البلد البعيد مدة يوم واحد في نقطة المحور من السياسة الألمانية، وبالنظر إِلىٰ هذا قد يبدو سؤال هل توجد سياسة ألمانية حيال أَفغانستان سؤالاً غير معقول، ولكن هل كان لهذه السياسة وجود قبل الحادي عشر من أيلول 2001؟ وفي صدد مسألة التحديد هذه قد يدخل المرء في حالة انعدام النظر.

لقد كان يعيش في ألمانيا في مطلع التسعينات 60,000 أَفغاني، أي أكثر ممن يعيشون في سائر بلدان الاتحاد الأوروبي مجتمعة، وفي نهاية العقد كانوا سبعين ألفاً، وكان هؤلاء يشكّلون في الغرب ثاني أكبر مستعمرة أَفغانية في الخارج، بعد الولايات المتحدة وكندا، إِذ بلغ عددهم هناك الثمانين ألفاً، وكان أوائل

obeikandl.com

الأَفغان الذين أقبلوا إِلىٰ ألمانيا قد هربوا من الغزو السوڤييتي، والتقوا معنا يشملهم التعاطف الكبير، وكان يوجد بين هؤلاء اللاجئين سياسيون محافظون لهم أهميتهم، مثل رئيس الوزراء السابق يوسف الذي كان يعيش بالقرب من بون، أَو نائب رئيس الوزراء السابق حميد الذي لبث يعلِّم في جامعة بوخوم بصفة مؤقتة. وفيما بعد يلحق بجيل اللاجئين هؤلاء ذووهم، إِذ كانت تغريهم ظروف الحياة في الغرب التي يقال إِنها سهلة. وربما سهَّل عليهم الاندماج تعاطفٌ مع ألمانيا شديد يُلْمَسُ في بعض البلدان الإِسلامية، وكان الأَفغان يعيشون جميعاً بين رفاقهم في المواطنة من الألمان من دون أَن يلفتوا النظر، وكانت نسبة أنصار الحزب الموالي للملك عالية، ولم يُعْرف شيء في حالة أَفغانستان عن اتحادات متطرّفة أَو جمع أموال مفروض، علىٰ النحو الذي كان يمارس في تلك الأيام من قِبَل بعض مجموعات المعارضة التي تنتمي إِلىٰ جنوب آسيا.

وبدلاً من ذلك تمّ منذ بداية الحرب الأهلية، تطوير تقنية للموازنة سلمية لا تكاد تقل عن ذلك الأسلوب فعالية: وذلك أَنَّه لمّا كانت حكومة رباني ترعى سفاراتها الخاصة بها في الخارج، غير أنّها لم تكن تستطيع أَن تدفع نفقاتها، فقد كانت هذه السفارات تعتمد علىٰ تقاضي رسوم باهظة علىٰ جوازات السفر والتأشيرات. وكان لهذا النظام منطقه المقنع. ولما كان معظم الأَفغان الذين يعيشون في ألمانيا (والبلدان الغربية الأُخرى) قد

احتفظوا بجنسيتهم فقد كانوا يعتمدون علىٰ حيازة جوازات سفر سارية المفعول. ولكن هذه الجوازات لم تكن تُمَدَّد من قبل قناصل السفارة الأذكياء إِلاَّ سنة واحدة في كل مرة، بل كان تقاضي رسم يبلغ مائة دولار أمريكي لقاء إِجراء محدود إِلىٰ هذا المدى يثير استياء بعض النواب في مجلس النواب الألماني. وكان ثمة مساءلات في مجلس النواب، ولم يتغير شيء في هذا النظام من جراء ذلك، بل علىٰ النقيض من ذلك: إِذ علمت من قائم بالأعمال أَفغاني في تلك الأيام، وهو شيعي قليل الكلام صادقته قليلاً، أَنَّه لا بدّ لسفارة بون أَن تموّل بعائدات رسومها أيضاً إِدارة سفارات أَفغانية أُخرى كان من سوء حظها أنها استقرت في بلدان لها أهميتها من الوجهة السياسية، وهي مع ذلك قليلة العائدات، وهكذا كانت ألمانيا تضطلع بوظيفة هامة، وإِن كانت مكتومة، بحكم كونها مموِّلة لنظام رباني، وهي وظيفة لم يكن النظام نفسه يدري شيئاً عنها.

وفي التاريخ الأحدث يمكن متابعة العلاقات السياسيَّة الأوثق بين كلا البلدين حتى أوائل القرن العشرين. ففي عام 1928 قام الملك أمان الله، أثناء رحلة موسَّعة في أوروبا، بزيارة رسمية لكلا الخاسرين في الحرب العالمية الأولى، تركيا وألمانيا، وقام أيضاً بزيارة لبلدان أُخرى دامت علىٰ وجه الإِجمال سبعة أشهر، وكان هذا حدثاً غير مألوف بالنسبة للعلاقات الأَفغانية كلَّف الملك عرشه بعيد ذلك، علىٰ نحو مفاجىء. ومنذ عام 1924 تم تأسيس مدرسة

ثانوية ألمانية بمعونة ألمانية، سميت أول الأمر مدرسة أماني، ثم صار اسمها مدرسة نجاة، وكانت لها سمعة مرموقة. وكان الرايْش الألماني الشريك التجاري الثالث من حيث الأهمية، بعد الاتحاد السوڤييتي وبريطانيا العظمى.

وحتى بعد الحرب العالمية الثانية تطوّرت علاقات الصداقة، فقد كان الملك ظاهر شاه كثيراً ما يقيم إقامة خاصة في باڤاريا، وقام في عام 1963 بزيارة رسمية لألمانيا الاتحادية. ومَوَّلت الحكومة الاتحادية إنشاءاً جديداً سخيّاً لمدرسة أماني التي سلف ذكرها، لا يُضاهى به شيء في البلدان المجاورة ذات الأهمية، بما فيه من القامة الرياضية الكبرى وميدان كرة القدم والهوكي الموسَّع. وفي عام 1967 سافر رئيس ألمانيا الاتحادية هاينريش لويكه في زيارة رسمية، ودشَّن المدرسة. وبعد ذلك بعام طار المستشار الاتحادي، كورت كيسنجر إِلىٰ كابول. وارتقت الجمهورية الاتحادية من جديد إِلىٰ مرتبة الشريك التجاري الثالث من حيث الأهمية لأَفغانستان، وباتت الآن وراء روسيا والولايات المتحدة. وكان العملاق الكيميائي الألماني، هوكست، قد أَسَّس مشروعاً صَيْدلانياً زرته في غمرة الحرب الأهلية، وكان ما يزال يصدر منتجاته إِلىٰ بلدان مختلفة في جنوب آسيا، مع اقتران صادراته بغنى في الخواطر والأفكار المبتدعة التي لا يمكن تصوُّرها تقريباً. وكان معهد غوته في كابول يحرص علىٰ تأمين تبادل ثقافي نشيط، كان يجري إِغناؤه عن طريق كفالات ورعايات

من الجامعات. وتمّ بمعونة التنمية الألمانية إِنشاء محطة كهرمائية بالضغط العالي في ماهيبور، بالقرب من كابول، زوّد العاصمة بالطاقة الكهربائية، ومَثَّل بذلك، حتى في الحرب الأهلية، رهينة ثبتت فعاليتها، ذلك لأن امتلاك المحطة الكهرمائية أَو فقدانها كان له القول الفَصْل في مسألة هل يُزوَّد سكَّان كابول بماء الشرب (بالمضخات!)، وهل يتم تشغيل المستشفيات بالطاقة الكهربائية.

وعلىٰ الرغم من أَن الأرض الواقعة حوالي جبال هندوكوش لم تكن تلعب إِلاَّ دوراً ضئيلاً بالنسبة للسياسة الخارجيَّة الألمانيَّة، فقد كانت تنصَبُّ عليها ألوان التعاطف مع ذلك، ولا سيما بعد غارة الاتحاد السوفييتي، وعمد بعض أعضاء مجلس النواب الألماني والصحفيُّون إِلىٰ ارتداء ملابس البشتون، لكي يعبروا الحدود سرّاً من باكستان إِلىٰ أَفغانستان، و«يستنشقوا رائحة البارود». وحتى بعد انسحاب الغزاة كان في ألمانيا سلسلة من الشخصيَّات التي كانت تهتم بأَفغانستان اهتماماً مفعماً بالمودة. وقد عُيِّن المدير السابق للقسم السياسي في وزارة الخارجيَّة، راينهارد شلاجينتفايت، وكيلاً عن بعض الآخرين، وكان قد خدم، وهو دبلوماسيّ شاب، في السفارة الألمانية في كابول، وحافظ، منذ ذلك الوقت، علىٰ تعاطف مع هذه البلاد وهؤلاء الناس يكاد يكون حماسياً. وكان شلاجينتفايت ينتمي إِلىٰ أسرة من علماء الإِتنولوجيا المعروفين. وكان أحد أجداده قد أُعدم بعد الحرب العالمية الأولى في أوزبكستان المجاورة بشبهة التجسّس دون

غيرها، علىٰ وجه الخصوص. وكان ميل شلاجينتڤايت إلىٰ هذا الإقليم الذي كان قد تحول إلىٰ طامَّة كبرى بالنسبة إلىٰ جده الأكبر، يبدو لي كأنما زادت ضربات القدر في شدته. وأنا أذكر هذا الدبلوماسي الألماني أيضاً لأنّه كان في مستهل التسعينات رئيسي، وقد ربّاني بصرامة مستعذبة، وإِذا لم تكن مصحوبة بميل إِليّ، فقد كانت تنطوي علىٰ اهتمام بأَفغانستان. ويترتَّب عليَّ في المقام الأول أَن أدين بالشكر لشلاجينتڤايْت لأن مساري المهني أفضى بي فيما بعد إِلىٰ جبال هندوكوش ذاتها وأَوْلاني، بصفة مؤقتة، دوراً معيناً في جهود السَّلام المبذولة من قبل الأُمم المتحدة.

ومع ذلك فحتى مثل هذه الأشكال من التعاطف البالغ لم تعوِّض عن سياسة خاصة بأَفغانستان تتسم بالحزم والتصميم، وكانت مثل هذه السياسة مفتقدة زمناً طويلاً. وعلىٰ الرغم من كل الحمَّى التي تسيطر علىٰ قسم جنوب آسيا في وزارة الخارجيَّة في برلين منذ الضربات التي وُجِّهت إِلىٰ مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وتقدُّم وحدة العمل هذه، في هذه الأثناء، لتصبح محور سياستنا الخارجيَّة، فإِنّه لا بد للمرء أَن يقرِّر، في نظرة إِلىٰ الوراء، أَن السياسة الألمانية الخاصة بأَفغانستان، ظلت، علىٰ مدى عقود من السنين، تأتلف من سجل من البلاغات الودية التي كانت تعقبها أفعال قليلة. لقد كنا نمارس سياسة المفتاح العمومي (passepartout) التي يمكن تطبيقها، بالنص ذاته تقريباً، علىٰ أربعين

بلداً صغيراً آخر في رسيا أَو أفريقيا، ولم يكن هناك تصوُّر استراتيجي، بعيد الأمد، ولا محاولة لتحديد المصالح الألمانية في هندوكوش، بطريقة تتجاوز حدود تدعيم قرارات الجمعية العمومية لهيئة الأُمم المتحدة، والخطوة المنتظمة، المنسجمة مع خطوات الأصدقاء والحلفاء. وكانت معونة التنمية قد توقفت. وكانت مبالغ ضئيلة تنساب إِلىٰ منظمات دولية للمعونة. ومثال ذلك أَنَّه عندما قَدِم وزير الخارجيَّة الأَفغاني، أرسالا، في عام 1993 إِلىٰ بون، واضطر قسم جنوب آسيا إِلىٰ إِعداد الأوراق اللازمة للمحادثات لوزير الخارجيَّة كينكِل، لم يكن ليخطر ببال أحد أَن يصمّم مخططاً سياسياً بانورامياً لأَفغان المستقبل التي يخيِّم عليها السَّلام، وبدلاً من ذلك تضمنت ملاحظاتنا ألواناً من الإِعراب عن النوايا الحسنة، موجهة إِلىٰ «شعب أَفغانستان الممتحن بألوان من المعاناة»، وتمنَّت لمفاوضي الأُمم المتحدة نجاحاً طيباً، وتجنَّبت مع ذلك تأكيد أَن الحكومة الاتحادية سوف تقدم بعض التضحيات الخاصة بها من أجل بلوغ هذه الأهداف، أَو أنها سوف تخوض بعض المخاطر، واستفسرنا من أرسالا عن وضع الاستعداد للسلام عند المجاهدين، وعن خطط حكومة رباني من أجل إعادة البناء الاقتصادي للبلاد، ومع ذلك فلم نكن علىٰ استعداد، لأسباب وجيهة، لتقديم مبادرة وطنية، كانت خليقة أَن تدخلنا، في أَفغانستان، بين كل الجبهات، وأن تعرِّضنا، ضمن دائرة حلفائنا الغربيين، للاندهاش، إن لم تعرضنا لسوء الظن.

وفي بعض الأحيان كان يخامرني الانطباع الذي يوحي بأن أَفغانستان ما زالت واقعة تحت التحفظ العام الصامت من قبل الولايات المتحدة. وعلىٰ الرغم من أَن الأمريكيين أعرضوا عن جبال هندوكوش منذ الانسحاب السوفييتي، والتفتوا إِلىٰ مشكلات أخرى، أكثر أهمية في هذا الإِقليم، كان يبدو أنّهم لا يقدرون مبادرات دول ثالثة، حتى وإن كانت مبادرات حليفة وثيقة الصلة بهم، تقديراً خصوصياً في هذا المضمار. وحين دعا المستشار الاتحادي السابق، الموقِّر، ڤيللي براندت، أعضاء الحكومة الأَفغانية المؤقتة (AIG) في بيشاور إِلىٰ بون من أجل مؤتمر يقام في نهاية كانون الثاني 1992، من قِبَل مؤسَّسة فريدريش إيبرت، رفض الأَفغان، وعلمنا منهم من طرق غير رسمية، أَن الأمريكيين أعربوا عن موقف ناقد لإِقامة هذا المؤتمر. وحين فكَّرنا في عام 1995 في مسألة هل يسمح الوضع الأمني بإعادة افتتاح السفارة الألمانية في كابول (حيث كانت للفرنسيين والإِيطاليين قدم راسخة، أعربت واشنطن مجدَّداً عن هواجسها).

وما كان أحد في وزارة الخارجيَّة لينتهي في تلك الأيام إِلىٰ الفكرة القائلة بوجوب مناقشة هذا السؤال: ماذا نريد في أَفغانستان؟ وماذا نستطيع أَن نصنع هناك؟، علىٰ الرغم من أَن العلاقات الوثيقة بين كلا البلدين ما كانت لتجعل هذه المهمة البحثية تبدو بعيدة المنال، أَو خاطئة، إذ كانت البلاد تبدو عند جبال هندوكوش أقل أهمية من هذا وبالمناسبة كانت كثير من

البلدان في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيَّة، تشاطر أَفغانستان المصير الناجم عن «الإهمال الحميد beign neglect»، وكان للدول والمؤسَّسات الأُخرى الآن الأولويَّة الأولى في تنافس الدول علىٰ إزاحة غيرها. أمّا في العواصم الأوروبية الغربية الأُخرى، وربما بصرف النظر عن لندن وباريس، فقد أتيح لصياغة سياسة خاصة بأَفغانستان أَن تجري بقليل من الكلام، حتى الحادي عشر من أيلول عام 2001، علىٰ نحو مماثل.

علىٰ أَن غياب سياسة ألمانية خاصة بأَفغانستان يمكن استحضارها والرجوع إليها عند الحاجة، دائماً، كان يعطيني بصفتي رئيس قسم، مجالات من الحرية لا يستهان بها، كان في وسعي إمّا أَن أستفيد منها ملتزماً بها، وإمّا أَن أهملها من دون عقاب. ولم يكن مستوى الإدارة في وزارة الخارجيَّة يحفل بما يحدث في جبال هندوكوش إلاَّ في حالات جد نادرة، وعندما كان المرء يلجأ، بحكم كونه رئيس قسم، إِلىٰ استثمار خياله في هذه البلاد، ويعرف أَن المكلَّف بشؤون آسيا ورئيس القسم إِلىٰ جانبه، كان سرعان ما يشعر أَنَّه ملك في مملكته. وكنا نستقبل، عاجلاً، أَو آجلاً، فيضاً من السياسيين الأَفغان وزعماء القبائل الذين كانوا يرتحلون إلينا يحدوهم وعيهم أَن في وسعهم أَن يتحدَّثوا في بون، علىٰ الأقل، إِلىٰ ممثّل للحكومة الاتحادية في كل وقت. ذلك لأنني بِتُّ أُعَدُّ، منذ رحيل شلاجينتڤايت، بين الأَفغان مثلَ ذلك «العنوان المستحسن». . وهكذا انتهى الأمر إِلىٰ أنني بِتُّ معروفاً

كل المعرفة شيئاً فشيئاً بين السياسيين الأَفغان، ومنهم نائب وزير الخارجيَّة، الدكتور شمس، وحميد كَرْزاي، ووزير الخارجيَّة أرسالا، وكنت أتصل بوكيله غفورزاي، هاتفياً علىٰ نحو مطرد نظامي، وذلك ليس في بون وحدها، بل كان رئيس الدولة ربّاني، ووزير دفاعه، و«الرجل القوي»، أحمد شاه مسعود، وسائر زعماء الائتلاف، يستقبلونني.

وحتى الطالبان الذين لم يتميَّزوا في البداية، علىٰ وجه الخصوص، بالانفتاح علىٰ العالم، ولم تكن لديهم عن ألمانيا إلاّ تصورات غائمة ضبابيَّة، كانوا قد سمعوا بي. وعندما ارتحل في حزيران 1996 وفد منهم بقيادة وزير خارجيتهم، الملاّ غوث، أوّل مرّة إِلىٰ البلاد الأجنبية الغربية، وسافر إِلىٰ واشنطن، للمشاركة في جلسة استماع لمجلس الشيوخ، قطعوا رحلتهم بإقامة عابرة في بون، وزاروني، ولم أكن قليل الزُّهو بنفسي علىٰ أثر هذا اللقاء غير المألوف ـ إذ كان اللقاء مع الطالبان المفعمين بالأسرار يتسم في تلك الأيام بقيمة الشيء النادر. ومن دون أَن أخرج بقدمي خطوة خارج مكتبي تعرّفت شيئاً فشيئاً، علىٰ كل السياسيين الأَفغان ذوي الأهميَّة. وكان مقدَّراً لهذه العلاقات الشخصية أَن تؤتي أكلها في اللحظة التي اقْتُرِحَ فيها اسمي مرشحاً لرئاسة بعثة السَّلام (الأونسما)، علىٰ الأمين العام للأُمم المتحدة، وزاد في ذلك أنني لقيت الرجال الذين لم يكونوا معروفين كل المعرفة في ألمانيا، وكانوا مع ذلك يتمتعون بالنفوذ في أَفغانستان، بل كان يُخْشى بأسُهم، فيما بعد، علىٰ أرضهم، هم.

وماذا يقال عن مستقبل السياسة الألمانية في أَفغانستان؟ لقد نَحتَ إِميل زولاّ هذه العبارة: «الفن هو الطبيعة حين تُرىٰ بناظرَيْ مِزاج خاص. وهذا التعريف يمكن نحته بطريقة معكوسة «السياسة الأجنبية هي التعقيد الدولي حين يُرى بناظرَيْ مزاج خاص». وما من شك في أَن أشكال الرؤية الكبيرة والصغيرة في السياسة الخارجيَّة مشروطة، من وجوه عديدة، بألوان من القسر الخارجي، وهي مع ذلك مبتَدَعة أيضاً من قِبَل شخصيات ملتزمة، غنية بالأفكار والخواطر. وبالقياس إِلىٰ السياسة الألمانية في أَفغانستان يمكن أَن يعني هذا أننا لسنا مضطرين إِلىٰ أَن نعمل دائماً في صحبة حلف الأطلسي والأوروبيين وفي خفارتهم، حيث يتسم عمل بأنه إِمّا أَن يكون مُهَيْمَناً عليه من قِبل الولايات المتحدة، وإِما أَن ينزل الحديث إِلىٰ مستوى القاسم المشترك الأصغر، وقد كان يحسن بألمانيا أَن تسخِّر الورقة الرابحة، وحدها، أَو في درّاجة بمقعدين مع فرنسا (ذات المصالح الكبيرة في أَفغانستان من الناحية التقليديَّة، والتي تملكها الآن علىٰ أية حال) ومن ذلك سمعتها التي لا يُجادَل فيها لدى الأفغان، وإِمكانية الركون إِليها بحكم كونها وسيطاً بعيداً عن المنفعة الخاصّة، وهي السمعة التي لا تنكرها بلدان أُخرى عليها أيضاً. وما زال يعيش سبعون ألفاً من الأَفغان في ألمانيا والأرجح أَن عددهم زائد بالارتفاع نتيجة لبؤس اللاجئين، وهم يشكِّلون 70,000 حالة من الحالات الحية الثابتة بين كلا الشعبين، فهل يُقَدَّر، بالفعل أَن يؤخذ بمفهوم (لوياجيركا)

في المستقبل القريب، وهل يمكن أَن يتذكّر الناس في برلين أَن ألمانيا سبق لها في الماضي أَن ضمنت للأَفغان المستقلين الضيافة من أجل اجتماعاتهم السياسيَّة، وقد سبق لعبد الحق المقاتل من أجل الحريَّة الذي أُعدم قبل وقت قريب من قبل الطالبان، أَن وجد في ألمانيا مراراً ليتشاور مع أصدقائه السياسيين. وألمانيا تتمتع لدى الأَفغان، من الثقة، بأكثر مما يتمتع به أيٌّ من بلدان أوروبا الأُخرى. وقد ينبغي لألمانيا الاتحادية أَن تستفيد من هذه الثقة في حالة تحديد مستقبليّ لمصالحنا في جبال هندوكوش. أمّا أَن هيئة الأُمم المتحدة أقامت أول مؤتمر دولي لأَفغانستان بعد التدخّل الأمريكي، في نهاية تشرين الثاني 2001، علىٰ جبل بيترزبرج قريباً من بون فكان هذا هو التدعيم الفعلي الراهن للسمعة الرفيعة التي تتمتع بها ألمانيا في أَفغانستان. وبغض النظر عن النتائج المادية كانت إِقامة المؤتمر نجاحاً ـ للعلاقات الألمانية ـ الأَفغانية.

وقبل بضعة أسابيع كانت ترى علىٰ شاشة التلفاز طرود المعونة الصفر التي كانت تنزل كالمطر علىٰ أَفغانستان من الطائرات الأمريكية، كما كان يُرى أيضاً بالطبع الأطفال والآباء الذين انتابتهم البلبلة، وهم يجمعونها، ولم يكونوا يعرفون شيئاً صحيحاً يبدأون به. وقد حفظت المعونة الإِنسانية ملايين الأَفغان في السنوات العشرين المنصرمة من الموت جوعاً. وما من شك في أَن هذا إِنجاز رائع، ولكنّها لم تسهم بشيء من أجل حل المشكلات السياسيَّة، بل حجبت في كثير من الأحيان غياب

الجهود السياسية. ولا تستطيع ألمانيا أَن تشتري لنفسها ضميراً مرتاحاً بالأعطيات مهما كثرت، بل لا تستطيع شراءه إِلاَّ بإِسهامها الخاص، الجريء، في سياسة أَفغانستان الدولية. لقد سافر، بعد الحرب العالمية الأولى ملك لأَفغانستان إِلىٰ ألمانيا التي تعرَّضت للمهانة والإِذلال، وسار في برلين مصحوباً باستحسان الجمهور. فلماذا لا يُؤَدَّى دينُ الشكر عن تلك الأيام في هذه الأيام؟ علىٰ أَن حاملي الهواجس سوف يُحَذِّرون من المسارات الألمانية المنفردة ويطالبون بالتكاتف مع الحلفاء، التكاتف الذي يمكن الركون إِليه. ومع ذلك فهناك مجال للخيال ينبغي ضمه إِلىٰ المجالات الأُخرى، ولا سيما في بلد يولي الألمان هذه الأشكال القوية من التعاطف، مثل أَفغانستان، وسيكون مما هو جدير أَن نتمناه، بل سيكون مما يؤتي ثماره خلال عقود من الزمان، أَن تتوقَّد سياستنا في جبال هندوكوش بشرارة صغيرة من المشاركة.

obeikandl.com

5

موطني الجديد ـ جلال آباد

«تعد جلال آباد من أشد المواطن التي رأيتها في الشرق، علىٰ الإطلاق، بؤساً» تلك هي العبارة التي يفضي بها إلىٰ يومياته في عام 1837 الدبلوماسي البريطاني السير ألكسندر بيرنز، وعندما تحط طائرتي البيتش كرافت، في 27 تموز 1996 علىٰ مطار العاصمة الإقليمية نانجارهار، في «مدينة الجلال» (كما يفيد اسمها العربي)، أقرّر أن الحكم غير الودي لم يفقد شيئاً من صحّته، فالشمس تتقد نازلة عليَّ بأشعتها، ودرجة الحرارة تتجاوز الأربعين تجاوزاً بعيداً، ولا يمرّ بالسهل الأغبر نسمة من هواء ليبعث البرودة فيه، وفي مبنى المطار الذي دمّرته القنابل ينتظرني وفد مؤلَّف من عشرين نفراً، من قِبل الحاكم، وهم أناس كبار السن أولو مودة، ولهم لحى مهيبة تتدلّى علىٰ صدورهم، وعيونهم البنية، وبعضها باعث للثقة وبعضها ينطوي علىٰ المكر، موجهة صوب مبعوث هيئة الأمم المتحدة غير الخبير. وفي قاعة السهرات السابقة

obeikandl.com

الخاصة بكبار الشخصيات نجلس معاً خمس دقائق إِلىٰ فنجان من الشاي وتنحني الأريكة الجلدية البنية بمجرد أَن أستقر فيها. وتتدلى أمام النوافذ ستائر غليظة من اللباد حتى الأرض لتحول دون مرور الشظايا، كما يعلمونني، عندما أرجو منهم أَن يردّوا الستائر بسبب الحرارة. أما عيب لجنة الاستقبال ذات البهاء والفخامة فهو أَنَّه ما من أحد فيها يتحدَّث بالإِنكليزية، وكان من حسن حظي أَن معي مترجمي الطاجيكيّ البارع، عمر؛ الذي يتقن إِلىٰ جانب الإِنكليزية كلتا اللغتين المحليتين، الدَرّي، والبشتو.

فكيف وصلت إِلىٰ جلال آباد؟ علىٰ طرق دولية منحرفة ملتوية. ذلك لأنني طِرْت بعد تعييني، وبناءً علىٰ توجيهات الأمين العام، أولاً، إِلىٰ واشنطن وموسكو لكي أستشير الحكومات هناك، وكنت قد زرت باريس، وتحدَّثت إِلىٰ المكلف بشؤون آسيا في الكي دورسيه، السيد بلانش ميزون. وفي وزارة الخارجيَّة الأمريكية قابلت رئيسة قسم جنوب آسيا، روبين رافيل التي أعرفها من دلهي. وفي موسكو استقبلني فيكتور بوسو واليوك وكيل وزير الخارجيَّة. أما انطباعي الذي خرجت به من كل الأحاديث: فهو أَن الولايات المتحدة لم تحدد موقفها حتى الآن فيما يتعلّق بالمسألة الأفغانية، وهي تكتفي بالتفرُّج، علىٰ انتظار أَن يُمَكِّن التعب من الحرب، السكَّان من تشكيل حكومة «ذات قاعدة عريضة» (وبذلك تتحدث قرارات هيئة الأُمم المتحدة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع)، أي حكومة يفترض أَن تضم كل الأعراق. أمّا

موسكو فهي مهتمة، في المقام الأول بإِطلاق سراح طاقم طائرة مؤلَّف من تسعة ملاحين، رابضة منذ عام في قندهار، ويتمسك بها الطالبان رهينة. وأما فرنسا فتفكّر قبل كل شيء في إِرسال موظف من الكي دورسيه بصفة مستشار سياسي في فريقي. وأقرّر أنّه ما من واحدة من العواصم الثلاثة تتوافر لديها معلومات جديدة في جوهرها. وحتى في واشنطن يبدو مستوى المعرفة كأنه يتماشى مع ما أتيح لي الوصول إِليه في بون أيضاً. وتؤكد لي واشنطن وباريس وموسكو أنها تساندني مساندة غير محدودة في عملي.

ثم أطير بعد ذلك إِلىٰ إِسلام آباد، حيث أصل في الثالث والعشرين من تموز. وأتعرّف علىٰ العاملين معي في المستقبل، علىٰ الأوغندي المتمرس فرنسيس أوكيلو، وكيلي لدى الأونسما، وعلىٰ المستشار الألماني، الدكتور أندرياس ريك، من المعهد الشرقي في هامبورج، وعلىٰ المستشار الجاف، والبارع مع ذلك إِلىٰ حد فائق، وهو البريطاني ستيفن إِيڤانز، من مكتب العلاقات الخارجيَّة والكومنويلث، والمستشار العسكري الإِيرلندي والغاني. وفي البداية يتم إِيوائي علىٰ نحو مريح في فندق ماريوت. ولكن إِسلام آباد ليست سوى محطة عبور وناقوس غوص إِلىٰ الحضارة يحق لي أَن أفزع إِليه مرة أخيرة، قبل أَن أتابع رحيلي إِلىٰ أَفغانستان. وفي فندق ماريوت يجري في الأنابيب الماء النظيف دافئاً وبارداً في حوض الاستحمام، ويؤدي جهاز التكييف عمله، ويقدم الطعام علىٰ خوان أبيض من الدِمَقْس، وفي إِسلام آباد سوف اضطر إِلىٰ التخلي عن أمثال هذه النفائس.

وعلىٰ هذا حططت رحالي في السابع والعشرين من تموز بلحمي ودمي، في جلال آباد. وبعد التحية ندخل في المدينة، وتُساورني غمرة أولى من غمرات الاكتئاب، في الطريق مجموعة من المنازل الكئيبة المبنية من الطين ارتسمت عليها آثار التداعي ومخلّفات تخريب الحرب الأهلية. وتبدو المدينة التي يقال إنها محايدة، والمُحِبَّة للسلام وكأنها برميل من البارود علىٰ أهبة الانفجار. وفي رحلتي إِلىٰ داخل المدينة أرى عدداً من سيارات البيك ـ آب اليابانية رُكِّبَتْ عليها البنادق الآلية، والمساحات المخصصة للحمولة يحتلها الشباب، الذين يلوِّحون بمدافعهم الكلاشينكوف ويزعقون، وكان من حسن حظي أَنْ أقبلت سيارة للحاكم تومض بضوئها التحذيريّ الصارخ، مارّةً بي لتؤدي فروض الاحترام للطبقة المحاربة. ولأول مرة يرفرف علم الأُمم المتحدة الأزرق علىٰ سيارتي، ولأسباب أمنية أيضاً، لكيلا أقع من فوري، وأنا في الطريق إِلىٰ الفندق، ضحية لعملية نهب في الشارع.

وفي إِسلام آباد كان أصدقاء للسفارة الألمانية قد أكَّدوا لي وهم يربِّتون علىٰ كتفي، أَنَّه لا توجد في جلال آباد ممرات ضيقة للإِمداد والتموين، وقالوا إِن الحوانيت تكاد تنفجر من بضاعة التهريب التي يُجاء بها من بلدان الخليج، عبر باكستان، إِلىٰ أَفغانستان، وقالوا إِن أجهزة التلفاز، والتكييف، والمواد الغذائية، وحتى المشروبات الكحولية يمكن الحصول عليها بأسعار رخيصة إِلىٰ حد يبعث علىٰ السخرية. ومع ذلك لا يُلاحَظ شيء من أمثال

سلع الترف هذه، علىٰ أن واجهات المحلات القليلة التي كنا نمر بها، تبدو مغبَّرة وهي خالية. ويخيم علىٰ المدينة موجة من التدهور، وانكسار إِرادة الحياة.

وفي الطريق يبلغني المستشار العسكري، العقيد إِيغار، أَن حاكم نانجارهار، حاجي عبد القادر، الذي يمتد اطلاعه علىٰ كل الجوانب، يحمي أسامة بن لادن الذي يعيش علىٰ مقربة من جلال آباد. أما العقيد إِيغار، الذي كان استبقني بالطائرة، فكان قد ضلَّ طريقه قبل بضعة أيام في البرِّية، واكتشف، في قرية تدعى دارونتا، علىٰ بعد اثني عشر كيلومتراً من العاصمة الإِقليمية، بطريق المصادفة، معسكراً لتدريب المقاتلين العرب، ويُدَرَّب هناك أيضاً ثمانون كشميرياً، وحيّا آمرُ المعسكر إِيغار بأدب، ودَلَّ الرجل التائه علىٰ الطريق إِلىٰ جلال آباد.

وينتمي الحاكم حاجي عبد القادر، المتعدِّد الجوانب، إِلىٰ الحزب الإِسلامي، وهو حزب يونس خالص الذي انشق علىٰ حزب حكمتيار المسمى بالاسم ذاته. وكان عبد القادر يعرف كيف يرتِّب أموره في مجلس الشورى، أي المجلس الإِقليمي، مع ممثلي كل الأحزاب الكبرى. وهو يجتهد، بحكم كون اجتهاده نوعاً من جنة وساطة متجوِّلة، في الموازنة بين المصالح المختلفة. وبفضل براعته لا يهدِّد «جزيرة السَّلام» في الوقت الحاضر خطرٌ ما. ولكنها تحاكي قطعة من الأثاث سريعة العطب تتناوَشُها القوى المعادية. وقد تحالفت نانجارهار مع الإِقليمين المجاورين، كونار

ولاغمان. علىٰ أن الإِقليم بأسره يقدم صورة للسكينة والنظام علىٰ ما يبدو. ومع ذلك فانطباعاتي الأولى عن صورة الشارع، والفتيان الذين يحملقون في الأسلحة التي أُبْصِرها في كل مكان، تحملني مع ذلك علىٰ الشك في ديمومة السَّلام.

وأنطلق بالسيارة إِلىٰ قصر الحاكم، وهو أحد المباني القليلة الباعثة للإِعجاب في المدينة، التي صمدت للحرب من دون أَن يلحق بها ضرر، ويقودونني إِلىٰ قاعة الطعام الكبيرة، وعلىٰ الخِوان إِكليل من الأزهار في زُخْرفٍ من الجبس الملوَّن، من الزيّ القديم. وعلىٰ نحو عفوي تواتيني خاطرة مؤداها أَن هذه هي القاعة المباكة من أجل مؤتمر للسلام، ربما كان من الممكن أَن يتحقَّق خلال بضعة شهور. وكان في انتظاري مجلس نانجارهار، شخصيات تتسم بسمة شخصيات ذات لِحىً فضية مهيبة، وعلىٰ رأسها وكيل الحاكم، الدكتور عارف، ويجلس إِلىٰ طعام الغداء رجل يدعى حاجي زامان، إِلىٰ جانبي، وهو قائد أحدث في نفسي انطباعاً بصورة وجهه الجانبي التي توحي بالجرأة وعينيه الحادتين وأنفه الذي يضاهي منقار النسر، وبالطبع، بلحيته السوداء المُرْسَلة المنسدلة، وأسأله عن معسكر التدريب العربي، ويقدم إِليَّ زامان معلومات بأسلوب ماكر، ويقول إِن المسألة في الحرب ترجع إِلىٰ معرفة المرء كيف يقاتل، أما جواز سفره فلا يسأل عنه.

وأُصَرِّح لجاري علىٰ المائدة بأنني لا أستطيع شيئاً علىٰ الوجه

الصحيح في ظل حالة التسلُّح العسكري في إِقليم نانجارهار. وعلىٰ أثر ذلك يروي لي زامان أَنَّه يتولى قيادة أحد الجيوش الجزئية التي تتلقى الأوامر من حاجي عبد القادر، وهي تضم ألفي رجل. ولكنني أخذت بعد ذلك أفهم أَن القوات هذه ليست تابعة للحاكم بالفعل، بل تطيع أوامر زامان، زعيم العشيرة، فحسب. وكان هذا يموِّل جنده من جيبه الخاص مثلما كان شأن جيش المرتزقة في العصور الوسطى، وذلك علىٰ الأرجح بعوائد آتية من التهريب أَو تجارة الحشيش، وحتى سيارات الشحن تضطر، كما أسمع، إِلىٰ دفع رسوم ترانزيت هائلة.

وبعد الطعام أزور، أول مرة، مقري الخاص بالأونسما، ومجموعة مستفيضة من المباني البسيطة المتداخلة، بعضها في بعض، وفيما بينها حديقة صغيرة فيها نباتات أصابها الجفاف. ويتركّز الجفاف بلون الرمل الأصفر علىٰ الأرض. وفي ذلك المقر الاحتياطي، الخشبي حجرات مكتب مجهَّزة بأثاث بسيط، وجهاز التكييف في غرفة الاجتماعات له طقطقة عالية، علىٰ أَن مفعوله يصل إِلىٰ الحد الأدنى. ومن خلال النافذة أُبْصِرُ هوائياً برقياً يتم تشغيله بمولِّد، وأتحدَّث مع القوى العاملة المحليّة الأَفغانية، وهم أناس بسطاء متواضعون بعثت الحرب الرهبة في نفوسهم، وأحاول أَن أقرأ ما في وجوههم، فأنا بالقياس إِليهم رجل ذو أهمية يبدو أَنَّه يضمن لهم، في وسط أَفغانستان المتداعية، الأمن والقوت.

ثم أتسلَّم «مكتب الرئيس» الصغير، العائد إِليّ. علىٰ طول

obeikandi.com

الجدران تقوم قطع أثاث مكسوّة بالجلد الصناعي الأسود، وصورة الأمين العام معلقة فوق منصة الكتابة، وهي تسهر علىٰ عملنا بابتسامتها السمحة، علىٰ أن جهاز التكييف لا يؤدي عمله، هنا أيضاً، وعندما استقرُّ علىٰ الأريكة يتفصَّد العرق علىٰ الفور في باطن الركبتين، وتقوم أَفغانية شابة بتقديم الشاي، وهي تبتسم لي في وجل. حقاً، أنا لم أخطىء السمع: فهي تتحدَّث بألمانية متعثِّرة. كانت قد تعلمت قبل عامين في معهد جوته، في مونيخ، وهي تعمل الآن طباخة لدى الأونسما. وصافحت المرأة وقد استحوذ عليَّ جَرْسُ اللغة الأم في هذا الركن المهجور.

وبعد تفقُّد المكاتب، أتخذ لنفسي مسكناً، ولمّا كان من المتعذِّر أَن يعثر المرء علىٰ مبنى مناسب في المدينة، فقد اتخذت لنفسي «عدداً من الغرف» في المنزل الأول في الميدان، في فندق شبنجار، وهو مبنى اسبارطيّ حقيقي يتحمّل المسؤوليَّة عن هندسته البائسة السوڤييت قبل ثلاثين عاماً، ما زال بلا ريب، حتى اليوم يصمد لمعايير التداعي الباعثة للاستنكار عند الدبلوماسي البريطاني بيرنز. ويتألَّف مسكني من غرفتين كبيرتين مجهزتين بأثاث مُخَلَّع الأطراف. أما حجرة الاستقبال فلا تصلح إلاَّ في الشتاء، إِذ لا يوجد فيها جهاز تكييف. وأما حجرة النوم فمبرَّدة قليلاً، في مقابل ذلك، وقد وضع جهاز تكييف روسيّ فوق السرير، وهو ينفث الهواء بصوت صاخب كالأفعوان. وفي الخارج تسود حرارة تصل إِلىٰ ثمانية وأربعين في الظل. وفي حالة استنفاد القوى الجسدي

والنفسي أرمي بكل شيء علىٰ السرير لكي أستجمّ، وأرفع طرفي إلىٰ سقف الحجرة المتّسخ، وأرسم بعين الخيال كيف سأقضي في هذه البيئة عاماً أو عامين من حياتي، وأخيراً أنهض قائماً، وأصفُّ الكتب القليلة التي جئت بها معي من ألمانيا، والتي يفترض أن تحفظني من الجَذْب الفكري.

وأسمع طَرْقاً علىٰ الباب، فأسدل علىٰ جسمي حلةً من السفاري قديمة، من الهند، لكي لا أفسد ثيابي الألمانية بمجرد مرور اليوم الأول، ولا أكاد أغادر حجرة نومي، وأعبر الصالون غير المكيَّف، حتى ينبثق العرق مني، علىٰ دفعات تقريباً. ويتصاعد نفوري من جلال آباد إلىٰ درجة الفزع. وفي هذه الأثناء أكون قد اقتنعت أنني لن أظل علىٰ قيد الحياة بعد ثلاثة أشهر في هذا المناخ القاتل، وتستيقظ في نفسي رغبة جبانة في الاستقالة. غير أنني أستجمع عزمي وأتماسك، وأدعو العاملين معي إلىٰ مناقشة، وأتوجَّه مرة أُخرى إلىٰ استعدادهم للتعبئة، وأبلغهم أنني سأحاول، في جولة أولى، أن أوضح لأحزاب الحرب أنني أعرض عليهم وساطتي في الحقيقة، غير أنني لا أسمح لنفسي أن تنخدع بالكلمات الفارغة والتوكيدات غير المخلصة لحسن النيَّة. ثم نفكِّر بعد ذلك هل ينبغي لنا أن نعقد «حلقة دراسية حول السَّلام»، وهو أمر وسط بين لقاء بين الأطراف الأفغانية وبين مؤتمر دولي. ويقول إيڤانز إن جلسة الاستماع الموجزة في مجلس الشيوخ الأمريكي يمكن أن تفيدنا علىٰ أنها أنموذج. ويقول إنه في

المرة الأولى كانت كل أطراف الحرب قد شاركت، وحتى الطالبان، وإنه ينبغي للدول المجاورة أن تقوم بدور المراقب، وإن من الواجب أن تظل التوقُّعات متطامنة. وأصغي إلىٰ البريطاني مهتماً.

وفي المساء (يدبر) قيِّم الفندق علىٰ شرف القادمين مأدبة صاخبة، وفي قاعة البهو التي تكون في العادة خالية من البشر تنوء الموائد بثقل الأطباق الملأى باللحوم والثمار. ويجلس مرة واحدة ثلاثون رجلاً حواليَّ، منهم الأفغان، ومنهم ممثِّلون محليُّون لوكالات الأُمم المتحدة، وربما كان فيهم أيضاً عدد من الجائعين من المتفرِّجين وراء الأسوار، كلهم يمد يديه بقوة، وأُلْقي، وقد أخذتني الحماسة، من جراء كل هذا القدر من التعاطف، كلمة مرتجلة، ويقرّ المضيف عيناً. فالانتقال إلىٰ المدينة من قبل دبلوماسيين قادرين علىٰ الدفع يضمن له دخله إلىٰ أجل لاحق، ولكن حماستي حيال كرم الضيافة الموهوم لم تكن في محلها المناسب. وفي الصباح التالي أتلقى حساباً باهظاً.

وفي 28 تموز أزور يونس خالص، زعيم حزبي إسلامي، المنشق في عام 1979 عن حكمتيار. وخالص مسلم مستقيم السيرة، ويرجع إلىٰ حزبه سلسلة من الطالبان الذين باتوا من القياديين فيما بعد. وعلىٰ الرغم من أن نفوذه العسكري تضاءل في هذه الأثناء، فإنه ينتمي إلىٰ زعماء المجاهدين السبعة الذين شكلوا حتى عام 1992، حكومة المنفى في بيشاور، ويسكن الرجل الشيخ

في منزل خَرِب وقد نضب النبع في الفناء الداخلي، أما السلالم فقد علتها الأقذار، والممرات غير مضاءة. وليس فيها من مكيَّف إلاَّ قاعة الاجتماعات. وعلىٰ المائدة أطباق فيها فستق، ولوز وزبيب، ويقدم الشاي الأخضر، غير المُحَلَّى، ويونس خالص في انتظاري، وهو شيخ وقور مَهيب، ولد عام 1919، ولحيته مخضَّبة بالحناء الحمراء، ويحييني خالص بكلمة هي بمثابة المفتاح العمومي، ذات حكمة جوفاء: «من أنيطت به مهمة فلا بد له أَن يمضي في طريقه» وما من أحد يفهم ماذا يفترض أَن يعني هذا.

وما يقوله خالص بعد ذلك يبدو لي مألوفاً. لقد دافعت أَفغانستان عن الإِسلام في وجه الاتحاد السوڤييتي. ولا يستطيع أَن يقود البلاد إِلاَّ مجاهد حقيقي. وربّاني وحكمتيار ليسا بالمسلمَيْن الصالحين. أمّا الطالبان فقد غزوا قلوب الناس. وهم لا يستطيعون، بالطبع، أَن يحكموا البلاد وحدهم، لأنهم لا يتحدَّثون إِلاَّ باسم البشتون، ولا بد لحكومة قائمة علىٰ قاعدة عريضة، كتلك التي تنشُدُها هيئة الأُمم المتحدة، أَن تحمي كل الأعراق.

وأستمع معتصما بالصبر. ماذا ينبغي لي أَن أستخلص من الأشياء النافعة من ملاحظات الرجل الشيخ؟ وأحاول أَن أستدرجه إِلىٰ بعض إِفادات واضحة، كيف يقيِّم التحالف الجديد في كابول الذي دخل فيه الرئيس ربّاني، مع ذلك الذي كان حتى الآن خصمه، حكمتيار؟ وما هي الأهداف التي يتابعها الطالبان؟ وهل

تستطيع هيئة الأُمم المتحدة أَن تتعاون معهم؟ وهل يهتمون بحل سلمي علىٰ وجه الإِطلاق، أم يبحثون عن الحسم العسكري وحده؟ ويتحاشاني خالص، ويعود إِلىٰ تعليلي بالعبارات التقليديَّة المهيبة، وأنهي الحديث بنداء مؤداه أَن يقلع المرء عن المواقف المبدئية الجامدة، وأن يظهر الاستعداد لحل وسط. ولكني ألاحظ أنني لا أستطيع أَن أصل إِلىٰ الرجل الشيخ، فهو يعيش في عالمه الخاص.

وفي المساء تكون زيارة تزلزل النفس لمخيَّم اللاجئين، نيوهدًّا، علىٰ بعد عشرة كيلومترات من جلال آباد. والحرارة تبلغ 50 درجة، وهي أعلىٰ درجة حرارة تعرَّضت لها في حياتي في أي مكان من وجه الأرض. وسهل الحجارة لا يمنح ظلاً، وهناك أحد عشر ألفاً من الأسرى محشورون معاً في أكواخ من الطين يغطّون مساحة من الأرض محفوفة بحوافّ وقد نظموا تنظيماً لا شِيَة فيه. وعلىٰ وجه الإِجمال يعيش سبعة وسبعون ألفاً من البشر هنا، ومع كل هذا البؤس يحق للاجئين بعدُ أَن يقدروا أنهم سعداء، لأنهم في رعاية المفوَّض السامي لشؤون اللاجئين. وثمة مئات آلاف آخرون من رفاق المعاناة يعيشون في بقاع من الأرض نائية في أكواخ من الطين أَو في خيام من أغصان الشجر، لا معرَّضين للجوع ولاعتلال في الصحة لا يوصف فحسب، بل معرَّضين أيضاً لمساوىء الطقس، وفي الجبال العالية يتعرَّضون لعواصف الثلج في الشتاء. أمّا نيوهَدّا فهي، علىٰ الرغم من كل الفقر، مخيَّم

عرض. ويقودونني إِلىٰ المبنى الوحيد المشيَّد من الحجر، وهو منزل الاجتماع، ومن خلال ثقوب النوافذ الخالية ينساب هواء الصحراء اللاهب. وفي الحجرة يزدحم ثلاثون رجلاً من الشيوخ، البشتون، والطاجيك والهزارا، ففي بؤس اللاجىء تتلاشى الحدود بين القبائل.

ويقف الرجال مزدحمين، يتدافعون بالمناكب، وثمة واحد منهم يسرد عليَّ، في إِنكليزية متعثِّرة، مِحَنهم، ويبلغني أَن الأحزاب المتحاربة نقلت صراعاتها إِلىٰ المخيَّم، وأنّهم كانوا يأتون في الليل ليتقاضوا من هؤلاء الفقراء إِلىٰ حد التسوُّل إِتاوات مقابل حمايتهم. ومن لا يمتثل يخاطر بحياته، كما يقول المتحدّث، ويؤكد ممثِّل مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية، الذي صحبني، غارات اللصوص المسلحين، إِذ يقول إِن الحزب المحارب يبعث بأشقيائه في الليل إِلىٰ المخيَّم. وفي بعض الأحيان تستكنّ وراء الغارات أيضاً ادعاءات حق في الملكية من قبل مُلاّك للأراضي، إِذ يقول هؤلاء إِن الحكومة لم تعوِّضهم عن الأرض التي أقيم المخيَّم عليها، ولذلك ينتقمون من اللاجئين، وأَعِد الرجال بمناقشة مشكلة أمنهم مع حاجي عبد القادر.

وفي الختام أروي للناس أنني نشأت في أيام ما بعد الحرب، وأنّه كان هناك لاجئون أثناء الحرب العالمية الثانية ذاتها. ولذلك فأنا أفهم ما يعانون منه. وأحاول أَن أقرأ وجوه من يستمعون إِليّ، ولكني لا أرى شيئاً سوى عدم التصديق.

obeikandl.com

6

الأحاديث الأولى مع الحكومة في كابول

وكابول، العاصمة الأَفغانية منذ عام 1776، عندما تخلى تيمور شاه، ابن مؤسِّس الدولة، أحمد شاه دُرّاني، عن المدينة الملكية القديمة، قندهار، حاضرة بالقياس إلينا في كل مكان. ففي كل مساء نرى علىٰ شاشة التلفاز الآثار المضيئة للصواريخ الموجهة بالليزر، ونسمع انفجار القنابل المُدَمِّرة، ويتم أمامنا تقليب صفحات كتالوج متجر حقيقي لمنتجات الأسلحة الحديثة. والأسلحة المدمِّرة للمخابىء هي الآن في طور التعبئة، وهي تحوِّل إلىٰ أنقاض ورماد ما تركته الأعوام الثلاثة عشر من الحرب الأهلية باقياً.

وأنا أرى في ذاكرتي كابول أُخرى. فما من شك في أنّ كابول لم تكن مدينة مسالمة في تلك الأيام أيضاً، في مستهل التسعينات، وكانت تحاصر من قبل الأعداء كما كان ذلك يحدث لها مراراً في تاريخها. وأما السماء الزرقاء أبداً، فوق العاصمة، وجبال باغمان

السُّمْر الرمادية، عند الأفق، التي قلَّما يرتقي إِليها المطر ذات مرة، كانت تتميَّز السفوح الصخريَّة، المسنَّنة التي تمتد فوقها أسوار التحصين القديمة التي كان المجاهدون يستكنون فيها، وكانوا قد تقدَّموا إِلىٰ مسافة كيلومترات قلائل من كابول، وكانوا بعيدين عن متناول الطائرات المقاتلة السوڤييتية في كهوفهم الجبليَّة، ومن هناك كانوا يطلقون صواريخهم في المدينة. وما من أحد كان يعرف أين كانت الرمّانات تضرب ضربتها، حتى ولا المدفعيّون، ولكنها كانت تزرع الموت حيثما انفجرت في المدينة الغاصة بالسكَّان. وكانت هذه هي الصورة التي عَرَضَت لي لدى الزيارة الأولى لأَفغانستان عام 1992.

وبعد أربع سنوات كانت كابول ما زالت مدينة محاصَرة. ولكن الآن كان الطالبان يقبعون علىٰ رؤوس الجبال، وفي قصر الرئاسة السالف كان يحكم العلاّمة ربّاني، ولم يكن له بدٌّ أَن يتفرَّج مع المتفرجين، عاجزاً وهو يرى الصواريخ تضرب ضربتها حول مقر منصبه.

ومع ذلك فقد ظل قلب كابول حتى نهاية التسعينات، كما يدخل مظهره، مجتمعاً منظماً إِلىٰ حد ما، حتى وإِن باتت الأحياء الخارجيَّة في معظمها أنقاضاً، ولم يكشفوا إِلاَّ عن القليل من المباني التاريخية. وكان معظم مادتها يَرجع إِلىٰ القرن الثامن عشر ويشهد علىٰ روح فنية رفيعة المستوى. ولم يكن يوجد قصر في كابول، ولا مسجد يمكن مقارنته بأَبَّهة المباني في هراة. وحتى

نهر كابول الذي كان يتلوى كالأفعى داخل المدينة، كان علىٰ الأغلب قليل المياه ومُتَّسخاً.

ولم يكن القصر الملكي السابق الذي أقام فيه بادىء ذي بدء الحكام الشرعيّون، ومن بعدهم الرئيس ربّاني، وفي النهاية رئيس وزراء حكومة الطالبان، الملاّ عمر ربّاني، جوهرة في الهندسة المعمارية، ولا أضفى عليه النبالة غشاء العتاقة العائد إلىٰ حقب سابقة، بل لم يجر إنشاؤه إلاّ في مستهل القرن العشرين من قبل الأمير عبد الرحمن. أما الحديقة الفسيحة الأرجاء، وراء القصر فتخطر في ذاكرتي أرضاً مقفرة لا توطأ، ولا تمسُّها عناية. وعلىٰ الرغم من ذلك كانت كابول مدينة حافلة بالتاريخ المجيد والدامي أيضاً في كثير من الأحيان. وحتى بابور، أول أباطرة المغول، كان عاش هنا. وبالإنطلاق من هنا شن الحملة المظفرة ضد لوديس في دلهي، وأسَّس هناك مملكة كبرى كان العالم كله يرمقها باندهاش، وإلىٰ كابول انسحب في سن الشيخوخة، وجَمَّل وجه المدينة، وأسَّس حديقة الورود علىٰ سفح جبل، وهي الحديقة التي دعيت منذ ذلك الوقت «حديقة باربور»، وكتب القصائد في قلعتها بالاحِصار، وفي هذا الحصن المظلم حدث أيضاً أَن الممثل البريطاني لجلالتها، السير لويس لويس كاڤانياري ومرافقوه ذُبِحوا من قبل أَفغانستان عام 1879، فكان ذلك إشارة دموية إلىٰ الاحتجاج علىٰ التدخلات الدائمة من قِبل التاج في مُقدَّرات أَفغانستان. وكانت بعثة العقوبة البريطانية في أعقابهم. ومرة أُخرى

حدث في حصن بالاحصار أَن عُلِّق شيوخ القبيلة المتمردون علىٰ أعواد المشانق في كل اتجاهات الريح ـ «ليكون ذلك تذكيراً خالداً بتصميمنا علىٰ أَن ننتقم لمواطنينا» ـ كما أعلن قائد قوات التدخل، الجنرال روبرتس، بقوة ورجولة.

وحين ارتحلت عام 1996 إِلىٰ كابول، كان يحكم هناك الرئيس الطاجيكي، العلاّمة ربّاني، وحوصرت المدينة مرة أُخرى. وفي هذه المرة كان الطالبان هم الذين كان قناصتهم المهرة يهدّدون المدينة. وكان قادتهم ما زالوا يقيمون في المدينة الملكية قندهار، معقلهم الروحي، ويلعقون هناك جراحهم ـ كما قال لي مسعود في حديثه ساخراً. وكانوا قد حاولوا غزو العاصمة ثلاث مرات، وكان هذا القائد قد ردَّهم علىٰ أعقابهم ثلاث مرات، وقال في ثقة بنفسه: «لن يجرؤوا علىٰ ذلك مرة رابعة، إِذا استنفدت طاقاتهم، ولا بد لهم أَن يكتفوا بإِطلاق النار من وُكْناتهم علىٰ رؤوس الجبال إِطلاقاً عشوائياً علىٰ المدينة، ويَنْكُتوا الأرض في حديقة ورود بابور بصواريخهم.

وإِذاً فقد طرت في الثامن والعشرين من تموز 1996، إِلىٰ كابول، لأقدم نفسي إِلىٰ الرئيس ربّاني في وظيفتي الجديدة. وكانت طائرتي تقاد إِلىٰ باجرام، علىٰ بعد خمسين كيلومتراً شماليّ العاصمة. وتلك من العلائم السيئة، فمطار كابول واقع في مرمى صواريخ الطالبان، وهو محجوز دون طائرة هيئة الأُمم المتحدة، وكان أحد معارفي القدامى، وهو غفوررزاي، القائم بأعمال وزير

الخارجيَّة، قد خرج إلىٰ باجرام، للترحيب بي. ونعود معاً إلىٰ المدينة. وفي الطريق يلفت نظري علىٰ المقعد الخلفي من المرسيدس القديمة وسادة جلوس زرقاء. وقال الوزير يعلمني: كلاّ، بل هي صديري ضد الرصاص. وكان قد ألف هجمات الصواريخ اليومية.

وفي البداية أنطلق إلىٰ نادي الأُمم المتحدة (UNICA) (اتحاد النوادي الدولية التابعة للأُمم المتحدة)، وهو منشأة ما زالت تؤدي عملها علىٰ نحو جيد يبعث علىٰ الدهشة، حتى بعد سبع سنين من القتال. وفي مقابل سعر أيام السَّلام، وهو 15 دولار يجد المرء سريراً نظيفاً، وإِفطاراً مقبولاً مستساغاً، بل يجد باراً مزوَّداً بالخمور الجيدة. حقّاً! هذا البار في هذا البلد النائي المعزول، المهجور، بين جبهتين، يحتوي علىٰ هذا في ذاته، ويتخذ مزاج هيمنجواي أهبته، والفرقة في ضوء الغسق، وكان يتكىء علىٰ منصة الشراب رجال ذوو لحى، وصحفيون، وعاملون في معونة التنمية. وكان ثمة ضحك كثير، وكانوا يلعبون الورق، وفيما بينهم بريطانية شابة، واثقة بمفاتنها، وهي هدف للنكات الفجة. وتعمل تانيا الجريئة لصالح منظمة من المنظمات غير الحكومية، وسوف تطير معي يوماً ما، بطائرة هيئة الأُمم المتحدة، إلىٰ إِسلام آباد، وفي الطريق وفي وسط أعصار خريفي هائج، يهزّ طائرتنا البيتش كرافت، ويتولاّها الخوف علىٰ حياتها. وفي الحديقة حوض سباحة مملوء بالماء النظيف. وثمة حُصُر من اللحاء تحول

obeikandi.com

دون نظرات المجاورين من السكّان الأَفغان، وأم نرويجية شابة تعلم ابنتها الصغيرة مبادىء السباحة، صورة للسلام في غمار الحرب.

وعلىٰ الرغم من ذلك تظل الحرب حاضرة علىٰ الدوام، حتى في اتحاد النوادي الدولية التابعة للأُمم المتحدة، فإِلىٰ جانب مبنى النادي تحفر حفرة في الأرض من أجل ملجأ للحماية من الغارات الجوية. وترتفع نوافذ البار ثلاثة أمتار وقد حجبت بأكياس الرمل. وبالقياس إِليَّ، أنا القادم الجديد، يبدأ البرنامج بتعليمات خاصة بالأمن. ويشير خبير هيئة الأُمم المتحدة، بعصا طويلة علىٰ خارطة للمدينة إِلىٰ مسار هبوط الصواريخ، التي لا تصل إِلىٰ كل أحياء المدينة بسبب الجبال. وفي كل مكان توجد صُدَيْرِيّات ضد الرصاص جاهزة للتناول. وتصبح النوادي الدوليَّة التابعة للأُمم المتحدة محمية من رماية الطالبان، من جراء مقدمة جبل ويشعر روّاد النادي أنهم في مأمن إِلىٰ حد ما. أما مقرّ السفارة الألمانية، الذي تمّ إِخلاؤه عام 1989، وباتت ترعاه منذ ذلك الوقت إِيرنيه ساليمي، التابعة السالفة للسفارة، فيقع، في مقابل ذلك، في وسط مسار هبوط الصواريخ، وعلىٰ الرغم من ذلك أقبل الدعوة للمبيت هناك، بسرور، وذلك أَن الراحة التي تنطوي عليها الأسرّة الألمانية، ولفائف اللحم الرقيقة الممتازة التي تقدّمها لي المرأة الشجاعة من راينلاند علىٰ المائدة كأنها السحر، لا يقدَّم لي مثلها في اتحاد النوادي الدولية التابعة للأُمم المتحدة.

لقد كان وزير الخارجيَّة المنسيُّ اليوم منذ زمن طويل، ورئيس الوزراء الذي لا يُرى إلاَّ لأجل قصير، وهو عبد الرحيم غفورزاي، في تلك الأيام رجلاً تعْقَد عليه الآمال، واحداً من البشتون القلائل في حكومة الرئيس ربّاني الطاجيكية، ربما كان الطالبان خليقين أَن يتفاوضوا معه. وعندما أتحدث اليوم بعدُ عن الحوار معه ومع ممثلين آخرين لحكومة ربّاني فإِنما يحدث هذا من أجل الكشف عن موقف أولئك الرجال الذين طُرِدوا بعيد ذلك من كابول في الحقيقة، وهم يأملون مع ذلك، في هذه الأيام، مرة أُخرى، أَن يتولّوا مناصب قياديَّة في أَفغانستان المستقبل المتحرّرة من الطالبان.

وإِذاً ففي تلك الأيام يستقبلني غفورزاي في وزارة الخارجيَّة، ويناشدني أَن أمارس مهمتي ممارسة «هجومية» وقال إِنني إِذا ظهرت بمظهر المصمم فذلك خليق أَن يحمل كل الفرقاء علىٰ تقديم تنازلات، ومنهم الطالبان أيضاً. ويطالب هذا الأَفغاني بخطة سلام خاصة بالأُمم المتحدة، وأسأل عن الوضع الداخلي، ويبلغني غفورزاي أَن إِدخال البشتوني حكمتيار في حكومة (الطاجيكي) ربّاني هو خطوة هامة في الطريق إِلىٰ الوحدة الوطنية. وقال إِن حكمتيار يريد أَن يكرّس نفسه للتعاون مع دستم وخليلي، وإِنه توجد علائم تشير إِلىٰ أَن الطالبان يشاركون أيضاً، وأنهم تراجعوا عن مطلبهم، وأنه لا بد لربّاني أَن يستقيل قبل بداية المفاوضات بحكم كونه رئيس الدولة، فيما يدعي غفورزاي.

ويعرب عن تفاؤله بصدد باكستان أيضاً، وإِن رئيسة الوزراء بينازير بوتو قد أكدت لحكمتيار عدم مساندة الطالبان في المستقبل. وعادت العلاقات مع إِسلام آباد إِلىٰ طبيعتها، وإِن القانوني، وزير داخليَّة ربّاني سيجري مفاوضات في إِسلام آباد، عما قريب.

وبتكليف من الأمين العام أشرح في الحديث عن «المسألة الإِنسانية». وذلك أَن رئيس الدولة السابق، نجيب الله يقيم في مأوى تابع للأُمم المتحدة منذ أبريل 1992، وحتى الآن كان المجاهدون يحترمون لجوءه، ولا يخرجونه بالعنف من مخبئه، ربما لأنهم لا يعلمون أي حكم ينبغي لهم أَن يصدروه عليه. أما بطرس غالي فيشعر أَنَّه ملتزم، من جراء كلمة المفوَّض السابق، بينون سيڤان، الذي ضمن لنجيب الله مأواه في أيامه، لأنه أسهم، باستقالته، بانتقال السلطة السلمي. وفي عام 1994 كتب الأمين العام إِلىٰ العلاَّمة ربّاني رسالة، ورجا منه أَن يوعز بترحيل اللاجىء، لاعتبارات إِنسانية، إِلىٰ البلد الذي يختاره. ولم يجب ربّاني الأمين العام عن ذلك أبداً. وعندما أفاتح غفورزاي الآن بالموضوع الحرج، ينصح هذا لي بمناقشة هذه المسألة مع الرئيس شخصياً.

وبعد الظهر ألتقي في منتدى الحكومة، وهو قصر ملذّات سابق للملك، بالعلامة سيّاف، زعيم حزب الاتحاد الإِسلامي. وقد سبق لي أَن لقيت الرجل المديد القامة، الذي يزدان بلحية فضية علىٰ صدره العريض، ذات مرة في عام 1995، وقد ظلت

في ذاكرتي كلماته الغاضبة ضد الأمريكان. وحتى الآن أيضاً يبدأ علىٰ الفور بادعاء مفاده أَن الغرب نسي أَفغانستان، وقال إِنه عندما كان المجاهدون يقاتلون ضد السوفييت كان (السفير الأمريكي الخصوصي، السابق)، بيتر تومْسِن يزور الحكومة المؤقتة في بيشاور «مرتين في الأسبوع»، أما اليوم فما عاد الأمريكيون يُرَوْن في كابول. وقال إِن انهيار الاتحاد السوفييتي لقي بدايته في أَفغانستان. وألمانيا مدينة للمجاهدين بسقوط جدار برلين. ومع ذلك يساند الأمريكيون اليوم «أبناء الشيوعيين». والجنرال دوستم، المقصود بذلك، يحاكي رمانة يدوية تم إِشعالها ولا بدّ للمرء أَن يطرحها من يده بأسرع ما يستطيع، ولكن الغرب يدلِّله. وقال إِن كل السفارات مغلقة في كابول، وفي مقابل ذلك افتتحت في مزار (عاصمة دوستم) إِحدى عشرة قنصلية من جديد. وفي الوقت الذي تنقطع فيه عن كابول حركة الملاحة الجوية الدولية يُطار إِلىٰ مزار من قبل شركة بريطانية، وأسأله عن استعداد الطالبان للتفاوض، ويعرب سيّاف عن تفهُّمه، ويقول: يجب عليّ أَن أحاول كسبهم مصلحة تعاون حقيقي، وهم يفتقرون في اللحظة الراهنة إِلىٰ الإِرشاد، لقد أثارت النكسات العسكرية في نفوسهم شعوراً بعدم الأمان. ويقول فيما يشبه التعاطف: «إِنهم في حيرة من أمرهم، كالأطفال».

وأُعرِب عن اعترافي بإِرادة الحرية التي برهن عليها الأَفغان أيام الغزو السوفييتي، كما أسلِّم أيضاً بأن مناقشات الحركة

الأصولية في العالم الغربي تُخاض أحياناً بأسلوب سطحي، وذلك أَن البحث عن «أصول» الإِسلام يوضع، بدافع عدم المعرفة، في كثير من الأحيان، علىٰ قدم المساواة مع الإِرهاب. ولكن مهما يكن قولي لأكون مواتياً للسياسيّ المحافظ يظل الحوار مع السياف علىٰ وجه الإِجمال يجري في مسار عقيم.

وتحت شعاع قمر لَبَنِيّ اللون أتنزه في الليل في حديقة السفارة، وعلىٰ الرغم من الموقع المرتفع يسود الجو الثقيل الخانق. وفي كل مكان أسمع الكلاب تنبح، في الشارع، وفي مطارح القمامة، ومن الحدائق المجاورة، وأقلِّب في خاطري أحاديثي الأولى، فعلىٰ الرغم من أَن غفورزاي وسياف ينتميان إِلىٰ الحكومة ذاتها، يتابعان تصوّرات متباينة. أما غفورزاي فيرغب في التعاون مع دستم لتشكيل جبهة معه مشتركة ضد الطالبان. وأما سيّاف فيرفض التحالف مع الأوزبكي رفضاً صارماً، ويكشف مع ذلك عن ألوان من التعاطف مع الطالبان، والنتيجة التي تطرح نفسها: إِذا أتيح إِدخال دستم في حكومة ربّاني فسوف يخرج سياف منها، فحيثما يتم إِنجاز قدر من المصالحة يتم شق طريق آخر.

وفي داخل المقر تنتصب الحرارة مثل جدار، ولا أستطيع أَن أغفو. فنباح الكلاب المسعورة الشاردة يؤرِّقني. وأخيراً أرقد دونما ثياب تحت السُلَّم، أبرد مكان في المنزل، علىٰ الأريكة. وأظل ساعتين يغالبني النعاس، ولكن مفاجأة مزعجة توجد في مطلع النهار. فقد كانت السيدة ساليمي قد تنبأت بالأمس بأن

الطالبان سيكفّون عن هجماتهم بالصواريخ مراعاةً لوجودي في كابول، ولكن في الساعة السابعة يبدأ إِطلاق للصواريخ مكثَّف يدوم نصف ساعة. وتضرب خمس قذائف ضربتها بالقرب من السفارة، وتحطُّ إِحداها في الحديقة. وأتخيَّل أنني أسمع إِشارة الصواريخ التي تمرُّ بي طائرة من فوقي. وتهرب السيدة ساليمي مع الساعي المروَّع، إِلىٰ تحت السُلَّم، لأن مقر السفارة ليس فيه قبو، وهناك يتيح السُلَّم الصلب بعدُ أكبر حماية. وأنا أيضاً يسري الفزع في أوصالي. وبعقدة في معدتي أشق طريقي في التاسعة من أجل مزيد من المحادثات مع الحكومة. ويأتي للذهاب بي أوكيلو وكاواباتا. ولم يكن أصابهم شيء من الهجوم في منتدى هيئة الأُمم المتحدة، وكان ذلك مماثلاً علىٰ وجه الدقة لما تنبأ به ضابط الأمن.

أما القائم بأعمال رئيس الوزراء منذ نهاية حزيران، وهو حكمتيار، فيستقبلني في قصر الرئاسة، وهو يحدث بشخصه أثراً وُدِّياً ومتواضعاً، ومع ذلك فلا يكاد يوجد سياسي أَفغاني آخر ذو نزوات مفاجئة لا يمكن التنبؤ بها، مثله. ويرى خصومه أَنَّه امرؤ يستحوذ عليه داء الفِصام السياسي. لقد ظل أعواماً طوالاً يُعَدُّ من خصوم ربّاني المريرين، وكان، بحكم كونه عضواً في مجلس التنسيق الأعلى، قد شكَّل تحالفاً مناهضاً لربّاني، مع دوستم، وكريم خليلي. والآن عاد إِلىٰ كابول علىٰ غير انتظار، إِلىٰ تلك المدينة التي ساعد علىٰ تدميرها علىٰ قدر ما يستطيع، وهو يخدم

obeikandi.com

رئيس الدولة بصفته رئيساً للوزراء. وقد رافق تسلُّمه المنصب تساقطٌ غاضب من صواريخ الطالبان.

وما يخبرني به حكمتيار يبدو حسناً، وكأنه مستخلص من قرارات الأُمم المتحدة تقريباً، وهو يقول بادىء ذي بدء إِنه يريد إِدخال دوستم وخليلي في حكومة ربّاني، ولكن التسوية الطويلة الأمد تقتضي إِجراء انتخابات ديمقراطية تحت رقابة الأُمم المتحدة، واللوياجيركا لا تعوِّض عن هذا. وذلك أَن كل الاجتماعات القبلية التي عقدت في الماضي، في أيام الرئيس داود، ونجيب الله، وربّاني، لم تفضِ إِلىٰ شيء دائم، فيما يقول. وقال إِن الخطوة الأولى إِلىٰ السَّلام يجب أَن تكون هدنة حول كابول. وكل الأحزاب تؤيد هذا، إِلاَّ الطالبان فإِنهم يعارضونه، وينظر حكمتيار إِليَّ نظرة مفعمة بالانتظار والتوقُّع، وكانت نظرته تفيد أَن شأني هو أَن أوجِّه الطالبان توجيهاً يصبحون معه مستعدين للتفاوض.

وبعد ذلك أقوم بزيارة لزعيم حزب منشق شيعيّ، هو محمد أكبري، ومقره الرئيسي يقع بالقرب من حي الجامعة الذي دمرته القنابل. وأكبري يحدث في النفس انطباعاً مؤداه أَنَّه معتل الصحة. وعلىٰ الرغم من أَنَّه ينتمي إِلىٰ ائتلافيّي العلامة ربّاني فهو يتنبَأ بأن حكمتيار لن يوفق في حمل دوستم علىٰ التعاون مع الحكومة. وقال إِن علاقة الأوزبك بمسعود قد تعرضت لفساد عميق.

والحق أنني أعلم أَن أكبري لا يتمتع إِلاَّ بالقليل من النفوذ،

ويقتصر دوره علىٰ إِثبات تعددية الأعراق المزعومة في حكومة ربّاني. ولكن مهما يكن من ضعفه بصفته زعيم حزب فإن حكمه النقدي علىٰ الأمور الداخليَّة في قيادة الدولة لا يخلو من قيمة بالقياس إليّ.

وبعد الظهر أَلْتَقي بالرئيس السابق نجيب الله الذي يعيش منذ عام 1992 علىٰ أرض تابعة للأُمم المتحدة. ويرفرف فوق الڤيلا المخرَّبة، علىٰ سارية عالية، علم الأُمم المتحدة الذي اسودّ من الغبار حتى ما عاد يمكن تمييزه. ويُقْبِل عليَّ رئيس المخابرات السابق (الخاد) المرهوب الجانب، بابتسامة ودودة، في فناء الدار. ويبدو لي البشتوني المديد القامة أكثر نحولاً مما كنت أعرفه من الصور، وكان قد أذاب، بفضل الرياضة البدنية اليومية، عشرين كيلوغراماً، كما يقول وهو مزهوّ، وعلىٰ الرغم من اللطف والدماثة اللتين يستقبلني بهما تحدث نظرته الواخزة التي يوجهها إليَّ أثراً غير مستحب. وفي أعين معظم الأَفغان يتحمل الرئيس المُطاح به إثماً كبيراً من دماء الناس، ويحمل بذلك، علىٰ كاهله ثأراً دموياً يعدل مئات أضعاف هذا. وما كان ليأمن علىٰ حياته خطوةً واحدة خارج أرض هيئة الأُمم المتحدة.

وكان نجيب الله، الذي ولد في عام 1947، قد مارس مهنة الكتب المصورة للأطفال، ذات الصبغة الماركسية، وبلغ، وهو بعدُ في الثلاثين، مركزاً من مراكز الصدارة في الحزب الشيوعي الأَفغاني المحظور في تلك الأيام. وأصيب بصورة عابرة، في

obeikandi.com

أوغندا، وقبض عليه مراراً، وفي عام 1978 أُبْعِد إِلىٰ طهران بصفة وزير، وفي عام 1980 يصبح سكرتيراً لِلَّجنة المركزية، وفي عام 1981 يصبح عضواً في المكتب السياسي. وفي عام 1986 يخلف بابراك كارمال، رئيساً للحزب ورئيساً للدولة، ويظل من بعد انسحاب السوڤييت في السلطة ثلاثة أعوام. وفي 16 أيار 1992 يضطر إِلىٰ الاستقالة، وتخفق محاولة للهرب. ومنذ ذلك الوقت يقعد في مبنى الأُمم المتحدة، لاجئاً سياسياً، مع أخيه الأصغر أحمدزاي، الذي لا يريد، بدافع من شعوره بالشرف، أَن يتخلَّى عن الرئيس في محنته، ورئيس وزرائه السابق، تركي، وحرس شخصيّ. أما الأوزبكي دوستم، الذي ظل طويلاً أهم قواد نجيب الله، فقد عجَّل بسقوط الرئيس في عام 1992 عن طريق تبديل في تحالفه.

ويعرفني نجيب الله علىٰ أخيه، وهو امرؤ يضحك ضحكة عريضة، ويحدث في النفس أثراً باعثاً للمودة وهو في منتصف الثلاثينات، ثم علىٰ تركي المفعم بالحيوية، والذي يقوم بدور المترجم، علىٰ الرغم من أَن نجيب الله، كما يقول بفخر، تعلّم الإِنكليزية خلال إِقامته الإِجبارية التي دامت أربع سنوات. وقبل أَن نبدأ الحوار يقدم إِلينا تركي، في أطباق صغيرة، بعض اللوز والزبيب. ولا أرى خدماً يسعون بيننا، ونتخذ مجلسنا في حجرة المعيشة المتواضعة، وكنت أعتصم بالصبر ورباطة الجأش حيال ما يؤخذ علىٰ نجيب الله، لأن هيئة الأُمم المتحدة لم تتمكّن خلال

أربع سنوات من إِخراجه من البلاد، ومع ذلك فهو امرؤ لا تفوته كلمة حول مصيره الشخصيّ، وبدلاً من ذلك يسرد أحدث تاريخ لأَفغانستان. وهو في هذه المناسبة يرسم صورة جامعة شاملة حافلة بالتشاؤم، ويقول إِن حرية الأَفغان يجري قمعها علىٰ مدى قرون من جراء المصالح الأجنبية، وكان ذلك أولاً عن طريق البريطانيين والروس، ثم السوڤييت، ثم دول الجوار الآن، وفي مقدمتهم جميعاً باكستان. أما فرص نجاحي فيُقَيِّمها تقييماً متشائماً، ويقول إِنني خليق أَن أنتهي إِلىٰ الإِخفاق من جراء هؤلاء الجيران ومن جراء أمراء الحرب الأَفغان المهووسين بالسَّلام. ولاحظت في يومياتي أَنَّه حوار مثبِّط للهمم.

وبعد الظهر ألتقي برجل ربّاني القوي، أحمد شاه مسعود. وهذا القائد الطاجيكي يحدث في النفس أثراً كأنه جائع مهزول وزاهد متقشف، غير أَنَّه يؤثِّر في النفس بتحليله الدقيق الذي يُسرد بصوت خفيض، وأسأله، هو أيضاً، الذي يقال عنه إِنه خصم دستم، هل يرىٰ فرصاً لإِدخال الأوزبكي في حكومة ربّاني، ويقول مسعود إِنه يريد أَن يجادل بصفته قائد جيش. وبصفته هذه لا بد له أَن يضع دُستم والطالبان في قدرتهم علىٰ التهديد، أحدهما إِلىٰ جانب الآخر. وقال إِن كلاهما يعرف أَنَّه ليس من السهل غزو كابول. وقال إِن الطالبان غير راغبين في التفاوض، وإِن مجدّدي ومحمدي علّقا عليهم آمالاً كبيرة، وقد خابت آمالهما، وإِن خليلي (حليف دستم) يمثِّل مشكلة استثنائية، وقد تمّ

إِضعافه عسكرياً وبات مستعداً لحل وسط، وإِن دستم بات مجدَّداً مستعداً للحوار. وقال إِنه في الماضي كان قائده بهلوان عقبة في علاقات دستم بالعلامة ربّاني. ويُلَمِّح مسعود إِلىٰ أَن قتل بهلوان تمت حياكة خيوطه علىٰ يد دستم لكي تصبح يداه حرتين في التفاوض مع الرئيس.

ويؤكد لي مسعود أَن الحكومة مستعدة للحوار مع باكستان أيضاً، وأن الطالبان يشكلون بالقياس إِلىٰ إِسلام آباد في هذه الأثناء أيضاً مخاطرة لا يمكن حسبان نتائجها، وأنه قد حذَّر، منذ عهد قريب، رئيسة الوزراء بنازير بوتو منهم. وأسأله أي مصلحة لباكستان تتمثَّل علىٰ الإِطلاق في سياسة خارجيَّة بنَّاءة خاصة بأَفغانستان؟ ثم أليس مما يخدمها خدمة أفضل أَفغانستان التي أنهكتها الحرب الأهلية؟ ويرد مسعود علىٰ ذلك بالنقيض، قائلاً إِن إِسلام آباد تعتمد علىٰ طرق مواصلات مأمونة إِلىٰ آسيا الوسطى، وهذه تمر بأَفغانستان، وفي الختام أسأل عن موقف حكمتيار داخل الحكومة. ويقول مسعود بازدراء لا يخفيه إِن حكمتيار لم يتمكّن من القتال ضد كابول في السنوات الأخيرة إِلاَّ بفضل المساعدة الباكستانية. أما الآن فقد استنزف دمه حتى ما عاد في وسعه أَن يدفع أجور حرسه الشخصي.

وفي الساعة الثامنة عشرة ألتقي بالعلامة ربّاني، ويؤكد أَنَّه مستعد للتخلي عن السلطة، إِذا كان هذا يخدم السَّلام، ولكن لا يجوز أَن يحدث فراغ، ويرحِّب بانتقال الأونسما إِلىٰ جلال آباد،

ويقول ناقداً إِن المستيري لم يُرَ في أَفغانستان إِلاً في بعض الأحيان، وإِنه لم يفهم السبب الأعمق (السبب الرئيسي والأساسي) للصراع.

ويقول ربّاني إِن المستيري «تآمر» مع الطالبان، (علىٰ الرغم من أَن الطالبان يأخذون عليه النقيض علىٰ وجه الدقة). وهو يعلق آمالاً كباراً علىٰ دخول حكمتيار في الحكومة، ويقول إِن قادة آخرين سوف يتبعونه. وحتى دستم أيضاً. وأَرُدُّ بأن إِدخال حكمتيار قد لقي احتراماً كبيراً، حتى في نيويورك، وربما كان تعاونه خطوة هامة نحو المصالحة بين البشتون وغير البشتون، وخلال الحديث أعرب عن أسفي للغارة الصاروخية التي حدثت في الصباح الباكر. وقلت إِن المسألة لا تتعلق بشخصي بل بمهمة السَّلام العائدة للأُمم المتحدة. وإِنها لإِشارة تصدر في غير محلها، أَن يُرَحَّب بزيارتي الأولى لكابول بالصواريخ، وإِنني خليق أَن أقول هذا للطالبان أيضاً، ويسمع ربّاني هذا بارتياح.

وفي الختام أتطرَّق إِلىٰ المشكلة الإِنسانية، ويجيب ربّاني بأدب، غير أَنَّه لا يسمح بأن يُسْتَدرَج إِلىٰ تنازل، ويقول مؤكِّداً إِنه يبحث عن حل، غير أَن هذا الحل لا يجوز أَن ينشىء ألواناً جديدة من النزاع. ومن الواضح أَنَّه لا يريد أَن يعرِّض للخطر تحالف الحكومة الجديد مع حكمتيار من جراء لفتة تعبِّر عن حسن النيَّة يمكن أَن لا يقرّها هذا الائتلافيّ الصعب المِراس، كما يمكن أَن لا يقرّها مسعود أيضاً.

لماذا أسرد هذه الأحاديث؟ ومضمونها سرعان ما ثبت أَنَّه غير ذي صلة بالموضوع. لقد هوجم نجيب الله بُعَيْدَ ذلك من قِبل الطالبان وعُذِّب حتى الموت، ومات غفورزاي بعد عام في حادث سقوط طائرة، وقتل مسعود في أيلول 2001، لقد حصد الموت من بين شركائي في المفاوضات في تلك الأيام محصولاً دَسِماً. والحق أَن ربّاني ظل علىٰ قيد الحياة. ولكنه عاش حياة بائسة، حياة لاجىء لا يُلْتَفَتُ إِليها في طهران، فماذا يُجدي هنا بعدُ ما أعلنه هو ووزراؤه لي؟

وعلىٰ النحو ذاته أثبتُّ بعض الانطباعات لأذكِّر بالكيفية التي سارت بها الحياة والسياسة في لحظة من الزمان في كابول، قبل أَن يغزو الطالبان المدينة. وهذا يرجع إِلىٰ خمس سنوات مضت. وسوف أصف أيضاً أحداثاً أُخرى من الفترة التي قضيتها مبعوثاً للأُمم المتحدة لأصف بعض الحكام الذين كان يرتبط بهم مصير أَفغانستان في تلك الأيام، والذين ربما ظفروا بالسلطة في المستقبل أيضاً، مرة أُخرى، في عهد ما بعد الطالبان. ويحدث في الوقت ذاته من أجل الإِشارة إِلىٰ الملامح الجوهرية المُدَمِّرة لكثير من قادة الأَفغان، وسوء الظن الذي قد يستكنُّ وراء ابتسامة، والحقد الذي تتم به مراقبة الواحد لما حوله، والغيرة التي يُسْهَر بها حتى علىٰ أوثق الحلفاء صلة، ويُحْبَس عاجزاً، والمصالح الخصوصية للأعراق التي تنسجم فيما بينها، والخصومات علىٰ صغائر الأمور، والعداوات المكشوفة بين الزعماء السياسيين،

الذين كانوا بالأمس، كما هم اليوم، يحولون دون إِقامة تحالفات ذات ديمومة.

وبعض أهل النفوذ السابقين ـ وقد سبق أَن قلت هذا ـ يرون في هذه الأيام الفرصة سانحة للإِمساك بزمام السلطة مجدداً في أَفغانستان، في ظل الدرع الأمريكي، أو، علىٰ الأقل، تنازعهم نفوسهم إِلىٰ قطعة منها، ولَأَنْ نراهم اليوم، في صددهم، علىٰ قدر من الفهم والنضج السياسيّ أعلىٰ مما أظهروا في تلك الأيام وهم في ذروة السلطة، تجاه خصومهم، أمرٌ أعدُّه أنا طاقةً ووبالاً.

7

لقائي بدُستم والخليلي والطالبان

وفي الحادي والثلاثين من تموز عام 1996 أطير إلىٰ مزار الشريف، وهي مسافة قصيرة، مجرد 290 كيلومتراً، ولكن توجد فيما بين ذلك جبهة عسكرية، وحد فاصل سياسيّ. وفي المزار كان يحكم في تلك الأيام القائد الأوزبكي رشيد دُستم، وكان هذا هو الوحيد بين زعماء أَفغانستان الذي عرف كيف ينقذ سلطته، من دون أَن تضيق رقعتها، منذ أيام الاحتلال السوڤييتي، وُصولاً بها إلىٰ الوقت الحاضر. وكان فيما سلف أقوى قائد جيش عند الرئيس الشيوعي نجيب الله. ويتهيَّأ لشقاقٍ بين كلا الرجلين أَن يُحَتِّم انهياره. ولكن بينما كان نجيب الله يعيش منذ ذلك الوقت لاجئاً علىٰ أرض تابعة للأُمم المتحدة، كان دُسْتُم ينشىء في الشمال الغربي دولته الجزئية وعاصمتها مزار الشريف. ويعد جيشه حسن التدريب والتجهيز، وقادته متفانون في الولاء له، وكان في اللحظة الراهنة لا يكاد يجد حرجاً من قبل أعدائه الخارجيين. وفي

obeikandl.com

شمال غربيّ أَفغانستان يشكِّل الإِقليم الغربي بادجيس دولة صغيرة حاجزة بين هراة التي يحتلها الطالبان وبين إِقليم فارياب الذي يحكمه دُسْتُم. وفي الجنوب تصل حدود دولة دُسْتُم إِلىٰ منطقة حليفه كريم خليلي، وفي الشرق يسيطر مسعود علىٰ الأقاليم التي يقطنها الطاجيكيّون الذي لا ينبعث من قِبَلهم خطر علىٰ الأوزبك.

وكذلك يوجد تحت تصرّف دُسْتُم في إِقليمه، موجودات من المواد الخام، ولا سيما الغاز الطبيعي والبترول، وتستوطن صناعات النسيج والسجاد لديه بأعداد جَمّة، وتزدهر الزراعة في السهل الذي يُروىٰ ريّاً جيداً علىٰ طول النهر الحدوديّ، آموداريا، ويعد اقتصاد دُسْتُم اقتصاداً مستقرّاً. بل توجد للجنرال عملته الخاصة به تضاهي أوراقها النقدية مثيلاتها في سائر أَفغانستان في حالة التبادل بلا شك. وقد تفاوض، بصورة مؤقتة، كما بلغني في عام 1992 بطريق المصادفة، مع مطبعة خصوصية ألمانية، كانت تتشمَّم رائحة تكليف كبير في مزار الشريف، غير عالمة بكل التعقيدات السياسيَّة.

وعلىٰ النقيض من ربّاني، الطاجيكي، الذي لم يتخل عن حق السيادة علىٰ أَفغانستان، ما عاد دُسْتُم ينطوي علىٰ مآرب توسُّعية، منذ أَن حاول عبثاً، في عام 1994، أَن يغزو كابول. وبحكم كونه أوزبكياً يقتصر نفوذه من الناحية العرقية والتاريخية، علىٰ الشمال الغربي. ولهذا السبب أيضاً كان في تلك الأيام شريكاً لا يمكن كسبه، ولو أَنَّه تحوَّل إِلىٰ حكومة ربّاني، ووحَّد إِمكانيته العسكري

مع إمكانية مسعود، لكان من الممكن، وَقْفُ تقدم الطالبان ولكن في لحظة زيارتي، في صيف 1996 لا يرى دُسْتُم ضرورة لمثل هذا التحالف، فهو ما زال يعتقد أَنَّه محميٌّ من غارة أهل قندهار. وكان افتراض دُسْتُم الخاطىء أَن البشتون ليست أمامهم فرصة للنجاح في قلب البلاد العائد للأوزبك بالإِنطلاق من الجنوب، وهو يرى أَن من المستبعد حدوث هجوم للطالبان علىٰ مزار الشريف المحصَّنة، وكانت هذه تشكِّل، مع باميان التي يسيطر عليها حليفه الشيعي، خليلي، مملكته، فيما يعتقد، وكان يرى أنهما معقل لا يمكن احتلاله.

وفي مطار مزار الشريف يستقبلني الحاكم وعدد من الأفراد يبلغون نحو مائة، من عسكريين، وأساتذة جامعيين، وشيوخ قبائل، وممثلين للاتحادات النسائية، وتلاميذ مدارس، ينشدون نشيداً لا نهاية له. ويدسّون في يدي باقات الأزهار. ويفضى الركوب في قافلة المركبات إِلىٰ المدينة التي تفخر بأنها مكان دفن الخليفة علي، ونمر بمسجدها ـ مسجد حضرة علي، (Hazarat) الذي تجري إِعادة بنائه، وبناء علي ـ جائي نتوقف ونشاهد المتحف الصغير إِلىٰ جانبه، وما زالت تعرض تقدمات النذور العائدة إِلىٰ الملك السابق، ظاهر شاه، باحترام. ومن المؤسف أَن المبنى الرئيسي للمسجد محجوز بسبب أعمال الترميم، ثم يفضي الطرق إِلىٰ مضافة الحاكم، والحرارة قاتلة، وحين أصل يوصيني شيوخ القبائل، الذين ربما يلاحظون الليلة المسهَّدة في كابول،

«بهجعة» قصيرة أولاً، ويقودونني، في مودة، إلىٰ حجرة جانبية باردة، حيث أغوص بالفعل في أريكة، وأغفو مدة ساعة، وفي الخارج ينتظر الوفد بصبر أَن يتفضل «حاكم كل الروس» بالنهوض من فراشه.

وتمضي الأمور في مسارها بعد الاستراحة، وتظل قافلة مركباتنا تَئِزُّ علىٰ مدى ساعتين ونصف فوق طرق صحراوية كثيرة الغبار، إلىٰ شيبرغان، عاصمة الإقليم المجاور، يوزيان. وكان الدرب الصحراوي الشائك ينفض من داخلي كل احتياطات الطاقة فيخرجها، وفي سيارة الجيب يرافقني الجنرال عبد الماجد روزي، ممثل دُسْتُم العسكري، وهو إِنموذج جندي مِقدام متمرس قد احترق وجهه بأشعة الشمس، وقد عُهد إِليه بمهمة ذات أهمية خاصة، وهو يؤمِّن بقواته نفق سالانج الاستراتيجي الذي يربط مجال كابول الكبير بشمال أَفغانستان. وفي الطريق أسأل روزي مباشرة عن قتل الجنرال بهلوان، وتنبعث الحياة في قسمات وجه روزي، إذ إن الأوزبكي يقف وراء الضربة. ومع ذلك يعرب روزي عن شبهة معكوسة، ويقول إن مسعود هو الرجل الحقيقي الذي يقف وراء الحدث، وإن عملية القتل تم تدبيرها منذ مدة طويلة، وبعناية.

وفي الساعة الثامنة عشرة نصل إلىٰ شيبرغان، ويستقبلني دُسْتُم أمام المقر الرئيسي لحزبه، الحركة الوطنية الإِسلامية لأَفغانستان (NIMA). ومرة أُخرى يعرِّفونني علىٰ سلسلة طويلة من

الجنرالات والرجال الآخرين ذوي الأهمية، وكلهم ينظر في عيني نظرة فاحص، ويهزون يدي طويلاً. ويسير معي دُسْتُم، في حلة القتال ذات اللون التمويهي، ويسمّي لي كل واحد باسمه، في مزاج طيب.

ولم أكن لقيت جنرال الميليشيا حتى الآن، وكان قد قطع، في الوقت المناسب، كل الجسور التي تربطه بالماضي، وصدر عنه عفو في مستهل حكم المجاهدين، من قبل الرئيس الانتقالي، مجدِّدي، ورُقّي فيما بعد، من قبل الرئيس ربّاني إلىٰ رتبة مارشال، وكان حليفه حتى نهاية عام 1993، ولكنه يبدل تحالفاته مع ذلك في مستهل عام 1994، ويؤسّس، بالاشتراك مع حكمتيار ومجدِّدي، حلفاً ضد ربّاني، أي مجلس التنسيق الأعلى (Sapreme Coordination Council)، ويحاول غزو العاصمة. وتؤدي معارك الشوارع العنيفة إلىٰ تشويه صورة مدينة كابول التي كانت قد تجاوزت حتى الآن آثار الحرب من دون أضرار كبيرة. والآن يمد ربّاني إلىٰ الخصم السابق يد المصالحة، ولكن دُسْتُم يتردّد في الانضمام إلىٰ ائتلافه المناهض للطالبان.

وكلما ورد الحديث عن دُسْتُم أُشير إليه بلقب السفاح الذي يصفي خصومه بوحشية. وقد شق طريقه، في الخدمة من جندي بسيط إلىٰ جنرال، وقد خان نجيب الله، وتحالف بأسلوب المتقلب المذبذب، مع ربّاني وحكمتيار وخليلي والطالبان، في كل طور جديد من أطوار النزاع، وفي كل تحوُّل جديد في

المِشْكال الحربي (Kaleidoskop) يلتمس منفعته. وهنا يغلب علي الظن أَن مسار حياته مزروع بمصائر خصوم تغلَّب عليهم وبجثثهم، ولكن هناك أيضاً دُسْتُم الآخر، الذي يتعامل مع الجندي البسيط منتقلاً من مثيل إِلىٰ مثيل، ويسره أَن يسميه «دُسْتُم» (الفتى)، وهو ما وهب له، هو نفسه، فيما يقال، هذا اللقب. وفي مزار الشريف يلقاني دُسْتُم سياسياً وشريكاً له أهميته في التفاوض. وفي بعض الأحيان يعاملني بمودة قائمة علىٰ روح رِفاقية، وهو يحدث في النفس انطباعاً رجولياً وفي بعض الأحيان انطباعاً فيه غِلظة وجلافة، ولكنه يعرف كيف يضحك، وهذا فن يكاد يفتقر إليه كل شركائي الباقين في التفاوض، وكانت ضحكة دُسْتُم العريضة تجذبني شيئاً ما. وهو ينطوي علىٰ نوع من مرح الدببة، ويحب أَن يؤكد ما هو مهم في حديثه بالإِيماءات القوية، وأن يصور ما هو غير ذي أهمية في صورة الشيء التافه.

وفي داخل دار حزب (نيما) نرتقي سُلَّماً عريضاً، وفي الأعلى، في قاعة الجلوس يحيّيني دُسْتُم مرة أُخرى أمام كاميرات التلفاز التي تؤدي عملها، ويعرفني علىٰ مستشاريه المقربين، وتفوح من المقر الرئيسي رائحة اللون المطليّ حديثاً، ويقال إن مؤسسة من دبي قد أنجزت البناء من عهد قريب، فيما يروي لي دُسْتُم، ويعرض عليّ، بفخر، جهاز تلفاز عريض الشاشة يقال إن بنازير بوتو أهدته إليه، ونستقر علىٰ كراسيٍّ من المخمل سودٍ، كل في مواجهة الآخر، يفصل بيننا فضاء من الهواء يبلغ طوله عشرة أمتار.

وفي بداية حديثنا يؤكد دُسْتُم أَنَّه يتعاون معي تعاوناً وثيقاً مثلما تعاون مع سلفي، المستيري، وهو وعد ملتبس المعنى، لأن الجنرال يشكو، في النَّفَس ذاته من أَن المستيري لم يُرَ في مزار الشريف طوال شهور، ثم ينتقد العلامة ربّاني، ويقول إِنه يوزّع المناصب فمجلس الوزراء من دون أَن يفكر في الحزب الموجود في مزار الشريف، حزب نيما، وأسأل دُسْتُم هل تراه يريد المشاركة في حكومة ربّاني. ويؤكد الجنرال أَنَّه كان في البداية مستعداً للتعاون، وأنه وافق أيضاً علىٰ أَن يظل ربّاني رئيساً للدولة بينما كان هو وزير دفاعه. ولكن مسعوداً خَرَّب هذا في وقته، ولكنه أدرك في هذه الأثناء أيضاً أَن دُسْتُم لا يمكن قهره عسكرياً، ويتحول إِلىٰ التفاوض، ويعرض عليه ربّاني، مجدَّداً، منصب نائب الرئيس، فيما يؤكد الأوزبكي. ويقول إِنه أجرى مراراً اتصالات هاتفية مع رئيس الوزراء حكمتيار.

ويتدخّل ممثل الهزارا، العلامة محقّق، وهو فتى شاحب يحدث انطباعاً يوحي بالتجهُّم، ويقول مطالباً إِنه لا ينبغي لربّاني أَن يدعي الحق في احتكار السلطة، ولا يجوز أَن تُهْضَم حقوق الهزارا، ويضيف دُستُم بأسلوب ساخر، قائلاً: «عندما أصبح وزيراً للدفاع (أي أصدر الأوامر إِلىٰ الجيش) ويكون خليلي نائباً للرئيس أكون مستعداً للتعاون مع كابول».

وفي الصباح التالي أتناول إِفطاري مع الحاكم، ويقدم إِلينا خروف مشوي، أمّا أنا فألازم أرغفة العسل، والعسل والشاي

الأخضر. وفي العاشرة يودعني دُسْتُم في المطار، وأسأل الجنرال هل يمكن أَن يُحَسِّن العلاقة بربّاني إِجراء يبني الثقة، مثل تبادل الأسرى، ويرجوني دُسْتُم أَن أكرس جهدي لإِطلاق سراح جنراله في سلاح الجو، حفيظ، الذي أطلقت النار علىٰ طائرته قبل ثمانية شهور فوق كابول، ويقول دُسْتُم إِنه علىٰ استعداد لإِطلاق اثنين من أسراه في مقابل ذلك، وهما رئيس المخابرات السابق في إِقليم بلخ، والقائد مولوي ظاهر. وأَعِد بأن أكرّس جهودي من أجل ذلك لدى ربّاني. وعند الظهر تحطّ طائرتي مرة أُخرى في إِسلام آباد.

وباكستان من أهم شركائي في الحوار، ولكن الحكومة تتركني أنتظر، ولم تكن قد غفرت للأمين العام أَنَّه قد أتيح للروس أَن يرسلوا مستشاراً إِلىٰ فريقي. والآن يَدَعونني أحسّ باستيائهم، ولا يعطيني وزير الدولة في وزارة الخارجيَّة، نجم الدين شيخ، موعداً إِلاَّ بعد أسبوعين من وصولي. وفي هذه المناسبة نحن نعرف بعضنا بعضاً من بون حيث قُبِلَت أوراق اعتماد وزير الدولة حتى خريف 1990 سفيراً. وفي مستهل الحديث يصرح لي بأنّه ما من بلد آخر عانَى من النزاع الأَفغاني مثل الذي عانت منه باكستان. وما زال يعيش علىٰ الأرض الباكستانية 1,5 مليون لاجىء أَفغاني. وقال إِن إِسلام آباد ترى في أَفغانستان الجسر الذي يفضي إِلىٰ آسيا الوسطى ولها مصالح اقتصادية في توطيد السَّلام في هذا الإِقليم. وبعد هذا التمهيد السلمي يزداد نجم الدين وضوحاً. لا يجوز

لحكومة في كابول أَن تمارس سياسة موجهة ضد باكستان، كما يطالب هذا. والمسؤول عن سوء العلاقات بين القيادة الأَفغانية وإِسلام آباد هو العلامة ربّاني، وقال إِن باكستان ترغب في الحوار مع كل الأحزاب. وإِنه لا يجوز أَن ترتبط محاورات الأَفغان بشروط مسبقة. ولا يجوز لقندهار أَن تطالب باستقالة ربّاني بصورة مسبقة، ولا لكابول أَن تطالب بهدنة بصورة مسبقة.

وأبدأ بمشكلة الطيارين الروس في قندهار. وكان نجم الدين أيضاً قد ناقش هذا الموضوع في موسكو، وقال إِن النداءات الباكستانية، الموجَّهة إِلىٰ طالبان، بأن يطلق علىٰ الأقل سراح أعضاء طاقم الملاحين الذين ينوؤون بعبء ثقيل من الناحية النفسيَّة ليكون ذلك بمثابة لفتة تعبّر عن حسن النيَّة، لم تُفْضِ إِلىٰ شيء. ثم أسأل عن رأي نجم الدين في فرض حظر علىٰ الأسلحة، ويقول إِن هذا يعد في عواصم الغرب غير متوازن لأنه يصيب نظام ربّاني بالنظر إِلىٰ الظروف الطبوغرافية، إِصابة أفدح من إِصابة الطالبان. ويسلِّم نجم الدين بأن السهر علىٰ حراسة الحظر أمر أصعب في أراضي أَفغانستان الجبلية. وقال إِن هذا يأتي في صالح الطالبان. ولكن هل يستطيع مجرد قرار ملائم من مجلس الأمن أَن يكوِّن حافزاً سياسياً نافعاً، وحده، وكان من بواعث اندهاشي أَن وزير الدولة لا يقف نشيطاً إِلىٰ جانب حظر الأسلحة الذي تطالب به حكومته.

وفي الختام يذكر نجم الدين «الاحتجاج الهادىء» من قبل

باكستان علىٰ إدخال المستشار كابولوف، ويقول إِن النقد لم يكن موجهاً ضد روسيا، بل ضد انتهاك المبدأ غير المكتوب وهو وجوب أَن لا يشارك ممثلو الدول المهتمة بأَفغانستان علىٰ وجه الخصوص في مهمة السَّلام الخاصة بالأُمم المتحدة، وأستمع إِلىٰ وزير الدولة صامتاً. وتبدو كلمات نجم الدين التقريعية كرعد يأتي من بعيد، وتذكر بعاصفة آخذة في الانسحاب.

وفي الخامس من آب أطير أول مرة إِلىٰ المدينة الملكية، قندهار، وهي الآن معقل الطالبان وثمة بريق من السِرِّيَّة يحيط بتلاميذ مدرسة القرآن. ولم يكن قد رأى وجه زعيمهم، الملاّ عمر أجنبي حتى الآن، حتى ولا لقيه وسيط الأُمم المتحدة المستيري، المسلم.

وفي المطار الأمريكيّ الإِقليميّ الفسيح، الذي يقال إِنه أنشىء من قبل الرئيس آيزنهاور ليكون قاعدة أمريكية إِقليمية، علىٰ بعد ثلاثين كيلومتراً قبل المدينة، يستقبلني الناطق المحلي (المنسِّق المقيم، لهيئة الأُمم المتحدة الأمريكي الشاب، ومدخن الغليون الأنيق، بيل بيرجكويست)، الذي يلازم قندهار منذ خمس سنوات ويعرف معظم الطالبان معرفة حسنة. وأثناء الرحيل الذي يدوم ثلاثة أرباع الساعة، إِلىٰ المدينة، يروي لي أَنَّه بفضل السادة الجدد عاد الهدوء والنظام، وأن الأسلحة جمعت، وتوقفت التجاوزات العلنية الدائمة، وأن الهدوء يسود حتى في الليل. وبات الناس يطمئنون من جديد إِلىٰ استتباب الأمن في الطريق. وقال إِن الحياة

في المدينة كانت لا تطاق من جراء تعسُّف القادة المحليين قبل دخول الطالبان، وأن الطالبان قد وضعوا نهاية لهؤلاء، وقال إِن معظم القادة قد طُردوا في تلك الأيام، وقد شُنق أحدهم علىٰ الطريق إِلىٰ المطار، وكان الارتياح لنهاية سيطرة القادة يُلاحظ علىٰ بيرجكويست.

ويلفت نظري أنَّه لا يُرى في صورة الشارع إِلاَّ القليل من النساء، إِذ يمشين جميعاً محجَّبات حتى رؤوس أصابع أقدامهن. ولا يكشف الوجه إِلاَّ الفتيات الصغيرات، وهن يظهرن عدم ارتباكهن وفضولهن مثل أخواتهن في المجتمعات الغربية، ويقول لي برجكويست شارحاً إِن قندهار كانت علىٰ الدوام مدينة محافظة، وحتى منذ أيام الملك ظاهر شاه، في الثلاثينات اضطرت مدرسة للبنات إِلىٰ إِغلاق أبوابها بعد أيام قلائل من الافتتاح، من جديد، بسبب احتجاجات السكَّان، وقال من حُسْنِ المشورة لي أَن أراعي، في مسألة النساء، تقاليد البلاد أيضاً عند الحكم علىٰ موقف الطالبان. وقال إِن النساء يخرجن محجَّبات حتى في الشمال في ظل نظام حكم القائد مسعود الذي يقال إِنه متنوِّر، إِذ نَشَأْنَ في ظل هذه التقاليد.

وحتى المدينة الملكية السابقة تبدو قد فسدت بسوء التدبير، وبدت عليها آثار جراح الحرب. وفي كل مكان أرى مباني متداعية من الطين، ويوجد هنا وهناك جدار إِسمنتي متهدِّم يشهد علىٰ رفاهية المالك السالفة، ونمضي بالسيارة علىٰ طول قناة حُفِرت

obeikandi.com

لتصريف المياه علىٰ نحو مرتجل. وفي المجاري المكشوفة تتجمّع مياه القاذورات السود، وإلىٰ جانبها تماماً تباع الخضار واللحوم. وتجري العربات الخشبية المزدانة بغزل البنات والأجراس الصغيرة الرنّانة ذات الخيول الصغيرة الضامرة التي تبعث علىٰ الرثاء، في الشوارع. وعلىٰ البُعد أرى القبة المكسوة بالقيشاني لمسجد ضريح أحمد شاه دُرّاني، ذات اللمعان والبريق، ودُرّاني هو الذي أسَّس أَفغانستان الحديثة، ولكن أي حداثة هذه التي تتسم بها أَفغانستان المتخلِّفة، المفكَّكة العُرىٰ والمفاصل؟

وعند مبنى البنك المركزي الأَفغاني الذي دمّرته القنابل يُجاء بي إلىٰ مضافة الحاكم، وهي مبنى منخفض خالٍ من الزخرف، مطليّ بالأخضر، في حديقة مخرَّبة، ويتحلّق حول سيارتنا الجيب رجال شاكّو السلاح، ولكنهم يعاملونني باحترام، وأُقاد إلىٰ قاعة المفاوضات، ويفترض أن تعمل الستائر الصفيقة أمام النوافذ علىٰ تأمين البرودة. فالخارج تبلغ درجة الحرارة 45 درجة في الظل، وننتظر عشرين دقيقة، ولا يأتي أحد لتحيَّتي، ويواسيني برجْكويست، ويقول إن الانتظار من الأمور الطبيعيَّة عند الطالبان.

وأخيراً يظهر ثلاثة أعضاء من المجلس الأعلى، الملاّ محمد حسن، الذي يقدِّم نفسه علىٰ أنَّه وكيل الرئيس، ثم مُلاّ آخر يدعى محمد حسن، حاكم إقليم قندهار، ومُلاّ جليل، مستشار العلاقات الخارجيَّة، ويتألَّف المجلس الأعلى، أَو مجلس الشورى، من ستة رجال، ويجسِّد حكومة طالبان المؤقتة. وهدفها غزو كابول،

وبمجرد أَن تغدو العاصمة في حوزة الطالبان سوف تتحوَّل الحكومة المؤقتة إِلىٰ حكومة نهائية. وعلىٰ هذا فعلاقتي تتصل بثلاثةٍ من أعضاء الحكومة ذوي أهمية، بوكيل رئيس الوزراء، وبالحاكم المحليّ بصفته مضيفاً، وبوزير الخارجيَّة.

ونجد مكان قعودنا علىٰ أرائك أنهكها القعود عليها، من قماش القطيفة، أمام موائد منخفضة. ويُقدَّم إِلينا الشاي والفستق، وأتأمَّل مضيفِيَّ اللذين بات وجهاهما مألوفين عندي علىٰ مدى الشهور، علىٰ أَن بعض هؤلاء الرجال يبعثون في نفسي تداعيات علىٰ نحو تلقائي عفوي. فالحاكم محمد حسن، مثلاً، وهو الذي يسحب، تحت ثوبه عكازاً خشبياً بدائياً، بغير كلفة (إِذ كان قد فقد أحد ساقيه في الحرب ضد السوفييت، حتى الركبة)، يذكرني، بوجهه المستدير، الودود، بصورة زيتية ريشة لوكاس كراناخ، وبصورة الأمير الناخب، فريدريش الحكيم، والفتى الشاحب، المنطوي علىٰ نفسه، الملاّ جليل، الذي يغلب عليه أَن يبسم مُطْرِقاً، مخلداً إِلىٰ الصمت، يضاهي لوحة من العصر الوسيط، وفيما بعد سوف أتعرَّف علىٰ قادة آخرين من الطالبان، أقل مودة، ومنهم «المحامي العام» الذي يوحي مظهره بالفظاظة، والملاّ عباس، الذي يصبح بعد ذلك وزيراً للصحّة، ويقعد في مجلس الشورى الوطني، أَو رئيس الوزراء، الملاّ رباني، الذي تمَّ تحميله المسؤولية شخصياً عن مقتل نجيب الله، والذي كان، علىٰ ما كنت أتخيّل، امرءاً تُقْرَأُ سيماء القسوة علىٰ وجهه. وفي 17 نيسان

2001 مات ولم يتجاوز عمره الخامسة والأربعين، بالسرطان. أمّا الملاّ عمر نفسه، وهو الأب الرحي والسياسيّ للحركة، فلم تُتَحْ لي رؤيته أبداً، إذ أبى أن يستقبلني، من حيث المبدأ، بحكم كوني غير مسلم، ويضاف إلىٰ ذلك أنَّه لم يكن له بدّ أَن «يعاقبني» لأنني لم أحرص علىٰ أَن يتمكن الطالبان من احتلال مكان أَفغانستان في الجمعية العمومية للأُمم المتحدة.

وَلْأَعُدْ إلىٰ لقائي الرسمي الأول مع المُلاّت. ففي البداية تُتْلىٰ آية من القرآن، ثم يطلب إليّ أَن أكون أوّل من يتكلّم، وأنطق ببعض كلمات التحية، ثم أنتظر الجواب، ولكن يُطْلَبُ مني مُجدَّداً أَن أستأنف تفصيلاتي، والآن أتحدث عشرين دقيقة، وأَدَعُ، من جانبي، بعض آيات القرآن تنساب، وأقول أخيراً بالعربية إننا نحن جميعاً أولاد الله، ويقول الملاّ جليل وهو يبتسم، مصحِّحاً: «كلاَّ، بل نحن عباد الله»، وذلك أَن لغة المسلم تختلف عن لغة المسيحي.

ويسألني حسن، هل أتيت معي بخطة سلام، وأجيب بالنفي، غير أني أدلي باقتراحات، بمجرد أَن أكون قد اختتمت عمليات جسّ النبض، ويثني حسن علىٰ العلاقات بين أَفغانستان وألمانيا، ويرحِّب بتولّي ألماني قيادة بعثة الأُمم المتحدة، ثم يشرح تاريخ نشوء الطالبان، ويقول إن الأَفغان قاتلوا أربعة عشر عاماً ضد السوڤييت، وبعد انسحابهم عاد التلاميذ الذين يدرسون القرآن

أدراجهم إِلىٰ مدارسهم، ولكن وضع السكّان بات لا يطاق في ظل حكم من يُسَمَّوْن بالمحررين، وأن المجاهدين قد نهبوا البشر، وعلىٰ أثر ذلك جمع الطالبان شملهم ليحرروا البلاد من حكم قادة الأحزاب. وقالوا إِنه في البداية عرض عليهم (العلاّمة) ربّاني محادثات سلام، ولكن كلما أراد الطالبان أَن يتفاوضوا ليقيموا حكومة «إِسلامية حقاً»، يلجأ مسعود إِلىٰ السلاح، وقالوا إِنه لولا التدخل الأجنبي لكانت مشكلة أَفغانستان قد حُلّت منذ عهد بعيد، وإِن ربّاني لا يعيش إِلاّ بالمعونة الروسية، والهندية والإِيرانية. أمّا الوساطة الدولية فيرفضها حسن، قائلاً إِن حلّ المسألة الأَفغانية أمر يخصّ الأَفغان وحدهم.

والآن أسأل عن مصير ملاحي الطائرة الروس، ويردّ الملاّ قائلاً إِن هؤلاء مجرمون، وإِن طائرتهم نقلت أسلحة، ومن يطالب بإطلاق سراح الملاّحين علىٰ أَنَّه لفتة إنسانية ينبغي له أَن يفكّر بالضحايا البشرية من الأَفغان، وقال إِن الطالبان طلبوا معلومات من موسكو عن جنود مفقودين لكي يرتّبوا شؤون تركاتهم ومخلّفاتهم، ولكن موسكو رفضت تقديم أي معلومات، وأستفسر عن ظروف معيشة المعتقلين، وألتمس أَن تتاح لي رؤيتهم، ويردُّ حسن قائلاً إِن هؤلاء الرجال يعاملون معاملة الضيوف، وإِن الطالبان يحترمون حقوق الإِنسان، وبعد بعض المداورة يسمح لي بالحديث مع الروس.

وقد تمّ إيواؤهم في الطابق ذاته، في مبنى منخفض، يحيط به

جدار مرتفع، ويقعد علىٰ السطح أحد الحرس والبندقية الآلية بين ساقيه اللتين وضعت إحداهما علىٰ الأُخرى، وكان يلعب تحت أشجار الحديقة المخرَّبة رجلان بكرة قدم من القماش المهترىء. وثمة رجل آخر يستمع من راديو ترانزيستور إِلىٰ أغنيات أمريكية من دون أَن يتقدم الحارس نحوه بسبب انتهاك حظر الموسيقا. وعلىٰ الفور يحتشد الروس حولي، فأنا الأوروبيّ الأول الذي يزورهم منذ وقوعهم في الأسر. ولا يبدو أَن أحداً من هؤلاء الرجال يفهم الإِنكليزية. وهم يعيشون منذ عام محشورين معاً في هذا الكوخ. والحالة النفسية متوترة، بل تكاد تنذر بالخطر، وأحوال الرجال متباينة، فمنهم من يحدث انطباعاً يوحي بأن صحته حسنة نسبياً، ولكن آخرين منهم يحدثون انطباعاً يوحي بالكآبة والقنوط والسَّقم. ويتولى رئيس الطيارين، شارباتوف، وهو رجل في الخمسين، ذو لحية ليفيّة بيضاء، تقديم الملاّحين إليّ. وأخيراً يعلن عن نفسه أحدهم الذي يتحدَّث بإنكليزية متعثِّرة، ويقوم بدور المترجم.

وعلىٰ الفور ينهال عليَّ الأسرى بمآخذهم، قائلين إن كل المعلومات انقطعت عنهم منذ عام، وقالوا ماذا تفعل الأُمم المتحدة من أجل إطلاق سراحهم؟ وهل تتفاوض موسكو مع الطالبان، إنهم يريدون أَن يعرفوا. ثم يطالبون بأن يزورهم ممثِّل لهيئة الأُمم المتحدة زيارة منتظمة، ويأتيهم بالصحف، وأتحدَّث إليهم لأبعث في نفوسهم الاطمئنان، وأخيراً يسلمونني التماساً

يصوغونه علىٰ ورقتين منتزعتين من كراسة، بإنكليزية متعثِّرة، احتفظت به للذكرى.

وحين أودعهم بعد ساعة، يطلب إليَّ شارباتوف، ونحن علىٰ انفراد، أَن أنقل إِلىٰ الطالبان التماساً. وذلك أَن طائرة النقل الروسية رابضة منذ عام في المطار، وهي في حاجة ماسّة إِلىٰ الصيانة، وقال إن إطارات المطاط قد أصبحت، علىٰ الأرجح، مفرطة مَسْحاء، وأنه لا بدّ لفريق الملاحين أَن يصعد إِلىٰ ظهرها ليتفقدها، وربما للقيام بطلعة تجريبية أيضاً. وأنظر في وجه الطيار غير مصدِّق، ماذا، هل يطالبني بأن أساعد الروس في محاولة منهم للهرب؟ أتراه يحسب الطالبان قوماً سُذَّجاً. ومع ذلك فقد قرَّرت أَن أحدث حسن مرة أُخرى، وأنقل إليه مطلب الروسيّ.

وأستبق الأحداث إِلىٰ حد ما، وبعد تسعة أيام، أي في الرابع عشر من آب، ألتقي بالسناتور الأمريكي، هانك براون الذي أعرفه من واشنطن، مرة أُخرى في إِسلام آباد، وكان هو أيضاً في قندهار وقد زار الطّيّارين. ويقيم براون في فندق ماريوت. وعند حوض السباحة ألتقي بأمين سره الشخصيّ، وهو باحث شاب في علم السياسة، وكان يقطع مسافات في الماء، وحين يعرفني يخرج من حوض السباحة، ويورِّطني علىٰ الفور في مساراتٍ من الأفكار معقَّدة، ويشرح لي بكل التفاصيل لماذا لن يوافق الطالبان أبداً علىٰ إطلاق سراح المعتقلين، ويقول إن هؤلاء سيقضون سنين أُخرى أيضاً رهن الاعتقال، وأنا أفضل ما تفعله الأُمم المتحدة أَن تعيِّن

لجنة خاصة لتحرير الروس، وهذا ما يقترحه في الختام، وحين أعود إِلىٰ حجرتي، وأفتح المذياع لسماع أخبار هيئة الإِذاعة البريطانية، أسمع وأنا مذهول، أَن المعتقلين قد فرّوا لتوهم، علىٰ ظهر طائرة النقل العائدة إليهم، إِلىٰ الشارقة، في الإِمارات العربية المتحدة.

فكيف حدث التحرُّر الذاتي؟ لقد سمح الطالبان للروس، بالفعل، كما بلغني فيما بعد، بالصعود إِلىٰ الطائرة، وسمحوا لهم بتفتيشها، ثم سمحوا لهم حتى بطلعة تجريبية، ولمّا كان الحرس المألوفون في العادة منصرفون إِلىٰ صلاة الجمعة، فقد تغلب الروس علىٰ حرس الطالبان الباقين في الطائرة، وأقلعوا، في طيران منخفض، تحت مستوى شاشة الرادار، عبر صحراء غربي أَفغانستان، ثم عبر إيران، حتى الخليج، وكان عليهم في هذه اللحظة أَن يدخلوا في حسبانهم أن تُطْلَق عليهم النيران من قبل الطالبان أَو الإِيرانيين، ولكن الحظ كان إِلىٰ جانبهم، فلم يحدث شيء. ولم تنطلق طلقة، ولم تصعد طائرة مطاردة. وبعد أسبوع يستقبلون من قبل الرئيس بوريس يلتسين في موسكو استقبال الأبطال.

ويَسْتَعِر الغليان في مطبخ الشائعات في إِسلام آباد. هل شارك الطالبان في هذا؟ وهل تمت صفقة سرية مع موسكو؟ أمّا أنا فلم أتلقَّ أبداً إشارة إِلىٰ مثل هذا التواطؤ. وحتى مستشاري الروسيُّ كابولوف الذي حمل إليّ بعض المعلومات من موسكو لم يأتِ

بضوء في خضم هذا الظلام. أمّا حرس الطالبان الذين اختطفوا إِلىٰ الشارقة فلم يعودوا بعد ذلك إِلىٰ قندهار، ويبدو أنهم قدَّروا العقوبة التي كانت خليقةً أن تنتظرهم هناك. وهذا أيضاً لا يؤيد تصوُّرَ لعبة مدبَّرة. وما زلت أعتقد حتى اليوم أن الاستهتار البحت عند الطالبان هو الذي مَكَّن من حدوث هذا المقلب.

وَلْأَعُدْ إِلىٰ جولتي. فبعد بضعة أيام أطير إِلىٰ باميان، وألتقي بكريم خليلي، زعيم حزب الوحدة الشيعي. ويتألّف سكّان إِقليم وسط أَفغانستان من الشيعة في أغلبيَّتهم. وكانوا قد هاجروا، من منغوليا، علىٰ أن الأرض الجبلية التي يعيشون فيها، صعبة المسالك، وقد عانت موسكو من الكثير من المصاعب في التعامل مع الهزارا، وباميان هي آخر إِقليم أَفغاني يسقط في أيدي السوڤييت، وهي أول إِقليم يحرّره المجاهدون من جديد، وعلىٰ الرغم من أن باميان تقع في قلب أَفغانستان من الناحية الجغرافية، فهي تتخذ موقعاً هامشياً من الوجهة السياسيَّة. وهي تظل زمناً طويلاً لا تكاد تمسُّها الصراعات التي تدور في الأجزاء الأُخرى من البلاد، وهي تعيش حياتها الخاصة.

وفي لحظة زيارتي يكون خليلي متحالفاً مع الجنرال الأوزبكي دُسْتُم، ويجمع بين الأوزبك والهزارا قدر ينطوي علىٰ قرون من الاضطهاد السياسي والاجتماعي من قبل البشتون. وكلا هذين يقفان من حكومة ربّاني في كابول في تلك الأيام علىٰ مسافة حرجة. ولمّا كانوا ضعفاء من الناحية العسكري، وكانوا يعتمدون

علىٰ مساندة دُسْتُم وطُرق الإمداد التي تفضي إلىٰ الشمال، فإن أحب الأمور إلىٰ حزب الوحدة أن يتعايش تعايشاً سلمياً مع كل الأحزاب. أمّا أن الحزب قد انقسم علىٰ نفسه، وانضم «الخائن» محمد أكبري، إلىٰ العلاّمة ربّاني، فذلك ما يُعزىٰ إلىٰ النفوذ الإيراني.

وكان المطار قد تمّ قصفه في اليوم السابق من قبل الطالبان، ولم يكن بدٌّ من إصلاحه، ولذلك يتمّ العدول بطائرتي عن طريقها إلىٰ ياكؤولانج، علىٰ مسافة ثمانين كيلومتراً إلىٰ الغرب. ويقع مدرج الهبوط الاحتياطي علىٰ ارتفاع 2600م، في عالم جبلي بديع، والمدرج الترابي الزراعي غير معبَّد، فلا شيء سوى أرض موطوءة بالمداخل وهو مزروع بحجارة في مثل حجم قبضة اليد. وأتساءل هل تصمد طائرتنا ابيتش كرافت للهبوط القاسي، ولا وجود لمنشأة رادار بالطبع، وكلا الطيارَيْن الدانمركيَّيْن يطيران بتوجيه مباشر، أي بالاعتماد علىٰ النظر بالعين. ويرسمان أولاً دائرة، لتحديد الوضع، لأن المَدْرَج لا يكون في بداية الاقتراب منه قابلاً للاستكشاف بالعين، وقبيل الهبوط نضطر إلىٰ أن نطير علىٰ منزلق خَطِر بين صخرتين ضيقتين فنفرغ منه، وأنا أثِق بالرجلين اللذين يبلغان العشرين ثقة كاملة.

Tete-a-tete (Tэuт à Tэuт)

1 The security counsel of the United Nations twice issued decision about our immediate release without any stipulations. Why doesn't United Nations put it's superior organ's decision into the practice?

2 Talibs demand information about their citizens, which as if were taken by force to the Soviet Union and have been retained there, but talibs do nothing to argue their demand. The answer was given by Russian delegation, and representatives of U.N. and I.K. were present there. This answer satisfied talibs and they promised to release our crew on the 30th of December 1995 without any additional stipulations. But this still hasn't been done. Why does U.N undertake nothing to execute this vow. Why doesn't U.N. disprove talib's declakation. We

Mir am 5.8.96 von den 7 russ. Piloten in Kandahar übergeben.

(التماس طاقم ملاّحي الطائرة الروسية الذين اعتقلوا في قندهار، في 5 آب، 1996).

obeikandl.com

وقد ظهر، للترحيب بي، مائتا نفر، وكثير من الجند ذوي القامة القصيرة، الذين تلوح عليهم سيماء المغول. وحُلَلهم منحرفة غير معتدلة، ولكن نظرتهم مصوبة إِلىٰ الأمام في نظرة مستقيمة، تنطوي علىٰ الزُهُوّ، ووراءهم وفد من المثقفين، من أساتذة الجامعات، ومعلمي المدارس، وممثلات الجمعيات النسائية، وتذكر في المراسم بمزار الشريف، ويمطرني تلاميذ المدارس بوابل من الأزهار ذات العبير الفوّاح، ويأخذون في نشيد مؤلَّف من الكثير من الفقرات، ويُرَحب بي الدكتور طالب، بصفته ممثلاً لخليلي، وهو طبيب متمرِّس، له وجه معبِّر، حافل بالنُدَب. ونظل ثلاث ساعات نسير في سيارة الجيب فوق ممرات جبلية، وأسأل الدكتور طالب، الذكي، عن الوضع السياسيّ، ويقول هذا إن حكومة ربّاني لن تصمد علىٰ المدى الطويل، ويقول إن الأمر الحاسم هو ما ترغب فيه باكستان، وإن إِسلام آباد لم تتخذ حتى الآن سوى موقف «تكتيكي» ولكنها ما زالت لا تدع ما يكشف عن أهداف «استراتيجية»، وأسأل طالب كم يوجد من الهزارا، ويقول الطبيب: مليون، ويوجد تحت تصرف كريم خليلي قوة مقاتلة تتألّف من عشرين ألف مقاتل، ثم يسألني طالب سؤالاً غير مستحب إِلىٰ حد ما: كم أبلغ من العمر، وأرد قائلاً وأنا أضحك في وجهه، كاذباً: «خمسين» ذلك لأنني لو كشفت لهذا المفاوض الذي حنكته التجاريب عن أن عمري يصل إِلىٰ الستين لكنت خسرت في اللعب معه.

وألتقي بخليلي، زعيم الهزارا عند بندري ـ أمير، وهي بحيرة

جبلية في مثل زرقة الياقوت، ذات جمال فريد، وتظل هذه ترتقي الأرض الصخرية، الجرداء من الأشجار، والتي ترتفع ثلاثة آلاف متر، علىٰ خمسة مُنْبَسَطات متدرجة، بل تدخل فيها وتتواءم معها، وهي تعرض، علىٰ كلٍّ من المنبسطات سُلَّم الألوان، من الأزرق الداكن إلىٰ الفيروزيّ المُشْبَع. وعلىٰ الضفة، وتحت مسجد متداعٍ، كان خليلي قد أوعز بنصب خيمة، كان يخرج من ظلها ـ ويكاد ذلك يحضر في ذهني: باحتفاليةٍ كاحتفاليّة الكهان ـ وهو امرؤ فارع الطول، له لحية رمادية تتدلّى علىٰ صدره، ويمدُّ يده لمصافحتي بابتسامة ودية، قائلاً إنني أول وسيط من هيئة الأُمم المتحدة يأتي إلىٰ باميان، وكان يقول ذلك بارتياح يلوح من خلال صوته.

ونشرب الشاي في الخيمة التي يروح فيها الهواء ويغدو. وفي هذا المحيط المُشْبَع بالانسجام يغدو من الصعب أَن أتحدث عن الحرب وأشرع في مفاوضات تتسم بصفاء الذهن. وكنت لا أكاد أصغي إلىٰ ما كان لدى خليلي من أقوال يقولها لي، وكان يطالب بالعدالة لشعبه، ويقول إنه لا بد من وضع حد لاحتكار السلطة من قبل حكومة ربّاني، وإن كابول رفعت السلاح في وجه الهزارا، ويؤكد خليلي أَنَّه يتفاوض مع الطالبان ومع ربّاني في وقت واحد، وأن الحوار مع كابول يسير سيراً غير مُرْضٍ، وأنّه، أي خليلي، عمل، طوال عام، وزيراً للمالية عند ربّاني، ولكنه ما عاد مستعداً لذلك، وأن الحكومة تفتقر إلىٰ المشروعية. وأنه لا بدّ لربّاني أَن

يستقيل بصفته رئيساً، ثم ينبغي لهيئة الأُمم المتحدة أَن تطرح خطة سلام تضمن لكل الأعراق حقوقاً متساوية، وأسأل، كيف تسير المفاوضات مع الطالبان، ويقول خليلي إِنه لا يجوز لتلاميذ مدارس القرآن أيضاً أَن يَدَّعوا الحق في احتكار السلطة. ثم يطالبني بأن أحرص علىٰ وضع نهاية للتدخّل الأجنبي. أما احتمالات الهدنة حول كابول فيحكم عليها حكماً متشككاً، ومع ذلك فهو يساند حظر السلاح المقترح من قِبل الولايات المتحدة وأوزبكستان، علىٰ الرغم من أَنَّه سوف يحسّ، هو نفسه، أكثر ممن عداه، بآثار هذا الحظر.

وتقدم للغداء أطعمة بسيطة. وفجأة يظهر وفد من النساء مؤلف من خمسة أنفار، واثنتان منهن طبيبتان، وإِحداهن قد درست في كراتشي، وتطالبني الموفَدات بالحرص علىٰ تأمين السَّلام والتربية والغذاء لأَفغانستان كلها، وأردّ بالقول بأنه سيعلق بذاكرتي منذ هذا اليوم أمران، جمال المنظر الطبيعي الجبليّ الذي لم تمسسه يد، واعتزاز نساء الهزارا بأنفسهن، ويستمع خليلي إِلىٰ تبادل الكلام بيننا وهو يبتسم. ما أشدَّ ما تختلف العفوية التي تتحدَّث بها هؤلاء النسوة عن همومهن عن وضع تلك النسوة اللواتي يعشن في ظل نظام الطالبان، وفي الختام تناولني النساء بساطاً مستديراً من الصوف الأخضر، هدية. ولم يكن قطعة رائعة علىٰ وجه الخصوص ومع ذلك فما زال يزيِّن بيتي حتى اليوم، ويذكرني بالبحيرة السحرية، بحيرة بندري ـ أمير.

ونستأنف الطريق، مرة أُخرى، ثلاث ساعات، فوق طرق جبلية وعرة، تتوهج الشمس عليها، عائدين إِلىٰ ياكاؤولانج. وفي الطريق يلفت نظري طالب إِلىٰ منزل بسيط من الحجر، قائم في وسط القفر عند منعطف من منعطفات الطريق الجبلي الوعر، وأقرأ، وقد تولَّتني الدهشة، علىٰ لوحة فوق الباب، الكلمة الألمانية «ملجأ»، وحدثني مرافقي أَن طبيبة ألمانية تقيم هناك منذ كثير من السنين، وهي تلقى التقدير والاحترام في المنطقة بأسرها بحكم كونها محسنة. وألتمس التوقُّف لأتعرَّف علىٰ المرأة ذات الفضل والمكارم، ولكنني أعرف من خادمةٍ أَن ربة المنزل في الطريق.

وننطلق مرة أُخرى من مدرج الإِقلاع في ياكاؤولانج، ويتولاني الخوف مرة أُخرى علىٰ الإِطارات المطاطية لطائرتي الصغيرة العائدة لهيئة الأُمم المتحدة التي تدرج بسرعة مطردة الزيادة فوق الأرض الزراعية المزروعة بالحجارة. وبعد أَن نكون قد ارتفعنا عن الأرض، يمرّ الطيارون، بناءً علىٰ رغبتي، في انعطاف جريء علىٰ التماثيل المشهورة المنحوتة في الصخر، وأحيّي، من الهواء، العمالقة الخُرْس.

obeikandl.com

8

رؤية بابار

وفي منتصف آب، 1996، أعود إِلىٰ جلال آباد، وأتخذ، مرة أُخرى «مقرّي» في فندق سبنجهار. وفي هذه الأثناء يكون الجو قد بات أكثر برودة إِلىٰ حد ما، ولكن ما زالت تسود حرارة تبلغ الأربعين درجة. وما زال جهاز التكييف الروسيّ ينفث الهواء نَفْثَ الأفعى فوق سريري في عداوة. وأحاول أَن أستحم بالدوش، ولكن تمديد المياه لا يأتي منه ماء، فمنذ أسابيع تعاني جلال آباد من حَرٍّ لا يطاق، وتتحرَّق شوقاً إِلىٰ المطر، وأنهار الإِمداد بالماء، وما عادت دورات المياه تؤدي عملها، ومن حسن الحظ أَن وحدة التيار الكهربائي الاحتياطي في مكتب الأونسما تؤدي عملها، فألجأ إِلىٰ هناك.

وفي الثامن عشر من آب ألتقي بحاكم نانجارهار، حاجي عبد القادر وهو من أهل التكتيك المحنّكين تمكّن حتى الآن من النجاة بنفسه بفضل سياسة الموازنة البارعة المبنية علىٰ التعانق، من خلال

obeikandl.com

حكومة ربّاني، ومن جراء زحف الطالبان. وفي وسط البنية التحتية المتعاونة في عاصمته ما زال يتصرف ببراعة وبترفُّع، وهو خليق، بوجهه البيضاوي ولحيته البيضاء، وابتسامته المهذَّبة، الناعمة إلىٰ حد ما، أَن يظهر علىٰ خشبة المسرح في شخصية جاكو Jago ممتاز، كذلك كنت أفكر تفكيراً خالياً من الاحترام، بينما كنا نتصافح. وفي البداية أسأل الحاكم كيف تتطور علاقاته بالعلامة ربّاني. وأقول إِنني سمعت أَنَّه يريد أَن يدخل في حكومته، ويؤكد عبد القادر، أَن منصب وزير الخارجيَّة قد عُرِض عليه، ولكنه رفض، لأنه يريد أَن يتحدَّث باسم أَفغانستان، كلها. وهي كلمة حافلة بالزهو بالنفس.

وفي صدد البحث عن نماذج من الدستور تستطيع أَن تخرج أَفغانستان من حمأة النزاع، أسأل أيضاً الحاكم هل يسهم إِنشاء البلاد علىٰ أساس اتحادي في تخفيف حدة أشكال التوتر بين القبائل والأقاليم القوية من ناحية، وبين الحكومة المركزية الضعيفة من ناحية أُخرى، ولكن عبد القادر يرفض هذا أيضاً، قائلاً إِن النظام الاتحادي سوف «يُقَوِّض» الدولة. فأَفغانستان تحتاج إِلىٰ حكومة مركزية قوية، فيما يقول. وفيما بعد سيقول لي الطالبان الشيء ذاته، ولكني لا أعتقد أَن هؤلاء الرجال يتمتعون بما يكفي من المعرفة لكي يتصوَّروا نظاماً اتحادياً، والأرجح أَن ما يهمهم وهم في طريقهم إِلىٰ السلطة، أَن يستأصلوا كل إِمكانية تستطيع أَن تبتر هذه السلطة إِذا ما تمّ إِحرازها ذات مرة، بطريقة مشروعة مرة أُخرى.

ثم أتطرَّق إلىٰ مشكلة المخدرات. وأقول للحاكم إن أفغانستان أصبحت، منذ عام 1996، أكبر منتج للأفيون في المعمورة، وتحوّلت إلىٰ مصدر لوباءِ البشرية، علىٰ أن الشبهة تحوم حول الحاكم نفسه، إذ يُشَكّ في أَنَّه يموِّل جهاز سلطته بعائدات من العمل في المخدرات، وإن تقديرات الأُمم المتحدة تفيد أَن 40 في المائة من الإنتاج العالمي بات يرجع إلىٰ أَفغانستان. وفي هذه الحالة تردَّت ميانمار (بورما) إلىٰ دَرْك المرتبة الأولى، الباعثة للأسى. وكان إقليم هيلماند الذي يسيطر عليه الطالبان يعدُّ من أهم مناطق زراعة المخدِّر، ومع ذلك يدخل في هذا أيضاً إقليم نانجارهار. وأناشد عبد القادر أَن يتعاون مع الأُمم المتحدة في مكافحة المخدرات.

ويشعر الحاكم المعتد بنفسه أَنَّه يتعرَّض للهجوم، وتصدر عنه ردود فعل امرىء مستثار. وفي البداية يجادل في أَن الخشخاش يزرع في منطقته، ثم يأخذ، المقابل، علىٰ الأُمم المتحدة، أخلاقاً ملتبسة، متعارضة فيما بينها، ويقول إن الغرب غير مستعد لأن يقدِّم إلىٰ الفلاحين الأَفغان بديلاً عن الخشخاش الذي بات منذ كثير من السنين مصدر دخل تقليدي، وقال إن هذا البلاء لا يمكن مكافحته من جذوره إلاَّ بزراعة محاصيل تعويضية مُدِرّة للربح، وكذلك ينتقد عبد القادر، بالحِدّة ذاتها، موقف الغرب «القائم علىٰ النفاق» في مسألة الإرهاب. فالولايات المتحدة لم تحارب إلاَّ بُعْبُع الإرهاب الإسلامي، ومع ذلك فهم بارعون في الكلام

فحسب، وبمجرد أَن تتعلَّق المسألة بمعونة مالية ينتاب الشلل اندفاعاتهم، وقال إِن واشنطن تتركه وحده (أي عبد القادر) في مكافحة الإِرهاب، وما من شك في أَن هذا يبدو من الغريب صدوره علىٰ لسان رجل يتمتع أسامة بن لادن في منطقته بحق الضيافة، ويُسْكَتُ علىٰ الأقل عن معسكرات التدريب للمسلحين الدوليين، إِن لم تكن هذه المعسكرات تستخدم لأغراضهم الخاصة. وهذا الرجل المزهوُّ بنفسه أيضاً أغادره وفي نفسي مشاعر مختلطة. وسيكون من الصعب إِلجامه بإِدخاله في حكومة أَفغانية، لأنه سيكون علىٰ الدوام متوجهاً نحو الاستقلال السياسي ـ والكسب السياسي. أمّا إِلىٰ أي مدى يحسّ هذا البشتوني بالولاء للشعب الأَفغاني إِجمالاً، وبتعقيده العرقيّ، فذلك، ما لا أجرؤ علىٰ إِصدار الحكم فيه.

ومرة أُخرى يعود بنا الطريق إِلىٰ كابول. ذلك لأن وزير الخارجيَّة غفورزاي قد أوعز بإِبلاغي أَن ثمة ضرورة ملحة لحديثه معي، ولمّا كنت في عجلة من أمري، فهو يخرج مراراً إِلىٰ مطار باجرام العسكري، ليتحدَّث إِليّ في المضافة المؤقتة المُقامة هناك، ولا يشهد ذلك إِلاَّ القائم بالأعمال في باريس، داودمير، وهو من المؤتمَنين علىٰ أسرار القائد مسعود، وربما بصفة مستمع أيضاً، ويبدو وزير الخارجيَّة وقد استبدّ به الفضول والتوتر. وبات وجهه الشاحب مترهِّلاً من التعب. ويلاحظ المرء علىٰ غفورزاي التوتُّر اليومي الذي يتعرَّض له، وربما كان يحس إِحساساً داخلياً أَنَّه يتحمَّل البقاء في مركز الرُبّان في سفينة آخذة في الغرق.

ويقول غفورزاي منفعلاً إن الحكومة تتوافر لديها الآن دلائل علىٰ أَن باكستان تميل، مع رئيس الوزراء حكمتيار، ودُسْتُم، وجيلاني الذي يقال إِنه محايد، من وراء ظهر الرئيس ربّاني، إِلىٰ حكومة مُقابِلة في مزار الشريف. ويقول إِنها مؤامرة بعيدة المدى، إِذ يفترض أَن يغدو جيلاني رئيساً جديداً، وأن يظل حكمتيار، تحته، رئيساً للوزراء، ويقول غفورزاي معلّقاً علىٰ سلوك رئيس وزرائه: إِن دوره الخياني قد انكشف أخيراً، إِذ يفترض فيه أَن يفرِّغ موقف ربّاني تفريغاً منهجياً، من الداخل، ويدعو غفورزاي، من جديد، إِلىٰ خطة مسعود المرحلية، ويقول إِن الأمر جِدّي فيما يتصل بانتقال السلطة من ربّاني، ويقول إِنه إِذا كان هذا يسهِّل المصالحة الوطنية فهو مستعد للاستقالة. وما من شك في أَنَّه يرغب في الانصراف «بكرامة وشرف».

وعلىٰ الرغم من كل تقديري لغفورزاي بوجه عام، بحكم كونه شريك مفاوضات معتدلاً، فإِن لديَّ شكوكي في مسألة هل يفترض فِيَّ أَن آخذ عنه نظريته الخاصة بالتآمر علىٰ نحو مفاجىء. وأحاول أَن أوضح له أيضاً أَن الأونسما لا تستطيع أَن تبيع للأحزاب المتحاربة ما يسمى بخطة مسعود، إِذ إِن هذه هي الطريقة الأَوْكد علىٰ الإِطلاق، لاستثارة الرفض، وإِن في وسعي، في أفضل الأحوال، أَن آخذ منها أكثر العناصر ملاءمة، وأُدْخلها في تصوري الخاص للسلام. والأونسما تعمل في إِطار مثل هذا التصوُّر في الوقت الحاضر.

ثم أستفسر عن مستوى الإِجراء الذي يبني الثقة، وأقول إِنني اقترحت، في حديثنا الأخير، أَن يقوم مسعود بإطلاق سراح قائد سلاح دُسْتُم الجوي، حافظ، ويؤكد غفورزاي أَن مسعود مستعد لهذه اللفتة، علىٰ أَنَّه يطلب، في المقابل، ثلاثة أسرى من معتقل دُسْتُم، وأَعِد بأن أكرس جهدي من أجل هؤلاء الناس في مزار الشريف.

وأقلع بالطائرة وقد انتابتني الحيرة، لم يحدث في نفسي غفورزاي انطباعاً كذلك الذي تحدثه قيادة دولة واثقة من نفسها، والأحرى أَن مظهره كان يوحي بأنه استسلم لمصيره من الداخل، وبات يهييء نفسه للنهاية السياسيَّة.

وفي إِسلام آباد ألتقي بنائب وزير الخارجيَّة الإِيراني بُرّوجِرْدي، وهو دبلوماسيّ جدير بالمحبة، دائم الابتسام، كما يصعب فهمه والإِحاطة به، بلا ريب، ويحييني بأدب، ويتمنى لي التوفيق، ويعدني بمساندته، ولكنه يأخذ بعد ذلك علىٰ الأُمم المتحدة أنها ظلت حتى الآن تقوم بعملياتها في أَفغانستان من دون نجاح، ويقول إنه لا بدّ لها آخر الأمر أَن تحيط بالوقائع، وأن الحل لا يمكن فرضه من الخارج، ولا يتابع تفسير ما يقصده بتلك الوقائع، ومع ذلك فمن السهل أَن يخمِّن المرء أَنَّه يقصد بذلك المصالح الإِيرانية في أَفغانستان التي يجب تحقيقها، حسب وجهة نظر طهران، في حالة تسوية سلمية. ويقول برّوجردي إنه يودُّ، من أجل ذلك، أَن يحذرني من النفوذ الأمريكي الضارّ، والذي

obeikandl.com

يسعى إِلىٰ الحيلولة دون إدخال أمثال هذه المصالح في الحسبان.

ويمضي بوروجردي قائلاً إن الحكومة الإيرانية تريد أَن تعقد في 29/ 30 تشرين الأول 1996 مؤتمراً حول أَفغانستان في طهران، ويقول: من أجل ذلك دعاني وزير الخارجيَّة ولايتي، وإن طهران تتابع بهذه المبادرة هدف إنهاء الصراع الأَفغاني، والشروع في حوار أَفغاني داخلي، و«تعبئة الجماهير». ويشرح بوروجردي، ردّاً علىٰ سؤالي عما يمكن فهمه من هذه التعبئة، بأسلوب مقتضب، قائلاً إنه لا بدّ للدول المانحة من تمويل إعادة بناء أَفغانستان. وبمجرد أَن تسكت الأسلحة ينبغي لهيئة الأُمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإِسلامي أن تدعو إِلىٰ مؤتمر دولي للدول المانحة ستتمثل فيه أَفغانستان بحكومة ربّاني. وبهذه الإِضافة الوجيزة يكشف نائب وزير الخارجيَّة عن أن العلامة ربّاني سيكون رئيس الدولة من وجهة النظر الإِيرانية حتى بعد التسوية السلمية. أمّا الخيار المتمثّل في أن هذا الطاجيكيّ (كما أخبرني غفورزاي)، يمكن أن يتخلّى عن منصبه، ويخلي الطريق، ربما لسياسيّ بشتونيّ، فلا يمثل جزءاً أساسياً من تصوُّر بوروجردي لأَفغانستان. ولا تكون طهران واثقةً من الحفاظ علىٰ مصالحها في أَفغانستان إِلاَّ في ظل الرئيس الأَفغاني ربّاني.

وأَقْبَلُ الدعوة الإِيرانية «من حيث المبدأ»، ولكني أقيّدها مع ذلك بأنني لا أستطيع أَن أقرّر ذلك من دون موافقة الأمانة العامة، وأؤكد لبوروجردي أَن كل مبادرة تساعد علىٰ السَّلام تستحق

المساندة الدولية. وأضيف قائلاً: ما من شك في أَن مما ينطوي علىٰ الإشكال الاقتراحات التي تؤدي إِلىٰ الاستقطاب. وبذلك أُوضِحُ أَن تمثيلِ أَفغانستان من قبل ربّاني وحده سوف يثير مقاومة المجموعات الأُخرى، ويرجو مني بوروجردي أَن أدعو إِلىٰ مؤتمر السَّلام أولاً لدى دُسْتُم، ثم لدى الطالبان بعدها (وهم الذين ليس لهم صلة بهم). ويقول إِن باكستان قد أعلنت عن موقف إِيجابي، وكذلك جمهوريات آسيا الوسطى.

وأعد بوروجردي بجواب سريع، وأسأل في اليوم ذاته بعدُ، في نيويورك، هل أستطيع أَن أشترك في المؤتمر. وكانت المشاورات مع طهران تبدو لي أمراً لا مناص منه، ولمّا كان حديثي مع باكستان كثير التواتر، ولم أكن تحدثت علىٰ الإِطلاق تقريباً مع إِيران، فإِن ذلك قد يحدث الانطباع الخاطىء، الذي يلحق الضرر بمهمتي، إِذ يوحي بأنني أهملت مصالح طهران المشروعة. ومن المؤسف أَن جواب نيويورك تركنا ننتظره شهوراً، وأضطر طوال الوقت إِلىٰ الرد علىٰ تساؤلات السفير الإِيراني في إِسلام آباد بألوان من التهرُّب. وأخيراً يأتي الرفض من مركز هيئة الأُمم المتحدة.

وعلىٰ قدر ما أستطيع أَن أقرِّر، فقد قدَّم الأمريكان لدى بطرس غالي اعتراضاً علىٰ مشاركتي في المؤتمر. ويتراجع الأمين العام الذي يأمل في إِعادة انتخابه في نهاية العام، ويحتاج من أجل ذلك إِلىٰ الصوت الأمريكي. وتكون النتيجة، كما كان متوقعاً،

تجهُّم إِيراني مطَّرد، يتوجه ضدي، وتكون حملة صحفية موجهة في طهران، تشنِّع عليَّ، علىٰ أنني خادم للاستخبارات الأمريكية. وعندما أُحَدِّث السفير الإِيراني بما حدث يهز هذا كتفيه مبتسماً، ويقول: «حرية الصحافة!».

وفي نهاية آب يأتي وزير الخارجيَّة البريطاني، ريفكِنْد إِلىٰ إِسلام آباد، ويقيم له المفوَّض السامي، السير كريستوف مهاك راي، الجاف كالعظام، والمَرِح مع ذلك في إِطار التعامل الخاص، مأدبة عشاء في محيط محدود، وأُدعىٰ إِلىٰ المأدبة، وفي خلوة ثنائية يفاتحني وزير الخارجيَّة بالوضع في أَفغانستان، وأُطْلِعه علىٰ محادثاتي التي تمَّت حتى الآن، وأشكر له وقف إِيفان البارع، ويؤكد لي ريفكند مساندة حكومته.

وكان من المدعوّين أيضاً وزير الداخليَّة الباكستاني، الجنرال بابار، وهو رجل ممتع، ولكنه غامض أيضاً، ويُنْسَب إِليه نفوذ كبير. وكنت قد سمعت من قبل عن أهميته السياسيَّة. وحين ارتحلت في مستهل نيسان، عام 1995، ضمن الوفد المرافق للرئيس الاتحادي هرتسوج إِلىٰ إِسلام آباد، وشاركت هناك في مأدبة رسمية، تركت جاري الباكستاني علىٰ المائدة، يدلُّني علىٰ وزير الداخليَّة الذي كان مدعوّاً أيضاً، بين الضيوف. ثم انتقلت من دون أَن أُدْعىٰ، إِلىٰ مائدته، وقدَّمت نفسي إِليه، وصافحته. ونظر الجنرال بابار إِليَّ مندهشاً، وأعلنت للوزير، بشيء من الصراحة العارية، أنني قد سمعت عنه كثيراً من الأمور الجيدة حتى

لقد رغبت في التعرُّف عليه شخصياً ذات مرة، وعدت إلىٰ مكاني. والآن إذاً، أي بعد خمسة عشر شهراً، ألقاه في مقر المندوب السامي البريطاني، مجدَّداً. وكان البشتوني القوي البنية، الممتلىء، وذو الجمجمة ذات الشعر المحلوق، يتمتع بوجه معبِّر، يكشف عن قوة الإرادة، وحدّة الذكاء، ولكنه يكشف أيضاً عن قَدْرٍ من السخرية المرة والنكتة اللاذعة، ويعد الجنرال السابق من المقربين جداً إلىٰ رئيسة الوزراء بوتو، وهو في نظر كثير من المراقبين، مهندس السياسة الباكستانية في أَفغانستان. ويشير إليه المعلقون الناقدون في الغرب في كثير من الأحيان علىٰ أَنَّه مبدع حركة الطالبان التي كان يفترض أن تؤمِّن نفوذ الباكستان علىٰ البلد المجاور، ولا سيما العبور غير المُعَوَّق إلىٰ آسية الوسطى.

وحين أسأل بابار في هذه الأمسية عن التطور الذي يجري في أَفغانستان، يعرب، كما هو متوقَّع، ودونما تكتُّم، عن إعجابه بألوان النجاح التي أحرزها الطالبان حتى الآن، ويقول إنهم قد فتحوا، آخر الأمر طرق الاتصال التي تفضي إلىٰ آسيا الوسطى، والمهمة بالنسبة لباكستان. وبأسلوب ساخر يدعوني بابار، بعد هذا مباشرة إلىٰ القيام برحلة معه عبر أَفغانستان، و«عبر نفق سالانج أيضاً» (الذي كان يسيطر عليه حتى هذه اللحظة دُسْتُم، وليس الطالبان بحال من الأحوال) إلىٰ آسيا الوسطى. وقال إن الأمور باتت الآن علىٰ أية حال، بحيث يفرض نفسه في قتال الأعراق، العرقُ الأقوى علىٰ الإطلاق، كما يصرِّح بذلك غير

مبالٍ. ويقول دفعة واحدة، علىٰ غير توقع إن هجوماً علىٰ جلال آباد يوشك أَن يُشَن مباشرة، وأن الحاكم حاجي عبد القادر قد بات «عصبياً إِلىٰ درجة عالية» ويبتسم المفوَّض السامي لرؤية بابار الباعثة للتجهُّم، ويقول معترضاً إِن الوضع هادىء في شرق أَفغانستان، بلا ريب، وأنه لا سبيل إِلىٰ تمييز علائم تشير إِلىٰ اشتباكات جديدة، ثم إِن الطالبان قد أصابهم التعب من الحرب. أما وزير الداخليَّة فيخلد إِلىٰ الصمت.

وفي اليوم التالي ألتقي، في منزل المبعوث الأمريكي هولتسمن، بعضو الكونجرس الجمهوري داناروراباخر، من مقاطعة أورانج الكاليفورنية، وهو يقوم بجولة في المنطقة أول مرة، ولم يسبق له أَن وَطِىء الأرض الأَفغانية بعدُ أبداً، ومع ذلك فهو يطرح علينا، باعتداد كبير بالنفس، نظرته إِلىٰ الوضع، وهذا الأمريكي مقتنع بأن ظاهر شاه سيغادر المنفى في روما خلال ثلاثة أشهر، ويتولى الحكم من جديد في أَفغانستان، ويقول إِن الشعب تَعِب من الحرب، وسوف يهتف مهلّلاً للملك، وأن باكستان ودُسْتُم موافقان علىٰ عودة ظاهر، كما يؤكد روراباخر، وحتى تكاليف العملية يعرف النائب كيف يقدِّرها بخمسين مليون دولار أمريكي. ومن الواضح أَن الصراع في أَفغانستان ليس، في نظره، شيئاً أكثر من عملية تمويل.

وفجأة يعلن روراباخَر أَنَّه علىٰ اتصال بمؤسسة أونوكال (UNOCAL) للنفط التي تريد تمديد خط أنابيب عبر أَفغانستان إِلىٰ

باكستان، ويقول إنه تربطه صداقة برئيس الشركة جون ف. إيمل، الحقوقي، وأن تركمانستان حوَّلت هذا الحق إلىٰ أونوكال وإلىٰ شريكتها، اتحاد دلتا المالي السعودي في تشرين الأول 1995 لتسويق الغاز الباطني المستخرج في دولة آباد، هناك، في باكستان ويستخدم الغاز لتشغيل مصانع الطاقة بقدرة تبلغ 10,000 ميغا واط، وسوف يسهم في سدّ الثغرات الموجودة لدى باكستان فيما يتصل بالطاقة، كما يفترض أيضاً إنشاء مصانع أسمدة علىٰ أساس الغاز الباطني. وسوف يكلف خط الأنابيب الذي يبلغ طوله 1300 كم، عبر جنوب غرب طالبان (وهي المناطق التي يسيطر عليها الطالبان في الوقت الراهن، ولكن الجنرال دُسْتُم يسيطر علىٰ جزء منها أيضاً) ثلاثة مليارات من الدولارات، وسيكون جاهزاً حتى عام 2000. ويكاد روراباخر يدخل في حالة من الحماسة، وهو لا يدري أَن تخطيط الأونوكال سرعان ما يتحول إلىٰ قطعة من التبقُّع والتلوُّث. وفي نهاية تشرين الأول 1998 يتخلى الاتحاد المالي عن المشروع بسبب الاشتباكات المتواصلة في أَفغانستان.

وأسأل رجل الكونجرس لماذا لا يبادر ظاهر شيئاً من أموره الخاصة بنفسه، ويدع إلىٰ نائب أمريكي مسألة الحديث باسمه، ولماذا لا يرسل ظاهر أحداً من المؤتَمَنين إلىٰ أَفغانستان، ومنهم، مثلاً، مستشاره الجنرال والي. ومثلما حدث في لقائنا الأول في واشنطن، أضطر إلىٰ أَن أواجه روراباخر، مجدَّداً، قائلاً، إنني قَيَّمت فرص عودة الملك السابق، ذي الثمانين حَوْلاً، إلىٰ

أَفغانستان بأنها ضئيلة، ولم يقم بعد خلعه إِلاَّ بالقليل لوقف تدهور أحوال بلده، ولم يظهر أثر لخطة سلامه في عام 1993، وما من أحد يعرف هل ما زال الملك يتمتع بالمقدرة علىٰ الإِدماج ليشدَّ كل الأحزاب إِلىٰ شخصه، وما من شك في أَنَّه يظل يستقبل في المنفى، المرة بعد الأُخرى، أَفغاناً محافظين يلتمسون منه النصيحة، ولكن أصحاب السلطة الفعليين، الطالبان، والعلاَّمة ربّاني، ومسعود، ودُسْتُم، لا يعترفون به. ومن أجل ذلك اعتقد الكثيرون أَن ظاهر قد فقد صلته بواقع بلاده، ومهما يكن من المرغوب فيه أَن يظهر الملك الشيخ في صورة من يظهر في اللحظة المناسبة لينقذ من محنة، في أَفغانستان، وأن يحرص علىٰ السَّلام، فإِن مما هو أكثر من مشكوك فيه أَن يكون مستعداً لذلك في الوضع الراهن غير المتسم باليقين ـ علىٰ أَن يقين الأمريكي من نفسه لا يمكن زعزته باعتراضاتي، ومع ذلك فلن يصيب نجاحاً في تكهنه حيال ظاهر شاه، أيضاً، مثلما أخفق في رؤيته لاتحاد شركات الأونوكال البترولي. وحتى اليوم لم يغادر الملك المعزول منفاه في روما.

وفي الثالث من أيلول أطير عائداً إِلىٰ مقرّي في جلال آباد، وهناك يزورني حاجي زامان، قائد الحاكم الذي تعرفت عليه في نهاية تموز عند الغداء في قصر الحاكم، وأسأله عن رأيه في رؤية بابار بأن هجوماً للطالبان علىٰ جلال آباد يوشك أَن يقع، علىٰ نحو مباشر، وأتوقع نقضاً عنيفاً، بل ساخراً، ولكن ما فاجأني أنني

أعرف الآن، من زعيم المرتزقة هذا مقدار القَلْقَلَة التي يتسم بها التوازن العسكري في هذا الإقليم. ويبدو أنَّ وَلاء المدافعين ليس علىٰ ما يرام، وذلك أنَّ كل قائد، مهما يكن مجال سلطته محدوداً يفكر في نفسه أَوَّلَ ما يفكر، ويبدو أَن اتحاد القوى ضد المهاجِم المشترك ليس بالاتحاد المُلِحّ الذي يتمتع بالأولوية. وكان زامان ينطوي علىٰ شكوك كبيرة في أَن الطالبان سيحترمون بعدُ حياد نانجارهار زمناً أطول من هذا، وتفيد معلوماته أيضاً أَن الطالبان يُعِدّون العدّة للهجوم، ومن المحتمل أَن يُشَنَّ هذا الهجوم من إِقليم «لوجار» المجاور، ولذلك أمر حاجي عبد القادر بوضع 40 دبابة علىٰ الحدود هناك يتولى قيادتها هو، أي زامان. ويقال إِن إِقليمَيْ لاغمان وكونار سوف يبعثان بتعزيزات.

علىٰ أَن القائد ليس متأكداً، بحال من الأحوال، من أَن هجوم الطالبان سوف يُدْحَر، بل يتكهن، علىٰ النقيض من ذلك، بأن أهل قندهار سيواصلون تقدمهم في حالة النصر، نحو الشمال، نحو ساروبي، وهذه المدينة تقع علىٰ الطريق البعيد الممتد من ممرّ خيبر إِلىٰ كابول، وتشكّل صلة الوصل الهامة بين الشرق والغرب، بين باكستان ووسط أَفغانستان، وتعد معقل حكمتيار، ويقولون إِن ساروبي محصَّنة تحصيناً ثقيلاً ولا يمكن الاستيلاء عليها، ولكن زامان يعدُّ هذا من أساطير الدعاية، ويحسب بالتعليل الدقيق أَن الطالبان سوف يتقدمون إِلىٰ كابول بمجرد أَن يكونوا قد افتتحوا ساروبي، بدءاً منها، وعبر ميدان شار أوشاراسياب. ويقال إِنه قد

نشبت منذ الأمس، في ميدان شار، الاشتباكات الأولى مع قوات حكمتيار، وأسأل زامان لماذا لا يتحالف القائد عبد القادر، علىٰ الرغم من الخطر الظاهر المحدق، بلا تسويف مع حكمتيار ومسعود، ويهز القائد كتفيه، ويتحاشى سؤالي، وأُحِسُّ أَن سوء الظن المترسخ في الأعماق بين الزعماء السياسيين يظل أمراً لا يمكن التغلّب عليه، حتى في مواجهة خطر الطالبان. ويُسَلِّم زامان، بصراحة بأن قواته الخاصة لم توضع في حالة التعبئة بعد في الوقت الحاضر. فهو يحتفظ بها في الاحتياط، من أجل حالة تعرُّض معقله الخاص، مدينة غاندوماك للهجوم من قبل الطالبان.

وفي النهاية أسأل مجدَّداً عن أسامة بن لادن. وفي هذه المرّة، يبلغني زامان أَن الرجل يقيم بالقرب من جلال آباد في مكان يقال له آغام، وأنه ينشيء، في حماية القائد المحلي، المهندس محمود، قاعدة محصنة هناك، وأسأل عن ماهية الدور الذي سيلعبه أسامة في حالة صراعات محتملة هناك، وهل يدخل عبد القادر في حسبانه مساندته، ويقول زامان إِنه يحافظ علىٰ علاقات حسنة مع كل الأطراف، وسوف ينأى بنفسه عن الحرب، وبعد ذلك يدخل في تحالف مع المنتصر.

وأودِّع هذا الرجل الجسور، وغير الشفّاف مع ذلك أيضاً، وقد انتابني شعور بالنهائية والحسم، وأكَّد لي هذا الرجل، بتقييمه الخاص للوضع، ما تنبأ به بابار وزير الداخليَّة علىٰ مائدة العشاء مع ريفكند، ونحن العاملون في الأونسما نشعر جميعاً أَن ثمة

تبدُّلات كبيرة توشك أَن تحدث في أَفغانستان، ولكننا لم نكن نُقَدِّر أَن الطالبان سوف يكتسحون رجالاً مَزْهُوّين بأنفسهم، مثل الحاكم حاجي عبد القادر، وقائد قواته زامان، خلال ساعات.

obeikandl.com

9

سقوط كابول

علىٰ أَن شهر أيلول من عام 1996 سوف يمهّد لذلك المنعطف والتطوّر السياسي الخاطىء الذي سوف تمتد نتائجه سنين طوالاً، مثل قطعة من العذاب أَو الاستشهاد، فوق البلاد. وما حدث في تلك الأيام، وهو اختراق القندهاريين الخطوط إِلىٰ قلب أَفغانستان، وفيما بعد إِلىٰ شمالي أفغانستان، أدَّى، في نتائجه الأخيرة، إِلىٰ سياسة انتقامية من قِبل الولايات المتحدة، ولم يجد الردَّ عليه إِلاَّ مع عودة الرئيس الاسمي، ربّاني، إِلىٰ كابول، في 17 كانون الأول 2001.

ففي ليلة 26 وعشية السابع والعشرين من أيلول 1996 ينجح الطالبان، في المحاولة الرابعة، في غزو كابول، وبالاستيلاء علىٰ هذا الرمز القومي تتبدّل علاقات القوى. أمّا حكومة ربّاني التي كانت قائمة حتى الآن فتهرب إِلىٰ الشمال، وسرعان ما تدخل في مجال الاستعمال اللغوي العام. في إِطار «المعارضة»، علىٰ

obeikandl.com

الرغم من أنّها تظل تستأثر، في الجمعية العمومية لهيئة الأُمم المتحدة، بمقعد أَفغانستان، وفي مقابل ذلك يشعر الطالبان أنهم الأسياد الجدد، والمتحدثون الشرعيّون باسم البلاد بأسرها، والذين يطلبون من العالم الخارجي، ومن هيئة الأُمم المتحدة في المقام الأول، أَن يعترف بهم بهذه الصفة. ولكن المجتمع الدولي سوف يأبى عليهم الاعتراف بهذا. ولن تقدم علىٰ هذه الخطوة سوى باكستان، ولكن بعد ثمانية أشهر خَلَوْن من سقوط كابول، عندما بدا، في نهاية أيار من العام التالي، كأن الطالبان تقدموا إِلىٰ النهر الحدودي الشمالي، آموداريا، وستحذو حذو الباكستان، والإِمارات العربية المتحدة. ولكن النتيجة المتوقَّعة، المترتبة علىٰ كرة الثلج هذه، لن تظهر، وسوف تظل الدول الإِسلامية الثلاثة معزولة باعترافها هذا، حتى داخل العالم الإِسلامي.

وقبل أيام قلائل سبقت نشوب أزمة أيلول يأتي جولدنج، وهو موظف رفيع المستوى من هيئة الأُمم المتحدة، إِلىٰ أَفغانستان. وكان الوضع ما زال يبدو لها مستقراً من حيث الجوهر. ولم يكن هناك ما يبعث علىٰ التخوُّف من نشوء طور جديد من أطوار القتال بمقتضى النظرة العامة، يبدو أنها عملية «تقسيط للإِحباط» كما صاغ ذلك السفير الأمريكي في إِسلام آباد في ذلك الوقت. فالتعب العام من الحرب يفرض قانونه. ويريد جولدنج من خلال رحلته أَن يكوِّن صورته الخاصة لهذا التطوُّر. وكنت في هذه

الأثناء قد توصلت، مع مستشاري، إِلىٰ صياغة برنامج عمل، هو مشروع لخطة سلام سوف نشرحها لجولدنج، ثم نعرضها علىٰ الأمين العام، ثم نريد أَن نحاول أن نجمع الأَفغان إِلىٰ مائدة، ونحن في الأونسما متفائلون.

ويصل جولدنج في 10 أيلول 1996 إِلىٰ إِسلام آباد، وهو أيضاً يريد أَن يتحدَّث إِلىٰ كل أمراء الحرب. وعلىٰ هذا نكرِّر معاً جولة المشاورات التي كنت قد فرغت منها في آب، ونطير مراراً إِلىٰ كابول، ومزار الشريف وقندهار ونتحدَّث مراراً إِلىٰ الباكستانيين، ويبدو المشروع بأسره مثل نسخة بديلة صغيرة، ومثل تجربة عامة ثانية، قبل أَن تنشر خطتنا السَّلام، ولكن سرعان ما نلاحظ أَن رحلة جولدنج محكوم عليها بالإِخفاق، وكان عليها أَن تستغل التعب المزعوم من الحرب عند الأحزاب وتعطي مبادرة السَّلام الصادرة عن الأُمم المتحدة دفعةً جديدة، غير أنّها تنتهي فجأة عشية كارثة لا يخفى مداها بعد، علىٰ النظرة العابرة حتى لحظة رحيل جولدنج. وفي إِسلام آباد نتحدَّث مع وزير الدولة في وزارة الخارجيَّة، نجم الدين، والسفير الأمريكي سيمونز، وكلاهما يحذر من الشروع في طرح مبادرة للسلام، ويقول الدبلوماسي الأمريكي: ما من شك في أَن «تقسيط الإِحباط» قد بدأ، ولكن ما زال ينبغي لنا أَن ننتظر قبل أَن نطرح مشروعنا للسلام علىٰ المائدة.

وفي البداية نرتحل إِلىٰ كابول، ونتحدَّث إِلىٰ العلاَّمة ربّاني

من دون أَن نأتي علىٰ ذكر مشروع السَّلام، وبدلاً من ذلك نسرد علىٰ الرئيس، مرة أُخرى، مشكلتنا الإِنسانية، وهي سقوط نجيب الله. ولأول مرة يعبِّر ربّاني عن تخفيف في حدة كلامه، ويعلن استعداده المبدئي للسماح للديكتاتور الذي أطيح به، بالرحيل «لأسباب طبية». ولكن الآن يغدو نجيب الله هو الذي يثير لنا المشكلات. فهو لا يوافق علىٰ مقترح ربّاني، ويصرّ مزهُوّاً، علىٰ أَن يغادر منفاه «مرفوع الرأس»، «لا علىٰ محفة» ويقول إِنه مدين بهذا لأسرته، ولا نصرّ علىٰ موقفنا في البداية، ولكنني أتفق مع جولدنج علىٰ أَن أعود أدراجي إِلىٰ كابول بمجرد أَن يسافر جولدنج، ثم أُقْنِعَ نجيب الله بالموافقة علىٰ مقترح ربّاني، ذلك لأن رَدَّة فعله تحملنا علىٰ أَن نأمل أَن نتمكّن أخيراً من حل المشكلة الإِنسانية بعد أربع سنوات من التفاوض الصُّلب الشائك. أما الثمن: فقد اضطررنا إِلىٰ أَن نعد ربّاني بتحويل الأونسما إِلىٰ كابول، من أجل الرئيس الذي يود أَن يجعل نظام حكمه يتمتع بالنبالة الكافية بحيث يأذن لمن يشاء بدخول بلاطه، وهذا نجاح في إِطار المكانة والامتياز.

ونتابع رحيلنا إِلىٰ مزار الشريف، ولم نكن غير متاحين علىٰ وجه الإِجمال، لكن نلتقي بدُسْتُم، وكنا نريد أَن نعرف منه أَهُوَ مستعد للانضمام إِلىٰ تحالف معاد للطالبان، ولكن الرجل الأوزبكي يتحاشى الإِجابة علىٰ سؤالنا هل سيدخل في حكومة ربّاني. ومن مزار الشريف نطير عبر أَفغانستان إِلىٰ الجنوب، نحو

قندهار، واليوم هو الخامس عشر من أيلول، ويستقبلنا المحامي العام لدى الطالبان، وهو الملاّ عباس، الرجل الجافي الطبع، العملاق، وإلىٰ جانبه الحاكم محمد حسن، والمستشار السياسي، الملاّ جليل. ويلقي جولدنج علىٰ أعضاء مجلس الشورى موعظة كموعظة الآباء الكبوشيين حقاً، ويخاطب ضميرهم بسبب المعاملة غير اللائقة للنساء، ويسلِّمهم آخر الأمر، النص العربي لميثاق هيئة الأُمم المتحدة. ويصغي إِليه الطالبان في صبر. ونجد لديهم أيضاً تصريحات عن نوايا طيبة، ويبدو أَن كل شيء يسير بسلاسة ويُسْر.

ولكن فجأة يبدأ الشر المستطير، فعندما نخرج، أنا وجولدنج من اللقاء مع مجلس الشورى، نعلم أَن الطالبان زحفوا، في اليوم ذاته علىٰ مدينة جلال آباد، عاصمة «المنطقة المحايدة» المزعومة، منطقة نانجارهار. ويلوذ الحاكم حاجي عبد القادر، وقائده زامان بالفرار من دون دفاع يستحق الذكر.

ويبلغني مستشاري العسكري المقيم في جلال آباد أَن السكّان يُرَحّبون بالطالبان الزاحفين ويهلِّلون لهم، وأن الأونسما ما عاد لها مستقر آمِن فجأة، وأن المراقب العسكري التابع لي يوشك أَن يذهب ضحية لهجوم بالقنابل يشنه مسعود علىٰ المدينة. ويأمر الأمين العام للأُمم المتحدة بسحب كل منشآت الأُمم المتحدة من جلال آباد. وحتى الأونسما تعود أدراجها إِلىٰ إِسلام آباد، إِذ لا يفترض فينا أَن نعمل في ظل نظام حكم تلاميذ مدارس القرآن.

وقد كنا في جلال آباد خليقين أَن نتعرَّض في المستقبل لألوان من المضايقات الرسمية، أَو التهديد الصريح من قبل السادة الجدد.

ولكن إِسلام آباد أيضاً لا تعد مكان عمل مثالي للأونسما، إِذ يصل إِلىٰ سمعي من قبل كثير من الأَفغان، أَن باكستان ليست محايدة، ويقال إِنني سأتعرض في إِسلام آباد للتأثير المخرِّب من قبل حكومة بنازير بوتو والمخابرات الباكستانية (Isl-Intor service Intelligence) ولكن ما من أحد يعرف أَن هذا غير صحيح، وأن الأونسما تحافظ علىٰ استقلالها، أفضل مما تعرفه الحكومة في إِسلام آباد، التي اتهمتني منذ البداية، مع اقتران ذلك باللوم والتحذير بأنني رجل ربّاني، وأنني متأثِّر بالإِيحاءات الهندية، وهذا المأخذ ليس له ما يبرِّره أيضاً، كذلك المأخذ الذي يتناهى إِلىٰ سمعي الآن في بعض الأحيان، وهو أنني تابع وعميل للباكستانيين.

وفي 19 أيلول، بعد نحو ثلاثة أيام من رحيل جولدنج، أزور السفير الأمريكي سيمونز في ممثليَّته الفسيحة المحمية كالحصون، علىٰ حافة حي الدبلوماسيين في إِسلام آباد، وأقدِّر الدبلوماسي الذكي، وهو يمثِّل الدولة العظمى الأمريكية تمثيل الواثق من نفسه، ولكنه مستعذب في مجال التعامل الشخصي، وصريح. ولم يكن يغيب عن بالي أَن سيمونز قد أوصاني، أنا وجولدنج، قبل يوم من هجوم الطالبان، أَن ننتظر مزيداً من الوقت قبل طرح مبادرة للسلام، فهل كان الأمريكي يعرف أَن الهجوم الذي ما عاد

معظم خبراء أَفغانستان يثقون بمقدرة أهل قندهار علىٰ شَنِّه، يوشك أَن يحدث علىٰ نحو مباشر؟

ومن البدهي أَنَّه لم يكن يستشعر شيئاً من الهجوم، كما يقول سيمونز نفسه. أما الباكستانيين فلا يستطيع أَن يتحدث بالنيابة عنهم، بالطبع. ثم إِن واشنطن وإِسلام آباد ليس بينهما تنسيق فيما يتعلق بأَفغانستان، ولكنه يتساءل، في اللحظة ذاتها: إِذا كان جولدنج يتحدث إِلىٰ الأمريكيين والباكستانيين بناء علىٰ رغبة ربّاني، لأنهم يساندون الطالبان علىٰ ما يقال، فهل تراه يتحدَّث أيضاً إِلىٰ الهنود والإِيرانيين لأنهم سَلَّحوا ربّاني؟ ويحذِّرني قائلاً إِنه لا ينبغي للأونسما أَن تتعرَّض للشبهة مجدَّداً بممارسة سياسة موالية لربّاني، حيث كان يُلَمِّح بذلك علىٰ ما يبدو إِلىٰ سَلَفي، المستيري. وفي هذه اللحظة يخطر ببالي، مرة أُخرى، أَن المبعوث الأمريكي هولتسمن أيضاً كان يرى، بُعَيْد وصولي إِلىٰ إِسلام آباد، أَن من الضروري توجيه مثل هذا التحذير إِلىٰ موظف الأُمم المتحدة كاواباتا. وعدت الآن أسائل نفسي لماذا يحرص سيمونز علىٰ حيادي كل هذا الحرص، وحين أبلغه أَن دُسْتُم قد اقترح ترميم الطريق عند نفق سالانج بوسائل برنامج المعونة الدولية «الغذاء من أجل العمل»، يريد السفير أَن يعرف علىٰ الفور، هل تزمع الأُمم المتحدة أيضاً إِصلاح الطريق من كويتا إِلىٰ قندهار وهراة، ومثلما يحدث في حالة التأكيد الذي يتكرَّر المرة بعد الأُخرى يبدو أَن سيمونز يريد أَن يلفت نظري إِلىٰ مصالح الطالبان.

وفي هذه الأثناء تزداد العلاقات بين إسلام آباد وكابول سوءاً من يوم إلىٰ يوم، ومرآة الصحافة هي التي تجعل هذا يتبيَّن. وذلك أن باكستان ما عادت تحفل بحكومة ربّاني التي اعتراها الوهن. وتنقطع المفاوضات حول اتفاقية الترانزيت ذات الأهمية بالنسبة لكلا الجانبين. ولماذا ينبغي لإسلام آباد أن تتحدَّث مع غفورزاي حول إدارة مسافةٍ ما ربّما تكون قد بدَّلت صاحبها منذ الغد؟ علىٰ أن زيارة وزير الدولة، نجم الدين للعاصمة الأَفغانية، أُبْلِغ عن العدول عنها بصورة نهائية.

وفي أثناء ذلك يحقِّق الطالبان ألواناً جديدة من النجاح العسكري. ففي الثاني والعشرين من أيلول يغزون إقليم كونار ويتقدمون إلىٰ ساروبي، وعلىٰ أثر ذلك يبعث دُسْتُم بألفين من رجال الميليشيا البشتون من الحزب الإسلامي، كانوا حتى الآن متمركزين في شمالي أفغانستان، لمساندة حكمتيار. أمّا قواته الخاصة فلا يتخلَّى عنها الأوزبكيّ. وأسأل ممثل دُسْتُم في إسلام آباد، جنرال الجو، الضئيل القامة، والرشيق، پايندا، ألا تتعرض مصالح دُسْتُم أيضاً للمجازفة في ساروبي. ويجيب الجنرال إجابة تتسم بالثقة بالنفس، قائلاً إنه إذا بات الموقف حرجاً في كابول فسوف يفتح الجنرال دُسْتُم جبهة ثانية ضد الطالبان في إقليم بادجيز، في الشمال الغربي، وأعود فأسأله متشككاً، هل يخفف هذا من العبء الواقع علىٰ العاصمة بالفعل؟ غير أني لا أرى أن من واجبي، بحكم كوني وسيط سلام، أن أسدي النصيحة غير المطلوبة إلىٰ أمراء الحرب.

وتستعر النار في مطبخ الشائعات، ويروي السفير التركي أن ربّاني قد عرض علىٰ دُسْتُم منصب نائب الرئيس ووزير الدفاع لحمله علىٰ الدخول في حكومته، ولكني أتنبأ بوجود صعوبات. وذلك أن مسعود الذي يعتدّ بسلطته لن يضع نفسه في منزلةٍ دون منزلة وزير الدفاع دُسْتُم، وكما أقدِّر الأوزبكيّ المحنَّك الداهية، فإنه سوف يدع لنفسه كل الخيارات مفتوحة حتى اللحظة الأخيرة، وأنا لا أستبعد أن يكون آخذاً في التفاوض مع الطالبان في الخفاء.

وكان مما يسهم في الفوضى واختلاط الأمور حديث مع مستشار في الشؤون الخارجيَّة لرئيسة الوزراء بهوتو أتناول معه العشاء خلال تلك الأيام الحرجة، وهو رجل ذكي منفتح، في الثلاثين، ويعدُّ نوعاً من «خريجي مدرسة النخبة الفرنسيين». أمّا وزير الداخليَّة في حكومته هو، أي الجنرال بابار فيصدر عليه حكماً يُعْدِمه «رجل يظهر بمظهر الأُبَّهة، مختص بالسياسة الداخليَّة، ولكن ليس في شؤون أَفغانستان». وكذلك يبوء وزير الدولة في وزارة الخارجيَّة، نجم الدين، بالخُسْران عنده. «لا يشارك في سياستنا الخاصة بأَفغانستان إلاَّ بنسبة 15٪ علىٰ أقصى تقدير. وهذا المتعاون الضيق الأفق مع رئيسة الحكومة يجادل بالطبع أيضاً في مساندة باكستان للطالبان، ويقول واثقاً بنفسه إِنه إِذا تجرّأ هؤلاء علىٰ تصدير إِيديولوجيتهم إِلىٰ الباكستان فسوف يسحقهم جيشنا من دون رحمة».

واليوم الآن هو الخامس والعشرون من أيلول، وفي اليوم ذاته

obeikandi.com

يحتفل ممثِّلي، أوكيلو، في نادي الأُمم المتحدة المتواضع، في إِسلام آباد، بعيد ميلاده. ولكن أفكارنا ليست مع عيد الميلاد. ففي مساء الأمس اكتسح الطالبان معقل حكمتيار، وهو حصن ساروبي الذي يقال إِنه لا يمكن الاستيلاء عليه، وبَدَّلت القبيلة البشتونية، وهي قبيلة أحمدزاي، ولاءها بغير قتال، والآن يزحف الطالبان علىٰ مدينة جوجاموندا التي لا تبعد عن كابول سوى خمسين كيلومتراً، وفي الوقت ذاته يزحفون في وادي بانجير الأسفل، نحو باغرام، وبذلك تتعرّض العاصمة للتهديد من جانبين. أما جبهة دُسْتُم الثانية التي أُعْلِنَ عنها في بادجيز فلا يُرىٰ منها شيء.

وفجأة تنقلب الأحداث. ففي ساعة متأخرة من بعد الظهر أسمع ما يذهلني، وهو أن الطالبان قد وصلوا إِلىٰ جومروك، وهي محطة جمارك كابول، وهم يزحفون إِلىٰ قلب المدينة، فكيف يكون هذا ممكناً؟ وأين تتخلَّف مقاومة زعيم حرب العصابات المتمرس، مسعود، الذي ردّ الطالبان ثلاث مرات علىٰ أعقابهم؟ وأسمع وقد تولاّني الفزع أن ضواحي العاصمة تم إِخلاؤها بغير قتال، وأن قوات حكمتيار لجأت إِلىٰ أهل قندهار، وبدا أن حكومة ربّاني تنحل خلال ساعات قلائل، وانقطعت الاتصالات مع العاصمة، وبتْنا نعتمد علىٰ معلومات ترد بطريق المصادفة لم يكن في وسعنا أن نمحِّصها، وهي معلومات تعبِّر عن الأبعاد الحقيقية لمشكلة ما تعبيراً مشوَّهاً. ويقتحم عليَّ مكتبي أحد

obeikandi.com

المستشارين في الأونسما، ويتحدث بكل الانفعال، عن قادة ربّاني الثلاثة، أما مسعود وحكمتيار فقد قتل أحدهما وأُسِرَ الآخر وأما الثالث فهارب. وبجهد جهيد أغالب نفسي لكيلا أُبْرِق إِلىٰ نيويورك بخبر التتار، فما من شيء من هذا سوف تثبت صحته بعد ذلك.

وعلىٰ الرغم من انقطاع صلتي بتوجيهات المركز فإنه لا يجوز لي، في غمرة التطور الدراماتيكي، أن أتفرج مكتوف الأيدي. وفي الساعة الثامنة عشرة أُدلي بتصريح، أطالب فيه، باسم الأُمم المتحدة، الأحزاب المتحاربة بالعودة إِلىٰ مائدة المفاوضات، وفي الوقت ذاته أناشد كل الدول الوسيطة أن تتعاون مع الأُمم المتحدة، وهذا يتوجه قبل كل شيء إِلىٰ عنوان جيران أَفغانستان وفيهم باكستان التي يُشْتَبَه في مساندتها السياسية للطالبان، والتشاور معهم عسكرياً أيضاً وتسلّحهم، كما يتوجه أيضاً إِلىٰ طهران. ومن الواضح لديَّ بالطبع مقدار قلّة ما أُحْدِث من التأثير في هذه اللحظة بندائي، ولكن لا يجوز لي أن أخلد إِلىٰ الصمت بالنظر إِلىٰ هذه الأحداث. وبُعَيْد ذلك أعلم، من نيويورك، أن وكيل الأمين العام، غاريكان قد أطلع مجلس الأمن علىٰ الوضع وكان ينقل عن تصريحي في هذا الصدد.

وفي الساعة التاسعة عشرة والنصف ألتمس من رئيس مكتب المفوض السامي لِلاّجئين، ومن ممثلة مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية، المجيء إِليّ. وكان علينا أن نحسب

حساباً لغزو كابول في كل لحظة، ماذا ينبغي أَن يحدث في مسألة نجيب الله، الذي دهمته الأحداث مثلما دهمتنا؟ والحق أَن الأُمم المتحدة ضمنت له أمنه الشخصي، كما سوف يوضح ذلك فيما بعدُ أيضاً الأمين العام، بطرس غالي، في نهاية فترة ولايته، مرة أُخرى، ولكنها عرضت عليه نوعاً من حق الضيافة في مبنىً من مباني الأُمم المتحدة يترتَّب عليّ الآن أَن أتحمَّل المسؤولية عنه، وقد اجتهدنا، أنا وجولدنج، قبل أيام فحسب، من أجل ترحيله إِلىٰ الهند. ولا يجوز لي أَن أتخلّى عن الديكتاتور الذي أطيح به في ساعة المحنة، علىٰ الرغم من أنني لا أستطيع أَن أكنَّ المودة لماضيه السياسيّ. وهذه هي اللحظة التي تتيح لي أن أُذَكِّر نفسي بالتزامي.

ولكن أي الحلفاء يجوز لنا أَن نبني حسابنا علىٰ أساسه؟ ما عاد في وسعنا، ونحن في ساعة المحنة، إِلاَّ أَن نرتجل. وعندما نحاول إِخراج اللاجىء من أرض الأُمم المتحدة وترحيله بالطائرة، لا بد لباكستان أَن تلعب دوراً معنا. فهل تراها مستعدة لذلك، أم ستضحي بنجيب الله للطالبان؟ لا ندري ذلك. كما أننا لا ندري أيضاً هل يكون مطار كابول مفتوحاً للطائرات التي تخرج منه، وكل ما يجري إِبلاغنا به، أَن الطائرات الواردة إِلىٰ هناك ما عاد يجوز لها أَن تهبط فيه. أترانا نستطيع أَن نصدق بعدُ وعدَ ربّاني السابق بترك الديكتاتور يرحل، إِذ باتت حكومته علىٰ وشك الانحلال؟ أم هل ستتم في الساعة الأخيرة تسوية حسابات قديمة

بمجرد أَن يغادر نجيب الله المأوى الذي يحميه؟ هل نستطيع أن نثق بمسعود؟ لقد ادعى نجيب الله في بعض الأحيان أَنَّه يستطيع أَن يثبت أَن القائد الطاجيكي تآمر مع السوفييت أثناء الجهاد أيضاً، فما هي البراهين التي سيطرحها عندما يكون قد وصل إِلىٰ الهند المأمونة. وإِذاً فهل يحاول مسعود أَن يمنع نجيب الله، بالقوة، من نشر أمثال هذه الشائعات؟ تقول ممثلة مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية إِنه يجب علينا أَن نطلب من ربّاني ضماناً خطياً، أَن يُتْرَكَ الرئيس الذي أطيح به يرحل من دون أَن يمسَّه أذى، ولكن بالنظر إِلىٰ الوضع الذي يسوده العَماء في العاصمة حيث يوشك الحق والقانون أَن ينحلاّ، يبدو لي أَن هذا يعد شكلية شاذّة غير معقولة. ونتشاور فيما بيننا، في مسألة هل ينبغي لنا أَن نحوّل نجيب الله إِلىٰ الصليب الأحمر الدولي في كابول، إِذا كان المطار مغلَقاً في وجه الطائرات القادمة، أي في وجه طائرتي التابعة للأُمم المتحدة. واللجنة الدولية للصليب الأحمر تتمتع بسمعة حسنة عند كل الأحزاب المتحاربة، وإِذا كان ثمة مؤسَّسة في وسط الحرب الأهلية تستطيع أَن تقدّم ملاذاً فتلك هي مؤسَّسة الصليب الأحمر. ولكن هذا يظل محصوراً في نطاق التفكير النظري. وقد انقطع الاتصال الهاتفي المُفْضي إِلىٰ كابول.

وفجأة تأتي برقية من كابول، وقد أتيح هناك لممثل مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية، أَن يتوصل إِلىٰ الدخول علىٰ نجيب الله، وأن يتحدَّث إِليه، علىٰ الرغم من الاشتباكات

المتواصلة في الشوارع. ويعلن هذا أَنَّه يريد البقاء علىٰ أرض الأُمم المتحدة، وأن لا يتم إِخراجه بالنظر إِلىٰ الوضع غير الآمن، ومن الواضح الجلي أَن نجيب الله لا يثق بحكومة ربّاني، ورجلها القوي، مسعود الطاجيكيّ، ولا يريد أَن يدخل في نطاق سلطانها بغير حماية. وفي مواجهة ممثل مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية يعلّق قائلاً إِنه لا يخشى من الطالبان (he was not afraid of the Taliban). وكان موظف الأُمم المتحدة قد شدَّد الحراسة علىٰ مدخل أرض الأونسما، وكانت مسألة أَن أرض الأُمم المتحدة لها حرمتها في حالة الحرب أيضاً لفتة ذات مقصد حسن، ولكنها تتسم بالعجز. وأحاول مجدداً أَن أتوصَّل إِلىٰ رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر عبر البرق لألتمس منه حماية نجيب الله، غير أنني لا أحقق نجاحاً في هذا. وفي ساعة متأخرة من الليل أتصل بنيويورك بالهاتف وأُبَلِّغهم.

ويبدو أَن يوم السادس والعشرين من أيلول يأتي بفترة التقاط للأنفاس فمركز كابول ما زال في قبضة قوات مسعود. وفي الصباح يزورني ممثل لوزارة الخارجيَّة الهندية كان قد أجرى مفاوضات مع إِسلام آباد في مسألة أُخرى، والآن يلتمس مني بإِلحاح أَن أُرَحِّل العاملين في السفارة الهندية المُحاصَرين بطائرة تابعة للأُمم المتحدة، ويقول إِنه إِذا غزا الطالبان المدينة بالفعل فسيكون الدبلوماسيون الهنود أول من يتعرَّضون لانتقام أهل قندهار. وأَعِدُ الهندي بالمساعدة إِذا استطاعت طائرة من طائرات الأُمم المتحدة أَن تهبط في كابول.

obeikandl.com

وكان الوضع يزداد تناقضاً علىٰ نحو مطرد، علىٰ مَرّ ساعات النهار. وعلىٰ الرغم من أَن الطالبان يوشكون، فيما أُقدِّر، أَن يُدْخِلوا المدينة في نطاق سيطرتهم، تصلني برقيات من وكالات مختلفة تابعة للأُمم المتحدة، تفيد أَن الوضع هادىء في قلب كابول. وكان موظفو الأُمم المتحدة يريدون البقاء في مَقارِّ الأُمم المتحدة، وأن لا يُرَحَّلوا، وفجأة يروي لي مستشار بانفعال، أَن حكمتيار قتل وهو هارب علىٰ يد قوات مسعود، وقال إِن هذا ما أذاعه للتوّ راديو طهران. وكان نبأ غير صحيح كما تبيَّن فيما بعد. ولكننا لا نعرف في هذه اللحظة ما يجري في كابول بالفعل. علىٰ أَن المعلومات القليلة التي تبدو معلومات يمكن الركون إِليها، ترجع إِلىٰ الأمانة العامة في نيويورك.

وهناك يُطْلِع جولدنج مجلس الأمن الدولي بصورة مستمرة علىٰ الوضع في كابول. أما روسيا فتشعر بالقلق إِلىٰ أقصى الحدود. وعند الظهر تذيع هيئة الإِذاعة البريطانية التي ما زال مراسلها هو الصحفي الغربي الوحيد الذي ظل في العاصمة، أَن الطالبان يجري رَدُّهم علىٰ أعقابهم من قلب كابول. ومرة أُخرى نتزوَّد بالثقة. وفي الساعة السابعة عشرة يبلغني أيضاً رئيس مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية، أَن الهدوء آخذ في الاستتباب، وأن طائرتين تابعتين للأُمم المتحدة، تمكنتا من الإِقلاع من كابول، لم تأخذا في الطيران إِلاَّ مع انشغال نصف المقاعد فيهما فحسب، لأن معظم موظفي الأُمم المتحدة كانوا

يعدّون الوضع مأموناً إلىٰ حد ما ولم يريدوا أَن يتم إِجلاؤهم. وقال إِن الدبلوماسيون الهنود كانوا علىٰ ظهر الطائرة. وأتصل هاتفياً برئيس المفاوضات الهندي الذي يشكر لي وقد سُرِّيَ عنه. وأُخْلِد إِلىٰ فراشي وأنا متماسك إِلىٰ حد ما، والساعة تشير إِلىٰ منتصف الليل.

وفي السابع والعشرين من أيلول، في الثالثة صباحاً، يرن جرس الهاتف فيخرجني من النوم. ويخبرني أوكيلو، أَن نجيب الله قد أُخْرِجَ من مأواه من قبل خمسة من المسلحين في الساعة الواحدة والدقيقة الأربعين، ولا يعرف أوكيلو معلومات أكثر تفصيلاً، ولا يعرف إِلىٰ أي مجموعة سياسية ينتمي هؤلاء الرجال، كما لا يعرف أيضاً إِلىٰ أين أُخِذَ نجيب الله. وعبثاً نحاول، علىٰ مدى ثلاث ساعات أن نحصل علىٰ اتصال بوكالة من وكالات الأُمم المتحدة في كابول. وفي الساعة السابعة والنصف نصل إِلىٰ ممثل الأونسما، ويؤكد هذا أن نجيب الله جيء به إِلىٰ مكان غير معروف، كما جيء فيما بعد بأخيه أحمدزاي، وبكلا العاملَيْن معه، وبُعَيْد ذلك تذيع هيئة الإِذاعة البريطانية أن نجيب الله قد أُعْدِم، وأن جثته تعرض علىٰ الملأ عند تقاطع طرق في كابول.

وتهتف لي هيئة الإِذاعة البريطانية وتقول إِنها تود أن تجري مقابلة معي، ما الذي ينبغي لي أن أقوله في هذه اللحظة العصيبة؟ ولا توجد لديّ توجيهات من نيويورك، وبسبب الفرق في التوقيت

يسود هناك ليل عميق، واستمهل الصحفيّ إلىٰ العاشرة. علىٰ أن الفرق في التوقيت يجعل العمل عسيراً. ولا أستطيع أن أهتف لأحد في نيويورك، وأن ألتمس «تحديداً للألفاظ» ولا يوجد في المقر الرئيسي للأُمم المتحدة مصلحة تهيئة أَو إِعداد. وفي باكستان يتصاعد الانفعال العلني، ويخرج البشر المهتاجون في بيشاور إلىٰ الشوارع، كما يتم الإِبلاغ عن مظاهرات عنيفة من قبل أنصار نجيب الله ومن قبل خصومه. وتبلغ موجة من التجاوزات المماثلة، علىٰ مَرِّ الساعات الاثنتي عشرة التالية، لندن ونيويورك. ويحتشد أمام مقر الأونسما في إِسلام آباد أناس منفعلون، ويريد الصحفيون أن يعرفوا لماذا لم تَحْمِ الأُمم المتحدة نجيب الله، وما هي الأقوال التي يمكنني أن أدلي بها الآن حول قتل نجيب الله.

وحين أعود في وسعي أن أنتظر بعدُ توجيهات من نيويورك، أُصَمِّم مع أوكيلو، تصريحاً، وما زلنا لا نعرف علىٰ عاتق مَنْ نلقي وِزْر موت نجيب الله. هل انتقم منه الطالبان؟ هل حال رجال مسعود بينه وبين «إِبداء رأيه بصراحة»، في قندهار، تحت التعذيب؟ وهل كانت المخابرات الباكستانية حاضرة عند غزو كابول، وهل تعدُّ مسؤولة عن عملية القتل؟ ما من إِمكانية من هذه الإِمكانيات يمكن استبعادها.

ومن دون أن أَخُصَّ حزباً من الأحزاب المتحاربة بالتهمة بصراحة، أُعْرِب في تصريحي عن «اشمئزازي العميق» لخطف نجيب الله وأخيه وقتله، وعَرْض جثتيهما. وأقول إِن نجيب الله

أسهم إِسهاماً جوهرياً في انتقال السَّلام السلمي، في نيسان 1992 وإِن الأمين العام للأُمم المتحدة ضمن له الحماية علىٰ أرض الأُمم المتحدة اعترافاً بهذا الإِسهام علىٰ مدى أربع سنوات، وإِن الأمم المتحدة قد بذلت جهدها حتى اللحظة الأخيرة لإِنقاذ الرئيس السابق، لأسباب إِنسانية، وإِن حرمة أرض الأُمم المتحدة قد انتهكت بقتله، وإِن الجهود من أجل السَّلام ستواصل مواجهة المتاعب. ولم نتوصَّل، أنا وأوكيلو، إِلىٰ الصياغة ببساطة، وطال بنا الأخذ والرد في النصّ، وقد أُخِذَت بعض العناصر في تصريحي من تصريحات سابقة للأمين العام.

ولم يكن المتظاهرون والصحفيّون والتابعون للأُمم المتحدة وحدهم هم الذين انهالوا علينا، بل تهتف إِليَّ ابنة نجيب الله من نيودلهي. علىٰ أن شعورها بالمرارة والانفعال مفهومان كل الفهم ويزيدان من الضغط الذي يُثْقِل علىٰ كاهلنا، وتأخذ عليّ السيدة الشابة، كما يأخذ الكثيرون من الآخرين أيضاً علىٰ الأُمم المتحدة، وعليَّ أنا شخصياً، عجزنا وتورُّطنا في موت والدها. وأبذل الجهد في شرح الوضع لها، وأقول لها إِن من المآسي أن الطالبان غزو كابول علىٰ وجه الخصوص في لحظة سنحت فيها لأول مرة فرصة لرحيل أبيها، كما أن الأحداث داهمت أباها مداهمة، وقد كان رفض قبيل قتله أن يسمح بإِجلائه، وقلت إِنني أريد أن أحاول علىٰ الأقل أن أظفر بجثتي أبيها وعمها، لكي يُدْفنا بكرامة، وهو الشيء الوحيد الذي ما زال في وسعي أن أَعِدَ به.

وأبلِّغ جولدنج بموت نجيب الله وأنا مقتنع بأنني أديت ما هو مطلوب ولازم في وضع مرير، وأُلْحِقَ ببرقيتي نص تصريحي. أمّا علىٰ الصعيد الداخلي فقد أعربت عن اشتباهي في إِمكان إِلقاء وزر القتل علىٰ كاهل الطالبان، ولكن كانت تنقصني البراهين، وكان من بواعث ذهولي وفزعي أن جولدنج يهتف إِليّ في المساء وهو في حالة من الانزعاج، من نيويورك، ويلومني علىٰ عنادي، ويقول إِنني قد استبقت بتصريحي مجلس الأمن الدولي الذي كان يريد أن يعلن أَنَّه هو نفسه المسؤول عن موت نجيب الله. وأدافع عن قراري وقد أخذني الانفعال. وكانت أعصابنا مستثارة. ويقول جولدنج إِنه قد أوعز إِلىٰ وكيلي أوكيلو، هاتفياً، أن أصرف النظر عن تصريح علني. ولكن حين أسأل وكيلي ينكر أَنَّه تلقى مثل هذا التوجيه.

وكانت هذه أول مرة أشعر فيها أن الأمانة العامة تعاملني بغير إنصاف؛ وتتخلى عني وأنا في موقف عصيب، علىٰ أنني لا أقدر، في سلوكي الذي تفرضه التقلُّبات الدراماتيكية، علىٰ تمييز ظلم. ولكن جولدنج لا يسحب مأخذه، ولذلك سوف يُلْقي سوء الفهم هذا، من جراء توجيه يقال إنه تعرض للانتهاك، بثقله علىٰ علاقاتي بهذا الصديق الفذ، وهي العلاقات التي كانت في العادة حافلة بالثقة، إذ كان صديقاً حقيقياً، فترةً من الزمان أيضاً. وبعد ثلاثة أشهر فحسب، أي في نهاية كانون الأول من عام 1996، أحظى بالعدالة علىٰ نحو غير مباشر فيما أحسب. ففي رسالة

أخيرة يكتبها الأمين العام المُغادر، بطرس غالي، إلىٰ أرملة نجيب الله، يستعرض كل الخطوات التي اتخذتها هيئة الأُمم المتحدة لحماية زوجها، وفي هذا الصدد يأتي أيضاً علىٰ ذكر تصريحي في السابع والعشرين من أيلول ويعترف به.

obeikandl.com

UNITED NATIONS

SPECIAL MISSION TO AFGHANISTAN
(UNSMA)

Press Release

Statement by the Head of the United Nations Special Mission to Afghanistan, Dr Norbert Holl, on the death of former President Dr. Najibullah

The United Nations Special Mission to Afghanistan(UNSMA) expresses its deep dismay at the abduction by armed men of the former President of Afghanistan, Dr. Najibullah, and of his brother from the UNSMA compound in Kabul in the early hours of 27th September 1996, and at the subsequent killing of Dr. Najibullah and his brother, and public exposure of their bodies.

Dr Najibullah made a considerable contribution to the peaceful transfer of power to the mujahideen during the crucial days of April 1992. In recognition of this, the Secretary General of the United Nations granted him and his companions proctection in UNSMA's premises in Kabul for over four years.

Throughout this time, and in particular in recent days, the United Nations have made strenuous efforts, for humanitarian reasons, to find a solution to the case of Dr Najibullah, with a view to enabling him to return safely to his family. Dr Najib had formally abjured any political activity in the future.

The abduction of the former President and his companions and the subsequent killing of him and his brother without any legitimate judicial procedure not only constitute a grave violation of the immunity UNSMA premises enjoy under international law, but also further jeopardise all the efforts which are being made to secure a peaceful settlement of the Afghanistan conflict. UNSMA deeply deplores these tragic events which cast a doubt over the willingness of those responsible to achieve reconciliation and guarantee justice in the area controlled by them.

UNSMA appeals with the utmost gravity to those responsible to spare the lives of Dr Najibullah's two remaining companions

تصريح حول مقتل الرئيس الشيوعي السابق، نجيب الله، في 27 أيلول، 1996.

obeikandl.com

10

الحكام الجدد

هناك مأخذ يؤخذ بأشكال شتى ومؤداه أن الطالبان إنما دُفعوا، من جرّاء عزلتهم الدولية، إِلىٰ التطرّف، ولو أن عالم الدول حاول محاولة جدية أن يدخلهم في نظام قِيَمه لما حدث التشدد في تفسيرهم للإِسلام بمثل هذه القوة. ويقال إن الطالبان سَعَوْا في البداية سعياً جاداً إِلىٰ الحصول علىٰ الاعتراف بهم من قبل الأُمم المتحدة، غير أنهم اصطدموا مع ذلك بالرفض في كل مكان.

ولا أعتقد أن هذا المأخذ له ما يبرّره. وعلىٰ كل حال ففيما يتصل بالأُمم المتحدة، فقد بادرت هذه بأسرع مما كنت أراه مناسباً في تلك الأيام، إِلىٰ إجراء حوار مع الحكام الجدد في كابول، وأظهرت لهم بكل طريقة ممكنة، أن في وسعهم أن يبنوا حسابهم علىٰ أساس التعاون مع المجتمع الدولي، بشرط أوّلي بالطبع، وهو أن يكونوا مستعدين لمفاوضات سلام، ولكن هذا

obeikandl.com

هو ما كان يُفْتَقَد علىٰ وجه الخصوص، كما لم يكن لي بدٌّ في تلك الأيام علىٰ الأرجح، أن أشهد ذلك بحكم كوني الشاهد الأجنبي الوحيد، عن كثب. ومنذ ساعة النصر الأولى استأنف الطالبان خط سيرهم الذي لا يتوانى، ضد تحالف الشمال، ووجدوا أنفسهم غير مستعدين لتحوُّل أَو انعطاف في المسائل المبدئية المتعلقة بحقوق الإنسان، ولا سيما حقوق النساء، التي كانت الأُمم المتحدة تعلق قيمة كبرى علىٰ احترامها. ويفترض في المقتطفات التالية من يومياتي أن تخدم تصوير هذا الافتقار الكامل إِلىٰ التبصُّر، والاستعداد للحل الوسط والذرائعية، وتتناول هذه اليوميات ما يحدث في نهاية أيلول 1996، وتصف الأحداث التي جرت بعد غزو العاصمة الأَفغانية علىٰ يد الطالبان.

وكان قد سبق ذلك الاستياء المذكور آخر الأمر، والذي أحدثه تصريحي حول قتل نجيب الله في نيويورك، ولم يكد التذمُّر يخبو أُواره حتى نشب نزاع جديد في نيويورك. ففي السابع والعشرين من تشرين الثاني كانت ما تزال تتعالى موجات الاستياء بسبب قتل نجيب الله وأخيه. هنالك يشير عليَّ جولدنج بالهاتف أن أُجْرِيَ اتصالاً مع الطالبان، فتأَفَّفْتُ من ذلك، ولما كنت أشتبه فيهم علىٰ وجه الخصوص بأنهم استدرجوا نجيب الله للخروج من أرض الأُمم المتحدة وعذبوه وقتلوه، فقد عَزَّ عَلَيَّ أن أعود «إلىٰ العمل كالمعتاد» من دون فترة التقاط أنفاس، ولذلك أقترح قطع

المحادثات إِلىٰ أجل قصير، «إِلىٰ أن يكون قد رَكَد الغبار»، ولكن جولدنج يوجهني بصورة إنذار، «باسم الأمين العام» بوجوب زيارة الطالبان من دون تأخير، سواء في كابول أَم في قندهار.

ولم أدرك أبداً لماذا كان الاتصال بالطالبان الذين كانوا كأنما لُطِّخت أيديهم بالدماء أمام الرأي العام العالمي، يتسم في تلك الساعة بسمة الضرورة المُلِحّة، وكان العالم المتحضر قد جَمَد الدم في عروقه من الفزع من جرّاء تلك الفعلة القاسية، ولم يكن هناك حكومة تُلِحّ علىٰ الأمين العام لكي يستأنف الاتصال مع السادة الجدد، وكان من الواضح لديَّ بالطبع أَنَّه لن يكون هناك في المستقبل طريق يمرُّ بالطالبان. وبعد غزو العاصمة باتت لهم اليد العليا بصورة نهائية. ومع ذلك فأنا أعتقد أَنَّه كان يجدر بالأُمم المتحدة أن تحدِّد فترة قصيرة من توقف المفاوضات ليكون ذلك ردَّ فعل منها علىٰ الانتهاك الصارخ لحرمتها، ولَوْ قد فعلت لما ألحقت بجهودنا من أجل السَّلام علىٰ كل حال. وأنا لا أعتقد أن التسرُّع الذي استأنفنا به الحوار من جديد عادَ علينا بنقاط مكتسبة لدى الطالبان، فأنا لم أشعر بشيء من ذلك في مفاوضاتي.

وعلىٰ هذا فبينما كنت أتخبّط مع التوجيهات غير الباعثة للسرور، تمطرني الهواتف بالاتصالات في الأونسما. فمن بون يتصل نائب البنريستاج ڤيمر الذي يعرف آسيا الوسطى معرفة حسنة بحكم كونه مراقباً تابعاً لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا، ويود

أن يتمّ تزويده بالمعلومات. ويهتف إليَّ رئيس الفرع في وزارة الخارجيَّة، وكأني فرع خارجي للسفارة الألمانية في إِسلام آباد، وتلتمس مني هيئة الإذاعة البريطانية حديثاً بالهاتف، ويهتف إليّ كواباتا ورئيسة القسم القائمة بأعماله، پيركين، من نيويورك، ويزورني عدد من السفراء، وبذريعة عرض مساندتهم عليّ، يستقون المعلومات مني، وذلك أَنَّه لما كانت كل البعثات الغربية في كابول مغلقة منذ سنين فأنا أتمتع، بفضل مكاتب الأُمم المتحدة، بنوع من احتكار المعلومات يود كل امرىء أن يستفيد منه، وأبذل الجهد في الرد علىٰ كل الأسئلة بأسلوب مهذب، ولكن مستشارِيَّ وأنا، نريد في هذه الساعات المحمومة أن تَفْرَغَ أذهاننا لأفكارنا الخاصة. ذلك لأنه يتم الإِبلاغ في هذه الأثناء، من كابول، عن خطر جديد، إذ تسلَّل الطالبان إِلىٰ أرض الأونسما، واعتقلوا خبيراً تركياً في الكشف عن الألغام ليكون «رهينة»، وهم يهددونه بسلاح يشهرونه في وجهه، ويحمّلونه المسؤولية عن هرب مرافِقَيْ نجيب الله اللذين أتيح لهما، كما تفيد البلاغات الأولى، أن يتواريا، وتساورني هواجس كبيرة بصدد حياة المتعاون التركي معنا، ولا أعرف كيف أستطيع أن أساعده علىٰ البعد. ومطار العاصمة مغلق، والطيران إِلىٰ هناك غير ممكن، والاتصال الهاتفي مع أَفغانستان معطّل.

وفي المساء يتاح لي أخيراً أَن أتصل برقياً بممثِّل مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية، بيل بيرجكويست في قندهار،

وأبلغه أنني أرفع زيارة مجلس الشورى في اليوم التالي، ويَعِدُ برجكويست بالعمل علىٰ تدبير مواعيد. ثم أنطلق بسيارتي إِلىٰ مقر مبعوث الولايات المتحدة، هولتسمن، وبعد قدر كبير من الجهد المتسرِّع، والتبرُّم، والمرارة، أشعر بالحاجة إِلىٰ أَن أتوارى ساعة من الزمان، وأمدَّ رجلَيَّ تحت مائدة مغطّاة بِخِوان نظيف، وأحتسي قدحاً من الشاي بهدوء، وألتقي عند هولتسمن برئيس قسم أَفغانستان وباكستان في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، وهو كولدرين، الذكي، المنفتح إِلىٰ حد ما، وأنا أعرفه من زيارة لروبن رافِلْ، ويتناول هولتسمن التطور الدراماتيكي في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة تناولاً فلسفياً، فيقول إِنه تنبّأ بانهيار الحكومة منذ عهد بعيد، ويشبِّه هشاشتها بهشاشة فرنسا عام 1871. فقد تم اكتساح نظام نابليون الثالث الذي كان يبدو مُدَعماً محصَّناً، خلال أسابيع قلائل، وأُبْلِغ هولتسمن أنني مكلَّف بالرحيل إِلىٰ قندهار، وينصح لي الأمريكي أيضاً بأسلوب موضوعي، بأن أزور الطالبان.

وفي الصباح التالي (28 أيلول) تورد كل صحف الصباح صوراً لنجيب الله وأحمدزاي، وجثتاهما معلقتان علىٰ سارية إشارة للمرور، وقد حشا جلادهما أوراق العملة والسجائر في فيهما ودسّاها في أيديهما، وجيوب سراويلهما، ليجردوهما من الشرف حتى عند الموت. وما زالت الصحافة تدعي أَن رئيس مجلس وزراء نجيب الله، تركي، وحرسه الشخصي، ياسْفَر، قد أُعْدِما أيضاً. وقد أشارت وزارة الخارجيَّة الباكستانية في الحقيقة إِلىٰ قتل

الرئيس السابق في بيانها علىٰ أنّه «أمر يدعو إِلىٰ الأسف الشديد» ومع ذلك فقد قرَّرت في الوقت نفسه إِرسال وفد إِلىٰ كابول، وهناك كان زعيم الطالبان، الملاّ ربّاني، قد وطَّد مركزه قائماً بأعمال رئيس الحكومة ويُعَيِّن الملاّ غوث وزيراً للخارجيَّة. أما زعيم الحركة، الملاّ عمر، فقد بقي في قندهار.

وفي الطريق إِلىٰ المطار أقرأ برقية من جولدنج، وتبدو ذات نزعة إِلىٰ المصالحة، غير أنّها تأخذ عليَّ، مجدَّداً، تصريحي بالأمس، وتقول إِنها سوف تجعل تعاوني مع الطالبان صعباً، فيما يقول جولدنج، ويستند علىٰ وجه الخصوص، إِلىٰ السفير الباكستاني أحمد كمال، دون غيره، وهو الذي يجعل مني، شيئاً فشيئاً، هدفاً لنقده المتواصل، ويبدو أَنَّه يتجاهل بيان وزارة خارجيته هو. وبهذه المناسبة فإِن كليهما يرفض أَن يحيط علماً بأنني لم آتِ علىٰ ذكر الطالبان في تصريحي علىٰ الإِطلاق.

وفي قندهار ألتقي بالحاكم ملا محمد حسن رحمن، وهو ذلك الرجل، الذي يذكِّرني وجهه بلوحة من لوحات لوكاس كراناخ، كما ألتقي بالمستشار السياسي للملا عمر، وهو أحمد جليل، الشاحب الذي يبتسم منطوياً علىٰ نفسه، غارقاً في أفكاره. وكلاهما رجل بين الثلاثين والأربعين، ويضاف إِليهما آخرون، لا أعرفهم، من الطالبان. وأشعر أنني أمر بموقف جديد من الوجهة النفسيَّة، لقد تبدَّل جو التفاوض. كان الطالبان حتى الآن حزب معارضة، غير أنهم باتوا، منذ غزو العاصمة، يمسكون برمز الهوية

الوطنية في أيديهم، وسيشعرون في مستقبل الأيام أنهم حكام البلاد الشرعيّون الذين يريدون أَن يتفاوضوا مع كل حكومات العالم الأُخرى من موقع النِدّ للندّ. ومن الناحية الظاهرية لا يدع المُلات التغيُّرات الدراماتيكية التي حدثت في الأيام الأخيرة تُلاحظ. ويحيونني بشاهدٍ من القرآن، ثم يطالبونني، كالعادة، بالبدء في المفاوضات، ويكاد المرء يشعر بانطباع مؤداه أَنَّه يمارس طقساً من الطقوس.

وباسم الأمين العام أُدين قتل نجيب الله وأحمدزاي، وأعرب عن شعوري بالصدمة لانتهاك حرمة الأُمم المتحدة في كابول. ثم أعلن، حسب التوجيهات الصادرة إِليَّ، أَن الأحداث الدراماتيكيَّة في الأسابيع الأخيرة ما كان لها أَن تصرف الأُمم المتحدة عن تصميمها علىٰ الإِسهام في تحقيق السَّلام في أفغانستان، وأنه لا ينبغي للطالبان، حتى في ساعة الانتصار العسكري، أَن ينسوا أَنَّه لا بد أَن يعاد بناء البلاد من جديد في نهاية الحرب، ومن أجل ذلك سيحتاجون إِلىٰ معونة المانحين الدوليين، وأنه لا يجوز لأَفغانستان أَن تنعزل، بل لا بدَّ لها أَن تفتح «الأبواب والنوافذ المفضية إِلىٰ العالم الخارجي، علىٰ مصراعيها»، وكنت أقول هذا بإِلحاح وفي الختام أبلغهم أنني أودّ، أنا أيضاً، أَن أرتحل إِلىٰ كابول لكي أتحدث إِلىٰ الملاّ ربّاني، وغوث.

وفي جوابه يشرح الملاّ حسن في البداية، مرة أُخرى، نشوء الطالبان، ورسالتهم الدينيَّة. ويؤكد أَن قندهار تريد أَن تتعاون مع

obeikandi.com

الأُمم المتحدة ومع الدول المحبة للسلام، وهو تأكيد يعد مفاجئاً بالنظر إِلىٰ الأحداث التي جرت علىٰ أرض الأُمم المتحدة. ويقول إِن ربّاني وحكمتيار قد نهبا الشعب، وفي أعناقهما أرواح خمسة وأربعين ألف من البشر (ومن الواضح أَنَّه يقصد قتلى الحرب منذ انسحاب السوفييت)، وأن كابول تم فتحها بمعونة السكّان، وأنه قد تم إِنشاء مجلس للشورى علىٰ الصعيد الوطني، وقال إِن الاشتقاقات الرسمية التي أستعملها، مثل: «رئيس الوزراء» و«وزير الخارجيَّة» هي اشتقاقات واردة من الخارج، وأن ربّاني وغوث لم يكونا يقومان بعملها إِلاَّ بصفة مؤقتة. ثم يؤكد حسن أَن أَفغانستان مستعدة لفتح الأبواب والنوافذ، وهي تبني حساباتها في المستقبل أيضاً علىٰ معونة الأُمم المتحدة، وينصح لي أَن أطير في الصباح التالي إِلىٰ كابول، ولا أعرف بالطبع هل أعيد فتح المطار.

وألتمس من الملاّ حسن، في خلوة بيني وبينه، تسليم جثتي نجيب الله وأحمدزاي، لكي تدفنا دفناً لائقاً، وقلت إِني لن أتوانى في لفت أنظار الطالبان إِلىٰ هذا الالتزام الأَوَّلي، ويمانع حسن أول الأمر، قائلاً وهو يغمغم: إِن المجرم نجيب الله لم يكن يستحق دفناً مشرِّفاً، وأشير بإِصرار إِلىٰ الانطباع المدمِّر الذي خلّفه عرض القتيل في ميدان الرأي العام الدولي، وأخيراً تلين قناة حسن، ويعدني بتأييد مقصدي في كابول.

وحين أهبط في إِسلام آباد وقد استنفدت طاقتي، في ساعة متأخرة من بعد الظهر، من جراء الحرارة، والتبدُّل المتواصل في

الارتفاع، يستقبلني أوكيلو بخبر لا يصدق: وهو أَن تركي وياسْفَر قد شقا طريقهما إِلىٰ إِسلام آباد ونجيا بنفسيهما بدخول مبنى الأونسما من دون أَن يلاحظهما أحد. وقال إِنهما يقيمان الآن هناك في حجرة خلفية، مختبئين، بل لم يلاحظ، حتى الموظفون الباكستانيون شيئاً من وجودهما. وبالنسبة إِليَّ فإِن إِنقاذهما يعني ارتياحاً إِنسانياً كبيراً. غير أَن الإِنقاذ تترتب عليه مشكلات كبيرة، فأنا ما زلت لا أستطيع أَن أستبعد أَن يكون للمخابرات الباكستانية ضلع في موت نجيب الله. فكيف ينبغي لي عندئذ أَن أخرج الهاربين إِلىٰ البلاد الخارجيَّة الآمنة؟ ومن يضمن لي أَن لا يمسك بهما الجيش وهما في الطريق إِلىٰ المطار ويُسَلَّما إِلىٰ قندهار؟ ولو حدث هذا لبدا عجز الأُمم المتحدة واضحاً جلياً، من جديد، فضلاً عن المصير المحتمل لكلا الرجلين. وأهتف لجولدنج وأخبره أنني أريد أَن أحاول أَن أخرج بالهاربين، بالطائرة، إِلىٰ نيودلهي. ولا بدّ لي، من أجل ذلك، أَن أتعاون مع الحكومتين الباكستانية والهندية، أما التنسيق بين كلتيهما فلن يكون سهلاً، وقلت إِنني سأُدْخِل في هذه المسألة المفوض السامي لشؤون اللاجئين. ويوافق جولدنج.

وفي ساعة متأخرة من المساء، حين يكون العاملون المحليون عندنا قد انصرفوا إِلىٰ بيوتهم، أزور «ضيوفنا»، وكان مستشاري، ساندشتروم، السويدي الشرش، قد آواهم في القبر، وحين أدخل مأواهم مع أوكيلو، كان تركي راقداً، بقميصه وسرواله فحسب،

obeikandi.com

علىٰ ظهره، علىٰ منضدة خشبية عارية. وقد أخلد إلىٰ النوم من الإرهاق. وينهض وقد انتابه الفزع، وكان يرتسم في وجهه عند استيقاظه، أول الأمر، خوف صريح من الموت. ويعتقد أَن الشرطة ستأخذه، وأحدثه لأقنعه وأبعث في نفسه الطمأنينة. والآن يعرفني، وفي الخارج يقف الحرس الشخصي في الدهليز، وهو رجل مفتول العضلات له شعر أشهب بلون الجليد، وهو لا يتحدَّث بالإنكليزية، وأصافحه بغير كلام. وفي الصباح التالي أستجوب تركي طوال ساعتين وهو يتحدث عن مشاهداته. وقد سبق لي أَن كنت قاضياً ألمانياً قبل ثلاثين عاماً. وربما جاءت خبرة تلك الأيام في صالحي الآن، ولا أودّ أن أكرّر ما سُرِد من الأحاديث هنا علىٰ وجه التفصيل، وحسبي أَن ألاحظ هذا فحسب: لقد كان الطالبان يراعون حرمة أرض الأُمم المتحدة ما دامت أمورهم تستقيم، ولم يجرّوا نجيب الله بالقوة، بل استدرجوه إلىٰ الخروج بالحيلة. لقد خدعوه بأنه قد مُسَّت الحاجة إليه في إفادة شاهد، وأن في وسعه بعد ذلك أَن يعود إلىٰ أرض الأُمم المتحدة. ونزل نجيب الله علىٰ هذا الطلب علىٰ الرغم من وجود بعض الشكوك لديه. علىٰ أَن موظفاً من موظفي الأُمم المتحدة حاول أَن يصطحب نجيب الله لأسباب أَمْنِيّة طرد بالقوة من سيارة البيك آب التي نقل بها نجيب الله، وبعد ساعة تمت ممارسة اللعبة ذاتها مع أحمدزاي، إذ قيل له من باب النفاق إن أخاه نجيب الله يريد أَن يتحدث إليه وتَبع أحمدزاي مختطفيه

obeikandi.com

مُصَدِّقاً، ويؤكد كلا شاهدي العيان اللذين بقيا علىٰ أرض حرم الأُمم المتحدة أَنَّه كان يشهد هذا العمل رجال «بغير لِحىٰ»، أي أنهم ليسوا من الطالبان، وتلك إِشارة إِلىٰ مشاركة المخابرات الباكستانية.

وأروي للأمين العام الأسباب الكامنة في الخلفية بالتفصيل.

وبعد ثلاثة أيام من هذا يسافر كلا الرجلين بمشاركة الحكومتين المشاركتين إِلىٰ نيودلهي. وفي التاسع والعشرين من أيلول، أي بعد يومين من سقوط العاصمة، أقعد في مواجهة الحكومة الجديدة. ويرافقني رئيس فريق الأُمم المتحدة، الأمريكي، في كابول، تيري بيتسنر، وكان قَدْ رجا مني أَن أقدم إِليه رئيس وزراء الطالبان، الملاّ ربّاني، وزيارتي ذات أهمية لا القياس إِليّ فحسب، بل بالقياس إِلىٰ الطالبان، وهم علىٰ يقين أنهم خَطَوْا، بغزو كابول، خطوة هامة قَرَّبت إِليهم هدف الاعتراف الدولي. وأنا أول زائر أجنبي، ولذلك ينتظرني في المطار «محطة قطار كبيرة» لم أَحْظَ بمثلها في الزيارات اللاحقة. ويستقبلني متلطِّفاً رئيس المراسم في وزارة الخارجيَّة، وهو رجل في الثلاثين، من الطالبان ذو عمامة سوداء، لا يتحدَّث بالإِنكليزية، ولكن ما من شك في أَنَّه يتحدث بشيء من العربية التي يسهل علينا أَن نَرْطُن بها متعثِّرين، مستمتعين، كِلَيْنا. وبالطبع يفقد رئيس المراسم طلاقته المرحة، حين ينهال الصحفيون عليَّ يريدون أَن يلتقطوا صورة لي، وتُدافع قوى الأمن المراسلين، وأناديهم، قائلاً

إنني سوف أعقد بعد ذلك مؤتمراً صحفياً علىٰ أرض الأُمم المتحدة، ومرة أُخرى تحضر إلىٰ المكان عربة الخدمة القديمة التابعة للسفارة الألمانية التي أرسلتها إليَّ السيدة ساليمي إلىٰ المطار، وثمة خفير يرافقني إلىٰ المدينة، ورجال الشرطة علىٰ دراجاتهم النارية التي ترجع إلىٰ أيام ما قبل طوفان نوح يرتدون القفازات البيض، أما الشوارع العريضة في حي الڤيلات السابق، حي الوزير أكبر خان فكأنها انقرضت، وشرطي المرور ذو اللحية البيضاء يحدث انطباعاً كأنه شبح، وهو في حلة مهترئة، يدير عند تقاطع طرق تياراً من السيارات ليس له وجود. وفي الرابع عشر من تشرين الثاني عام 2001 يعرض التلفاز الصور الأولى لكابول المحررة. مرة أُخرى يقف شرطي مرور مهيب، ذو لحية بيضاء عند تقاطع قليل السيارات، ويؤدي وظيفته الثقيلة، وتتسلل إلىٰ ذهني فكرة مؤدّاها أَن هذا هو الشرطي ذاته الذي كان بالأمس، وأنه لم يغادر هذا الموقع كل هذه السنين.

وقد اختلفت النساء من صورة الشارع كل الاختفاء تقريباً، وفي الطريق إلىٰ داخل المدينة، أحصي ثلاثاً، يرتدين البرقع الذي يمتد حتى أصابع القدمين، ويَرْقُبْن قافلتنا من خلال النوافذ الصغيرة المسوَّرة، التي استُحْدِثَت في العباءة علىٰ مستوى العيون.

ويستقبلني رئيس الوزراء الجديد في قصر رئيس الجمهورية الذي قعدتُ فيه قبل أسبوعين قبالةَ العلاّمة ربّاني وحكمتيار. وأصعد الدرج المَلْوِ بِشِقّ النفس، وكان يقعد القرفصاء علىٰ

obeikandi.com

الدرجات مقاتلون مسلحون شبان كانوا يحملقون فِيَّ بفضول، ويتنحَّوْن جانباً، علىٰ مضض. وكان ينتظر في قاعة استقبال الملك السابقة، الملاّ ربّاني، والملاّ حسن، وآخرون من أعضاء مجلس الشورى. وكانوا يتربَّعون علىٰ أرضية القاعة، وأقدامهم العارية مدسوسة في صنادل خشنة. وجهاز التكييف معطَّل، والحرارة في القصر مثل جدار من الرصاص، وأشرب فنجاناً من الشاي، لأَنْضَحَها بالتعرُّق من جديد، والملاّ ربّاني، الذي كان في تلك الأيام في الأربعين، ويرجع أصله إِلىٰ قندهار، رجل ذو جسد متين البنيان، يحييني بتعبير في وجهه المُكْفَهِرّ، وأنا أيضاً لا أنطوي علىٰ مودة تجاهه علىٰ وجه الخصوص، وقد وصلتني إِشارات تفيد أَن ربّاني شارك بشخصه في تعذيب نجيب الله وقتله.

وأُعْلِنُ هنا أيضاً، بموجب التوجيهات، أَن الأُمم المتحدة تريد أَن تستأنف الحوار مع الطالبان وتُكَثِّفَه، وأن أَفغانستان، كانت وتظل عضواً في الأُمم المتحدة، بل تنتمي إِلىٰ الدول المؤسِّسة، وأن ميثاق الأُمم المتحدة ملزم لهذا البلد. وقد قامت منظمات الأُمم المتحدة في أَفغانستان بعمل له قيمة. وإِعادة البناء لا تكون ممكنة إِلاَّ في إِطارٍ من التضامن الدولي. وأُضيفُ إِلىٰ ذلك بلهجة كئيبة: أَن من المهم أن يُقدِّر المرء الشركاء الأجانب حق قدرهم من حيث أهميتهم، والحق أن بلداً يقال إِنه صغير، مثل سويسرا لا يُوَرِّد أسلحة إِلىٰ أفغانستان، ولكنه يحقق مع ذلك، ناتجاً إِجمالياً في اقتصاده، غير صافٍ، مثلما تحقق باكستان «الكبيرة»، ولا

يستطيع المرء أن يشعب شعباً بالأسلحة، والفرنك السويسري من أقوى العملات في العالم، وفي مقابل ذلك تقف باكستان علىٰ حافة إفلاس حكومي.

ويبدأ ملاّ حسن بآية من القرآن، ثم يشكر للأُمم المتحدة جهودها من أجل السلام ويقول إِن الأَفغان يرغبون في نظام حكم إِسلامي، وإِن الطالبان قاتلوا من أجل السلام والاستقرار. ويؤكد حسن عضوية أَفغانستان في الأُمم المتحدة، وأن هذه ينبغي لها أن تعترف بالطالبان الذين سوف يساندهم الشعب، ويقول إن السفراء (الذين عيّنهم العلامة ربّاني) في الخارج ما عادوا يتمتعون بالحق في التحدّث باسم أَفغانستان، وإِن تصريحات غفورزاي (وزير الخارجيَّة الذي عيّنه العلاّمة ربّاني) أمام الجمعية العمومية للأُمم المتحدة، غير ملزمة لكابول. وإن مقعد أَفغانستان في الأُمم المتحدة يجب أن يظل خالياً إِلىٰ أن يكون الطالبان قد عيَّنوا ممثلاً دائماً، وبالطبع فقد كان حسن يعبِّر عن ذلك تعبيراً أقلَّ براعة مما يُقْرأ هنا.

وأسأل الملاّ ربّاني كيف يقدِّر العلاقات بدُسْتُم، وما هي الأهمية التي يتمتع بها الانتماء العرقي عند الطالبان؟ وإنني قرأت في الصحافة الباكستانية أن هناك، في مجلس الشورى، عضو من الأوزبك، وما هو الدور الذي يلعبه ظاهر شاه؟ وما هو موقف الطالبان من مسألة العفو العام، لكي تندمل جراحات الماضي، ويجيب ربّاني إجابات متهرِّبة، ويقول إنهم كانوا يقيمون في

الماضي علاقات طيبة مع دُسْتُم، وينبغي أن تظل الأمور علىٰ هذا النحو، ثم يدعو الملاّ ربّاني الملاّ غياث الدين، ويقدمه ممثلاً للأوزبك في إقليم فارياب (الذي يسيطر عليه دُسْتُم). ويبتسم الرجل في غير سعادة، ولا يحدث انطباعاً يوحي باعتداده بنفسه كثيراً.

ويقول الملاّ ربّاني إن الطالبان يتفاوضون في الوقت الحاضر، مع باداكشان، وكوندوز، وطاخار، وكابيسا، وبَرْوان، ولكن هذه الأقاليم تقع في الشمال من دون استثناء، وتخضع لأمر مسعود. ثم يؤكد رئيس الوزراء أن الملاّ عمر قد أعلن عفواً عن «كل المسلمين الصالحين» وأسأل هل سيُعَدُّ شيوعي سابق، مثل دُسْتُم، أَو «مجرم»، مثل العلامة ربّاني، من المسلمين الصالحين؟ يتجاهل الملاّ ربّاني السؤال وحين أستفسر مراراً عن دور ظاهر شاه، لا يزيد الملاّ علىٰ أن يقول إن كل مسلم صالح يستطيع أن يعود إِلىٰ أَفغانستان ليعمل من أجل السَّلام.

وفي نهاية الحوار أسأل رئيس الوزراء، أين يقيم أسامة بن لادن، وأقول إنني أعلم أَنَّه كان يعيش حتى الآن بالقرب من جلال آباد، ومع ذلك فأنا لا أعلم كيف نجا بجلده من غزو مدينة الإِقليم، وما هو مدى وثوق العلاقات الآن بينه وبين الطالبان. ويؤكد ربّاني أن أسامة كان يعيش في جلال آباد في حماية «حكمتيار»، وأنه فَرَّ إِلىٰ الشمال عند اقتراب الطالبان، وهذه ليست بالحقيقة، فكما تبيَّن فيما بعد، يواصل حياته في طمأنينة في

معسكر تدريبه الذي استكمل بنيانه حتى تحوَّل إِلىٰ حصن، عند جلال آباد.

وألتمس من الملاّ ربّاني ومحمد حسن حديثاً علىٰ انفراد، وأطلب إليهما أن يسلِّماني ما تبقى من جثتَيْ نجيب الله وأحمدزاي لدفنهما. وأحاول أن أوضح لربّاني أن كثيراً من الأَفغان شعروا بالصدمة من جراء المعاملة المهينة للرئيس السابق الذي ينتمي إِلىٰ قبيلة البشتون ذات السمعة المرموقة، قبيلة أحمدزاي، والذي كان حفيد زعيم قبيلة له أهميته. وقد يبدو إعدام رئيس المخابرات السابق أمراً عادلاً، ولكن التمثيل بجثته أمر لا يُقِرّونه، وبعد تردُّد قصير ينزل ربّاني علىٰ رغبتي.

ثم أزور بعد ذلك وزير الخارجيَّة، الملاّ غوث، وهو رجل أكبر سناً من معظم قادة الطالبان وربما كان أكثر إنسانية أيضاً، وإذا أمكن للمرء أن يتحدث عن صقور وحمائم داخل صفوف حركة الطالبان ـ والكلمة الأولى تلائم الملاّ عمر دائماً، إذ إنه صقر ـ فإن غوث البالغ من العمر خمسين عاماً، أقرب إِلىٰ أن يكون من المستعدين للحلول الوسط. وقد لعب، حتى أثناء الجهاد ضد السوڤييت دوراً هاماً، وبات اسمه يرد في حركة الطالبان في الترتيب الخامس. ويرجع أصل غوث إِلىٰ قندهار، وينتمي إِلىٰ قبيلة دُراني ـ نورزاي، وقد فقد إحدى عينيه، في القتال ضد السوڤييت كما يقال، ورؤيته بالعين الأُخرى سيئة، وكما يتناهى إِلىٰ علمي بطريق المصادفة ذات مرة، يعاني من مرض في القلب.

وفي منتصف عام 1997 يُوَجَّه اللوم إِلىٰ غوث علانية من قبل الملاّ عمر، بسبب نزوعه إِلىٰ الانحراف ويعفى من منصبه بصفته وزيراً للخارجيَّة. وينسحب إِلىٰ كويتا.

وباحتفالية تبدو طفولية إِلىٰ حد ما يناولني غوث «المذكرة الشفوية» الأولى لحكومته، وهي ورقة مجعَّدة متقبِّضة مكتوبة بخد اليد، قد انتزعت من دفتر. وفي هذه المذكرة يطالب الطالبان الأمين العام للأُمم المتحدة بسحب الاعتراف (للعلامة) ربّاني بالحق في مقعد أَفغانستان في الجمعية العمومية. وتقول إِن الأُمم المتحدة حين تنزل علىٰ هذه الرغبة فسوف يكون من الممكن «الحديث مع الطالبان في بعض المسائل». وأَعِدُ غَوْثاً بأن أنقل هذه الورقة إِلىٰ نيويورك، غير أني ألفت نظره إِلىٰ أَن مسألة الاعتراف لا تدخل في اختصاص الأمين العام، بل هي من اختصاص لجنة الاعتماد (لجنة أوراق الاعتماد) في الأُمم المتحدة، وأُعَدِّد له أعضاء اللجنة في ذلك الوقت، وفيهم أعضاء مجلس الأمن الدائمين الثلاثة، الولايات المتحدة وروسيا والصين، وتتمثَّل أوروبا بهولندا، كما أَلْفِتُ نظر غوث أيضاً إِلىٰ أَن الربط بين الاعتراف وحسن السلوك يتمّ بتسلسل معكوس: فإِذا كان الطالبان يحترمون المعايير الدولية فسوف يحسِّنون فرصهم للحصول علىٰ الاعتراف بهم من قبل المجتمع الدولي.

ثم أنطلق إِلىٰ اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وألتمس من رئيسها، السويسري ديكرو أَن يساعدني في نقل الجثتين، ثم ينتهي

بي المطاف إِلىٰ مضافة الأُمم المتحدة الذي أعقد في حديقته مؤتمراً صحفياً، وكان الصحفيّون في هذه الأثناء قد أَلِفوني، وأكثرهم ظرفاء، حَنَّكتهم ألوان الحرمان، وهم يعيشون منذ سنين تحت الأخطار الجسيمة، ويُعَرِّضون أنفسهم في كثير من الأحيان، في الخطوط الأولى من الجبهة، لمخاطرات جسيمة، وتعرَّض مراسل وكالة الصحافة الفرنسية، وهو نيوزيلاندي ضخم، يرتدي زِيَّ البشتون، للجروح مراراً. وبعد أيام قلائل ينتزع لُغم إِحدى ساقيه، ويعيش.

ويمرُّ المؤتمر الصحفي علىٰ نحو عاصف، والصحفيّون يعرفون أنني أول أجنبي يتحدَّث إِلىٰ مجلس الشورى، ويريدون أَن يسمعوا، من «فم صاحب العلاقة مباشرة» ماذا أتوقَّع من الطالبان. وأضطر بالطبع إِلىٰ أَن أتقبَّل النقد العنيف، لأن الأُمم المتحدة لم تلعب دوراً طيباً في حادثة مقتل نجيب الله، ويقال إِنني أستأنف الحوار مع الطالبان علىٰ الفور، علىٰ الرغم من الانتهاك الصارخ لحرمتنا، كأن لم يحدث شيء، ويقع المأخذ علىٰ جانب بريء، ولكن لا بدّ لي أَن أجيب علىٰ كل سؤال، وأشير إِلىٰ أَن الأُمم المتحدة لا مناص لها من التعاون مع الطالبان في المستقبل أيضاً، بل لا بد من أَن تتعاون أكثر مما كان يحدث حتى الآن. وسرعان ما اكتشف الصحفيّون نقطة ضعف في دفاعي، ويسألونني هل أزمع زيارة مسعود في المرة التالية، ولا أعرف أي جواب ينبغي لي أَن أقدّمه، إِذ لم أكن تلقيت توجيهات من نيويورك بعدُ في هذا

الصدد. والحق أنني مقتنع بأنه لن يكون لي بُدٌّ من متابعة التفاوض مع كل الأحزاب، أي مع كل القادة ذوي الأهمية أيضاً. ومع ذلك فلم يكن لديَّ بعد الاستياء المزدوج تجاه المركز، إلاَّ القليل من الرغبة في إِنشاء «أمر واقع» أمام الصحافة لم يَحْظَ بإِقرار الأمين العام. وأظل طوال دقائق أَلُفُّ وأدور حول الموضوع، ويواصل الصحفيون إِلحاحهم، ويعربون، دون تكتُّم، عن استيائهم من ضروب التهرُّب عندي، ويأتي العنوان الرئيسي للصحافة في اليوم التالي: «وسيط الأُمم المتحدة موصَدُ الشفتين».

ويقيم لي رئيس المراسم الشاب بعد ذلك، في الفندق المتهدِّم بفعل القنابل، فندق إِنتركونتيننتال مأدبة غداء خارج المدينة، ولا يُرى نزلاء، وكنت قعدت هنا قبل أربع سنوات، عالياً فوق المدينة، وكان نجيب الله ما زال يحكم، وكان المجاهدون يطلقون نيرانهم من الجبال المجاورة علىٰ كابول. وما زال يوجد تحت فندق إِنتركونتيننتال موقف الباص الذي ضربته في عام 1992 قذيفة فقتلت عشرين من البشر، وكان الفندق في مرمى النيران حين دعا العلامة ربّاني هناك، في عام 1996 إِلىٰ اجتماع للشيوخ، ليثبِّتهُ في منصب الرئاسة، وحتى عندما دخل كابول رئيس الوزراء حكمتيار، وأقام في الفندق، حيّاه وابل من صواريخ الطالبان. وعند انصرافي أكتشف في البهو لوحة من خشب الحور تثير المشاعر، إِذ يدل السلم النازل، بحروف مرسومة باليد، باهتة، علىٰ «مؤسسة لمواد التجميل»، وما من أحد من جند

الطالبان يدرك ماذا تعني هذه الكلمات، وإِلاّ لمزّقوا هذه اللوحة السيئة السمعة برصاص بنادقهم الآلية. وكان مدير الفندق الأَفغاني يحوم حول مائدتنا، يعرض خدماته، وكان ما أذهلني أَن يتحدَّث بقليل من الألمانية بلهجة أهل ڤينا، وكان للرجل شعر ناعم حول ذقنه، لحية عمرها يومان، وهو يتلاءم مع الزبائن الجدد.

وفي الطريق إلىٰ المطار يطن في أذنيَّ صوت قافلة من السيارات مُقْبِلَةٍ عليّ. وأتساءل بفضول عمَّن يكونه الزوار المستعجلون. هناك يروي لي رئيس المراسم مزهُوّاً أَن وفداً من وزارة الخارجيَّة الباكستانية يصل لإِجراء مفاوضات. وإِسلام آباد أيضاً لا تضيِّع وقتاً.

11

بابار يمسك بزمام المبادرة

علىٰ أَن غصن الزيتون الذي مددته للطالبان لم يخلِّف أثراً، ولم يأمروا قواتهم بعد غزو العاصمة بالإِخلاد إِلىٰ فترة راحة، بل استأنفوا زحفهم إِلىٰ الشمال، وبعد أسبوع يسقط مطار باجرام العسكري الذي كان حتى الآن يفيد في إِمداد القائد مسعود، ومدينة جبل ـ أُس ـ سَراج، علىٰ الطريق البعيد من كابول إِلىٰ مزار الشريف، في أيديهم، وبعد ذلك ينفتح مدخل وادي بانجير، الذي ينسحب إِليه مسعود، ونفق سالانج، الذي يمثل، علىٰ الطريق إِلىٰ الشمال، عقبة طبيعية ذات أهمية استراتيجية. وقد تمّ إِنشاء هذا النفق الذي كثيراً ما يذكر في روايات التقارير، من قبل السوفييت عام 1964، أيام الملك ظاهر، ويبلغ طوله 2,7 كيلومتراً، ويرتفع عن سطح البحر بمقدار 3400 متر، ويمثل بالنسبة لأَفغانستان الذي لم تُفْتَتَ، مأثرة من روائع مآثر التقنية، وبفضله يغدو جنوبي أَفغانستان وشمالها مرتبطين بحركة

obeikandi.com

المواصلات طوال العام بأكمله ـ بصرف النظر عن أسابيع قليلة في الشتاء. وقد حوَّل الرئيس ربّاني حكومته، أَو ما تبقَّى منها، إِلىٰ مدينة الشمال الإِقليمية، كوندوز.

وإِذاً فبينما تظل الاشتباكات إِلىٰ الشمال من كابول من دون أَن تتناقص، أواصل أنا دبلوماسية البندول. وأكاد أظل في كل يوم، في طريقي، ضمن طائرتي البيتش كرافت البيضاء الزرقاء الصغيرة. فطوراً أطير إِلىٰ قندهار أَو كابول، وحيناً إِلىٰ مزار الشريف أَو كوندوز. أمّا هدفي القريب الآن فهو الوصول إِلىٰ هَدْأَة السلاح ووضع نهاية لسفك الدماء. وأحاول أَن أدفع أمراء الحرب إِلىٰ صفقة: أمّا مسعود فيتخلَّى عن قصف كابول، وأمّا الطالبان فيتخلّون عن إِطلاق نيران مدافعهم علىٰ وادي بانجير. ولكن بينما ينزل تحالف الشمال (أي حكومة ربّاني حتى الآن) الذي تم إِضعافه عسكرياً علىٰ مقترحاتي بوجه عام لأسباب تكتيكية يظهر الطالبان واثقين من النصر، ولا يريدون أَن يعترفوا بـ«صفقتي».

وكان مما يجعل مهمتي صعبة أيضاً خصم يتمثل في باكستان، وعلىٰ الرغم من أَن الأُمم المتحدة ألزمت، في قرارات جمة العدد للجمعية العامة، كل الدول بتنسيق مبادرات السَّلام المحتملة في أَفغانستان مع الأُمم المتحدة، فإِن باكستان تمارس أعمالها ـ وكذلك إِيران ـ من دون أَن تحرك ساكناً، في تجاوز للأونسما، وكذلك لا يتم إِطلاع جولدنج في نيويورك، أَو الأمين العام شخصياً، من قبل إِسلام آباد. وهكذا أعرف، أوَّل ما أعرف، من

لَدنْ شركائي الأَفغان في المفاوضات، وأحياناً من الجريدة، أَنَّ وزير الداخليَّة الباكستاني، بابار، يبذل الجهد في طموح من أجل خطة للسلام علىٰ الطريقة الباكستانية. أمّا من أي شيء يتألف هذا التصوُّر بالتفصيل فذلك ما لا يعرفه إِنسان. ومع ذلك فمن الواضح أَن بابار وأنا، نتابع أهدافاً متوازية. والطالبان يراهنون في هذه الأثناء بغير حدود علىٰ إِسلام آباد التي يفترض أَن تقدِّم لهم، في إِطار خطة سلام، ما لم يَظفر به الطالبان في ميدان المعركة الصعب، حتى الآن، وهو السيطرة علىٰ كل أَفغانستان. وفي كل يوم أبلِّغهم بالوضع الباعث للإِحباط، الذي أجد نفسي فيه. أما جولدنج فيطلب، في نيويورك، السفير الباكستاني في الأُمم المتحدة، الذي يتملّص بألوان من التهرُّب. وشيئاً فشيئاً ألاحظ أيضاً، في سلوك ممثل تحالف الشمال، الذي كان حتى الآن يعلق آماله علىٰ هيئة الأمم المتحدة، أَنَّه لا يفسح لجهودي إِلاَّ القليل من الفرص، ويراهن علىٰ بابار. علىٰ أَن الوضع يزداد تعقيداً بعدُ عن جراء ادعاء بابار، علىٰ الملأ، علىٰ الدوام، أَن تصرفه مُنَسَّق مع هيئة الأُمم المتحدة. فهل ينبغي أَن أفضح الحكومة المضيفة لي، بتكذيب علني؟ فليكن تصرُّفُ ينطوي علىٰ شيء من الحكمة. عندما أُبْرِق إِلىٰ جولدنج وقد انتابني الإِحباط، في الوقت الذي يتاح لبابار، في لمح البصر، ما تعمل الأونسما جاهدة من أجله منذ شهور، عبثاً، فسوف أحزم حقائبي و«أعود إِلىٰ دياري». وفي هذه الساعة، ساعة شكّي في نفسي، يزورني السفير الفرنسي

الذكي، لافرانس، ويوصيني، بأسلوب ڤرلين تقريباً، «بالجَلَد وشِدَّة المراس قبل كل شيء».

وأقرأ، وقد فوجئت، علىٰ سبيل المثال، في 16 تشرين الأول، في جريدة الصباح، العنوان الرئيسي: «العرض الباكستاني للتوسط بين الأحزاب الأَفغانية». طار وزير الداخليَّة بابار أمس إِلىٰ كابول، وقندهار، ومزار الشريف، للتوسُّط بين دُسْتُم والطالبان. وكان وزير الدولة الباكستاني، نجم الدين قد التمس مني المجيء إِلىٰ وزارة الخارجيَّة وسألني عن وضع مفاوضاتي. لقد بات العاملون معي الآن علىٰ يقينٍ من أَن بابار أصبح الآن، من جرّاء رواية نجم الدّين، مدفوعاً إِلىٰ مبادرته. ومن الصحيح بلا ريب أَن وزير الدولة لم يلفت نظري، بحرف واحد، إِلىٰ عمل موازٍ وشيك لوزير الداخليَّة. وكما يتناهى إِلىٰ علمي من الصحيفة، فقد سافر الجنرال بابار من دون ممثِّل لوزارة الخارجيَّة، أمّا التبرير الغريب فهو أَن باكستان لم تعترف بعدُ بحكومة الطالبان. وإِذاً فمن يصوغ السياسسة في أَفغانستان، بابار والمخابرات الباكستانية، أم وزارة الخارجيَّة؟ وأعرف فيما بعد، أَن القرار المتعلق برحلة بابار قد اتُّخِذ في الرابع عشر من تشرين الأول في لقاء بين الرئيس ليغاري، ورئيسة الوزاء بوتو، وهيئة أركان الحرب، بعد أربع وعشرين ساعة من حديثي مع نجم الدّين. وأتحدث إِلىٰ المبعوث الأمريكي هولتسمن. لقد زار نجم الدّين في 14 تشرين الأول، وسأل هذا هل تساند الولايات

المتحدة اقتراحاً باكستانياً أَن يرسل مجلس الأمن الخوذات الزرق إِلىٰ أَفغانستان، ويُسِرُّ هولتسمن إِليَّ قائلاً: عندما تقترح باكستان هدنة في لحظة عانى فيها الطالبان من نكسة عسكرية تُعَرِّض لنفسها لمأخذ مفاده أنها تمارس أعمالها وصفقاتها، وقال إِن المطالبة بإِرسال الخوذات الزرق لا تتوافر لها الفرص، وسوف تعارضها الولايات المتحدة لأسباب مالية. ويشكو هولتسمن من أَن نجم الدّين لم يطلعه سلفاً علىٰ مبادرة بابار، ويتناول بالنقد أيضاً مسألة أَن بابار يتحدَّث مع دُسْتُم فحسب، ولا يتحدث مع العلامة ربّاني ومسعود، وحين أُعَلِّق قائلاً إِن الجمعية الإِسلامية تظل بالقياس إِليّ، حزباً لا بدّ لهيئة الأُمم المتحدة أَن تتفاوض معه، يوافق هولتسمن علىٰ رأيي.

وبعد الظهر يأتي ممثل دُسْتُم إِلىٰ باكستان، الجنرال بايندا، إِليّ، وأسأله عمّا انتهت إِليه محادثات بابار في مزار الشريف. وبايندا لا يعرف ذلك، وألفت نظر بايندا إِلىٰ أَن بابار لا يطمح إِلاَّ إِلىٰ تقارب بين دُسْتُم والطالبان، وأن العلامة ربّاني ومسعود مستبعدان من المفاوضات حتى الآن، وأنني أرى هذا خطأً، وأنه لا بدَّ أَن يشارك تحالف الشمال بأسره في عملية السَّلام، وإِلاَّ فلن تكون النتيجة ذات ديمومة. ويعطيني بايندا جواباً ينطوي علىٰ التحاشي والتهرُّب، ولكي لا أخسر المبادرة تماماً، أقترح علىٰ بايْندا «محادثات تقنية» برعاية الأُمم المتحدة. ولما كان دُسْتُم لا يريد المجيء إِلىٰ إِسلام آباد، فإِن من الممكن الاتفاق علىٰ اللقاء

الأول بين بايندا وعبد الوهّاب، القائم بأعمال الطالبان في إِسلام آباد، ويعد بايندا بالجواب حتى الصباح.

وفي الثامن عشر من تشرين الأول 1996 تورد الصحافة الباكستانية نبأ النجاح: «دبلوماسية بابار المكوكية: دُسْتُم والطالبان يجريان محادثات». وتقول إِن وزير الداخليَّة قد طار بالأمس للمرة الثالثة إِلىٰ مزار الشريف وقندهار، وأن دُسْتُم قد أكَّد أَن مجلس الدفاع الأعلى (SCDA) ليس موجَّهاً ضد الطالبان، بل يهدف إِلىٰ حماية شمالي أَفغانستان، وينفي أَن يعترف بحكومة ربّاني المطرودة من كابول. ويبدو كل شيء كأنما يسير وفقاً لرغبة إِسلام آباد. وفي نزهة لي علىٰ طول رابية ماجَلاّ التي تحُدُّ ضاحية إِسلام آباد أفكّر في مسألة لا ينبغي لي أَن أستغل الثغرة الظاهرة في خطة بابار وأزور العلامة ربّاني. وأهتف لغفورزاي في نيويورك وأبلغه أنني أحاول منذ أسابيع الوصول إِلىٰ ربّاني، فهل أستطيع أَن ألقاه في 21 تشرين الأول في كوندوز؟ ويعدني غفورزاي بالجواب حتى الصباح.

وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر يلتمس مني وزير الدولة، نجم الدّين، المجيء إِليه مرة أُخرى. وأخيراً يُطْلعني علىٰ مبادرة بابار. ومن حيث المضمون لا أطلع علىٰ شيء جديد. ويحاول نجم الدّين أَن يشرح لي أَن وزير الداخليَّة لا يعمل متجاوزاً لأُمم المتحدة. وكما أعرف من نيويورك، فإِن جولدنج طلب أحمد كمال في السابع عشر من تشرين الأول، وأظهر قلقه من أَن يسبب

تصرف بابار المصاعب لجهود السَّلام التي تُبذل من قِبل الأُمم المتحدة، كما أَن هذا التصرّف يبعث في النفوس انطباعاً مؤداه إِيصال محور دُسْتُم ـ طالبان في مواجهة ربّاني ـ مسعود إِلىٰ الجبهة. ويريد نجم الدّين أَن يجرد هذه الشبهة من مصداقيتها، ويؤكد لي وزير الدولة نجم الدّين أَن بابار واجه الطالبان لأول مرة في قندهار، وبهذه المناسبة فإِن دُسْتُم تفاوض أيضاً باسم مسعود. ولا بدّ لهذا بالطبع أَن يقرِّر خلال ثمانٍ وأربعين ساعة هل سيشارك في المفاوضات، ويقول وزير الدولة محذِّراً إِنه ينبغي للمجتمع الدولي في هذه الأيام الحرجة، أَن يتجنّب كل الأعمال التي تزيد الوضع تعقيداً، وهذا يستهدف الحدث الإِيراني الموازي، وهو مؤتمر أَفغانستان في طهران، علىٰ أنّه ربما كان يستهدف أيضاً، اللقاء في نيويورك، الذي اقترحته أول الأمر علىٰ أَن يكون مؤتمراً لوزراء الخارجيَّة في أيلول، والذي سيحدث أخيراً في تشرين الثاني، ويفترض أَن يتولى الرئاسة بطرس غالي.

وعلىٰ الرغم من تحفظاتي علىٰ التصرُّف غير المنسَّق من قبل الباكستانيين فإِنه لا يجوز لي أَن أُعرِّض التعاون مع إِسلام آباد للخطر، ولذلك أحدِّد أربع أطروحات بصدد الصراع في أَفغانستان:

1 ـ هيئة الأُمم المتحدة لا تدعي لنفسها حقّاً في احتكار الوساطة. فهناك مؤسّسات أُخرى، منها، علىٰ سبيل المثال، منظمة المؤتمر الإِسلامي، تمسك بزمام مبادرات السَّلام.

2 ـ أنني اعترفت مراراً بمصالح باكستان المشروعة في أَفغانستان وكذلك بمصالح إِيران.

3 ـ ينبغي للأُمم المتحدة، وللحكومة الباكستانية أَن تحرصا علىٰ أَن لا تظهر مبادرة بابار في صورة مشروع منافس للأونسما.

4 ـ كنت أطلع إِسلام آباد دائماً، بإِخلاص، علىٰ مفاوضاتي، والتعاون طريق ينطوي علىٰ خطَّيْن. ويوافق نجم الدّين، فهو لا يريد، هو أيضاً مواجهة مكشوفة، بل يفسح لي مجالاً من فضلٍ جزئي في نجاح بابار، ويقول مُجامِلاً إِنني قد أنجزت مؤخَّراً العمل التحضيري، وباكستان لا تريد أَن تُحْبِط جهودي، بل تريد تكميلها. «وجهود الوزير بابار تعدُّ تكميليَّة وداعِمة بالنسبة لجهود الأُمم المتحدة».

وفي الصباح الباكر ألتقي ببايندا الذي يماطل في لقائي مراراً بوعود غامضة. ويقول إِن دُسْتُم قد التقى، في 16 تشرين الأول، بخليلي ومسعود لينسِّق معهما قبل الحوار مع بابار، ولا يُحير بايندا جواباً علىٰ سؤالي هل سيشارك العلامة ربّاني وهو علىٰ أية حال رئيس دولة أَفغانستان المعترف به في الجمعية العمومية للأُمم المتحدة. وأبلغه أنني رحلت إِلىٰ كوندوز لأتحدث إِلىٰ ربّاني، وأنني سوف أزور دُسْتُم بعدها، في مزار الشريف.

علىٰ أَن الحديث مع بايندا يكشف، فجأة، عن معضلة: كيف أتصرّف إِذا ما انقطعت علاقة الولاء بين ربّاني ومسعود؟ وإِلىٰ

جانب مَنْ يجب أَن أنحاز في إِطار مهمة الأُمم المتحدة؟ وباسم مَنْ يتحدَّث بعد ذلك أيضاً وزير الخارجيَّة غفوررزاي عندما يقف أمام الجمعية العمومية؟

وفي 20 تشرين الأول تتحدَّث الصحافة الباكستانية حديثاً متسرِّعاً، إِذ تقول إِن رئيس الدولة ليغاري قد التقى، في طشقند، بدُسْتُم والملاّ عمر. وكان مثل مؤتمر القمة هذا خليقاً أَن يجعل جهود السَّلام التي تبذلها الأمم المتحدة شيئاً زائداً عن الحاجة إِلىٰ حد بعيد. ثم يتم تصحيح النبأ بأَنَّ ليغاري قد زار الرئيس الأوزبكي كريموف، ولم يكن هناك إِلاَّ تكهُّن بأنه كان للمسألة علاقة بالأزمة الأَفغانية. وبينما يُتاح لمسعود أَن يستعيد مطار باجرام العسكري، يطير بابار للمرة الرابعة إِلىٰ كابول. أما الأونسما فلا يعود الحديث يَرِد عنها، وتمّ إِخراجنا من العملية بالمعنى الحقيقي للكلمة.

ولكيلا نكون في ظل بابار، أطير في 21 تشرين الأول إِلىٰ كابول. وأضطر إِلىٰ التخلي عن رحلة بالطائرة إِلىٰ كوندوز كان مخططاً لها في الأصل أَن تتم في هذا اليوم، إِذ يقيم مسعود في الجبهة. ويعود بابار يستأثر بالعناوين الرئيسية في الصحف. فبالأمس طار مرة أُخرى إِلىٰ قندهار ومزار الشريف. وتكتب الصحافة الباكستانية عن حكمتيار، قائلة عنه بازدراء إِنه قد تم الخلاص منه (finished)، منذ أَن تحوَّل أهم قوّاده إِلىٰ دُسْتُم. وفي مطار إِسلام آباد ألتقي بصحفيَّيْ تلفاز من الأرجنتين، اعتُقِلوا من

قِبَل الطالبان لأنهم صوَّروا نسوةً أَفغانيات في فيلم، وتمّ إِطلاق سراحهم بعد أربع وعشرين ساعة بوساطة مني، ونتصافح علىٰ عجل. ويشكران لي، وأضطر إِلىٰ أَن أعقد لهم مقابلة لمدة ستين ثانية قبل أَن أصعد إِلىٰ الطائرة.

وأتحادث، أثناء الرحلة الجوية، مع الطيارين الدانماركيين الشابين، ويُرِياني مدينة جلال آباد من ارتفاع 24 ألف قدم. وأتبين مَدْرَج الهبوط في المطار، ونحن نطير فوق وادي بانجير وباجرام. لكم يبدو العالم مسالماً وديعاً من فوق! ولا يسعني إِلاَّ أَن آمل أَن يحترم الأَفغان اللون الأبيض والأزرق لطائرة الأُمم المتحدة، وكان الطائر المتكنز الثقيل يُقَدِّم في سماء لا سحاب فيها، هدفاً سهلاً، وكنت قد اكتشفت علىٰ اللوحة السوداء في مطار كابول، ذات مرة رسماً يدوياً بدائياً، وكان الرسم يعرض ملامح طائرة بدت لي معروفة. وكان هذا هو المنظر الجانبي لطائرتي (Beech kraft) وإِلىٰ جانبه رجاء بلغة البشتو والداري، بخط اليد: «لا تطلق النار علىٰ طائرة الأُمم المتحدة هذه!».

ومع ذلك فَكَأَنَّ استبشاري غير المتعقِّل قد استثار الخطر، كما يبلغني رئيس الطيارين عند هبوطنا في كابول. فالمطار واقع في مرمى الصواريخ، وهو مغلق، ويقترح علينا برج المراقبة أَن نتابع طيراننا إِلىٰ جلال آباد. ولكن هذه المدينة تقع علىٰ بعد 120 كيلومتراً من كابول، والإِنطلاق علىٰ الطريق الزراعي المزروع بحفر القذائف يستغرق نصف يوم. وأطلب سؤال برج المراقبة مرة

أُخرى، وأشير إِلىٰ أحاديثي مع الطالبان. ولكن مركز أَمْنِ الطيران يقول بإِيجاز مُبْهَم: «تتحمَّلون المجازفة علىٰ مسؤوليتكم، إِن شاء الله». وبعد انعطاف شديد ينطوي علىٰ المجازفة نهبط من دون أَن يمسَّنا أذى.

وفي وزارة الخارجيَّة ألتقي بالملاّ محمَّد حسن. وفي هذه المرَّة يتولَّى عمله بصفته رئيس الحكومة، ويمثِّل الملاّ ربّاني، الذي لم يظهر علىٰ الملأ، ويقال إِنه يتلقى المعالجة الطبيَّة في الخارج، ويأتي بدلاً منه نائب وزير الخارجيَّة ستاناكزاي.

وأصرح، بعزمي علىٰ استئناف جهودي الخاصة، علىٰ الرغم من مبادرة بابار، وأشير، دونما استياء إِلىٰ عقد هدنة علىٰ أَنَّه هدفي القريب، ولم يكن هناك بد أَن يَلِيَ هذا محادثات مباشرة بين الأحزاب. والفراغ من التفاوض علىٰ السَّلام هو شأن الأَفغان، فليس لهم بُدٌّ أَن يقرروا من سيشارك في حكومتهم. ويصغي حسن صامتاً. وتظل كلماتي من دون صدى، ثم يطرح حسن المطاليب المألوفة التي لم يجرِ تليينها. «يجب تقديم «المجرم» (العلامة) ربّاني إِلىٰ المحكمة. فقد تحطمت كل جهود السَّلام علىٰ يديه، وليس هناك مكان في حكومةٍ، لمسعود أيضاً، وفي مقابل ذلك يعدُّ التعاون مع دُسْتُم ممكناً. ويبدو أَن حسن لا يراهن إِلاَّ علىٰ نجاح مبادرة بابار، وليس مهتماً بالأُمم المتحدة. وينبغي لباكستان أَن تقدم للطالبان علىٰ مائدة المفاوضات ما لم يصلوا إِليه

بالأسلوب العسكريّ حتى الآن، الهدنة، والانفراد بالسلطة علىٰ أَفغانستان كلها.

ثم أنطلق إِلىٰ مضافة الأونيكا (اتحاد النادي الدولي للأُمم المتحدة). ولما كنت لا أملك ما هو أفضل من هذا فأنا أنتزع من كراسة ورقة، وأكتب لمسعود رسالة، من دون أخذ أَو ردّ. «إِن لجنة الأونسما لديها التكليف الواضح بإِدخال كل الأحزاب الواردة في الصراع ضمن جهودها من أجل السَّلام»، وأؤكد له هذا، وألتمس منه لقاءاً، وسيتولى صحفي إِيصال الرسالة عبر خط الجبهة. ويعرفني إِيفانز علىٰ الرجل، وهو بريطاني، يصادق مسعوداً منذ سنين، ويعد بتسليم الرسالة حتى في هذا اليوم للقائد. وفي الحديقة أرتجل مؤتمراً صحفياً، وتأتي إِليه صحفية هيئة CNN كريستيان آمانبور.

وحتى بابار لا يتاح له تحقيق كل شيء في مثل لمح البصر. ففي 22 تشرين الأول تعلن الصحافة: «مفاوضات السَّلام الأَفغانية تنتهي إِلىٰ الإِخفاق» وتقول إِن الهدنة التي تمَّ التفاوض عليها من قبل وزير الداخليَّة لم تدخل حيز التنفيذ، وإِن مسعوداً طالب، علىٰ غير توقع، بتجريد العاصمة من القوات العسكرية بصورة مسبقة. ويزورني السفير الروسي الذي أقيم معه اتصالاً وثيقاً، وأسأله هل ترتاب موسكو في «موضوعيتي»، وأقول إِن هذا المأخذ تناهى إِلىٰ سمعي من بون. ويؤكد السفير أَن حكومته لا تخامرها الشكوك فِيَّ، بل ترتاب حقاً في استعداد باكستان

للتعاون. ثم يأتي السفير الفرنسي، ويلتمس مني أَن أعمل علىٰ أَن تُقْبَل في قرار الأُمم المتحدة القادم حول باكستان فقرة من أجل حماية التراث الثقافي. وأَعِد بذلك مسروراً.

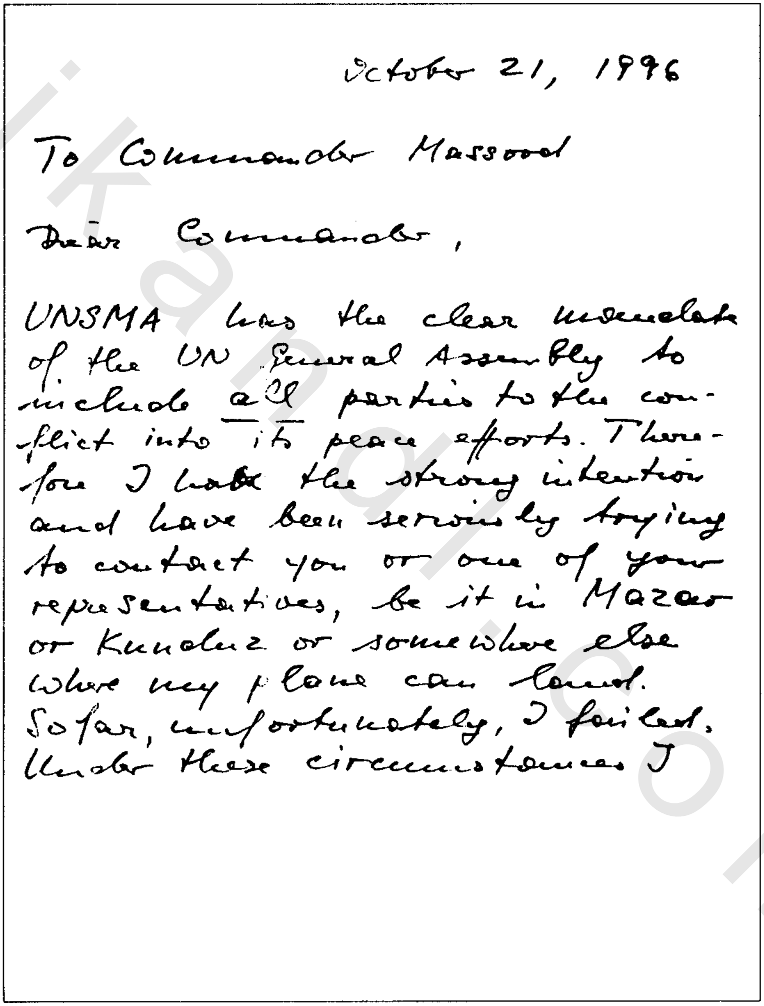

October 21, 1996

To Commander Massood

Dear Commander,

UNSMA has the clear mandate of the UN General Assembly to include <u>all</u> parties to the conflict into its peace efforts. Therefore I had the strong intention and have been seriously trying to contact you or one of your representatives, be it in Mazar or Kunduz or somewhere else where my plane can land. So far, unfortunately, I failed. Under these circumstances I

obeikandl.com

would be pleased if you could
support my efforts and bring
me in contact with you and
your group.
I send this with best regards.

Holl (HOLL)

Head of UN Special Mission
for Afghanistan

رسالتي المرتجلة إلى أحمد شاه مسعود في 21 تشرين الأول 1996.

obeikandl.com

وبالفعل يجري فيما بعد إيراد إلزام يتماشى مع هذا، بناءً علىٰ اقتراحي، في نص القرار، وبالطبع فإن هذا لن يحول، بعد أربع سنوات دون التخريب لتماثيل بوذا المشهورة في باميان وكنوز فنية أثرية أُخرى علىٰ يد الطالبان. وعند الظهر أستقبل الدبلوماسي السوداني، إبراهيم بكر الذي أُحْرِجه بسؤال كيف يقيِّم الموقف الباكستاني تجاه أَفغانستان، وبالفعل تضطر منظمة المؤتمر الإسلامي إلىٰ أَن تسعى جاهدة، بمهارة بالغة، لكي تنتهي بمواقف العضوين لديها، باكستان وإيران، إلىٰ قاسم مشترك. ويخبرني بكر بأن وفداً من منظمة المؤتمر الإسلامي قد عاد أدراجه للتوّ، صُفْر اليدين، من مزار الشريف، وقندهار. وبعد الظهر يزورني موظف من وزارة الخارجيَّة اليابانية، ويُقْتَرَح مؤتمر لأَفغانستان في طوكيو. وأشكر له هذا العرض، ولكني أواجه مع ذلك هموماً أكثر إلحاحاً. وحين أحزم مِلَفّاتي في المساء يهتف إليَّ أمين سر وزير الداخليَّة، قائلاً إن الجنرال بابار يَوَدُّ التحدث إليَّ في أمر مُلِحّ. ونتّفق علىٰ ساعة من ساعات الصباح المبكرة علىٰ غير عادة.

وهذا الأربعاء، الذي يوافق الثالث والعشرين من تشرين الأول 1996، سوف يثبت أَنَّه نقطة تحوُّل، غير أني لم أكن أعرف من ذلك شيئاً حين أنطلق مع مُمَثِّلي، السفير الأوغندي أوكيلو عند انبلاج الصباح، إلىٰ زير الداخليَّة، وأقرأ الجريدة في السيارة، إذ يرد فيها: «بابار يستأنف دبلوماسية المكوك اليوم»، ولكن يرد فيها

obeikandi.com

أيضاً: «مسعود يحضِّر لهجوم نهائي علىٰ كابول» وأخيراً: «دُسْتُم يعقد هدنة لانسحاب الطالبان من العاصمة» وعلىٰ الفور يُجاء بي إِلىٰ بابار، ويستقبلني في دار البرلمان وقد قعد معه اثنان من العاملين معه. ويدخل بابار علىٰ الفور في الموضوع، قائلاً إنه تفاوض علىٰ هدنة ويريد أَن يعرض عليَّ النص، ويبحث في ملفّاته. وإذا النص ليس في متناول يده، ويساعده الموظفان القاعدان معنا في البحث، ولكن عبثاً، فالورقة لا يمكن العثور عليها، وأتنفَّس الصعداء وقد سُرِّيَ عني، فأنا لا أرتاح إِلىٰ فكرة قراءة مشروع اتفاقية في حضور بابار مع الاضطرار إِلىٰ تقييمها، ما لم أُمَحِّصها بهدوء. ويَعِدُني بابار بإرسال النص من دون تأخير إِلىٰ دار الأونسما، ويمضي قائلاً «الاتفاق الموقت يُفْتَرَض أَن يتم التوقيع عليه اليوم أيضاً داخل أَفغانستان، وسوف يُسْتَدْرَك التوقيع الرسمي فيما بعد تحت مظلة الأُمم المتحدة في إِسلام آباد، وبمجرد أَن تدخل الهدنة حيّز التنفيذ، يفترض تبادل القتلى والجرحى، والأسرى أيضاً في النهاية، وفيما بعد تستطيع الأحزاب أَن تتفق علىٰ خطة مرحلية تنص علىٰ تجريد كابول من السلاح، ويقول إن باكستان لا تستطيع أَن تحقِّق السلام في مسيرة منفردة، ولا بدَّ من تأمين الدور المركزي للأُمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإِسلامي، كما يقول بالأسلوب الاحتفالي ذلك الرجل الذي انتهى بجهودي إِلىٰ حافة الإِخفاق، ويقول إنه سيطير من دون تأخير إِلىٰ مزار الشريف وقندهار ليرسم معالم المشروع.

وحين أخبر بابار بأنني سأسافر، أنا أيضاً في هذا الصباح إِلىٰ مزار الشريف يصدر عنه رد فعل ينمّ عن السرور.

وفي الطريق إِلىٰ المطار ألتمس من أوكيلو أن ينقل الخبر إِلىٰ نيويورك، ومهما يكن من ترحيبي بعرض بابار للتعاون، فأنا أرى مسائل مختلفة لا بدّ لي من تَلَقّي التوجيهات بصددها. وبابار يطلب الموافقة علىٰ خطة تحمل خط باكستان بيدها ولا أعرف تفاصيلها، فهل يطلق جولدنج يدي من حيث المبدأ؟ إننا لا نستطيع أن نستبعد أن يدعي بابار لنفسه الفضل في تحقُّق الهدنة التي يرجع بمسؤولية فرضها علىٰ الأُمم المتحدة.

وفي الساعة العاشرة والنصف نهبط، أنا وكابولوف، مستشاري الروسي، في مزار الشريف. وهناك ينتظرني إيغار، العقيد الإِيرلندي. ولمّا كنت لا أحمل معي مقترحاتي الخاصة فقد انطلقنا أول الأمر إِلىٰ العلاّمة ربّاني الذي خُصِّصَ له في مزار الشريف مبنى متواضع ليكون مقراً رسمياً له. ويقول وهو محاط بحفنة من المستشارين، بملامح ساكنة لا تتغيّر، إن حكومته تتابع أعمالها الطبيعية، ويسير حوارنا بقليل من الكلام. وبعد عشرين دقيقة يناولونني ورقة يرد فيها أن دُسْتُم وبابار يلتمسان مجيئي إليهما بإلحاح، ويتقبّل ربّاني انصرافي عنه من دون احتجاج.

ويُجاءُ بنا، في سيارة الجيب العسكرية، عبر المدينة، إِلىٰ الحصن القديم، حصن قلعة إيبانجي، وهي قلعة محمية بجدار من الآجر، وهي الآن المقر الرئيسي لدُسْتُم. وفي قاعة الجلسة

ينتظرني دُسْتُم، وبابار، وعشرون من الرجال الآخرين. وأتبيَّن حميد، ابن بيرجيلاني، العلامة محقق، زعيم حزب الوحدة الشيعي في مزار الشريف، والوزيران قانوني، والدكتور عبد الرحمن، اللذان يمثِّلان القائد مسعود، كما أتبين أيضاً مرافقين لبابار وقائد لواء منقول من المخابرات إِلىٰ وزارة الداخليَّة، ورئيس قسم في وزارة الخارجيَّة.

ولا يعجبني حجم المؤتمر، فأنا قلّما أميل إِلىٰ أن أدع بابار يتفحَّصني أمام عشرين من المستمعين. ذلك لأن من الواضح أن وزير الداخلية يهيمن علىٰ الاجتماع علىٰ الرغم من وجود سيد المنزل، الجنرال دُسْتُم، ويطلب وزير الداخلية مني مجدَّداً، المشاركة في التوقيع علىٰ اتفاقية الهدنة (التي ما زلت لا أعرف نصَّها) باسم الأُمم المتحدة، وحين تصيب بلاغته بعدواها دُسْتُم، يدخل هذا في الحديث ويثني علىٰ نجاح جهود الوساطة الباكستانية. ويقول إنه بفضل وساطة «سعادته» (أي وزير الداخلية) مال المجلس الأعلى للدفاع عن أَفغانستان (وهي التسمية الجديدة لتحالف الشمال)، والطالبان إِلىٰ الهدنة، التي ستدخل حيّز التنفيذ هذا اليوم أيضاً، ويطلب رجال مسعود أن يسمح لهم بالكلام مراراً، ولكن بابار لا يصغي إليهم، ولا يتحدث إلاَّ إِلىٰ دُسْتُم. وتتنامى الفوضى والاختلاط. وبعد هنيهة أصيح قائلاً، فيما بين ذلك، إن مترجمي لا يستطيع أن يماشي هذا بسرعته في الترجمة، وأنه إذا كان يفترض فِيَّ أن أوقِّع علىٰ شيء ما، فلا بدَّ لي أن

أفهم علىٰ الأقل ما يتفاوض عليه الأَفغان في الحقيقة.

وحين يتواصل الصخب ألتمس بإلحاح أن يمنح لي الحق في الكلام، وأُدْلي «باسم الأمين العام» بتصريح أوازن فيه بين محاسن مشروع الاتفاقية ومساوئه. وأقول إنني مستعد، من حيث المبدأ، للمشاركة في التوقيع علىٰ اتفاقية هدنة. ومع ذلك فلا بدَّ لي أوَّل الأمر أن أُمَحِّص نصَّها، وبالنظر إِلىٰ أهميتها فأنا مضطر أيضاً إِلىٰ الاتصال الهاتفي بنيويورك. وأخيراً يسلمني بابار نص الاتفاقية الإِنكليزي، وهو يحتوي علىٰ مقدمة وأربعة مواد.

وأتجاوز المقدمة التي تنطوي علىٰ الكثير من اللهجة الشاعرية المترنِّمة، إذ يُشْهَد فيها بالحكمة والذكاء، والعقليَّة السياسيَّة والوطنية الفائقة للجنرال دُسْتُم والملاّ محمد عمر آخوند، أمّا العلامة ربّاني أَو مسعود، أَو كريم خليلي فلا يذكرون، والمادة الأولى ترسم هدنة بلا تأخير، وتبادل القتلى والأسرى وتشكيل لجنة تسهر علىٰ مراعاة الهدنة، وتستأنف مناقشة «المسائل التي هي موضع النظر»، ويقال إن باكستان سوف تسهِّل تشكيل اللجنة. وفي المادة 2 يتم إحصاء أسماء أعضاء اللجنة، ستة علىٰ كل جانب، ويوجد في صفوف الطالبان وزير الخارجيَّة، غوث، والملاّ عباس؛ كما يوجد بين ممثلي المجلس الأعلىٰ للدفاع عن أَفغانستان، الجنرال روزي. وتنص المادة الثالثة، علىٰ أن يتم التوقيع علىٰ الاتفاقية وتنشر، في مزار الشريف وقندهار في وقتٍ معاً، ويرد في المادة الرابعة «يفترض أن يتم التوقيع علىٰ المشروع

الرسمي لاتفاق يتم الفراغ من صياغته من قبل وزارة خارجيَّة حكومة باكستان، في إِسلام آباد». والورقة ذات الأهمية يبلغ طولها صفحة مقتضبة، وليست، علىٰ أية حال مأثرة من مآثر حقوقيّ البلاط في الإمبراطورية النمساوية. ومع ذلك فقد تحقَّق غرضها في الحرب الأهلية الأَفغانية، كما آمل عندما أتصفحها علىٰ عجل.

ويرضى المشاركون في المؤتمر بتصريحي، ويذهبون إِلىٰ حجرة جانبية ليتناولوا غداءهم. والساعة تبلغ الواحدة والنصف، وهي الرابعة صباحاً في نيويورك، وإذا أسعفني الحظ ظفرت بجولدنج، أول المستيقظين، علىٰ الهاتف. ويسمح لي دُسْتُم باستخدام محطته الفضائية. وبالفعل: هذا جولدنج، الإِنسان الآلي، العامل، الذي لا يعتريه الكلل، قائم علىٰ قدميه يراجع محاضرة يفترض أن يلقيها في لندن، ونظل نتحادث في الهاتف طوال ثلاثين دقيقة. وفي البداية أخرج إِلىٰ الشرفة لتحسين الاستقبال، ولكن كان ينتظر في الخارج اثنتا عشرية من الصحفيين ويحيونني بتصفيق الاستحسان، إذ تناهى إِلىٰ مسامعهم أن مفاوضات هامة تدور هنا. بل ربما كان الاختراق الذي طال انتظاره يوشك أن يحدث، وهم ينتظرون مني الآن تصريحاً، ولا بدَّ لي أن أخيِّب آمالهم، وأعود أدراجي إِلىٰ قاعة الجلسة.

obeikandi.com

// Ein historisches Dokument: aber geplatzt
Babar – Plan

**AGREEMENT BETWEEN ISLAMIC MOVEMENT OF TALIBAN
AND
SHOORA-E-AALI-E-DIFA-E-AFGHANISTAN**

To end fighting and create peaceful conditions in Afghanistan, both the parties (Islamic Movement of Taliban and Shoora-e-Aali-e-Difa-e-Afghanistan) through the wisdom, sagacity, statesmanship and extreme sense of patriotism of General Abdul Rashid Dostam and Mulla Muhammad Umar Akhund held extensive negotiations. As a result of these negotiations, both the parties have agreed to the following:

a. Implement immediate creasefire with effect from

b. Immediate exchange of prisoners and dead bodies.

c. Appoint a Commission comprising six members from each party, under the auspices of the UN, OIC (and facilitated by Pakistan) to monitor cease fire and continue discussion to overcome the related problems.

2. The Commission is composed as under:-

ISLAMIC MOVEMENT OF TALIBAN	SHOORA-E-AALI-E-DIFA-E-AFGHANISTAN
1. Haji Mullah Muhammad Ghous Akhund	1. General Abdul Majeed Rozi
2. Mullah Alla Dad Akhund	2. General Ateeq Ullah
3. Mullah Abdul Raqeeb	3. General Faheem
4. Mullah Abdul Abbas Akhund	4. Fazal Ahmad Azimi
5. Haji Muhammad Sadiq Akhund	5. Ustad Agha Muhammad Akhlaqi
6. Haji Bashir Ahmad	6. Ala Rehmati

3. The cease fire agreement and instructions to respective troops will be announced simultaneously at Mazar-i-Sharif and Kandahar.

4. A formal ~~draft~~ agreement ~~as prepared by the Foreign Office~~

auf meinen Vorschlag gestrichen

Contd .P/2....

obeikandl.com

von mir ergänzt

: 2 :

~~Government of Pakistan~~/UNO and OIC will be signed at a mutually agreed date and time by the Heads/nominated representatives of the two parties at Islamabad. / by the parties as well as representatives of UNO and OIC

5. Once the cease-fire has entered into force the parties to the agreement, under the auspices of UN, will discuss and try to settle in a spirit of peace & understanding (all) pending political issues such as demilitarisation of Kabul and the possible dispatch of UN-blue helmets.

ISLAMIC MOVEMENT OF TALIBAN   SHOORA-E-AALI-E-DIFA-E-AFGHANISTAN

WITNESSED BY

von mir ergänzt

Mazar, 23. 10. 96

ورقة بابار التي تفاوضنا عليها في 23 تشرين الأول 1996 في مزار الشريف.

obeikandl.com

ويصغي إليَّ جولدنج بصبر، وأقول له إن ورقة بابار تشير في الحقيقة إِلىٰ بعض الأخطاء الجمالية التي سأعمل جاهداً علىٰ إصلاحها. وأن من الأمور المثيرة للهواجس قبل كل شيء أن الأُمم المتحدة يفترض أن تُظَهِّر اتفاقية تفرض علىٰ أَفغانستان نوعاً من السَّلام الباكستاني، ومع ذلك فأنا أشير بالمشاركة في التوقيع. فربما يتحقق النجاح، بفضل الضغط الباكستاني في الجمع بين الأحزاب المتحاربة. وربما كان مشروع بابار هو الفرصة الذهبية لتنظيم العَماء في أفغانستان بأسلوب سلمي. وأقول إن الوزير قد أَقَرَّ بأن الأُمم المتحدة قد أسهمت في نجاحه، وعلىٰ هذا فلن نقف أمام العالم صُفْرَ اليدين.

وإِلىٰ جانبنا كان تناول الغداء قد انتهى، ويعود بابار ويجلس إليَّ من دون دعوة، وهو يفهم، بالطبع، كل كلمة أتبادلها مع جولدنج، وأَهُمُّ في البداية أن ألتمس منه أن يدعني أتحدث في الهاتف بغير إزعاج، غير أني أفكر بعد ذلك، وأقول إنه قد يكون مما لا يضير أن يسمع هذا الرجل ذو الأهمية كيف أُكَرِّس جهدي بإلحاح في نيويورك من أجل الاتفاقية، ويسأل جولدنج هل يرغب الأَفغان في تحويل جنود من ذوي الخوذات الزرق، وأقول إن الحديث لم يَرِدْ بعدُ عن الخوذات الزرق حتى الآن. ذلك لأنه كان واضحاً عندي أن واشنطن تقاوم إرسال قوات للمحافظة علىٰ السَّلام لأسباب تتصل بالميزانية. ولكن، وكما يقول المثل الإِنكليزي، كان ينبغي لنا أن نعبر الجسر أَوَّلاً إذا ما وصلنا إليه.

أمّا جولدنج فلا يرى أن إرسال الخوذات الزرق مع وجود التبرير المعقول، أمراً لا أمل في نجاحه. والحق أَنَّه لا يستطيع أن يفصل في المسألة، هو أيضاً، من دون موافقة الأمين العام. ومع ذلك فهو يوافق علىٰ اقتراحي أن أوقّع علىٰ ورقة بابار، وأضع السماعة في ارتياح.

وكان بابار قد أخلد إِلىٰ الصمت طوال الوقت، والآن يوجه سؤالاً غريباً إِليّ: «هل أنت حقوقيّ؟» وأقول إِنني لبثت، قبل دخولي وزارة الخارجيَّة، قاضياً مدة ستة أشهر. ويمضي بابار قائلاً: «لقد لاحظت ذلك من الأسلوب الذي تصوِّر به الوضع. وتجادل فيه» ثم يضيف إِلىٰ ذلك قوله بأسلوب التنبؤ: «إِذا قُدِّر لي في يوم من الأيام أَن أمثل أمام المحكمة، وأحتاج إِلىٰ من يدافع عني فأنا أود لو توافر لي امرؤٌ مثلك» وبعد ثلاثة عشر يوماً سوف يعفي رئيس الدولة الباكستاني حكومة بنازير بوتو من الحكم، ويوضع بابار، بصورة عابرة، قيد الإِقامة الجبرية، معتقلاً في منزله، ويفترض بالفعل أَن يُوَجَّه إِليه الاتهام بجريمة سياسية، ولكنه يُجَنَّبُ عمليةَ المحاكمة.

ويعود دُسْتُم ووزير الداخليَّة والآخرون إِلىٰ الجلوس معاً، ولكن الجو كان قد تغيَّر. فقد أوضح حديثي الهاتفيّ مع الرجل الثاني من حيث الأهمية في مركز الأُمم المتحدة، للجميع أَن القرارات لا تُتَّخَذ في إِسلام آباد وحدها، وأخبر الحاضرين أنني مفوَّض بالمشاركة في التوقيع علىٰ الاتفاقية، ويصافحني دُسْتُم

وبابار بسرور. وبناء علىٰ اقتراحي يقرر الاجتماع أَن نطير، أنا وبابار، اليوم أيضاً، إِلىٰ قندهار، حيث يفترض أَن يتم التوقيع علىٰ الاتفاقية من قبل الطالبان أيضاً. ويغلب الاستبشار علىٰ الاجتماع. وأقوم، من دون كبير جهد، ببعض التغييرات في نص الاتفاقية. ولا يبدي بابار اعتراضات، ويكاد دُسْتُم وبابار يهمّان بالتوقيع، وإِذا عبد الرحمن يطلب الإِذن له بالكلام، ويسأل بإِلحاح وإِصرار كيف سيتواصل سير الأمور بعد الهدنة، وهل سيتم تجريد كابول بعد ذلك من السلاح، وهل تريد الأُمم المتحدة أن ترسل أهل الخوذات الزرق. وأردّ قائلاً: «إِذا رغبت الأحزاب في ذلك، أستطيع أَن أقترح علىٰ نيويورك تعبئة الخوذات الزرق. ولكن دُسْتُم يسوء ظنه ويطلب، في حالة عدم إِرسال قوات من قبل الأُمم المتحدة، وضع فصيلة من الشرطة محايدة، علىٰ نحو حميّ، وينبغي أَن يحسب المجلس الأعلىٰ للدفاع عن أَفغانستان، والطالبان أيضاً، حساباً، من أجل ذلك، لألف رجل من كلٍّ منهم علىٰ حدة، ويريد أَن يعرف مني هل تستطيع الأُمم المتحدة «ضمان» ما يلي ذلك من عملية السَّلام، ويقول: إِنكم لم تستطيعوا أَن تضمنوا حياة نجيب الله أيضاً.

وحتى إِذا كان المحارب القديم، دُسْتُم، لا يقدر علىٰ فهم كل الدقائق الحقوقيَّة في ورقة بابار فإِن غريزته السياسية تحذِّره فجأة بأن الأرض التي يتحرَّك عليها تهتز قليلاً. وحتى عبد الرحمن يبني حساباته علىٰ هذا، ويقال إِن سكون الأسلحة

إنما هو الطور الأول من عملية شاملة، ولا يكون له معنى إلاَّ حين يتبعه حوار بين الأحزاب، وإِن هذا لا بد من تسجيله بصراحة في الاتفاقية، ولأول مرة يلوي بابار وجهه عند إِيراد الاعتراض الجديد، وينظر إِليَّ الوزير الذَّرِبُ اللسان وكأنه يلتمس مني الدفاع عن ورقته. علىٰ أنني مصمِّم علىٰ ذلك أيضاً، ذلك لأنه منذ أَن فَوَّضني جولدنج بالمشاركة في التوقيع تحوَّل تصوُّر بابار إِلىٰ خطة للأُمم المتحدة، بمعنىً ما، إِلىٰ خطة أُكَرِّس نفسي لها. وما من شك في أَن مما يشفي الصدور الآن أَن ورقة بابار لم تساوم حتى الآن سوى دُسْتُم، ولم تستشر مسعوداً استشارة أساسية، ومطالبته بتجريد العاصمة من السلاح غير مذكورة في الاتفاقية، إِذ يرفض الطالبان التجريد من السلاح. وكذلك يرفض دُسْتُم، دفعة واحدة، التوقيع علىٰ الورقة.

ولإِنقاذ الورقة أقترح استكمالها بمادة خامسة، جديدة أمليها في المسودة علىٰ رئيس القسم الباكستاني بجرأة تتسم بالنزق، علىٰ نحو لا توحي به إِلاَّ المحنة: «وبمجرد أَن تدخل الهدنة حيِّز التنفيذ، سوف تناقش كل الأحزاب الداخلة في هذا الاتفاق، تحت مظلة الأُمم المتحدة كل المسائل السياسيَّة المفتوحة، وتحاول حلّها بروح من السَّلام والفهم» ويوافق بابار، وأصرح لعبد الرحمن بأن المادة الخامسة يفترض أَن تضمن الانتقال من المرحلة الأولى إِلىٰ المرحلة الثانية، ولكن هذا يواصل الإِلحاح، وحتى دُسْتُم يظل يسيء الظن. ويخلد بابار إِلىٰ الصمت، إِذ لا

يبادر أحد من مستشاريه إلىٰ مساعدته، وأنا أدرك أَن كل خطوة أخطوها باتجاه مسعود، تبعدني عن الطالبان، وإِذا أضفت إِلىٰ ورقة بابار مطاليب جديدة للمجلس الأعلىٰ للدفاع عن أَفغانستان فسأُحَمِّل استعداد الطالبان للحلول الوسط فوق طاقته. ولكن عبد الرحمن يصر علىٰ وجوب ذكر تجريد كابول من السلاح وإِرسال الخوذات الزرق، وأضيف، علىٰ مضض، إِلىٰ المادة الخامسة، نصف الجملة هذا: «مثل تجريد كابول من السلاح وإِمكانية إِرسال جنود الخوذات الزرق التابعين للأُمم المتحدة». وأوضح لعبد الرحمن في الوقت ذاته أَن هذه الفقرة تمثِّل اقتراحاً برسم الصياغة، فمسألة الخوذات الزرق تفصل فيها الأُمم المتحدة، لا الأَفغان. علىٰ أَن بابار يسلِّم الآن بخسارة القضية، ويقول إِن الطالبان لن يوافقوا علىٰ تجريد العاصمة من السلاح، وعلىٰ الأرجح لن يوافقوا علىٰ إِرسال الخوذات الزرق، وأصرح لممثلي مسعود بأنني أشاطر بابار هواجسه. فلو أوردنا في مشروع الاتفاقية أموراً مفرطة في كثرتها لعرَّضنا الهدنة بأسرها للخطر. وذلك أَن المادة الجديدة، الخامسة، تلزم الطالبان باستئناف حوار سياسيّ، حتى من دون ذكر التجريد من السلاح بصراحة، ومع ذلك يأبىٰ عبد الرحمن أَن يوقع علىٰ الورقة إِذا لم يجرِ التطرُّق إِلىٰ موضوع التجريد من السلاح.

وبعد مناقشة عنيفة، يتشتَّت شمل الشلَّة. وها قد أخفقت إِحدى الفرص القلائل، بل ربما الفرصة الوحيدة الحقيقيَّة،

obeikandl.com

لتحريك عملية السَّلام، من جرّاء عدم استعداد الأَفغان للحلول الوسط، وأعني كل الأَفغان، لا مجرد الطالبان فحسب. وما عاد ثمة معنى لمتابعة الرحلة إِلىٰ قندهار، إِذ لا يوجد شيء للتوقيع عليه. ولا بدّ للاتفاقية أَن يتم التفاوض عليها من جديد. وفقد بابار مصداقيته من حيث كونه وسيطاً، ولا بدّ له، في الأيام التالية، أَن يضع نصب عينيه أنَّ ورقته التي خاطها بإِبرة ساخنة كانت موجهة من جانب واحد، باتجاه مصالح الطالبان الذين كانوا خليقين أَن يوطدوا مكاسبهم علىٰ الأرض عن طريق هدنة. ومع ذلك فقد كان مسعود يريد أَن يغيِّر الوضع الراهن وأن يُحَيِّد علاقات القوى في العاصمة. ولم يكن يريد أَن يقبل سكوت السلاح إِلاَّ حين يمهِّد لحوار سياسيّ، يفضي في النهاية إِلىٰ نوع من سيطرة لكل لأحزاب علىٰ كابول. أما دُسْتُم، الذي لم يكن مرتبطاً بمسعود إِلاَّ بتحالفٍ مزعزع، مرة أُخرى، فقد كان من السهل عليه في البداية أَن يقبل مقترحات بابار، إِذ كان يرى أَن منطقة نفوذه لا تتعرض للخطر من جراء الهدنة. ولكنه أدرك في النهاية أَنَّه يتحرَّك علىٰ جليد زَلِق، ويسلِّم نفسه آخر الأمر للطالبان.

وفي الخارج، وراء الباب، يدس دُسْتُم في يدي ورقة مكتوبة بخط اليد، من دون أَن يلاحظه الوفد الباكستاني، وهي ورقة أوعز إِلىٰ المترجم بترجمتها فيما بعد، فإِذا هي لا تتضمن في مادتها، شيئاً جديداً، ولكن اللفتة تظهر أَن دُسْتُم كان يعمل جاهداً للظفر بثقتي.

وفي الحديقة كانت الصحافة تنتظر منذ خمس ساعات. ويتهافت الصحفيون مقبلين، ولا أنطق إلاَّ بالقليل، وأقاوم إغراء تعرية وزير الداخليَّة الباكستاني ببضع ملاحظات تنطوي علىٰ استمتاعي بالتفوُّق، بل أشير إِلىٰ صعوبات نجمت في اللحظة الأخيرة.

ويظل بابار غير مرئي.

وما انتهى إِلىٰ الإخفاق في تلك الأيام، في 23 تشرين الأول 1996 كان أكثر من مجرَّد المحاولة من قبل سياسي باكستاني طموح. ولأول مرة، كانت الأُمم المتحدة وباكستان ممثلة ربما، بأهم عضو في مجلس وزراء بنازير بوتو، مرتبطتين بتصوُّر مشترك، وقد بدت الهُوَّة العميقة التي أحدثتها المصالح المتباينة حتى اليوم الحاضر، بين باكستان والطالبان من جهة، وبين الأُمم المتحدة والمجتمع الدولي المحب للسلام من جهة أُخرى، هوَّةً يمكن رَدْمُها والتغلُّب عليها في هذا اليوم بالإِرادة الطيبة، وكان تحالف الشمال ما زال غير مضروب ضربة تبعث علىٰ فقدان الأمل، ولم يكن قد دُحِر إِلىٰ أرض بالغة الضآلة في أقصى الشمال. وكان ما زال نِدّاً للطالبان في قوته العسكرية، مثلاً، بل كان متفوِّقاً عليهم من الوجهة السياسيَّة بفضل وضعه في هيئة الأُمم المتحدة. وقد كان توازن القوى المستقر خليقاً أَن يُسَهِّل حدوث الليونة من جانب كلا الطرفين. ولكن كانت تُفْتَقَد النظرة الاستراتيجية إِلىٰ المستقبل ومراعاة المصلحة في السلام ذات الأولوية الأعلىٰ، عند كلا الجانبين.

obeikandl.com

ولم تُتَح لي بعدُ في الشهور التالية مثل هذه التركيبة المنسجمة المُواتية من أجل عملي، وحتى عندما سيعمل، فيما بعد، المفوَّض الخاص الجديد لأَفغانستان، وهو وزير الخارجيَّة الجزائري السابق، الإِبراهيمي، في إِطار ترتيب وضع دولي (Konfiguration) (ستة + 2) سوف يرد الحديث عنه بعدُ، في الفصل الرابع والعشرين، جاهداً من أجل حل سلمي، كان يُفْتَقَد التصميم، علىٰ الجانب الباكستاني، علىٰ العمل في سبيل هدنة بين الأحزاب المتحاربة، ذلك لأن الطالبان كانوا يهيمنون من الناحية العسكرية في السنوات التالية، وكان تحالف الشمالي قد تردّىٰ إِلىٰ حالة من فقدان الأهمية، وما عادت باكستان، ولا الطالبان تحفلان بتسوية سلمية من ذلك الوقت. وقد أدى الغياب الكامل للاستعداد للحلول الوسط في قندهار، وفي إِسلام آباد أيضاً، بلا ريب، في النتيجة الأخيرة، إِلىٰ المأساة التي أصبحنا نحن شهوداً عليها في الأسابيع الأخيرة.

وكان ينبغي لتحالف الشمال الذي يرفض، منذ عودته إِلىٰ كابول، كل مطالبة بتجريد العاصمة من السلاح، علىٰ أنّها غير معقولة، أَن يدع نفسه يتذكّر أنهم كانوا هم الذين يطالبون، في تشرين الأول 1996، بتجريد العاصمة من السلاح، إِذ كانوا في تلك الأيام يعانون من أوضاع للقوة معكوسة.

12

خطوات مؤقتة

وتنهار حكومة بوتو في الليلة الواقعة بين الرابع والخامس من تشرين الثاني 1996. وبمساندة الجيش يعفي رئيس الدولة الباكستاني ليغاري الحكومة من عملها ويستدعي رئيس البرلمان ميراج خالد ليكون رئيس حكومة انتقالية. وبعد ثلاثة أشهر تُجْرىٰ انتخابات برلمانية يخرج منها نواز شريف، الذي كان حتى الآن زعيماً للمعارضة، منتصراً، وكان ثمة رسالة من رئيس الوزراء البريطاني، جون ماجور، إلىٰ زميلته الباكستانية يكرّس فيها نفسه من أجل بعثة للسلام، لا تعود تصل إلىٰ المُرْسَل إليها. ومع انهيار بنازير بوتو يفقد أيضاً وزير الداخليَّة بابار، منصبه. أما وزير الدولة نجم الدّين فيحتفظ به في منصبه تحت إشراف وزير خارجيَّة الحكومة الانتقالية، صاحب سادار يعقوب خان، ويلتمس مني الدبلوماسي المهذَّب، الذي تفاوض، منذ عام 188جولدنج علىٰ اتفاقية جنيف مع الروس، ولمع نجمه في الأدب والفلسفة

obeikandl.com

الأوروبيَّيْن، المجيء إِليه في 12 تشرين الثاني، ويؤكد لي يعقوب خان أَنَّه يتعاون في المسألة الأَفغانية مع الأُمم المتحدة تعاوناً وثيقاً.

وكانت مبادرة وزير الخارجيَّة قد انتهى أمرها وطويت صفحتها علىٰ قدر ما يتعلق الأمر بتصوُّر باكستاني. ولكن لمّا كنت أودُّ أَن استغل دينامية التفاوض عند بابار وكنت أعدُّ خطة صالحة في جوهرها، فإِنني أستأنف، في الأسابيع الأولى، رحلاتي بين الأحزاب، وفيما بين ذلك أطير إِلىٰ نيويورك لِأُطْلِع مجلس الأمن علىٰ الوضع في أَفغانستان، وكان غزو كابول وتقدُّم الطالبان باتجاه الشمال قد أثار قلق اللجنة العليا في الأُمم المتحدة، علىٰ أَن جهودي من أجل التوصل إِلىٰ هدنة تجد مساندة واسعة، علىٰ الرغم من أنني لا أخفي رسالة رئيس الوزراء البريطاني، جون ماجور إِلىٰ رئيسة الوزراء الباكستانية بنازير بوتو، في 24 تشرين الأول 1996 إِلىٰ الأونسما وإِليّ، بحكم كوني مفوَّضاً خاصاً.

10 DOWNING STREET
LONDON SW1A 2AA

THE PRIME MINISTER

24 October 1996

Dear Benazir,

Thank you for your letter of 15 October about the Security Council debate on Afghanistan which took place the following day. It was helpful to receive your views before the debate, at a time when developments in that country have again caught the world's attention.

We fully share your wish to see a broad-based government in Afghanistan which will bring peace and stability. Detrimental outside interference needs to end. As our Ambassador reiterated during the Security Council debate, support for the activities of Dr. Holl and the UN Special Mission should remain the focus of the international effort. But ultimately it is up to the factions. The UN cannot impose a solution. The factions must realise that pursuing the military option will merely prolong the conflict and increase the hardships suffered by all Afghans for so many years.

The situation in Afghanistan is constantly shifting. The UN needs to monitor the situation closely and decide on the next steps, after taking into account the views of the Head of the UN Special Mission. We are working hard to ensure that the draft Security Council resolution tabled by the Russian Permanent Representative emphasises this. We look forward to staying in close touch with you both at the UN and elsewhere on this important issue.

رسالة رئيس الوزراء البريطاني جون ماجور إلى رئيسة الوزراء الباكستانية بنازيربوتو في 24 تشرين الأول 1996 إلى الأونسمات وإليّ، بحكم كوني مفوضاً.

obeikandi.com

- 2 -

I much enjoyed our meeting during your brief stay in London; and I look forward very much to my visit to Pakistan next January.

Her Excellency Mohtarma Benazir Bhutto

«أقصر الوثائق» ورقة حديثي من أجل إطلاع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على شؤون أفغانستان في 20 تشرين الثاني 1996.

obeikandi.com

Orphan conflict

Mein "Sprechzettel" für das Briefing des VNSR am 20. 11. 96

HOTEL LEXINGTON

1) Stalemate – mil. dynamic
Law of the war no final answer to search for peace

2) First things first. Cease fire.
Agreement in principle
– demilitarization of Kabul
(Mazar, Panchjir, Maidan Sh., Charasiab
– neutral afghan police force
(composition? Deployment? UN-supervision?)
– political dialogue (Broad based Government, Afghans in exile)

3) Thank for SCR 1076 Okt. 22
mil. observers 2 ⇒ 5, 2 pol. experts

4) Gender issue / cultural heritage

511 LEXINGTON AVENUE AT EAST 48TH STREET
NEW YORK, NY 10017-2096
TEL: 212-755-4400 FAX: 212-751-4091

obeikanonline.com

إن الفرص من أجل إسكات الأسلحة ضئيلة، وكذلك يستقبلني الأمين العام، ويبدو مُستَنْفَدَ القوى، ممزَّق الأعصاب من فرط المناقشة التي استَعَرَت منذ شهور حول إعادة انتخابه، ومع ذلك فهو يعاملني معاملة ودِّيَّة وبتلك النفحة من السخرية من النفس التي لفتت نظري بأنها مستعذبة في حوارنا الأول، وأودِّع هذا الرجل الذي يبدو متعاطفاً، وأنا آسف، لقد صرح الأمريكيون علانية أنهم سيستخدمون حق الفيتو ضد إعادة انتخاب هذا المصري. وكانت النتيجة في «تصويت تجريبي» يحدث في يوم حوارنا، كما كان متوقعاً: 14 : 1، وإذا اسم مرشح الحل الوسط الأفريقي، كوفي عنان ينتشر في أبهاء القصر الزجاجي.

وثمة لقاء آخر يحدث في نيويورك، وهو يرجع إلىٰ اقتراح للأونسما. فعندما زارنا جولدنج في أيلول لَفَتُّ نظره إلىٰ أَن الأُمم المتحدة تصدر في الحقيقة قراراً حول أَفغانستان في كل عام، ومع ذلك فمنذ اتفاقية جنيف في عام 1988 لم ينعقد مؤتمر دولي حول أَفغانستان، وقلت إن بداية جلسة الخريف للأُمم المتحدة، التي يسافر إليها، بحكم التجربة، أعداد جمة من وزراء الخارجيَّة إلىٰ نيويورك، تتيح الفرصة من أجل مؤتمر للدول التي تهتم اهتماماً خاصاً بأَفغانستان، ومن أجل التأكيد علىٰ أهمية اللقاء ينبغي أَن يتولى رئاسته الأمين العام، كما كان اقتراحي. وبالفعل يتحقَّق مؤتمر ما يسمى بالمجموعة 19، ولكن ليس في أيلول بالطبع، بل في تشرين الثاني 1996، بعد أَن كان معظم وزراء الخارجيَّة قد

غادروا من جديد، واحتل مكانهم كبار الموظفين. والحق أَن بطرس غالي يرأس المؤتمر، ولكن لمّا كان رجلاً يوشك أَن يُسْحَب، وكان الموظفون المشاركون لا يستطيعون أَن يتخذوا قرارات ذات أهمية، فقد اقتصر الحاضرون علىٰ تلاوة التصريحات المُحَضَّرة، ولا ينبعث دافع يمكن تقديره وقياسه، لعملي، من هذا المؤتمر.

وحتى قبيل رحيلي إِلىٰ نيويورك لم تؤتِ مجهوداتي اليوميَّة إِلاَّ ثماراً متواضعة. ففي السابع من تشرين الثاني 1996 يلتقي ممثل الطالبان، وممثل تحالف الشمال برعاية الأُمم المتحدة. وفي هذه المرة الأولى يكون وزير الخارجيَّة ملاّ غوث والجنرال بايندا، اللذين يجتمعان في دار الأونسما. ويتسم لقاؤهما بسمة رمزية، إِذ يفترض أَن يكشف عن أَن الحوار بين الأعداء ما زال ممكناً. والمفاوضات الحقيقيَّة لا يمكن إِجراؤها بين كلا الرجلين، إِذ يفتقران من أجل ذلك إِلىٰ التفويض.

وبعد عودتي من نيويورك أضاعف جهودي. وبعد سلسلة من الأحاديث الباعثة للإِحباط، التي تضع صبر الوسط علىٰ محك تجربة قاسٍ، أتوصل إِلىٰ اقتراح الحل الوسط، المتمثِّل في «مجموعة من الخبراء» يبعث إِليها كل من الجانبين بممثلين عنهم. وفي هذه الأثناء كان أمراء الحرب قد بلغ منهم التعادي أَن لقاءاً علىٰ مستوى القيادة ما عاد ممكناً، وفضلاً عن ذلك فإِن القرار الخاص بمكان الاجتماع يكدِّس، بالنسبة لكل حزب مسائل كبيرة

تتصل بالأَمْنِ والمكانة. أما الطالبان فلا يريدون التفاوض إلاَّ في إسلام آباد، وأما تحالف الشمال فيريد التفاوض في كل مكان إلاَّ إسلام آباد. ويفترض في تشكيل «مجموعة الخبراء» أَن يَدُلَّ علىٰ الطريق الوحيد للخروج من المعضلة. وبهذه المناسبة فإِن كلا الطرفين لا يبعثان بزعيمَيْهما، بل يبعثان بأقرب مستشارَيْن إِليهما في المجموعة. ويتمثَّل الطالبان عن طريق أعضاء مجلس الشورى ويتمثَّل تحالف الشمال عن طريق واحد من المقرَّبين إِلىٰ العلامة ربّاني ومسعود والمهندس إِسحاق، ثم عن طريق بايندا (دُسْتُم) والدكتور طالب (كريم خليلي)، ومجموعة الخبراء تجتمع مرتين، وتدوم كل مرة ثلاثة أيام. في منتصف كانون الثاني وأخيراً في منتصف شباط 1997. وبحكم كوني رئيساً أحاول أَن أقرّب إِلىٰ أذهان الحزبين باتفاقية هدنة. ومرة أُخرى أعمل علىٰ أساس ورقة بابار السابقة، التي كنت قد استكملتها في تلك الأثناء بتعليمات حول تجريد كابول من السلاح، غير أني أنتهي مرة أُخرى إِلىٰ الإِخفاق من جراء العقبة التي لا سبيل إِلىٰ التغلُّب عليها، وهي التسلسل الزمني. فبينما يبدأ الطالبان العملية بإِطلاق سراح كل أسرى الحرب فوراً ثم يريدون بعد ذلك أَن يستأنفوا «حواراً سياسياً»، يطالب تحالف الشمال بأن تكون الخطوة الأولى تجريد كابول من السلاح، وفتح حوار سياسي من دون إِبطاء. ويقال إِن الأسرى لا يطلق سراحهم إِلاَّ بعد اختتام الحوار بنجاح. وأحاول حل مشكلة الوقت عن طريق حلول وسط وإِدخال كل طور من

obeikandl.com

الأطوار على حِدة بخطوات موازية. ولا أُقَصِّر أيضاً في المناشدات السياسيَّة وفي الإِشارة إِلىٰ انعدام الرغبة المطرد الزيادة من قبل البلدان المانحة في استعمال وسائل التنمية في دولة تفسد نفسها بنفسها، أَو في الإِشارة إِلىٰ ما يوصي به الإِسلام من التسامح، أَو إِلىٰ النسب المشترك للأعداء الذين ينتمون إِلىٰ أسرة الشعب الأَفغاني. وما من حجة تحدث الأثر المطلوب، وتخفق اللقاءات من جراء عدم الاستعداد للحلول الوسط ذاته الذي لم يكن بدٌّ لبابار أَن يستسلم أمامه في مزار الشريف.

وأطير في أثناء ذلك إِلىٰ تركمانستان وأوزبكستان لأطلع الرئيسين نيجاسوف وكريموف علىٰ الوضع في أَفغانستان، وكلهما قد استبد به القلق كثيراً من جراء تقدم الطالبان، ويخافون أَن ترفرف في أجواء بلادهم أعلام إِيديولوجية إِسلامية متطرفة. ثم ينتهي بي المطاف مرة أُخرى إِلىٰ موسكو من أجل مشاورات جديدة مع بوسو واليوك. وفي أشخاباد ألقي محاضرة في مؤتمر للدول المانحة حول أَفغانستان يشارك فيه أيضاً آكاشي نائب الأمين العام، وفي هذه الأثناء يشتد اهتمام الرأي العام العالمي بالأحداث الباعثة للقلق في هندوكوش وتُعَلَّق آمال علىٰ عمل الأونسما أحاول علىٰ الدوام أَن أكبح جماحها.

وفي نهاية كانون الثاني 199 يدعوني وزير الخارجيَّة الإِيراني، ولايتي إِلىٰ مؤتمر حول أَفغانستان، في طهران، وهذه المبادرة أيضاً غير منسَّقة مع الأُمم المتحدة، شأنها في ذلك شأن خطة بابار

في تشرين الأول من العام المنصرم. ولم يكن يجوز لي أَن أشارك في مؤتمر أول، في نهاية عام 1996، لأن الأمريكيين اعترضوا عليه في أيامه، وتراجع بطرس غالي في وجه هواجسهم. ولكن الأمين العام الجديد يوافق في هذه المرة، ولا يجوز لي بالطبع أَن أشارك إِلاَّ بصفة مراقب. وفي طهران أقابل العلامة ربّاني، والرئيس المؤقت الأول، مجدّدي، وأقابل، للمرة الأخيرة، حكمتيار، الذي لا يمكن تقدير تصرفاته بصورة مسبقة، والذي يحاول علىٰ الدوام أَن يلفت الأنظار إِليه بمقترحات لا تتوافر لها فرص النجاح. أما الرئيس الإِيراني رفسنجاني فيدعني أتحدث إِليه عن عملي. ومع ذلك ينتهي المؤتمر بإِخفاق، وهي نتيجة كان يمكن التنبؤ بها، لأن المبادرة الإِيرانية تعاني من النقص ذاته، شأن المشروعات الباكستانية المماثلة، وعندما تدعو طهران يظل الطالبان بعيدين، وعندما تنظم الباكستان مؤتمراً لا يأتي تحالف الشمال، والأُمم المتحدة وحدها، مهما يمكن أَن يظن المرء بقوتها الضاربة، تلقى الاحترام من قبل كلا الجانبين المتعاديَيْن، ويعترف بحيادها.

ولكن احتكار تنظيم المؤتمرات لا يكفي وحده من أجل التوصُّل إِلىٰ هدنة، لأن الأُمم المتحدة ـ وقد سبق أَن أشرت إِلىٰ ذلك ـ تنقصها وسائل السلطة لكي تفرض مفهوماً للسلام أيضاً إِذا ما اقتضت الضرورة ذلك. وهكذا تظل الأشياء شهوراً بطولها سابحة في الهواء، وما زال الطالبان لا يُوَفَّقون إِلىٰ الاختراق إِلىٰ

obeikandi.com

الشمال الذي سيضمن لهم السيطرة علىٰ أَفغانستان بأسرها. غير أَن السكّان يعانون يومياً من نتائج حرب مواقع تمتد موجاتها علىٰ طول أربعين كيلومتراً في جبهة تمتد من شمالي كابول، في مَدٍّ وجزر، من دون حَسْم.

obeikandl.com

Meine Verhandlungsunterlage beim Treffen der (interafghanischen) Arbeitsgruppe (WG) in Islamabad 13.-15.1.97

AGREEMENT BETWEEN ISLAMIC MOVEMENT OF TALIBAN
AND
SHOORA-E-AALI-E-DIFA-E-AFGHANISTAN

1. To end fighting and create peaceful conditions *F* in Afghanistan, both the parties (Islamic Movement of Taliban and Shoora-e-Aali-e-Difa-e-Afghanistan) held extensive negotiations under the good offices of the United Nations. As a result of these negotiations, both the parties have agreed to the following:

a. Implement (immediate) ceasefire *within the whole of A.* with effect from ...

b. (Immediate) exchange of prisoners and dead bodies.

c. Appoint a Commission comprising six members from each party, to monitor, under the good offices of the UN and in cooperation with the Organisation of Islamic Conference, the cease fire and to discuss the related problems.

d. BBG

2. The Commission is composed as under:-

ISLAMIC MOVEMENT OF TALIBAN	SHOORA-E-AALI-DIFA-E-AFGHANISTAN
1. Haji Mullah Muhammad Ghous Akhund	1. General Abdul Majeed Rozi
2. Mullah Alla Dad Akhund	2. General Ateeq Ullah
3. Mullah Abdul Rageeb	3. General Faheem
4. Mullah Abdul Abbas Akhund	4. Fazal Ahmad Azimi
5. Haji Muhammad Sadiq Akhund	5. Ustad Agha Muhammad Akhlaqi
6. Haji Bashir Ahmad	6. Ala Rehmati

3. The cease fire agreement and instructions to respective troops will be announced simultaneously at Mazar-i-Sharif and Kandahar.

F1 ~~and finally~~ the establishment of a BBG
F2 Government (?) Isl.: will gut, keine islamic konfliktbeig Governments; Isleg: Text schon angenommen. NO

oberkandi.com

- 2 -

4. A formal cease fire agreement will be signed at a mutually agreed date and time by the Heads/nominated representatives of the two parties at the UNSMA headquaters in Islamabad.

5. Once the cease fire has entered into force the parties to the agreement, under the good offices of the United Nations and in cooperation with the Organisation of Islamic Countries, will F discuss and try to settle in a spirit of peace and understanding all pending political issues such as the demilitarisation of Kabul and the deployment of neutral Afghan police forces.F F hier muß Sequenz Exchange of prisoners eingebaut werden

6. To this end the Commission, appointed under Article 1 para. c will also be charged, under the good offices of the United Nations and with the cooperation of the Organisation of Islamic Countries, with the

6.1. supervision of the demilitarisation of Kabul,
6.2. the monitoring of the deployment of neutral Afghan police forces.

7. The parties to the cease fire agreement further agree that, once Kabul is demilitarized and a neutral Afghan police force is deployed, the Commission should be enlarged by independent Afghans living inside or outside Afghanistan and should conduct, under the good offices of the United Nations and with the cooperation of the Organisation of Islamic Countries, a comprehensive political dialogue leading to the establishment of a fully representative and broad-based transitional Government, which would, inter alia, control the national security force and create conditions for free and fair elections leading to a representative national government, possibly utilizing traditional decision-making structures, such as a grand assembly, to help establish these conditions throughout the country

مشروع اتفاقية هدنة تمَّ التفاوض عليها من قبل مجموعة الخبراء في كل أفغانستان فيما بين 13 و15 كانون الثاني 1997.

obeikandl.com

obeikandl.com

13

مِنَ الداخل أم من الخارج

في التاسع والعشرين من آذار أقوم بمحاولة أخيرة من أجل محادثات علىٰ الصعيد السياسيّ، وبعد أَن أعلن دُسْتُم استعداده للالتقاء بملاّ ربّاني في آشخاباد، بات يترتب الآن علىٰ هذا أَن يقبل بالعاصمة التركمانية مكاناً للتفاوض. أما أنا فلست بالمتفائل، وذلك أَن المعاملة المشرِّفة للطالبان في منظمة المؤتمر الإِسلامي قَوَّت اعتدادهم بأنفسهم، وزادت في ضآلة استعدادهم للحلول الوسط. وأطير، بالاشتراك مع مستشاري الأمريكي، توم جوتيير، إِلىٰ قندهار، لكي أتحدث إِلىٰ رئيس الوزراء، ملاّ ربّاني. وإِذا أخفقت هذه المرة ففي وسعي أَن أطرح جهودي إِلىٰ جانب ورقة بابار عساها تساعد علىٰ النجاح، وفي مستهل نيسان سيستقبلني الأمين العام كوفي عنان في دلهي، ولا بدَّ لي، حتى ذلك الوقت، أَن أتوصَّل إِلىٰ استنتاجات حول التصرّف المستقبلي للأُمم المتحدة في أَفغانستان، وقد كتبت إِلىٰ وكيل الأمين العام الجديد،

البريطاني، كيران بريندرجاست، الذي حلَّ محل مارك جولدنج في الأول من آذار، قبل بضعة أيام، أقول له: «إن رفض الطالبان سوف يعني من الوجهة العملية نهاية عملية التفاوض التي شرعتُ فيها قبل خمسة شهور».

وفي الساعة التاسعة صباحاً نهبط في مطار قندهار ذي المدرج الطويل وتظل المدارج العملاقة خالية في الأغلب. ولا يكمن في وسط العشب النامي سوى بضعة طائرات عمودية قد أضرَّ بها إطلاق النار عليها. غير أني أرى اليوم، بالطبع، طائرة لخط الطيران المدني، آريانا صادرها الطالبان، وهي تأتي بالجنود إلىٰ الجبهة. وتُقْبِل عليَّ، مرة أُخرى، علىٰ الطريق الذي يبلغ طوله عشرين كيلومتراً، في المدينة سيارات شحن مرسيدس من أيام ما قبل طوفان نوح، في قافلة لا نهاية لها، في ارتفاع يعادل ارتفاع المنازل، محمَّلة بإطارات السيارات المستهلكة التي يبدو أنها تمثل سلعة نادرة في منطقة ما. وتقوم سيارات الشحن الثقيلة بسحق آخر ما تبقَّىٰ من الحجارة الصغيرة في الأرض. وتمتلىء الشقوق في أرض الشارع بالماء. وبالأمس كان المطر ينزل كأنما يَتساقط من أفواه القِرَب، كما يروي برجْكْويست، بل كان ينزل البَرَد. وكانت النسوة غير المحجَّبات من البدو يدفعن الخراف علىٰ طول الطريق، ووصلنا، ونحن نَمُرُّ بجبل الفِيَلة، إلىٰ باب المدينة، وهو هيكل من قضبان حديدية مَحْنيّة، شدَّ حارس بينها حبلاً من الأسلاك. ويوجد الحارس في ظل كوخ من الطين، ويرفع طرفه

ناظراً، علىٰ مَضَض، ليفتِّش أوراقنا، ويعطف حبل الأسلاك إلىٰ الخارج. ثم ننطلق مارّين بمنازل متهدِّمة من الآجر المشويّ، وأنقاض وخرائب علىٰ المنحدرات الجبلية، وغدران ماء تفوح منها روائح كريهة، ولا يخرج بغير حجاب إلاَّ الفتيات الصغيرات والعجائز، ويقول برجْكوْيست بتهكم لاذع «إنه البلد الوحيد في العالم الذي تود فيه النساء أن يبلغن سن الشيخوخة لكي يكشفن عن وجوههن من جديد».

وينتظرني رئيس الوزراء، ووزير الخارجيَّة، وحاكم البنك المركزي، ويناولني ربّاني وغوث بطاقتَيْ الزيارة مزهُوَّين كطالبي ثانوية متخرجَيْن حديثاً، وكانا قد طبعاها من أجل قمة منظمة المؤتمر الإسلامي. وأقرأ علىٰ إحداهما: الحاج ملا محمد ربّاني رئيس المجلس الأعلى، دولة أفغانستان الإسلامية، وعلىٰ الأُخرى: ملاّ محمد غوث آخوند، وزير الشؤون الخارجيَّة، دولة أَفغانستان الإسلامية. ولأول مرة تُفْتَقَد الإضافة التقييدية، التي تمثل الوضع المؤقت للحكومة «acting» وهي التي أضافها أعضاء الحكومة إلىٰ أسمائهم بعد سقوط كابول. ونظام طالبان يوطِّد مكانته، حتى من الناحية البروتوكولية.

وبعد الترحيب الودي يأتي الدوش البارد، إذ يصرح ربّاني قائلاً، إنه ليس لديه سوى ساعة واحدة لي، أمّا إنني احتجت، حتى إلىٰ ثماني ساعات من أجل الذهاب والإياب فذلك أمر لا يعنيه. وعلىٰ الرغم من ذلك أسرد محاضرتي، في غير ملل أَو

تبرُّم. وأتحدث أول الأمر عن قمة منظمة المؤتمر الإسلامي، وأقول إنها كشفت لكل المشاركين عن الترابط بين السلطة والمسؤولية، وينبغي للطالبان أيضاً أَن يُوَفّوا مسؤوليتهم الكبيرة حقها. وقد تعب السكّان من الحرب، وفي النهاية أكرر اقتراحي أَن يلتقي ملاّ ربّاني ودُسْتُم في 2/ 3 نيسان في أشخاباد، ويجيب رئيس الوزراء بجمل وعبارات فارغة، ففي البداية يشكر لي جهودي لكي يحبطها بعد ذلك بمقترحات لا يمكن قبولها، ثم يغرق اقتراحي بمناقشة مفصلة متعبة. وكان في حديثي الأخير معه قد طالب بالخطوات التالية: 1 ـ الهدنة 2 ـ إطلاق سراح كل الأسرى 3 ـ تعيين لجنة رقابة، كما يعرض ذلك بأسلوب معلمٍ في ثانوية. وقال لي دُسْتُم في مقابل ذلك إِنه ليس لديه سوى 78 أسيراً، وليس لدى الطالبان سوى 88 أسيراً، وفي الواقع كان لدى الطالبان 400 أسير. ودُسْتُم يتحدث بلسانين، فيقول للأُمم المتحدة غير الذي يقوله للطالبان، ويقول إِن لقاءً في أشخاباد ليس بذي معنى إذ لم يجر قبل ذلك إطلاق سراح كل الأسرى.

وأحاول مرات لا أعرف كم يبلغ عددها أَن أوضح لرئيس الوزراء أننا ندور في حلقة مفرغة. والمشكلات التي لا يجوز أَن تناقش إلاّ بين الأحزاب المتحاربة مطروحة على المائدة منذ عهد بعيد: تبادل الأسرى، الهدنة، لجنة الرقابة، وأقول إِن مما لا أمل في نجاحه أَن نجعل حل هذه المشكلات شرطاً أولياً للمحادثات. وبعد بعض الأيام سوف ألتقي بالأمين العام عنان، وإذا لم أتوصّل

الآن إلىٰ نتائج فسوف أضطر إلىٰ إعلان إخفاق جهودي، ويتدخل وزير الخارجيَّة مُلاّ غوث ويأخذ عليَّ مآخذ شخصية، ويقول إن الطالبان قد أرسلوا إلىٰ كلتا الجلستين لمجموعة العمل ممثلين ذوي مرتبة رفيعة، وتمَّ تمثيل تحالف الشمال بمسؤولين ذوي مراتب متدنّية، وإنني لم أوجِّه لوماً علىٰ هذا. ثم إنني أقترح الآن لقاءاً يجمع بين رئيس الوزراء ملاّ ربّاني ودُسْتُم، وما من شك في أَن دُسْتُم، و(العلاّمة) ربّاني، ومسعود شخصيات لا أهمية لها، ويقول إنه ليس من المعقول أيضاً أَن يسافر «رئيس الدولة» (والمقصود هو ملاّ ربّاني) إلىٰ بلاد (هي تركمانستان) لا تعترف بالطالبان وتقع في دائرة النفوذ الروسي. ثم ينتقد المجيء والذهاب من أجل مكان الاجتماع. ويقول إنني اقترحت أوّلاً إسلام آباد. ثم ذكرت، بإيحاء من دُسْتُم أشخاباد، وإنه ينبغي لي أَن أصرح علانية بأن تحالف الشمال يرفض اقتراحي الأصلي، وإذا لم أنسب الذنب إلىٰ دُسْتُم فإن هذا يبرهن علىٰ انحيازي أَو تأثُّري بحكم مسبق. وفي النهاية يقول غوث، إنه بدلاً من ملاّ ربّاني ينبغي أَن يلتقي «وزير خارجيَّة الطالبان» (أي هو نفسه) في إسلام آباد، مع دُسْتُم، و(العلامة) ربّاني، ومسعود، وخليلي.

وأقول إنه مع وجود هذا القدر الكبير من العناد سأغدو أنا أيضاً واضحاً. «أنا أودّ أَن أظل مقيَّداً بالملفّات، وأن أحافظ علىٰ الحياد الصارم». وأقول إن الأونسما ليست قريبة المنال تجاه إيحاءات دُسْتُم، ولا تجاه سياسيّ آخر، وقد اقترحت منذ البداية

أَن يجتمع في مجموعة العمل «خبراء»، لا سياسيون. أمّا أَن الطالبان أرسلوا أعضاءاً من مجلس الشورى فذلك جدير بالثناء، ولكنه ليس، مع ذلك، شرطاً أولياً للمحادثات، علىٰ أَن اللقاءات لم تَنتهِ إِلىٰ الإِخفاق من جراء التمثيل الناقص، بل من جراء النقص في إِرادة القبول بالحلول الوسط عند الأحزاب. ومن الصحيح أنني سمَّيْت في البداية إِسلام آباد ملتقى «للحوار السياسي، ولكن حين رفض دُسْتُم الرحيل إِلىٰ هناك، وأدخل في اللعبة آشخاباد بدلاً من ذلك، وأبلغني ملاّ ربّاني في المرة الأخيرة، في كابول، أَنَّه مستعد للذهاب إِلىٰ إِسلام آباد أَو آشخاباد، ركَّزت منذ ذلك الوقت علىٰ أشخاباد. وأختم كلامي بإِيضاح مفاده أَنَّه ليس من مهامّ وسيط الأُمم المتحدة أَن ينتقد هذا الحزب من الأحزاب أَو ذاك علانية، وإِنني سوف أرسل تقريري إِلىٰ نيويورك، وهناك يفصل الأمين العام في موضوع التصرُّف اللاحق، أما اقتراح غوث المتضمن رغبته في الالتقاء مع زعماء تحالف الشمال في إِسلام آباد، فسوف أنقله إِلىٰ تحالف الشمال.

ولكيلا أستثير جدالاً جديداً، أكبت في نفسي تعليقاً مؤداه أَن الجانب الآخر لن يقبل حجم الحوار ولا مكان اللقاء، ففي نظرهم ينتمي غوث، إِلىٰ الطاقم الثاني، ولن يكون أطراف الائتلاف الأربعة في تحالف الشمال، ربما بصرف النظر عن كريم خليلي، مستعدين لمواجهة وزير خارجيَّة الطالبان معاً، والحديث معه والإِجابة عن أسئلته، وكذلك سوف يرفض العلامة ربّاني لأسباب

تتعلّق بالمكانة، السفر إِلىٰ إِسلام آباد، حيث لا يعترفون به رئيساً للدولة، أما مسعود فلن يطأ بقدميه الأرض الباكستانية، في أي مكان منها لأسباب تتصل بالأمن.

ولكني أغض النظر عن هذه الاعتراضات المريضة، وأسأل، بدلاً من ذلك، بعناد، هل تسري هذه الشروط الأولية في حالة اللقاء في إِسلام آباد أيضاً، وهي التي طرحها ملاّ ربّاني، وبناء علىٰ ذلك يجب إِطلاق سراح الأسرى أوّلاً، ويؤيد ذلك ربّاني أوّلاً، ثم يدفع غوث بصياغة أكثر مرونة وسلاسة: لكي يتم تسهيل اللقاء ينبغي أَن يشكِّل إِطلاق سراح الأسرى النقطة الأولى في جدول الأعمال. فهل يعني هذا أَن غَوْثاً لا يريد أَن يجعل من تبادل الأسرى شرطاً أَوَّلياً للمحادثات، علىٰ النقيض من رئيس الوزراء؟ ولا تواتيني الجرأة علىٰ الرد بطرح هذا السؤال، بهذا الوضوح.

وعلىٰ المائدة أتطرَّق إِلىٰ الحديث عن مشكلة النساء الأَفغانيات ـ وكم من مرة تطرَّقت إِليها؟ ويؤكد غوث أَن النساء والفتيات المسلمات لهن حق في التربية، ولكن الشروط الأولية المادية من أجل هذا غير متوافرة في الوقت الحاضر، ورداً علىٰ سؤالي يؤكِّد أَن مدارس للبنات قد افتتحت في غزنة وخوست، كما يفهمني أَن الطالبان يصبرون علىٰ الممارسة «غير الشرعية» للمدارس الخاصة في كابول، معتصمين بالصمت. ولكن النهاية الودِّيَّة لِلِّقاء لا تعميني عن حقيقة أَن جهودي من أجل هدنة وحوار

سياسيّ قد وصلت إِلىٰ طريق مسدود. وأطير إِلىٰ إِسلام آباد مُخَيَّب الأمل، وفي اليوم التالي، في أَحَدِ الفصح، تستعر الاشتباكات لأول مرة في إِقليم باجيز في غربي أَفغانستان، وهذا تَحَدٍّ لإِيران المجاورة علىٰ نحو مباشر.

وكنت أخاف منذ أسابيع أَن تخفق جهودنا لجمع الأحزاب علىٰ مائدة واحدة. وكنت قد ذَكَّرتُ في الحقيقة، في رسالتي إِلىٰ بريندرجاست بألوان النجاح الضئيلة التي حقَّقتها الأونسما، وباللقاء بين غوث وبايندا، وبجلسَتَيْ الخبراء، وبالتبادل المعقد للأسرى. علىٰ أَن ذوبان الجليد أمر وشيك، ومع الجليد تذوب أيضاً الآمال في أَن تتغير أمزجة أمراء الحرب، ولا سيما الطالبان الواثقون من النصر، باتجاه المصالحة. وأدور في حلقة مفرغة، دوراناً لا يختلف عن المفوض التونسي، المستيري، من قبلي. والمطلوب تصوُّر جديد لأَفغانستان. ولكن كيف يمكن أَن يبدو هذا التصوُّر؟

والنزاع الأَفغاني موجود منذ عشرين عاماً تقريباً في جدول الأعمال الدولي. وقد أُدين دخول السوڤييت الذي يعد مناقضاً للقانون الدولي في نهاية عام 1979 علىٰ أَنَّه عدوان ظالم علىٰ شعب ضعيف محب للحرية في قرارات للأُمم المتحدة لا يحصيها عدد. ولكن عندما ينسحب السوڤييت عام 1989، تتحول أَفغانستان إِلىٰ حالة كلاسيكية أنموذجية من حالات دولة آخذة في الانهيار، وما خرج من تجربة الجهاد، أَو «الحرب المقدسة» ضد

obeikandi.com

الدولة العظمى الشيوعية سليماً، تتم إبادته في الحرب الأهلية الدامية. ومع ظهور الطالبان، وهم مجموعة من مجموعات القوة منغلقة من الوجهة الإيديولوجية، يَطرأ علىٰ التطور، منذ عام 1994، تحوُّل دراماتيكيّ لم تُطْوَ صفحته حتى اليوم. ولقد حاولت، في أحاديث لا تُحصىٰ، مع الزعماء العسكريين وزعماء الأحزاب، والمثقفين، و«المستقلين»، والاتحادات النسائية، أَن أستجلي مسألة هل يمكن كسب القوى السياسيَّة التي تستأثر بالسلطة وحدها، إلىٰ جانب المصالحة، ومن المؤسف أنني لا يجوز لي أَن أفصِّل القولَ في خطط الحل المصمَّمة من قبل المثاليين، فأنا لا أرى فرصاً لتحقيق أحلام اليقظة هذه، وإِنما تتوقف المسألة علىٰ أمراء الحرب وحدهم، ولكن هؤلاء لا يميلون إِلىٰ التَّزَحْزُح عن أهدافهم القصوى إِلاَّ عندما لا يحالفهم الحظ في الحرب، وأنا لا أذهب إِلىٰ الرأي القائل إِن الطالبان يمثلون السبب الرئيسي في فساد المأساة الأَفغانية وانحطاطها. فحتى قبل ظهورهم كانت الحرب الأهلية قد هبَّت ريحها العاتية علىٰ السكَّان، علىٰ أَن العلاَّمة ربّاني، الذي يسرُّه أَن يعرب عن استعداده للسلام، لم يكن يستغل السنوات الممتدة بين عامي 1992 و1996، التي قضاها رئيساً مقيماً في كابول، لإِنشاء حكومة تضم كل الأعراق، وحتى مسعود القائد الطاجيكي الذي تلوح عليه أمارات الزعامة والذي يلقى الإِعجاب في بعض العواصم الغربية، في أيام سلطانه في شبكة من الخصومات السياسيَّة، ولم يكن

يتمتع بالمقدرة علىٰ دور وطني يتجاوز حدود الأَعْراق، ولم يكن الزعماء الأَفغان الذين لقيتهم، قادرين علىٰ سياسة ذرائعية (براغماتيّة) تلُمّ شمل الشعب بأسره في تعدُّد جوانبه الدينيَّة والعرقية. ويأبىٰ «توازن أشكال الإِحباط» الذي يستحضره السفير الأمريكي، أَن يتوقف مع تبدُّل ألوان النجاح الحربي، غير أَن هذا يعني أَن جهود وسيط الأُمم المتحدة لا تهدف إِلاَّ إِلىٰ إِقامة كواليس من أجل حرب أهلية موجهة باتجاه انتصار نهائيّ حاسم، ولا تؤثِّر علىٰ مجريات هذه الحرب. وكان أمراء الحرب الأَفغان لا يريدون السَّلام إِلاَّ بشروطهم الخاصة. غير أَن هذا كان يعني في الحقيقة: أنهم ليسوا مستعدين للسلام.

وتقرير هذا أمر بسيط. أَوَلَمْ يُؤَدِّ إِرسال وسيط الأُمم المتحدة، وإِنشاء منظمات خاصة من أجل أَفغانستان، والقرارات السنوية الصادِرة عن الجمعية العمومية، بهدوء وصمت، إِلىٰ تغذية الأرضيّة الخاصة بأمل قائم علىٰ الوهم، مؤدّاه أَنَّ الحوار بين الأحزاب ممكن التنفيذ مع الصبر والغِنىٰ بالخواطر والأفكار؟ وعندما أنتهي الآن إِلىٰ النتيجة التي تفيد أَنَّه ليس من الممكن العثور علىٰ حل وسط، لأن شرطه الأوليّ الأصلي، وهو إرادة السَّلام، مُفْتَقَد، أَوَلا يكون التصوُّر الذي تتابعه الأُمم المتحدة منذ سنين، تصوُّراً خاطِئاً؟ وما هو الشيء الذي لا بدَّ من تغييره لكي تتم ملاءمته مع الواقع؟

والجواب بسيط في الحقيقة، إذ يخطر ببالي بينما أقوم بنزهة

تفضي إِلىٰ مسجد الملك فيصل: «إذا لم يأتِ من الداخل فليأتِ من الخارج». أجل، لم يكن هناك بدٌّ أَن يأتيَ الدافع الجديد من الخارج. فمنذ أيلول 1996، عندما اقترحت، لأول مرة، مؤتمراً دولياً حول أَفغانستان، كان الخط قد سَبَق رسمه. وكانت المجموعة 19 قد تم توسيعها في هذه الأثناء بإدخال هولندا والسويد فأصبحت المجموعة 21، وتحوَّلت إِلىٰ مؤسَّسة دائمة. وعادت أَفغانستان إِلىٰ جدول الأعمال الدولي. وما عادت مجرد موضوع لقرارات تصدر في كل عام عن الجمعية العمومية. وما من شك في أَن المجموعة 21 أكبر حجماً من أَن يكون من الممكن تعبئتها من أجل عملياتها الاستراتيجية، وكانت تشلُّها التناقضات في المصالح، التي تلفت النظر في حالة العلاقة بين الهند وباكستان، وبين الولايات المتحدة ـ وإِيران علىٰ وجه الخصوص.

ولا نستطيع أَن نلغي تناقضات المصالح في هذا العالم، فمجموعة الدول التي يفترض أَن تسهم في حل المشكلة الأَفغانية لا بدّ أَن تكون أصغر إِلىٰ حد بعيد من المجموعة 21، ومنذ عهد بعيد يخطر ببالي مفهوم «البلد الرئيسي» الذي طبَّقته الأُمم المتحدة بنجاح في حالة كمبوديا، وهو يستند إِلىٰ الفكرة الأساسية، وهي أَن تبادر البلدان ذات النفوذ في الأُمم المتحدة إِلىٰ إسداء العون وتسهم في عملية السَّلام في إطار تقسيم للأعمالِ السياسيِّ. فمن عساه يرد في الحسبان بصفته «بلداً قيادِياً» في حالة أَفغانستان؟ هناك دول لا يستطيع المرء أَن يتخلى عنها مطلقاً في عملية البحث

عن السَّلام، إذا لم يكن يُرادُ للمشروع أن ينتهي إِلىٰ الإِحباط بصورة مسبقة. ومن هذه الدول باكستان وإِيران، وهما الدولتان الإِقليميّتان اللتان لهما مصالح كبيرة في أَفغانستان، ثم الولايات المتحدة وروسيا ويصح ذلك بدرجة أقل إلحاحاً علىٰ بقية جيران أَفغانستان، وهي تركمانستان وأوزبكستان وطاجكستان، والصين المرتبطة بأَفغانستان عن طريق ممر واهان. فمن تراه يرد في الحسبان بصفته «البلد القائد»، المؤهَّل لحل المشكلة من دون مقاومة الآخرين؟

علىٰ أن محاولة الخروج بفكرة بارعة مفاجئة مع العاملين معي لا تحقِّق تقدُّماً، والحق أن المقترحات تنهمر من كل صوب، كالبَرَد، غير أنها لا تقنعني، ولا يستوعب فكرتي إِلاَّ الروسيّ كابولوف: لا بدَّ من تشكيل مجموعة من البلدان المهتمة ومتابعة دفع مبادرة الأُمم المتحدة بمساندتها، ثم إن حواراً مع المبعوث الأمريكي، هولتسمن لا يساعدني علىٰ التقدم، فبالنسبة إليه ليس هناك مجال لروسيا وإِيران في التصوُّر الخاص بأَفغانستان.

وفي الثالث من نيسان أصمّم مشروعاً في ورقة أقترح فيها علىٰ الأمين العام تصوُّراً خاصاً بـ «بلد قيادي» من أجل أَفغانستان، ويدخل في هذا الاعتبار الولايات المتحدة وروسيا، إذ يفترض فيهما أن يتصرَّفا بتكليف من الأعضاء الدائمين في مجلس الأَمن، ولا بدَّ من اتخاذ إجراءات فورية معينة بالتفاهم مع «البلدين القياديَّيْن»، ولا بدَّ من وقف توريدات السلاح الأجنبية (وبالتالي

إنهاؤها)، وإقامة حَجْر صحي (Cordon Sanitaire) بين القوات المتحاربة. وأحاول دحض الحجج التي تساق ضد حظر على الأسلحة، وأقول إن الأَفغان قد كدَّسوا مثل هذه المخزونات الهائلة من الأسلحة على أساس أن يتمكنوا من خوض الحرب على مدى سنين حتى في حالة الحظر على الأسلحة. ويُرَدُّ على هذا بأن أنظمة الأسلحة الحديثة سرعان ما يعتريها التقادُم، ولا سيما حين يتمُّ تخزينها في شروط مناخية صعبة، ويُتَرَبَّصُ بها على نحو غير سديد أَو موضوعي. وعلى كل حال فإن التجربة تكشف عن أن الأحزاب المتحاربة لا تستهلك «المخزونات»، بل تتلقى على الدوام إمدادات جديدة من الخارج، كما يُعْتَرَض أيضاً بأن الالتزام بحظر الأسلحة لا يمكن ضبطه ومراقبته بسبب بُعْد البلاد وطول الحدود مع باكستان (وإِيران)، ويُرَد على هذا بأنه لا يتوافر إِلاَّ القليل من المطارات في أَفغانستان التي تبلغ من الضخامة ما يكفي لخدمة طائرات النقل، وأن عدد المعابر الحدودية التي يمكن نقل المعدات الثقيلة عليها محدود أيضاً. وكما قلت ذات مرة، بين الجدّ والهزل: سوف يكفي وضع مائة مفتش إِيراني على طول الحدود الباكستانية ومائة مفتش باكستاني على الحدود الإِيرانية. وأَكتب في ورقتي أن فكرة حظر الأسلحة لا تعد خاطئة بموجب هذا، بل يجب مجرد مراقبة خمسين إِلى ستين نقطة من نقاط العبور بحزم ومثابرة. وسوف «تموت» الاشتباكات عاجلاً أَو آجلاً من جراء الافتقار إِلى الإِمداد. على أن هذا الأثر يزداد قوة، عندما

يتم فرض حظر علىٰ الوقود، وسيتم شلُّ الطائرات المقاتلة والمدرَّعات وسيارات الشحن خلال أيام.

وفي 4 نيسان 1997 أطير مع كابولوف إلىٰ دلهي، والهند تُحَضِّر لمؤتمر لوزراء خارجيَّة دول عدم الانحياز. وقد دُعي إليه الأمين العام، وكنت قد التمست من نيويورك الترتيب للقاء مع عنان، ووافق هذا، وأربط إقامتي في العاصمة الهندية بمشاورات ثنائية، وحتى الهند العملاقة مهتمة بالتطور الذي يجري في أَفغانستان، من أجل مجرد أقلية هندية ضئيلة تعيش في كابول. وقد أرغمت بعد سنوات، من قبل الطالبان، علىٰ أَن تحمل، علىٰ ثيابها شارة تكون علامة علىٰ انتمائها إلىٰ الديانة الهندوسية، وقد تمَّ تمويل مستشفى في العاصمة الأَفغانية من قبل الهند، وهو يحمل اسم انديرا غاندي رئيسة الوزراء السابقة. أمّا أَن هناك دوافع استراتيجية تدخل في اللعبة أيضاً، وأن أَفغانستان قد خُصِّص لها موقع في المواجهة بين الهند وباكستان، فذلك ما تجادل فيه الهند وتُماري. وتتوافر إشارات إلىٰ أَن الطيارين المقاتلين في صفوف تحالف الشمال يتم تدريبهم في الهند. ويظل الطالبان يشكون مما يُقال عن تدخُل الهنود. وحين علم الباكستانيون ـ إذ وُجِد، مجدداً، موضع معرَّض للارتشاح والتسرُّب ـ، أنني أزمع إجراء مشاورات في دلهي، يحتجّ السفير الباكستاني لدى الأُمم المتحدة، كمال، لدى الأمين العام، وعلىٰ أثر ذلك اضطر إلىٰ اختصار إقامتي في يامونا إلىٰ مدة 24 ساعة.

وبعد إِجراء أحاديث مع وزير الدولة في وزارة الخارجيَّة الهندية، سلمان حيدر، ورئيس مكتب رئيس الوزراء، ساتيش شاندرا القائم بأعمال رئيس الوزراء، ألتقي بكوفي عنان في السابع من نيسان، وقد سافر مع وفد صغير إِلىٰ دلهي، وكان يرافقه ديساي، وكيل الأمين العام الهندي، والناطق الصحفي فريد إِيكهارت، والمستشار الشخصي الذكي، ساشي طارور، وهو هندي أيضاً. ولأول مرة أقرأ علىٰ الأمين العام تقريري حول أَفغانستان، ويصغي إِليَّ باهتمام، ويطرح أسئلة الخبير المطَّلع، ومن الممكن أَن تلاحظ عليه الخبرة الكبيرة التي هي حصيلة ثلاثين عاماً من العمل في جهاز الأُمم المتحدة، علىٰ وجه السرعة.

وأُصَوِّر الوضع من غير تزويق، وأقول إِن الأُمم المتحدة لا بد لها أَن تكون مهيَّأة لاحتمال أَن يغزو الطالبان خلال وقت قصير، القسم الأكبر من أَفغانستان، إِن لم يغزوا أَفغانستان كلها، علىٰ أَن الاستيلاء العسكري علىٰ البلد لا يحل مشكلاتها السياسيَّة، أي أَن «مشكلة المشروعية»، أي مسألة من يحق له التحدُّث باسم أَفغانستان في الجمعية العمومية، ستظل في يد الأُمم المتحدة. وسوف يحوِّل العلاَّمة ربّاني مقر حكومته إِلىٰ الخارج، فإِمّا إِلىٰ إِيران وإِمّا إِلىٰ طاجكستان، أما أحمد شاه مسعود فسوف يستأنف حرب العصابات ضد الطالبان من وادي بانجير، ومن قاعدته الطاجيكية، ولن تقف جمهوريات آسيا الوسطى وروسيا يتفرَّجن

مكتوفاتِ الأيدي عندما يتقدم القندهاريّون إِلىٰ نهر آموداريا، إِذ يَرَيْنَ في الطالبان ما يُعَرِّض أَمْنَهن الداخلي الخاص للخطر، ولن يعترفن بحكومتهم علىٰ الأرجح أبداً. وقبل ثلاثة أيام، أي في الرابع من نيسان، التقى الأعضاء الدائمون الخمسة في مجلس الأَمن، بناء علىٰ اقتراح روسيّ، في نيويورك، وفي هذا اللقاء طالبت موسكو الدائمين الخمسة بأن يعبِّروا، في تصريح مشترك، عن قلقهم حيال التطور الذي يحدث في أَفغانستان، غير أنها لم تحقِّق ما هدفت إِليه. وأوصى الباقون الأربعة، بدلاً من ذلك بالانتظار أولاً إِلىٰ أَن يصل تقريري الثاني إِلىٰ مجموعة الواحد والعشرين. (وهذه التفاصيل غير معروفة عند الأمين العاَم، كما ألاحظ). وأعرب عن تخوُّفي من أَن تخفق جهود المفاوضين المختلفين لدى الأُمم المتحدة في أَفغانستان، من جراء عدم تبصُّر الأحزاب. وكان أمراء الحرب يفضلون النصر اليومي القصير الأجل علىٰ توطيد السَّلام الطويل الأجل في البلاد، وأقول إِن هذا لن يتغيَّر في المستقبل أيضاً، وإِن الطالبان، علىٰ وجه الخصوص، ما عادوا مستعدين للتفاوض منذ إِحراز ألوان نجاحهم العسكري الأخيرة، ولذلك فلا بدَّ للأُمم المتحدة أَن تعدِّل تصرُّفها، ولمّا كانت المبادرة الواردة «من الداخل» لا تَعِدُ بنجاح خلال وقت غير بعيد فلا بد للمشكلة الأَفغانية من أَن تُعالَج «من الخارج». ومن أجل ذلك تمسّ الحاجة إِلىٰ صيغة يجب تحديدها بعدُ، للتعاون الدوليّ، وأختم بقولي إِن الخطوة الأولى هي أَنَّه ينبغي لنا أَن

نحاول أَن نكسب إِلىٰ جانبنا الولايات المتحدة وروسيا ليكونا «بلدين قياديين»، ونفرض الإِجراءات اللازمة بمعونتهما وهذا يقتضي حظراً للسلاح وحظراً للوقود.

ولا يعترض عنان، غير أنّه لا يوافق، وينصح لي بأن أُعَمِّق الموضوع في نيويورك مع بريندرجاست، ثم إِنّه يريد أَن يعرف هل ينبغي مساندة «البلدين القياديَّيْن» من قبل مجموعة بلدان محدَّدة (مجموعة دعم). وأعرب عن موافقتي، غير أني أشير بوجه خاص إِلىٰ أَن باكستان وإِيران اللتين هما أول مجموعة بلدان كهذه ترد في الاعتبار، تتابعان في أَفغانستان مصالح متباينة. وهذا يمكن أَن يحدث تأثيراً سلبياً علىٰ عمل مجموعة البلدان. وينصح الأمين العام بالتبصّر والتعقُّل في التعامل مع الأحزاب الأَفغانية، ويقول إِننا لا يجوز لنا أَن نستثير ردود الأفعال السلبيَّة من قبل الطالبان، إِذ إِنهم ليسوا علىٰ استعداد لأن يدعوا الأُمم المتحدة تخطف ثمار انتصارهم بالمساومة وأذكِّر بقرارات الجمعية العمومية التي كانت تلزمني بالتفاوض مع كل الأحزاب، لا مع الطالبان فحسب، ويرد عنان بأن القرارات لا بدَّ أَن تُفَسَّر تفسيراً ذرائعياً (براغماتياً) ويستغرق الحوار أربعين دقيقة، ويصافحني العاملون مع عنان ويتمنّون لي التوفيق، ويودِّعني الأمين العام بمودَّة وتَلَطُّف.

وبعد يومين أطير إِلىٰ نيويورك، ومرة أُخرى أقرأ علىٰ مجلس الأَمن تقريري، ويظل الوضع في أَفغانستان متوتراً. وقد نشبت الاشتباكات لأول مرة في باجّيز بين دُسْتُم والطالبان، حين حاول هؤلاء الاستيلاء علىٰ العاصمة الإِقليمية، قلعة إِيناو، والإِغارة علىٰ

الإِقليم المجاور الواقع في الشمال، فارياب. وبذلك يتمّ التعرّف علىٰ استراتيجيّة الطالبان، وهي مهاجمة معقل دُسْتُم، مزار الشريف في حركة كماشة من الغرب والجنوب الشرقي. وعندما أهتف إِلىٰ أوكيلو في إِسلام آباد، أعرف ما فاجأني، وهو أَن المفاوض الباكستاني الجديد، مُرْشِد، اقترح، أثناء مشاورات في موسكو، مؤتمراً حول أَفغانستان في إِسلام آباد، وكنت تحدثت إِلىٰ مرشد أيضاً في يوم إِقلاع طائرتي من دون أَن يفصح لي عن رغبته. ومرة أُخرى تطلق باكستان مبادرة من دون أَن تنسِّق مع الأُمم المتحدة، وهذا برهان متجدِّد علىٰ ضرورة إِدخال باكستان في إِطار تعاونٍ دولي.

وألتقي ببريندرجاست مرتين، وهو الذي يمارس وظيفة مساعِد الأمين العام الجديد للشؤون السياسيَّة. والآن ألقاه للمرة الأولى، ويجري الحديث في غير تلطُّف، ولا يتوفّر لدي انطباع يوحي بأنني بعثت الحماسة لدى هذا البريطاني لصالح مفهوم «البلد القيادي»، ويسألني أحد العاملين معنا، ألا ينبغي بعث الحياة في مفهوم «أصدقاء أَفغانستان» بصفتهم هيئة. ويفهم المرء من مصطلح الأصدقاء هذا مجموعة من الدول الخمس (الولايات المتحدة، وروسيا، وباكستان، وإِيران، والخليج)، الذين كانوا يقدمون المشورة في الماضي للأمين العام في بعض الأحيان، ومع ذلك فلمّا كان معظم الأَفغان يشكّون في حياد هذه المجموعة، ولا ينظرون إِلىٰ هذا البلد أَو غيره نظرتهم إِلىٰ «صديق لأَفغانستان» فقد

دخلت هذه الهيئة في إِطار عدم الثقة، وما عاد يتم استدعاؤها منذ زمن طويل، وأُحَذِّر من إِعادة النشاط إِلىٰ هذه المجموعة الآن، ويقول بريندرجاست متشكِّكاً أنّه ليس من شأن الأمين العام أَن يبحث عن البلدان الراغبة في التعاون، بل تتمثَّل مهمته بالأحرى في التقدُّم بمقترحات إِلىٰ الأمانة العامة، وأشعر بخيبة الأمل، ونتفق علىٰ مزيد من الحوار.

وفي هذه الأثناء أرى جولدنج مرة أُخرى. ويقعد الرجل الذي كان في ماضي الأيام قوياً في «حجرة خلفية»، وما عادت له سكرتيرة، ويظل هاتفه صامتاً، وقد كلّفه الأمين العام الجديد بالمشاركة في دراسة من أجل تحسين فعالية الأمانة العامة، لقد صفا مزاج جولدنج. واعتباراً من آب سوف يصبح «ناظر» كلية سانت أنطوني المرموقة السمعة في أوكسفورد وخليفة الألماني، رالف دارِندورف، وأُحَدِّث جولدنج عن فكرتي الخاصة بـ «البلد القيادي»، وأُوَدِّع هذا الرجل الودود وداعاً لا يخلو من انفعال داخلي، وهو الذي لعب أهم الأدوار بالقياس إِليَّ وإِلىٰ عملي في الأُمم المتحدة، بلا ريب.

ثم يكون حديث وداعيّ مع بريندرجاست، الذي يبدو الآن أكثر انفتاحاً، ربما لأن جولدنج كان تحدث إِليه في هذه الأثناء، ويوافق علىٰ اقتراحي أَن نقوم في واشنطن ولندن بعملية جس نبض بصدد مفهومي عن «البلد القيادي»، وهو أيضاً موافق علىٰ أَن أقوم في روما، بزيارة للملك السابق ظاهر شاه، لأستطلع إِمكانية أَن

يكون هذا الشيخ الطاعن في السن ما زال مستعداً ليلعب دوراً من أجل توطيد السَّلام في أَفغانستان.

ومهما يكن من أمر النتائج التي سوف تسفر عنها هذه المشاورات، فقد تمَّ، في تلك الأيام التي بتنا اليوم نخلِّفها بعيداً وراءنا، من نيسان 1997، التوجيه الجديد في إِطار جهود الأُمم المتحدة، ويتم ترويج هذا المفهوم، أوَّل ما يتم، بعد صعوبات بالغة في الشروع والتحفُّز، وهذا يحتاج أيضاً إِلىٰ تغييرات شخصية. ففي طهران يتولى الرئاسة رئيس جديد للدولة منذ عام 1997، وهو خاتمي الذي يُعَدُّ معتدلاً، وفي واشنطن تتولى مادلين أولبرايت المطَّلعة علىٰ ملفّ أَفغانستان من جراء نشاطها بحكم كونها سفيرة أمريكية لدى الأُمم المتحدة، بكل تفاصيله، وزارة خارجيَّة الولايات المتحدة. كما يجدر أيضاً ذكر تعيين رئيس جديد لقسم جنوبي آسيا، وهو كارل ف. إِندرفورت، الجَمُّ النشاط والحيوية، الذي كان منذ وقت طويل يتمتع بمعرفة وثيقة بأَفغانستان، وكان يراقبها وهو صحفي منذ أيام الجهاد، وبهذه التبدُّلات الشخصية تَتَحسَّن الشروط الأولية اللازمة من أجل تعاون دولي. وفي عهد خليفتي، المفوَّض الخاص الجزائري، ووزير الخارجيَّة السابق، الإِبراهيمي، يتمّ القيام بعملية شروع وتَحَفُّز مفعمة بالحيوية، من أجل تشكيل ائتلاف دولي لمساندة الأُمم المتحدة. وسوف يجري الحديث، عن هذا المفهوم، أي مفهوم «مجموعة 6 + 2»، وإِخفاقه في النهاية الأخيرة، فيما بعد.

14

الطالبان

لقد تحوَّل الطالبان، منذ غزو كابول، في نهاية أيلول 1996، وتقدُّمهم إِلىٰ شماليّ أَفغانستان إِلىٰ عامل قوة حاسم في أَفغانستان، علىٰ أَن ما كان لا بدّ أَن يزيد في مفاجأتنا أنهم ظلوا بعد ذلك ماكثين في عزلة دولية كاملة، وكان يبدو أيضاً أنهم يعملون جاهدين علىٰ أَن لا يتيحوا للعالم الخارجي نظرة في بُناهم الخاصة بالحسم والأمر. ونتيجة لتحريم الإِسلام للصور الذي يُفَسَّر تفسيراً متطرفاً ظلت صور زعماء الطالبان لا تتوافر زمناً طويلاً، ولم تصل صورهم الفوتوغرافية إِلىٰ أرشيف الصحف وإِرساليات الأخبار الخاصة بالمحطات التلفزيونية إِلاَّ عندما كثرت حالات احتكاكهم بالعالم الخارجي.

ولا تتوافر حتى اليوم صورة يوثق بها، علىٰ وجه الخصوص لِـ «الزعيم الروحي والسياسي» للطالبان، الذي سمي، منذ نيسان 1996، «أمير المؤمنين»، وهو الملاّ محمَّد عمر. ولم يتحرك هذا

obeikandl.com

خارج أَفغانستان أبداً، علىٰ قدر ما أعلم، وفي السنوات الأخيرة لم يغادر حتى قندهار، معقله. وكان علىٰ الدوام يرسل رئيس وزرائه، الملاّ ربّاني عمر، إِلىٰ المؤتمرات الدولية، حتى في البلد الذي يرتبط معه بعلاقات صداقة، أي إِسلام آباد، ولم يستقبلني الملاّ عمر، ولا استقبل سلفي أيضاً. ويقال إِن هذا أمارة علىٰ الاحتجاج، لأن الأُمم المتحدة تجادل في منحه مقعد بلاده في الجمعية العمومية، وحتى ذلك الذي خَلَفَني، وهو الإِبراهيمي، مفوَّض أَفغانستان، لم يكن يستقبل من قبل عمر. وحين لاح في الأفق خطر يهدد بوقوع صدام بين الطالبان وجارتها إِيران، علىٰ الحدود، وحدث حشد كبير للقوات، هنالك فحسب، دعا «أمير المؤمنين» الدبلوماسيَّ الجزائري إِلىٰ قندهار والتمس منه القيام بدور الوسيط بينه وبين طهران. ولما كانت المشاهد الجماهيرية للقيادة المألوفة في أنظمة الحكم الشمولية (التوتاليتارية)، وألوان مخاطبة السكَّان، وما شاكل ذلك من تصوير النفس غير مألوف عند الطالبان أيضاً، فقد نجم عن ذلك الموقفُ الفريد من نوعه، بل ربما كان الموقف الذي لا يتكرَّر أبداً، وهو بقاء صورة قيادتهم هم غير معروفة عندهم، ومقدرة هؤلاء علىٰ التحرك بين صفوف شعبهم غير معروفين بطريقة تماثل إِلىٰ حد ما طريقة هارون الرشيد سابقاً، ولا يسمع في الإِذاعة إِلاَّ صوت ملاّ عمر من حين إِلىٰ آخر في المقابلات الإِذاعية وما عداها من التصريحات، وحين تحاول، في نهاية تشرين الثاني، عام 2001، قوات نخبة أمريكية، أَن

تمسك بزعيم الطالبان، ورفاق طريقه الأقربين يثبت فقدان الوجه عندهم، علىٰ نحو غير متوقع، أَنَّه مزية كبرى: وذلك أَنَّه لـمّا كانت لا تتوافر صور لهم، فإِن في وسعهم أَن يتوارَوْا في قلب الجمهور، ويفلتوا من إمكانية اعتقالهم فترة من الزمن، وفي الحقيقة لا يمكن كشفهم إِلاَّ بطريق الخيانة.

وكذلك لا يمكن تمييز ملامحهم السياسية، إذ لا يوجد بيان سياسي لحركة الطالبان، ولا برنامج عمل، ولا سجلّ للإِجراءات التي يترتَّب الطموح إليها في مضمار السياسة الخارجيَّة والاقتصادية والاجتماعية، إذا صرفنا النظر عن استحضار المُثُل التي يقال إنها إِسلامية، وقد ظلت البُنىٰ الإِيديولوجية، علىٰ قدر ما تتجاوز إعلان المسلَّمات التي يقال إنها دينيَّة، غير ذات وجه في كل سياقٍ لها.

ويزيد من ذلك أَن الطالبان كانت تكتنفهم الأسرار، وكانوا موضوعاً للتخمينات، وهم يحدثون في أتباعهم وبين صفوف المعجبين بهم افتتاناً، والدول الإِسلامية المعتدلة والدول الغربية تنظر إليهم باشمئزاز. وذلك أَن وعي الرسالة الدينيَّة عندهم، وخفاء قيادتهم، واستغلاق البُنىٰ الخاصة باتخاذ القرار وإصدار الأوامر، وفي الوقت نفسه مظهرهم المنغلق باتجاه الخارج، كل هذا أضفى عليهم مظهر نِحْلة دينية أَو اتحاد سري يظهر في صورة حزب سياسيّ، وقد بعث سلوك قيادة الطالبان تجاههم في الغرب مظهراً يوحي بأن هذه القيادة كانت تُقِرّ علىٰ وجه الإِطلاق هالة

الإعجاب التي تكتنفها الأسرار علىٰ الرغم من ادعائها الحق الذي ينطوي على الاعتراف بالدِّين.

ولم يقتصر هذا علىٰ دوافعهم وأهدافهم اللاحقة، إذ يكتنف أصلَهم ذاته الغموضُ، وتفيد النظرة التي تنظرها جهات عديدة في الغرب أنهم من صنع باكستان ووزير الداخليَّة السابق، اللواء نصر الله بابار، وأنهم أدَّوْا، إلىٰ أجل قصير خدمة للهدف المتمثل في فتح طريق اتصال يفضي إلىٰ آسيا الوسطى، ويمكِّن من تمديد أنابيب غاز من تركمانستان، وربما يمكِّن، فيما بعد أيضاً، من بناء خط حديدي يصل إلىٰ آسيا الوسطى (لا وجود له حتى اليوم)، مثلما يمكِّن، خلال أجل طويل، من بلوغ هدف يتمثَّل في إنشاء نظام حكم صديق لها يرفع عن كاهل باكستان القلق من إمكان التعرُّض، في حالة اشتباك لها مع الهند، لحرب ذات جبهتين. وكان يفترض في أفغانستان أن تؤمِّن لباكستان التي تعاني من سوء وضعها الجغرافي، بأرضها الضيِّقة، من أجل الحالة القصوى، العمق الاستراتيجي، كما كان يفترض أيضاً، بفضل نظام الحكم الصديق هذا أن تفقِد متلازمة بشتونِستان دلالتها اللاعقلانية والخطيرة بالنسبة لباكستان.

علىٰ أن المدافعين عن هذه الأطروحة يربطون «فصل ميلاد» حركة الطالبان بحدث جرى في مستهل تشرين الثاني عام 1994، في قندهار، مدينة الملكيين البشتونية القديمة، وكانت الحرب الأهلية قد ألحقت بها أضراراً شديدة. وكانت منطقة المدينة

مقسَّمة بين مناطق نفوذ لقادة عسكريين مختلفين يحكمون حكماً تعسُّفياً، ويغطّون قندهار بنظام قائم علىٰ الفساد والقضاء المبني علىٰ العقوبات والغرامات جعل حياة السكّان تكاد تكون مستحيلة، وكما يُقال فإن الوضع ازدادت حدته في تلك الأيام ووصل إلىٰ درجة حرجة عندما تمَّ وَقْفُ قافلة من السيارات الباكستانية محملة بمواد الإغاثة في طريقها إلىٰ تركمانستان من قبل قائد محلّيّ يدعى أمير لالاي. وبعد العديد من أيام التفاوض بغير نتيجة زحف بضع مئات من الشباب والفتيان بقيادة الملاّ عمر الذي كان غير معروف حتى الآن من أماكن شامان وسْبين بولداك، وحرَّروا القافلة، وقضَوا علىٰ نظام القائد البغيض، وفي الواقع صاغ وزير الخارجيَّة الباكستاني في تلك الأيام، سردار آصف علي، الكلمة التي لم يفكِّر فيها مَلِيّاً، وهي قوله: «الطالبان فتياننا»، كلمة مبتدعة وجدت طريقها إلىٰ وكالات الأنباء، دونما تأخير. ولم يكن أقلَّ من ذلك إحراجاً ما تردَّد صداه في فم بابار فيما بعد، وهو الذي قال عن نفسه في حديث له معي ومع آخرين، بأسلوب ساخر، إنه هو الذي أنجب الطالبان.

ولتدعيم هذه الأطروحة التي يستنتج منها أَن نشوء الطالبان كان يتم توجيهه عن بُعْد من قبل باكستان، يُشار بعد ذلك إلىٰ أَن بابار سافر، منذ تشرين الأول 1994، أي قبل شهر من ثورة الطالبان المزعومة، بالاشتراك مع بعض السفراء الغربيين، وفيهم ممثِّل للبعثة الأمريكية، إلىٰ قندهار وهراة، وكان يدخل في الوفد

أيضاً كبار موظفي الوزارات الباكستانية، ووزارة الخطوط الحديديَّة، وإنشاء الطرق، والمواصلات، وشركة الطيران الباكستانية (PIA). وفي هذه الرحلة اقترح بابار تقديم قرض مقداره 300 مليون دولار أمريكي لإصلاح الطريق البعيد الذي يمتد من كويتا إلىٰ هراة، من جديد. وبنشوء الطالبان تمَّ بُعَيْد ذلك تحقيق الشروط الأولية السياسيَّة اللازمة من أجل إعادة تأهيل الاتصالات الهامة. علىٰ أَن غزو هراة، المدينة الواقعة في غربي أَفغانستان، في الخامس من أيلول 1995، وهو أول نجاح عسكري للطالبان، شكَّل مرحلة أخرى علىٰ الطريق إلىٰ إنشاء صلة بين باكستان وآسية الوسطى عبر جنوبي أَفغانستان، وكان خصوم الطالبان علىٰ يقين من أَن المخابرات الباكستانية (ISI) ساندت هذه العملية.

وقد كان خليقاً أَن يكون من الخطأ أَن لا نرى الطالبان إلاَّ وهم يسيرون بمعونة حزام الأطفال الذي تمدُّه إليهم المخابرات الباكستانية. ولقد تبقَّى في ذاكرتي من محادثاتي مع الأصدقاء الباكستانيين كيف كانت وزارة الخارجيَّة في إسلام آباد تعود أدراجها من المفاوضات مع الطالبان المعاندين في كثير من الأحيان وهي لا تدري ما تصنع، ذلك لأن القندهاريين كانوا قد تعلَّموا علىٰ وجه السرعة كيف يربطون أنفسهم بشبكة كثيفة من العلاقات مع المراكز المختلفة في جهاز الدولة الباكستاني، شملت، إلىٰ جانب المخابرات الباكستانية، والحكومة والجيش، الأحزاب المختلفة علىٰ حِدة، ولا سيما الحزب الإسلامي (جمعية

علماء الإِسلام) بزعامة قائدها مولانا فضل الرحمن (وهي التي خرجت في تشرين الأول 2001، بمظاهرات معادية للأمريكيين)، وحكومات أقاليم بلوجستان، وحكومة الإِقليم الحدودي الشمالي الغربي، أَو مافيا النقل في كويتا وبيشاور. ولم يدخل الطالبان أبداً في التبعية لعزّاب واحد بذاته، ولم يكونوا يتردّدون، في حالة الحاجة، في حمل قوى متباينة علىٰ أَن يلعب بعضها ضد بعض. ويجب أَن ندخل في الحسبان أيضاً أَنَّه منذ أَن تمَّ رسم خط دوراند في القرن التاسع عشر يعيش الملايين من البشتون في باكستان الحالية، ويتقلَّد جزء منهم هناك مناصب حكومية رفيعة ومنهم رئيس أركان الجيش ذو النفوذ الواسع، وهو الجنرال عبد الواحد، في أيام الرئيس ليغاري، الذي ربما كان في أيامه أهم رجل في الدولة، أَو رئيس مصلحة مقاومة التجسس، الجنرال لوتينانت علي قولي خان، وكان هذان من البشتون من الناحية العِرْقية. ويكاد المرء يستطيع أَن يتحدَّث عن «انعدام الجذور» السياسيَّة والاجتماعية للطالبان، عندما يتأمّل المرء الطلاقة والعفوية التي يروحون بها ويجيئون، لأسباب تكتيكيَّة، بين المؤسَّسات الباكستانية المختلفة وعبر دولتين متجاورتين.

ومع ذلك فالجذور الفكرية لحركة الطالبان أعمق مما تكون عليه مثل هذه الجذور في حركة سطحية تتحكّم فيها الانتهازية السياسيَّة، والتطابق المؤقت العابر في الأهداف الذي ترجع إِليه المكابدة والتحمُّل من جانب باكستان. وذلك أَن الطالبان الذين

هم، من وجوه عديدة أبناء لاجئين أَفغان من حركة الجهاد، اكتسبوا نظرتهم إِلىٰ العالم في مدارس أصولية تأثّرت بجمعية علماء الإِسلام، المجموعة المتشظية من تيار سيبا وساهابا (SSP) وتيارات مماثلة، وهنا كان يتمّ تعريفهم علىٰ أفكار الديوباندية الإِصلاحية المتطرفة، وهي مدرسة في التفكير نشأت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتأثير مسلمين من شماليّ الهند. وكان أتباع الديوباندية أنفسهم يقفون موقفاً مضاداً للدور السياسي أَو الاجتماعي للمرأة، بل مناوئاً للتقدم التقني بوجه عام، ويقفون من الشيعة موقف الرافض الفظّ. ويمكن أَن نلمس آثار الصلات الفكرية، وكانت تسود عند أهل الديوباندية تيارات اجتماعية متطرفة وتيارات فكرية مبنيّة علىٰ المساواة نعود لنجدها عند الطالبان.

ومما يلفت النظر عند الطالبان خروجهم علىٰ التفكير القَبَلِيّ التقليدي، وسوء ظنهم بـ«المالك» أَو رئيس العشيرة. وكان قال، أثناء نشاطي في أَفغانستان، من قبل ممثلي تحالف الشمال، إِن الطالبان واقعون تحت ضغط شديد من جانب القبائل القندهارية التي تريد أَن تستردّ أولادها المأسورين من قبل تحالف الشمال بالابتزاز، واستنتج تحالف الشمال من هذا التحليل أَن الطالبان لا بدّ أَن يكون لديهم اهتمام شديد في نهاية الأمر بتبادل الأسرى، ولكن هذا التحليل كان خادعاً. ولم أقرر وجود علائم فعلية علىٰ حدوث اللّين عند الطالبان إِلاَّ في تشرين الثاني 1997، حين أتيح

للأونسما، علىٰ أساس مجمل الظروف الملائمة، أَن تُبادِل المئات من الأسرى بين أمراء الحرب، في عملية خاطفة. وبغضّ النظر عن هذا الحدث كان الطالبان يظهرون مقاومتهم للضغط حيال كبار الأسر القندهارية، بكل طريقة، ولم أشهد أنا أيضاً وجود مشاركة من ممثلي القبائل إِلىٰ جانب أعضاء مجلس شورى الطالبان، أثناء مفاوضاتي.

ومما يتماشى مع هذه البَدَهية عند الطالبان أَنَّه لم يُقْبَل زعيم قبليٌّ من البشتون في القيادة العليا. كما يلفت النظر الاقتصار علىٰ القندهاريين إِلىٰ حد بعيد في جهاز التوجيه في الدولة، أي علىٰ ممثلي البشتون الدُّرّاني المستقرين في جنوب وغرب أَفغانستان، علىٰ حين لا يكاد يوجد في مجلس الشورى أحد من القبائل التي تستوطن وسط أَفغانستان وشمال شرقيّها، مثل بشتون الجيلزاي الذين علقت باكستان عليهم أملها أثناء الجهاد، ثم إِنّ مما يصدم العين أَنَّه لم يكن يُسْمَح بأن يدخل مجلس الشورى المكوَّن من ستة أعضاء، الذي تتكوَّن منه الحكومة في كابول، أحد من المستقرين في المكان، أي من البشتون ذوي الأصل الكابولي، وعن طريق توكيد العنصر الخارجي، القندهاري، كان يتم أيضاً إِظهار الجانب المذهبي باتجاه الداخل أيضاً، في الحركة. وإِذاً فالإِشارة إِلىٰ الطالبان علىٰ أنهم ميليشيا بشتونية ببساطة فيها تفريط كبير، مثل الأطروحة الشائعة التي تقول إِنهم صنيعة باكستان، والجنرال بابار.

وقد كذَّبت الحكومة الباكستانية بالطبع، المرة بعد الأُخرى أَن تكون لها صلة بنشوء حركة الطالبان. علىٰ أنّ وزير الداخليَّة بابار، الذي التقيتُ به مراراً حتى تاريخ إِعفائه في تشرين الثاني 1996 وترأَس، كما وصفنا، قُبَيل ذلك في مزار الشريف، محادثات كل الأحزاب، أعرب عمّا في نفسه إِعراباً يحتمل أكثر من معنى، وربما كان ذلك أيضاً علىٰ نحو لا يخلو من الاغتباط الشخصي. والحق أَنَّه جادل وماریٰ في أَن يكون نَظَّم الطالبان وساندهم عسكرياً، غير أَنَّه سكت مع ذلك، عن الإِشارة إِليه بأنه «أبو الطالبان»، كما أعرب، علىٰ النحو ذاته، عما في نفسه مراراً، ومثال ذلك، قبل غزو كابول في أيلول 1996، في بُعْدِ نظر يبعث علىٰ الدهشة، حيال مخططات الطالبان المكتومة. وما من شك أَنَّه قد اتّضح من كلامه أَن إِسلام آباد تساهلت في أمر تدفُّق الآلاف من الباكستانيين ذوي الأصل البشتوني علىٰ أَفغانستان ليشاركوا في القتال ضد تحالف الشمال، إِنْ لم تكن شجعت ذلك. وبالطبع لم يمكن أبداً إِيراد دليل علىٰ أَن القوات الباكستانية النظامية شاركت في الاشتباكات في البلد المجاور، علىٰ الرغم من أنّ العاملين معي في الأونسما، وأنا، زرنا من يُسَمَّوْن «الأسرى الباكستانيين» لدى تحالف الشمال وتحدثنا إِليهم. علىٰ أَن إِمكانات التدخّل بصورة أكثر صراحة وأكثر فعالية علىٰ النحو ذاته كانت، بالنظر إِلىٰ الهوية العرقية والثقافية للسكّان، في كلا البلدين، وإِمكانية الخلط بين الواحد وصاحبه من وجهة سيماء الوجوه، وحتى بالنسبة لِزِيّ

الملابس، غير محدودة تقريباً، وبالمناسبة فإن باكستان لم تُخْفِ أنها شجعت صعود نجم تلاميذ مدارس القرآن سياسياً ومادياً منذ البداية. أمّا أن إسلام آباد كانت أول بلد يعترف بحكومة الطالبان في المعمورة عام 1997، فذلك لم يكن سوى النتيجة الرسمية لسياسة كان يجري اتباعها منذ عهد بعيد.

وقد كان الطالبان يحدثونني في كل جولة من جولات المفاوضات، بحماسة المُبَشِّرين عن نشوء حركتهم ولا يعرضون عليّ في هذا الصدد، بالطبع، سوى نظرتهم. وكان من الطقوس الثابتة في محادثاتنا أَن لا يدخل مُضيفِيَّ أول الأمر في حديث عن مقترحاتي ويفصّلوا القول فيها، بل كانوا يُذَكِّرونني، بنظرة إِلىٰ الوراء علىٰ نشوء ميليشيا الطالبان، بالرسالة التي يتحدَّثون عنها، والتي عهد بها عبد الله إِليهم وإِلىٰ الشعب الأَفغاني، والتي يتميَّزون بها من محيط سائر الأحزاب «العلمانية» المتحاربة، وكانوا في هذا الصدد يؤكدون علىٰ الدوام أنهم لم ينشأوا، أَوَّل ما نشأوا، عام 1994، بل يرجع وجودهم إِلىٰ أيام الجهاد، أي «الحرب المقدسة» ضد الاتحاد السوفييتي، وفي إِطار طموحهم إِلىٰ إِضفاء الشرعية، كانوا يبحثون عن هذه الشرعية في محك الاختبار الذي هو ديني بمقدار ما هو وطني، وهو الاختبار علىٰ مِحكّ العدو اللاإِسلامي، عدو كل الأَفغان، لا في حادث عابر، مثل حادث قندهار الذي نجم عن الخصومات الدنيئة المتصلة بالحرب الأهلية.

وقد أكّد لي خصوم الطالبان، مثل ممثلي تحالف الشمال ذوي المراتب العالية، الذين تفاوضت معهم في منتصف التسعينات، في كثير من الأحيان أن الطالبان كانوا موجودين منذ أيام الكفاح ضد الدخلاء السوڤييت، غير أنهم لم يكونوا يظهرون، بالطبع، في صورة فصائل القتال المنغلقة، بل كانوا بالأحرى، مستشارين إيديولوجيين ملحقين بالقوة العسكرية ـ على غرار المفوَّضين السياسيين الشيوعيين السابقين. وقالوا إن قائدهم الحالي، الملاّ عمر، كان في أيام الجهاد قائداً محلياً غير ذي أهمية، أمّا وزير خارجيَّة الطالبان اللاحق، الملاّ غوث، الذي كان، حتى تنحيته في نهاية عام 1997، أكثر شركائي في المفاوضات تواتُراً، فقد كان يعترف به في تلك الأيام، على أية حال، على أَنَّه الرقم الخامس في قيادة الطالبان.

وفي عام 1997 سَلَّمني معلّق باكستانيّ معروف مجموعة من الوثائق حول نشأة الطالبان. ولم يكن لي بدٌّ أن أَعِدَه بأنْ لا أكشف عن اسم المؤلّف، ومهما يَبْدُ هذا غريباً فأنا ما زلتُ أشعر أنني ملتزم بوعدي. ومع ذلك فكثيراً ما استعملت معلومات هذا الرجل الجدير بالتصديق، وأفعل ذلك الآن أيضاً مرة أُخرى.

ويفيد هذا المصدر أَنَّه قد حدث في 20 آذار 1996 حدث هام من أجل نشوء حركة الطالبان في صورتها الحالية. ففي تلك الأيام دخل قندهار أكثر من 1200 من رجال الدين البشتون (المُلاّت) والقادة معاً، ليتشاوروا في الاتجاه السياسي المستقبلي، وانتهى

اللقاء في 4 نيسان، وأسَّس قيادة الطالبان التي ما زالت تحظى الاعتبار حتى اليوم. وفي المرة الأولى ظهر الملاّ عمر باللقب الجديد (أمير المؤمنين) وظهر بذلك زعيماً للطالبان معترفاً به، ويقال إنه تقرَّر في هذا الاجتماع رفض كل مفاوضة مع «الرئيس» الحاكم في كابول، العلامة ربّاني، وفرض «الصقور» الذين يحيطون بالملاّ عمر والملاّ أحمد وكيل متوكل، أنفسهم، كما يفيد المصدر المذكور، في تلك الأيام في وجه مجموعة «الحمائم» المستعدين للتفاوض بصورة نهائية، وثبتوا في مكانهم حتى اليوم، ولم يكن يحدث تسامح تجاه ألوان الانحراف عن اتجاههم الصُلب، كما يكشف عن ذلك، مثال الملاّ غوف.

وهناك، بالطبع أيضاً حقائق ملموسة يمكن الاستشهاد بها من أجل تحليل ظاهرة الطالبان، وأول هذه حقيقة أَن القيادة بأسرها تنتمي إِلىٰ قندهار، ويفيد ما تصوِّره هي، وهو ما يجادل فيه بعض الأَفغان بالطبع، أنها تنتمي إِلىٰ القبيلة الكبرى من بشتون الدُّرّاني، وهكذا يفترض أَن يرجع نسب الملاّ عمر إِلىٰ بشتون الهوتاك. أما رئيس وزرائه، وهو الملاّ محمد ربّاني الذي توفي في نيسان عام 2001، فينتمي إِلىٰ الكاكار، وينتمي وزير الخارجيَّة السابق (حتى عام 1997)، محمَّد غوث، إِلىٰ النورزاي، ومحمّد عبد الرزَّاق، الذي قتل في مزار الشريف عام 1997، إِلىٰ البوبالزاي، والملاّ محمد عباس إِلىٰ الآشاكزاي، إِلخ... ثم إِنه يُلاحَظ التجانس في السن. وفي الوقت الحاضر (مثلاً) يعد الملاّ عمر، البالغ من

العمر 41 عاماً، الأصغر سناً في قيادة الطالبان، ومعظم الآخرين من أعضاء مجلس الشورى، لا يزيدون عليه سوى سنة أو سنتين، أي أنهم مجموعة «فَتِيّة» علىٰ وجه الإِجمال، وهذا ما قد يفسِّر تطرُّف تصرفها تفسيراً إِضافياً.

وكثيراً ما يُشار إِلىٰ أَن البشتون يمثلون الشعب الحاكم التقليدي عند الأَفغان. والحق أَن هذا التقرير صحيح، ومع ذلك فهو يتجاهل، في عموميّته فروقاً كبيرة داخل هذه المجموعة العرقية، إِذ يفترض عند البشتون أَن يفرِّق المرء بين فَيْضٍ من أفخاذ القبائل وفروعها، تسود بينهم في كثير من الأحيان خصومة تقليدية. فهناك بعض الأفخاذ من قبيلة الدراني ورد ذكرهم في سياق الأصل (المزعوم) لقيادة الطالبان. ولكن ثمة آخرون يذكرون إِلىٰ جانبهم، فالملك السابق ظاهر ينتمي إِلىٰ أهم قبائل محمدزاي، وكذلك بالطبع ابن عمه داود، الذي أطاح به، وكذلك أيضاً، بلا ريب، رئيس الوزراء السابق في تحالف الشمال، غفورزاي. وفي أيام حكم ظاهر شاه، ورئيس وزرائه داود كان ينتمي نصف كبار الموظفين في وزارة الخارجيَّة إِلىٰ قبيلة الملك، قبيلة محمدزاي. ويلاحظ بصورة عابرة أَنَّه لم يكن يوجد بينهم شيعة. وإِلىٰ جانب قبيلة محمدزاي توجد قبيلة أحمدزاي ذات السمعة المرموقة أيضاً، والتي كان ينتمي إِليها نجيب الله وأخوه (بل كان الأخير يُسَمَّى باسم هذه القبيلة)، ثم أيضا، إِذا شئنا أَن نقتصر علىٰ إِيراد الأكثر أهمية، البوبالزاي، والنورزاي أَو بشتون

الهوتاك، وكذلك الغيلزاي الذين يستوطنون في شرق أَفغانستان وشمالها الشرقي، ويحافظون علىٰ علاقات وثيقة بالبشتون الذين يعيشون في باكستان، وقد تلقَّوْا، خلال «الحرب المقدسة»، ضد الاحتلال السوڤييتي الجزء الرئيسي من المعونة العسكرية الغربية.

والطالبان أيضاً يزعمون، كما فصلنا القول آنفاً، أنهم يتألفون علىٰ الأرجح من قبيلة الدرّاني. ولا أستطيع أَن أقول دائماً، علىٰ وجه اليقين، هل يصح هذا بالفعل، أم أَنَّه يرجع إِلىٰ محاولة من تلاميذ مدارس القرآن لإِضفاء الشرعية علىٰ أنفسهم، ومع ذلك فلو صحَّ هذا الادعاء في جوهره لكان صعود نجم الطالبان منذ عام 1994 يعني أَن تغيُّراً في توازن القوى حدث لصالح الغيلزاي الذين كانوا يستأثرون بالحظوة أثناء الجهاد. ومن بين الأعضاء الاثني عشر في مجلس الشورى الوطني، وهو الهيئة العليا التي تتخذ القرارات في قندهار، ينتمي، (حسب عرضهم هم، علىٰ أية حال) ثمانية إِلىٰ الدُّراني، وينتمي اثنان فحسب أَو ثلاثة إِلىٰ الغيلزاي، ومنهم الملاّ حقاني، والملاّ أحمديان، وكان الملاّ سيِّد غياث الدين، الذي ينتمي إِلىٰ إِقليم بَداكشان، قد أدخل في مجلس الشورى ليكون بمثابة «طاجيكي للعرض» للتدليل علىٰ تعددية الأعراق في حركة الطالبان. وحتى وزير الدولة في وزارة الخارجيَّة الذي هو في الحقيقة بارع، وهو مع ذلك امرؤٌ لا نفوذ له (أصبح فيما بعد وزيراً للصحة)، وهو شير محمَّد ستاناكزاي، الذي كان واحداً من القلائل في جهاز حكومة الطالبان، الذين كانوا يتحدَّثون

بإِنكليزية مقبولة، وكان يُخاطَبُ، نتيجة لذلك، في كثير من الأحيان من قبل الزوار الأجانب، وظل يُعَدُّ، بمعنى «النبوءة التي تحقق نفسها بنفسها»، حيناً من الزمن، بوقاً من أبواق الطالبان، كان، حسب معرفتي، من الغيلزاي الذين هم أقرب إِلىٰ الحرمان من السلطة.

وفي صدد الحديث عن النشوء السياسي للطالبان يجب أَن يلاحظ بعد ذلك، أَن بعض الأعضاء الأكثر أهمية في مجلس الشورى كانوا ينتمون إِلىٰ الحزب الإِسلامي، حزب يونس خالص. وإِليه ينتمي أيضاً الملاّ عمر مثلما ينتمي الملاّ محمد ربّاني، ومحمَّد غوث، وجلال الدين حقاني، وعبد الرزّاق. علىٰ أَن يونس خالص الذي تحدثت عنه قبيل هذا تردّى في هذه الأثناء إِلىٰ مستوى فقدان الأهمية.

ومنع كل النقد الذي يُوَجَّه إِلىٰ المساندة المادية من قبل باكستان إِلىٰ الطالبان مع الاعتراف بذلك، فإِنه لا يجوز أَن يظل خارج إِطار الانتباه أَن هؤلاء كان في متناول أيديهم مصادرهم الخاصة التي لا يستهان بها، ويدخل فيها، في المقام الأول واردات حركة الترانزيت بين باكستان وآسيا الوسطى، ونذكر مع هذا إِيران.

وكانت باكستان قد عقدت، منذ عام 1950، مع أَفغانستان اتفاقية ترانزيت (تجارة الترانزيت الأَفغانية) سمحت للدولة الداخليَّة أَنْ تستورد بضائع معفاة من الجمارك عن طريق ميناء كراتشي،

وظلت السيارات البرية المختومة طوال عقود من الزمان تسير من مدينة الميناء الباكستاني، عبر كويتا، إلىٰ جلال آباد أَو قندهار، ولكن أجزاءاً من السلع كانت يُعادُ بها إلىٰ باكستان، وتباع في السوق السوداء. وبعد سقوط نجيب الله، اتخذ تهريب المواد الغذائية والوقود، ومواد البناء، إلخ. . . أبعاداً بلغ منها أنها ألحقت أضراراً فادحة بالاقتصاد الباكستاني. وقدَّر المركز الباكستاني للإِدارة الضريبيَّة (وأنقل هنا عن النشرة الآنفة الذكر، للمؤلف الباكستاني) في منتصف التسعينات، الخسارة في مواد الجمارك، بعشرين مليار روبيّه. وانتهت المؤسَّسة الباكستانية لاقتصاد التنمية، في عام 1995، في دراسة لها، إلىٰ النتيجة التي تفيد أَن التهريب من أَفغانستان بلغ حجماً سنوياً مقداره 100 مليار روبّيه، وكان هذا يمثل ثلث اقتصاد الظل الباكستاني علىٰ وجه الإِجمال، الذي يفترض أَنَّه يقدر بـ(350) مليار روبية، وكانت أَفغانستان، إذا نظرنا إِليها من وجهة نظر الاقتصاد القومي، قد تحوَّلت إِلىٰ صفة الإِقليم الخامس في باكستان، وفي العام نفسه حَسَبَتْ دراسة للأُمم المتحدة أَن تصدير المخدِّرات من أَفغانستان وباكستان كان يشكِّل 50 مليار روبية آخرين في كل سنة.

أما مدى المكاسب التي تعود بها حركة الترانزيت عبر أَفغانستان، علىٰ كل حكومة في كابول، وبالطبع، مدى الأهمية السياسية التي تتمثل فيها، فذلك ما كشفت عنه المفاوضات التي أجراها وزير الخارجيَّة الذي كان يتقلَّد مهام منصبه في حكومة

ربّاني، غفورزاي، في صيف 1996، مع وزير الدولة الباكستاني، نجم الدّين شيخ، والتي تحدثت عنها بإيجاز. وما من شك في أن ما كان يهمّ نظام كابول في تلك الأيام ليس مجرد تأكيد سيطرتها علىٰ خط الترانزيت بحكم حقوق السيادة، بل كان يهمها أيضاً ما يرتبط بذلك من موارد الرسوم، التي كانت تحتاج إِليها حاجة ملحَّة بالنظر إِلىٰ وضعها الحَرِج الخطير فيما يتعلّق بتدبير ميزانيّتها، ولم يكن بدٌّ لمفاوضات غفورزاي أَن تنتهي في هذه اللحظة إِلىٰ الإِخفاق حين باتت ألوان النجاح العسكري للطالبان واضحة للعيان. فبهجومهم علىٰ كابول فقد الرئيس ربّاني أهميته بصفته ضامناً لحرية الترانزيت، ذلك لأن ما كان يهم إِسلام آباد في هذه المفاوضات، هو الهدف الاستراتيجي المتمثّل في الوصول إِلىٰ صلات تفضي إِلىٰ آسيا الوسطى وتكون مُؤَمَّنةً من الهزات السياسية، وأن تحقق، قدر الإِمكان، الشروط الأولية من أجل تمديد أنابيب الغاز الباطني كان قد تم التخطيط له، وربما، علىٰ المدى البعيد، حتى من أجل إِنشاء اتصال بالخط الحديدي عن طريق أَفغانستان.

ومثلما ظهر الطالبان فجأة في كابول توارَوْا بعد خمس سنوات أيضاً، من جديد. فحين استعادت قوات تحالف الشمال، في 13 تشرين الثاني 2001، **العاصمة سقطت في أيديهم بغير قتال،** وتمّ، خلال ساعات تقريباً، تحرير مساحات هائلة من أَفغانستان، من الطالبان، ومنذ اليوم التالي بدا أَن العاصمة التي تنبعث فيها الحياة

من جراء الإِعلانات الضوئية وأشرطة الكاسيت، نسيت ذكرى القندهاريين غير المحبوبين.

ومع ذلك فإِن سرعة التطاير والتبخُر التي اتسمت بها حركة الطالبان التي غطت البلاد أول الأمر مثل نار انساحَت في السهوب، وكانت تدمِّر، بغير هوادة ما كان يتصدى لوعيها المزعوم بأنها مُرْسَلة، والتي تتوارى الآن بغير أثر في صحارى جنوبي أَفغانستان الجبلية، تظل تنطوي في ذاتها بعدُ، دائماً، علىٰ شيء كاللغز، في نظرة تُلقىٰ عليها، إِلىٰ الوراء، ولا يجدي شيئاً إِيراد الأسباب التي أدَّت إِلىٰ صعود نجم القندهاريين وإِذلال قيادتهم التي جُرِّدَت من سحرها فجأة، علىٰ عجل، ففي الواقع تتوافر هذه الأسباب الآن في أيدينا: وأولها تبدُّل الاتجاه في إِسلام آباد الذي جرَّد الطالبان من المساندة، وآلة الحرب في الدولة القياديّة الغربية، التي سحقتها، ولكن تظل، فيما يتجاوز حالة أَفغانستان التطبيقية، بقيَّةٌ تستعصي علىٰ الحل من ذلك اللغز، الذي رافق أيضاً أنظمة حكم قوية توارت ذات يوم من المسرح السياسي، وكأنّ عاصفة عصفت بها: إِنه عجزنا عن تَبَيُّن قابلية جهاز حكم للدوام والاستمرار أَو هشاشته وسرعة عَطَبِه، قبل نهايته. ولقد شهدنا هذا العجز في النظرة التنبؤية في حالة انهيار جمهورية ألمانيا الديمقراطية وانهيار الاتحاد السوفييتي مرتين في أوروبا التي أصبحنا، بلا ريب، أكثر إِلماماً بأمورها بكثير من إِلمامنا بجبال هندوكوش البعيدة.

15

الازدواجية الأمريكية

وبموافقة الأمين العام، وبعد الحديث الذي تم في الاتصال بوكيل الأمين العام، كيران بريندرجاست أسافر في 17 نيسان 1997 بطائرة مروحية قديمة تتأرجح بين سُحُب العاصفة، إلىٰ واشنطن، لأطرح علىٰ الأمريكيين مفهومي عن «البلد القياديّ» وأريد أن أستفسر، هل الولايات المتحدة علىٰ استعداد للمشاركة في مبادرة السَّلام الصادرة عن الأُمم المتحدة، ويرافقني المرجع الياباني المختص بأَفغانستان في الأمانة العامة للأُمم المتحدة، كاواباتا، وهو زميل بارع حي الضمير مثلما هو لطيف ومتحفظ، وفي واشنطن تستقبلني، مرة أُخرى، رئيسة قسم جنوب آسيا، في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، روبين رافيل، ونتحدث أول الأمر حول الوضع في أَفغانستان، وتتميز السيدة رافيل بالاطلاع الحَسَن، كشأنها دائماً، وتقييمها باعث للاهتمام عندي. وفي هذه المرة تفاجئني بملاحظة الجنرال دُسْتُم الأوزبكي، الذي يقعد في

obeikandl.com

معقله، مزار الشريف، وهو يستعصي علىٰ الهجوم عليه كما تشير كل الظواهر، وتقول إِن إِلحاق الإِصابة به أسهل من إِلحاق الإِصابة بمسعود الذي يقاتل في وادي بانجير من أجل الحفاظ علىٰ بقائه من الناحية العسكرية، وتقول المرأة الدبلوماسية إِن هذا الأوزبكي أقرب إِلىٰ أَن تتم الإِطاحة به علىٰ يد مناوئيه الداخليين منه إِلىٰ أَن يُطاحَ به علىٰ يد الأعداء الخارجيين، وسيتوافر عما قريب حافز يحمل المرء علىٰ أَن يتذكَّر هذه الكلمات المتميزة بالنباهة واليقظة.

ثم أطرح علىٰ السيدة رافيل أفكاري بصدد دور «البلد القيادي» أي دور الولايات المتحدة، وأقول إِن طريقة تصرف الأُمم المتحدة في أَفغانستان لم تعد بنجاح، والأونسما تدور في حلقة مفرغة، وقد جرت مفاوضاتي مع الطالبان علىٰ نحو يبعث علىٰ الإِحباط، وبينما يبدي تحالف الشمال، لأسباب تكتيكيّة علىٰ الأقل، ليونة معينة في موقفه، كانت كل مقترحات الحلول الوسط علىٰ الطالبان ترتدُّ خائبة، وإِنهم يصرّون علىٰ كل شيء أَو لا شيء. وأقول إِنه من أجل ذلك لا بُدَّ أَن يُشقَّ طريق جديد ليؤهِّل الأَفغان للاستعداد للسلام، وإِن هذا لا يمكن أَن يحدث إِلاَّ بمساندة شركاء أقوياء. وبالنظر إِلىٰ الأهمية السياسيَّة لمسؤولية الدول العظمى لا يرد في الاعتبار من أجل هذا سوى الولايات المتحدة وروسيا، وأن كلتيهما تغطّيان الطيف الإِقليمي، ولذلك يمكن الاستغناء عن مشاركة بلدان أُخرى، بل يعدُّ مما ينطوي علىٰ الإِشكال توسع

حلقة «البلدان القيادية»، لأن الأُمم المتحدة بمجرد أَن تضيف إلىٰ ذلك باكستان، وبالتالي إِيران أيضاً، تكون قد أثقل كاهلها بمشكلة خصوماتها الإِقليمية، وينبغي لكلتا القوتين العظميَيْن أَن تقدما للأُمم المتحدة، في طور البداية علىٰ الأقل، الحماية من الهجمات الجانبية، وفيما بعد يستطيع المرء أَن يتابع النظر في هذا. ثم يمكن أيضاً النظر في مشاركة من قبل البلدان المجاورة في آسيا الوسطى. وتصغي السيدة رافيل بانتباه، والحق أنها لم تحدد موقفها بصراحة حازمة بصدد الدور الأمريكي المرغوب فيه من قِبَلي، وهذا أمر مفهوم، ومع ذلك فهي تعرب عن وجهة النظر القائلة إِن البلدان ذات النوايا الحسنة، مثل ألمانيا واليابان ينبغي لها أَن تزيد من قوة نفوذ كلتا الدولتين القياديتين. وأعرب عن قلقي حيال مسألة أَن هذه المجموعة لا يجوز لها أَن تظهر في صورة **عبء علىٰ الغرب** فالأُمم المتحدة تمثِّل علىٰ أية حال المجتمع الدولي من حيث هو كل، ولذلك يجب أَن نفكر هل تتصرَّف «البلدان القيادية» بتفويض من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأَمن، وبذلك ينتشر برنامج عملها، كما يتم إِلزام الصين، وهي جارة أَفغانستان المهتمة جداً بالتطورات الجارية هناك. وذلك أَن ممر واكهان يتاخم إِقليم اكسينجيانغ (سينكيانغ) الذي يسكنه سكَّان مسلمون في أغلبهم ينطقون بالتركية. علىٰ أَن خطر فيضان إِيديولوجية الطالبان علىٰ الإِقليم المضطرب أمر متوقَّع عند بكين.

وأُقلع بالطائرة من جديد، والنفس لا تخلو من الأمل، وعلىٰ

الرغم من أَن وزارة الخارجيَّة الأمريكية ظلت مدينة لي بالجواب النهائي، فأنا أستخلص من الموقف المنفتح عند السيدة رافيل نتيجة مؤدّاها أنها سوف تعرض مفهوم إدارة وزارتها مع تصويتها وسوف تولي اقتراحي اهتمامها الشخصيّ. وبعد عشرة أيام، أي في الثامن والعشرين من نيسان، ألتقي بالمبعوث هولتسمن في إسلام آباد لأستفسر عن قرار الولايات المتحدة وكان هولتسمن قد اطلع علىٰ حديثي مع رافيل، ولكن القرار لم يُتَّخذ في واشنطن بعد. وأقول للمبعوث إنني سأسافر خلال أمد قصير إلىٰ موسكو، ولا بدّ لي قبل ذلك أَن أتلقى إشارة من واشنطن، وإلاَّ فلن أَتطرَّق إلىٰ موضوع «البلدان القيادية» مع الروس. إذ لن يكون هناك معنى لأن أقترح علىٰ موسكو مفهوماً ينتهي إلىٰ الإخفاق من جراء قلة اكتراث الأمريكيين به.

ويمثِّل هولتسمن ردَّ الفعل الودي من جانب وزارة الخارجيَّة الأمريكية تمثيلاً، من دون تعبير، علىٰ أنّه ردّ فعل غير ذي أهمية، ويقول إن السيدة رافيل قد أظهرت «التزاماً طبيعياً»، واستجابت لاقتراحي يحدوها «فضول مهنيّ إلىٰ المعرفة»، ولكن المصالح الأمريكية في أَفغانستان ليست كبيرة بما يكفي لكي تنضم إلىٰ مبادرتي، وعلىٰ كل حال يعدني هولتسمن المتردد بالجواب النهائي لحكومته قبل أَن أغادر إلىٰ روسيا، وبُعَيْد ذلك يصل التوجيه من واشنطن، وهو سلبي، فالأمريكيون يرفضون مشاركةً بصفة «بلد قيادي»، وبذلك طُوِيَت صفحة مفهومي، ولن أتطرَّق إلىٰ الحديث عنه في موسكو.

وفي حزيران 1997 تُنقَل السيدة رافيل التي أحتفظ بها في ذاكرتي متعاطفةً من الناحية الإِنسانية ومنفتحة، سفيرة إِلىٰ الرباط، ويصبح خَلَفُها كارل ف. إِندرفورت، المفعم بالطاقة والحيوية، والمهتم بأَفغانستان منذ عهد بعيد. وفي الوقت ذاته تقريباً يُستعاض عن وزير الخارجيَّة الأمريكي، وارِن كريستوفر، القليل الاهتمام بجنوب آسيا، بمادلين أولبرايت. وفي ظل القيادة الجديدة لوزارة الخارجيَّة الأمريكية سوف يتحقق التعاون الدولي مع الأُمم المتحدة في ترتيب وَضْعِي متبدِّل (6 + 2)، بلا ريب أيضاً.

وكما يُظْهِر الحدث في تلك الأيام فقد مارست الولايات المتحدة، علىٰ مَرِّ التاريخ الأحدث، نفوذها بصفتها دولة عظمى في ظل علائم متبدِّلة، وبالتزام متباين في جبال هندوكوش. ولا أعتقد أَن واشنطن كانت أول الأمر مهتمة بأَفغانستان في المقام الأول. وخلافاً للبريطانيين في القرن التاسع عشر، لم يكن لهم علىٰ شبه القارة الهندية إِمبراطورية متحالفة معهم يترتب عليهم حمايتها من ناحية الشمال. أما الهند فكانت تحافظ علىٰ مسافة حرجة بينها وبين الولايات المتحدة، وظلت، علىٰ مدى عقود من الزمان تسعى إِلىٰ التحالف مع موسكو. وفي صورة رد فعل علىٰ ذلك، كانت تتطور، في أيام الحرب الباردة، علىٰ نحو مطرد، علىٰ وثيقة للأمريكيين مع باكستان، غير أنها لم تذهب إِلىٰ المدى الذي يحمل واشنطن علىٰ أَن تمارس سياسة في أَفغانستان حافلة بالتصورات والمفهومات تستهدي بالمصالح الباكستانية. وكان

يكفي واشنطن أَن تقف وقفة مماثلة لموقف موسكو في خَطْبِها لِوُدِّ القيادة الأَفغانية. وبالنسبة لإِسلام آباد كان مصير البلد المجاور ذا أهمية حيوية على الدوام. أمّا بالقياس إِلىٰ واشنطن فقد كانت أَفغانستان بلداً محدود الأهمية. وحين باتت أَفغانستان تدخل في نطاق النفوذ الشيوعي، وأخيراً زحفت القوات السوڤييتية إِليها بذريعة المعونة الأخوية (1979)، هنالك فحسب حظيت البلاد بوظيفة رأس جسر حاولت الولايات المتحدة أَن تصيب، بالانطلاق منه، «البطن الحسّاس» للاتحاد السوڤييتي. وفي عام 1989 تحقَّق ما قدَّره الحساب الأمريكي. وما هي إِلاً سنة بعدها وإِذا الاتحاد السوڤييتي يغيب، ولكن الأمريكيين أنفسهم، الذين كانوا قد استثمروا أيام الجهاد عدداً من مليارات الدولارات في تسليح المجاهدين لم يكن لديهم الآن تصوُّر جاهز من أجل ترتيب للسلام.

وبانسحاب السوڤييت كانت أَفغانستان قد استُهْلِكت في حسابات القوة الأمريكية إِلىٰ إِشعار آخر، ولم يكن الأَفغان الشاعرون بالمرارة، مثل زعيم الاتحاد الإِسلامي، الأصولي، السياف البشتوني، هم وحدهم الذين أَنْحَوْا باللائمة علىٰ المجاهدين فيما بعد في مسألة خيانة الولايات المتحدة، فحتى السياسيون الأَفغان المتعقّلون، كانوا ينتقدون أنَّ واشنطن لم تكن أعدَّت في أيام بوش الأولى تصوُّراً من أجل الحقبة التي تلت نجيب الله، وأنها كانت في الحرب الأهلية التالية تدع الأمور

تجري علىٰ أَعِنَّتها، وكان المأخذ يتمثل في أَن الولايات المتحدة أفرغت سياستها في أَفغانستان من جوهرها، وباتت تقتصر علىٰ مساندة جهود الأُمم المتحدة وبعض الاتصالات الشكلية بالأحزاب الأَفغانية، ولم ينبعث في واشنطن قلق جديد إِلاَّ مع نفوذ إِيران المتنامي في مناطق أَفغانستان التي يقطنها الطاجيك والأوزبك والهزارا. ولكن كان يتضح لكل من يفتح عينيه أَن المصالح الأمريكية لم تكن تهدف إِلىٰ إِنهاء الحرب الأهلية في المقام الأول، بل إِلىٰ سدّ منافذ النفوذ الإِيراني في هذا الإِقليم. وكانت طهران تُعَدُّ، حتى في أيام الرئيس رفسنجاني، معقل الإِرهاب الدولي الذي كان ينتقي ضحاياه في الولايات المتحدة قبل كل ما عداها. وقد جعل هذا الأمريكيين أقرب إِلىٰ أَن يكونوا حلفاء الباكستانيين، الطالبان، منهم إِلىٰ أَن يكونوا حلفاء تحالف الشمال الذي كان يجد المساندة من جانب الدول التي تنظر إِلىٰ الولايات المتحدة نظرة تتراوح بين الانتقاد والعداء، وهي الهند وروسيا وإِيران. أما شبهة وجود تواطؤ مع قندهار فظلت واشنطن زمناً طويلاً لا تستطيع أَن تنفضها عن نفسها. وما من شك في أَنَّه لم يكن من الممكن أبداً إِيراد دليل علىٰ أَن الاستخبارات المركزية، أَو دوائر أُخرى كانت تساند مؤسَّسات القندهاريين مساندة عسكرية بصورة مباشرة.

ولم يتغير الموقف الأمريكي إِلاَّ بتولي الرئاسة من قبل رئيس الدولة الإِيرانية محمد خاتمي (أيلول 1997)، الذي يعد معتدلاً،

وفي أعقاب مؤتمر قمة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في طهران يصدر فيه لأول مرة قرار ضد الإرهاب، وَجَّه الرئيس الإيراني كلمات ودية إلىٰ «الشعب الأمريكي». وبعد ذلك صرح المتحدث باسم البيت الأبيض، قائلاً: «إن البيت الأبيض يرحب باللهجة الجديدة التي نسمعها من الرئيس الإيراني» وفي السابع عشر من كانون الأول 1997 أعرب الرئيس كلينتون عن شعور ودي إلىٰ حد يلفت النظر: «لقد كنت أقول دائماً ومنذ البداية إنني كنت أرى أَن من قبيل المأساة أَن تنفصل الولايات المتحدة عن الشعب الإيراني. وذلك أَنَّه بلد له تاريخ عظيم. وقد تمّ إغناء الأمريكيين منذ مبتدأ بلادنا عن طرق الحضارة الفارسية علىٰ نطاق واسع». وبدا الأمر، بصورة عابرة وكأن فترة من انبعاث الحرارة ستعقب الفترة التي كانت حتى الآن جليدية في العلاقات بين البلدين. ولكن لم تلبث المبادرات من كلا الجانبين أَن أخلدتا إلىٰ النوم من جديد، بعد أَن تبيَّن لواشنطن أن مجال المناورة الذي يتمتع به خاتمي في مضمار السياسة الداخليَّة، وبالتالي الفرصة المتاحة من أجل إصلاح عميق للنظام السياسي في إيران كانا أقل مما كان مأمولاً في الغرب. ومنذ ذلك الوقت، وحتى اليوم تحافظ إيران من جديد علىٰ مكانها في مقدمة اللائحة الأمريكية لدول الشر (rogue states) فلا تتزحزح عنه. وبذلك بقي الطالبان الذين هم أعداء أَلِدّاء للإيرانيين الشيعة، عاملاً له قيمته من الناحية السياسيَّة بالنسبة لواشنطن مهما أكّدت الولايات المتحدة أَنْ ليس لها في أَفغانستان من يتمتعون «بالحُظْوة» لديها.

وكنتُ، أثناء نشاطي في خدمة الأُمم المتحدة، أحافظ علىٰ علاقات مع الأمريكيين أوثق من علاقاتي بأية حكومة أُخرى، بما في ذلك الحكومة الألمانية، وكان للتعاون مع واشنطن عدد من الأسباب الوجيهة، أَوَّلُها النفوذ الكبير الذي لا جدال فيه، والذي تمارسه واشنطن، **والذي يجعلها تبدو من حين** إلىٰ آخر، في أعين المراقبين الناقدين وكأن المنظمة العالمية هي الوسيلة الخفيّة للسياسة الخارجيَّة الأمريكية. ثم إِن الأمريكيين يوجد تحت تصرفهم هناك، فوق ذلك، وعلىٰ الرغم من التحفّظ الذي فرضوه علىٰ أنفسهم زمناً طويلاً تجاه أَفغانستان، من النفوذ أكثر مما يتوافر لهم في أي بلد آخر، ربما بغض النظر عن باكستان. وقد كان الأمريكيون يجدون احتراماً كبيراً لدى كل الأحزاب الأَفغانية مهما قالوا أَو فعلوا. وما من شك في أَن واشنطن كانت تقوم بالاستقطاب، ولم تكن تكسب الأصدقاء فحسب. وفي بعض الأحيان كان من المنطقي أَن يطبِّق المرء علىٰ سياسة المصالح عند واشنطن القول المأثور عن كاليغولا (فليكرهوني ما داموا يخافونني)، ولا أكتم أيضاً أنني كنت أشعر أنني منجذب شخصياً نحو الأمريكيين. وعندما كنت قنصلاً شاباً قضيت بعض السنوات السعيدة في تكساس. وكانت تتوافر لديّ، بصفتي ألمانياً، كل البواعث التي تجعلني أشعر بأنني مشمول بالعطف في ظل التحالف مع الولايات المتحدة، وخلال مسيرة حياتي، بصفتي دبلوماسياً ألمانياً كنت أراعي في كل الدوائر التعامل الودي مع

الزملاء الأمريكيين. وليس لهذا علاقة بالحاجة إِلىٰ الاستناد إِلىٰ شيء ما، أَو حتى إِلىٰ التبعية، علىٰ أَن التعامل الودّي الذي كنت أحرص عليه، مع الأمريكيين كان يعود بطائل علىٰ الدوام. فلم يحاول أحد من هؤلاء الزملاء القادمين من الولايات المتحدة أَن يؤثّر فسلوكي أَو يغويني أَو يستغلني في أي يوم من الأيام، وكنت أشعر علىٰ الدوام أنني ألقى الاحترام بصفتي ممثلاً لبلد حليف.

ولم تتغيَّر نظرتي هذه في أَفغانستان أَو إِسلام آباد، وقد يحسن في هذا الموضع أَن نستطرد فنقول إِنني، حين تعرضت لموقف خطير، إِذ باتت حياة اثنين من العاملين معي في الأونسما معرضة للخطر في مدينة مزار الشريف المحاصرة في شمالي أَفغانستان، لم أَلْقَ المعونة معروضة عليَّ إِلاَّ من قبل الأمريكيين. وبناء علىٰ ذلك سعيت منذ البداية إِلىٰ الاتصال بالسفير سيمونز ووكيله هولتسمن، وانتهزت كل فرصة للتشاور في واشنطن. وكان سيمونز وهولتسمن دبلوماسيين لطيفين رقيقين من ذوي التأهيل العالي، وكان يربط بيني وبين هولتسمن الذي كان الوحيد بين كل معارفي في إِسلام آباد الذي سَرْعان ما بتُّ أخاطبه باسمه الأول، تبادل حَيٌّ للأفكار، بل كان هذا يوشك أَن يكون صداقة. علىٰ أَن هذا لم يكن يحول دون أَن تكون بيننا، المرة بعد الأُخرى، خلافات في الرأي، كما أنني لم أتحرر قطُّ من الانطباع الذي يوحي بأن واشنطن وهولتسمن يشتبهان فِي أنني حليف خفيّ للعلامة ربّاني ولتحالف الشمال، وأنني، خصم للطالبان ملتزم

محلَّف في الوقت ذاته. ومنذ يوم وصولي إلىٰ إسلام آباد رأى ممثل للسفارة الأمريكية أن من المناسب، أَن أُحَذِّر رفيقي في السفر، موظف الأُمم المتحدة، كاواباتا، من أَن تستأنف الأونسما بإِدارتي سياسة سَلَفي، المستيري «الموالية لربّاني» وكنتُ، إِذا رويتُ لهولتسمن بعد ذلك، مثلاً، أَن الجنرال دُسْتُم قد التمس مني أَن أرصد أموالاً من برنامج الأُمم المتحدة الإِنمائي لإِصلاح الطريق البعيد الذي يمر بنفق سالانج، أراد الأمريكي أَن يعرف علىٰ الفور هل أُزْمِعُ أَن استثمر أيضاً مالاً في المسافة التي تؤدي إِلىٰ قندهار وهراة (التي يسيطر عليها الطالبان). وعندما روى مساعد الأمين العام، جولدنج، أثناء إِقامته في إِسلام آباد للسفير سيمونز من كابول، أَن العلامة سياف قد شكا من أَن روبين رافيل تتجنبه وتتحاشاه، استفسر سيمونز علىٰ الفور هل سيتحدث جولدنج في نيويورك أيضاً مع الإِيرانيين، ويأخذ عليهم أنهم يتدخلون علىٰ الدوام في أَفغانستان. علىٰ أَن القناعة الراسخة التي يؤكّد عليها الأمريكيون المرة بعد الأُخرى، وهي إِصرارهم علىٰ المساواة في المعاملة بين الطالبان والأحزاب الأُخرى، وقولهم المتواصل إِنهم ليس عندهم من يتمتع بالحظوة من الأحزاب، وتوكيدهم في الوقت ذاته أهمية الطالبان من حيث كونهم عامل قوة، هاتان الخَصْلتان كانتا من السمات المميِّزة لسياستهم في أَفغانستان، كما تمكنت من مراقبتها في كل يوم تقريباً، ولم يكن يرد في الحسبان علىٰ الإِطلاق أَن الطالبان عامل هام، بل عامل

القوة الحاسم في أَفغانستان. ومن هذه الوجهة لم أكن أبداً في حاجة إِلىٰ دروس خصوصية، ولم تكن تمسُّ الحاجة إِلىٰ المثابرة التي كان سيمونز وهولتسمن يُدْخِلان بها مصالح الطالبان في اللعبة، كَأَنْ لم يكن هناك بدٌّ من الدفاع عنهم في وجهي.

وكذلك يتولاني الأسى لأن واشنطن حالت دون مشاركتي في مؤتمر لأَفغانستان حدث في 29/ 30 تشرين الأول في طهران. وكانت باكستان قد احتكرت الحوار حول أَفغانستان مع الأُمم المتحدة إِلىٰ حد بعيد. وكان هذا، في جزء كبير منه، نتيجة لحقيقة أَن الأونسما كانت قد عادت، منذ نهاية أيلول 1996، من جلال آباد الأَفغانية، إِلىٰ إِسلام آباد، ولكن المسألة كانت لها علاقة أيضاً بأن واشنطن كانت تحول دون اتصالات الأُمم المتحدة بإِيران قَدْرَ وُسْعِها. وبالنظر إِلىٰ المصالح التي لا يستهان بها وإِمكانيات تأثير الإِيرانيين علىٰ الحرب الأهلية في أَفغانستان كنت أرى أَن تغيير الرأي بصدد طهران أمر لا مندوحة عنه. ولكن علىٰ الرغم من أَن الأمريكيين لا بدَّ أَن يعرفوا أنني «لن أتعاون مع إِيران تعاوناً إِرهابياً»، بل أنا خليق أَن أكون ضمناً يوثق به يضمن إِيلاء المكانة والأهمية في مؤتمر طهران لوجهات نظر الأُمم المتحدة، فقد سعوا لدى الأمين العام، بطرس غالي ليحولوا دون رحلتي، وتراجع بطرس غالي الذي ربما كان لم يفقد الأمل بعد في إِعادة انتخابه وفي تَلَيُّن موقف الأمريكيين، أمام رغبة الولايات المتحدة. وهكذا حدث أنني لم أستطع، أثناء عملي الذي لم يكد يبلغ

السنتين، في الأونسما، أَن أسافر إِلىٰ طهران إِلاَّ مرة واحدة، في كانون الثاني 1997.

علىٰ أَن المسألة تعقَّدت من جراء أَن الحكومة الإِيرانية إِمّا أنها لم تكن تعرف الملابسات، وإِمّا أنها كانت تريد أَن تعرفها وأَنْحَتْ عليّ باللائمة، في حملة صحفية علنية، لكوني تعاملت مع طهران بفظاظة. وسَكَتُّ علىٰ ذلك بالطبع، غير أني شكوتُ من ذلك لدى سيمونز وهولتسمن، ولم أجد سوى هزة الكتفين. أمّا أَن الأمريكيين كانوا، بموقفهم المناوىء لإِيران، يقفون علىٰ الخط الباكستاني تماماً، فذلك ما لا يحتاج إِلىٰ مزيد من التفاصيل.

ولكن ما من شك في أَن الموقف الأمريكي، كان متناقضاً، ازدواجياً، لا حيال أَفغانستان فحسب، بل حيال الطالبان أيضاً، ذلك لأَنَّهم علىٰ الرغم من أنهم كانوا يؤكدون أهميتهم، كان من المعروف عندهم منذ البداية أَن ثمة مشكلات لا يُستهان بها تحول دون التعاون مع تلاميذ مدارس القرآن، وذلك أَن سلوكهم في مسألة النساء (موضوع الجنسين) لم يكن ينطوي علىٰ ازدراء للبشر فحسب، بل كان ينطوي أيضاً علىٰ الحد الأقصى من انعدام الحذق والبراعة في السياسة. ثم إِن الحظر المتطرف علىٰ التعليم وممارسة المهن الذي فرضه الطالبان منذ أيلول 1996 في كابول علىٰ البنات والنساء، ثم خفّفوا من وطأته في حالات متفرقة فحسب، وكذلك اللوائح التي صدرت بُعَيْد ذلك، والخاصة بالشرطة الأخلاقية الحكومية التي تحرم علىٰ النساء، بكل جد،

الضحك والغناء على الملأ، بل تحرِّم الطرقعة «المثيرة» بأحذيتهن ذوات الكعب العالي (هذا إذا أمكن العثور عليهن بعدُ في شوارع كابول)، أثار عليهم غضب الرأي العام الغربي بأسره، كما اصطدم في معظم الدول الإسلامية بعدم الفهم. وكانت الاتحادات النسائية في الولايات المتحدة، وهي عامل هام في تكوين الرأي العام ترى نفسها في موضع التحدّي. على أن النساء اللامعات في المؤسَّسة التي كانت قائمة في تلك الأيام، وفي مقدمتهن هيلاري كلينتون، التي تحدثت في كانون الأول 1997، أمام الجمعية العامة للأُمم المتحدة، ووزيرة الخارجيَّة الأمريكية، أولبرايت، التي زارت مخيّماً لِللاّجئين الأفغان في بيشاور، صَرَّحْنَ علانية بالنقد الحاد للطالبان، من دون أن يؤثِّرن على هؤلاء.

كما نشأت مشكلات مماثلة في التعاون مع الطالبان في مسائل زراعة الأفيون وتجارة السلاح، وأخيراً في مكافحة الإرهاب، وهي مشكلة سوف يتم تفصيل القول فيها بصورة منفصلة.

ومع ذلك فمن الممكن أن يقال إن هذه المشكلات التي كانت تَثْقُل وطأتُها على علاقة الإدارة الأمريكية بالطالبان، كانت في سنوات الأفغان، وفي الحقيقة حتى تاريخ الضربة التي وُجِّهت إلى السفارتين الأمريكيتين في دار السلام ونيروبي (7 آب 1998) ذات أهمية ثانوية، وعلى كل حال، غير استراتيجية بالنسبة للسياسة الأمريكية في أفغانستان، على الرغم من الصدى القوي الذي أحدثته المعاملة المهينة للنساء الأفغانيات في وسائل الإعلام

الأمريكية. وفي حساب المصالح تراجعت هذه الموضوعات في وجه المصلحة المتمثلة في تسوية مؤقتة معقولة مع الطالبان، بحكم كونهم القوة الأهمّ في أَفغانستان.

وكما وصفت، فقد سافرت، بتوجيه من الأمين العام، بصفتي أول دبلوماسي غربي يفعل هذا، في 28 أيلول 1996، بعد يوم واحد فحسب من غزو كابول علىٰ يد الطالبان، ومقتل نجيب الله، إِلىٰ قندهار، وفي اليوم التالي إِلىٰ كابول لأعرض المفاوضات علىٰ الحكام الجدد، وكان الباكستانيون يتابعونني، علىٰ نحو مفهوم، خطوةً خطوة. وفي مقابل ذلك كان الدبلوماسيون الغربيون في باديء الأمر يصرفون النظر عن زيارة الطالبان، إِذ كانت حكوماتهم، التي كانت ما تزال تعترف بالعلامة ربّاني رئيساً شرعياً لدولة أَفغانستان، مترددة في الطريقة التي يفترض أَن تتعامل بها مع النظام الجديد، كما كانوا يفتقرون إِلىٰ أبسط إِمكانات التحرك، لأن الأُمم المتحدة وحدها هي التي توجد تحت تصرفها طائرات لنقل المسافرين وسلع الإِغاثة إِلىٰ أَفغانستان. وكان الأمريكيون هم أول من سافر إِلىٰ كابول، وكان هولتسمن الذي لا يعتريه الكلل أول ممثل لبلد غربي يزور الطالبان بعد شهر من سقوط كابول، زيارة مجاملة. أما روبين رافيل، وهي ممثلة هامة لوزارة خارجية الولايات المتحدة، فكانت تَعُدُّ «وزير خارجيَّة» الطالبان، الملاّ غوث، محترماً بما يكفي لكي يجيب المرء علىٰ رسالته الموجهة إِلىٰ وزير الخارجيَّة الأمريكي وارن كريستوفر بجواب مهذب، ولم

تكن حكومة من الحكومات الغربية قد فعلت هذا حتى ذلك الوقت، وسرعان ما بات الاتصال الوثيق بتلاميذ مدارس القرآن من الإِجراءات الروتينية في السياسة الأمريكية في أَفغانستان.

وفي البداية لم يلعب عامل أسامة بن لادن، علىٰ قدر ما أستطيع أن أحكم، دوراً حاسماً في تطور العلاقات الأمريكية مع الطالبان، وهذا مفاجىء بالنظر إِلىٰ الظرف المتمثل في أن هذا الذي يُعَدُّ، منذ عام 1993 مدبر الضربة الأولى التي وُجِّهت إِلىٰ مركز التجارة العالمي في نيويورك، وكان موضوع البحث بحكم كونه إِرهابياً دولياً. أمّا أن أسامة بن لادن كان قد وجد ملاذاً له بالقرب من جلال آباد، في حماية حاجي عبد القادر منذ صيف 1996، وكان يدرِّب مقاتليه هناك، فذلك ما لم يكن سرّاً. وكنت قد عثرت، أنا نفسي علىٰ «مخبأ» أسامة بطريق المصادفة، وأبلغت نيويورك بذلك. وكان الأمريكيون أيضاً يعرفون ذلك. وقال لي هولتسمن، في أواخر صيف 1996، وهو مسرور، إِنه انتزع من الطالبان الاعتراف بأنهم يُؤْوون أسامة بن لادن، وفضلاً عن ذلك فإِن المسألة لم تكن في حاجة إِلىٰ رواية الدبلوماسي الأمريكي، إِذا كانت أنباء الصحف والمقابلات المصورة مع أسامة بن لادن قد بلغت وسائل الإِعلام الغربية منذ عهد بعيد. وعلىٰ الرغم من أن الأمريكيين كانوا يصرّون في تصريحاتهم العلنية علىٰ أن أسامة لا بُدَّ أن توضع نهاية لممارساته الشريرة، كان هذا لـمّا يتحول بعدُ إِلىٰ مِحَكٍّ للسياسة الأمريكية في

أَفغانستان وموقفها من الطالبان. ففي السجل الطويل لمسائل النزاع العائمة التي كان من الواجب حسمها مع تلاميذ مدارس القرآن، لم يكن أسامة إِلاَّ مسألة بين مسائل عدة. وهذا التعاون الذي يتوطّد بين الولايات المتحدة والطالبان لم يَحُلْ هو دونه حتى عام 1998 علىٰ نحو واضح متميِّز.

وبالطبع فقد تغيَّر هذا تغيُّراً حاسماً بعد الهجمات علىٰ بعثات الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام في 7 آب 1998 التي قضى نحبهم فيها 224 نسمة، بينهم 12 أمريكي. وبعد أسبوعين أَو أقلّ، من هذا، أي في العشرين من آب، تتأَهَّب واشنطن للضربة الانتقامية، وتقصف ما يظن أَنَّه معمل للغاز السام في السودان، وتخوض عدداً من الهجمات بالصواريخ علىٰ معسكرات أسامة للتدريب، بينها معسكر للقاعدة يدعى زاواكيلي البدر جنوب المدينة الأَفغانية خوست بالقرب من الحدود الباكستانية. وفي اليوم ذاته يهاجم زعيم الطالبان، الملاّ عمر، الولايات المتحدة علانية، ويعلن في قندهار أن هجوم الأمريكيين ليس موجهاً ضد أسامة بل هو ضد الشعب الأَفغاني بأسره، ويقول إِنه لن يُسَلِّم أسامة بأي حال من الأحوال.

وفي الحقبة التالية تجتهد واشنطن عبثاً في فرض تسليم أسامة من قبل الطالبان، وحين يرفض هؤلاء، ويماطلون بأنصاف الوعود وألوان التهرُّب، تسوء علاقة الأمريكيين بتلاميذ مدارس القرآن بسرعة. وبعد مفاوضات طويلة، عقيمة، مع قندهار، يصدر

obeikandi.com

الرئيس كلينتون في 6 تموز 1999 ألواناً من العقوبات الاقتصادية، ويتم تجميد أرصدة الطالبان الخارجيَّة في الولايات المتحدة ويتم منع كل صفقات الاستيراد والتصدير مع مناطق أَفغانستان التي يسيطر عليها الطالبان. وفي العاشر من آب 1999 تصادر الإِدارة الأمريكية أرصدة شركة الطيران الأَفغانية، آريانا، حيث يعلن متحدث باسم مجلس الأمن القومي أن هذه الشركة يشتبه في مساندتها لأسامة بن لادن، وبموجب التماس من الولايات المتحدة يطالب أيضاً، مجلس الأَمن التابع للأُمم المتحدة، الطالبان بتسليم بن لادن، وحين لا يثمر هذا يفرض عليهم عقوبات تدخل حيز التنفيذ في 15 تشرين الثاني 1999.

علىٰ أن ضربة الحادي عشر من أيلول 2001 تسبب آخر الأمر في عملية الانتقام الأمريكية، التي ما عادت تتوجه الآن ضد أسامة وتنظيمه (القاعدة) فحسب، بل ضد نظام الطالبان إِجمالاً، وما عادت عروض السلام من قبل الملاّ عمر، التي تتضمن تسليم أسامة إِلىٰ بلد ثالث، تلقى التفاتاً من قبل الولايات المتحدة. ففي نوبة التصعيد السياسي، تحوَّل الحجر الهامشيّ في دراما أَفغانستان إِلىٰ محك للعلاقات الأمريكية بالقندهاريين، ببساطة كاملة، وإِلىٰ ضربات انتقامية.

وبناء علىٰ ذلك اتجهت السياسة الأمريكية تجاه الطالبان منذ السابع من آب 1998 وجهة مجابهة لا لَبْس فيها، ودَعَّمت هذا الاتجاه بعد الحادي عشر من أيلول 2001 تدعيماً دراميا. فما

obeikandl.com

عاد يهمُّ واشنطن الآن تسليم أسامة، أَو «تصفيته»، بل بات يهمُّها القضاء علىٰ نظام الطالبان العسكري والسياسي إِجمالاً وإِنشاء أَفغانستان عصر ما بعد الطالبان، ولكن بهذا ينجم خطر إِفلات ديناميكية العملية التأديبية من قبضة تخطيط السياسة الخارجيَّة بسرعة. ولم يتوافر حتى الآن دليل علىٰ أن الولايات المتحدة قد كوَّنت تصوُّراً منطقياً من أجل أَفغانستان المستقبل هذه.

وقد حدث ذات مرة أن اقترف الأمريكيون الخطأ المتمثل في إِحراز نصر عسكري من دون أن يخرجوا من ذلك بالاستنتاج المنطقي المتصل بالسياسة الخارجيَّة. ففي عام 1989، أي بعد انسحاب السوڤييت، لم يكونوا يحتفظون بتصوُّر جاهز للبداية السياسية الجديدة، وتركوا أَفغانستان لنفسها. وكانت النتيجة حرباً أهلية أزهقت أرواح عشرات الآلاف، وما من شك في أن واشنطن لن تقع في خطأ مفاده أنَّ في وسع المرء أن يَكِلَ أمر توطيد السلام في أَفغانستان إِلىٰ الأَفغان، مرة ثانية. ذلك لأن المسألة تبدو اليوم وكأن واشنطن تريد أن تعود بعد اختتام العمل العسكري إِلىٰ العمل التمهيدي التصوُّري الذي قامت به الأُمم المتحدة منذ عام 1989 في عهد ثلاثة من الأمناء العامين الملتزمين المهتمين وفي أيام نصف اثني عشرية من المفوَّضين الخاصّين.

وفي 20 تشرين الأول 1997 لقيت دبلوماسياً أمريكياً رفيع المستوى، وهو مساعد الأمين العام للشؤون السياسية، توماس.

ر. بيكرنغ، الذي كان في تلك الأيام الرجل الثالث في الأهمية في وزارة الخارجيَّة، وكان يقيم في إِسلام آباد من أجل مشاورات مع باكستان، وكان السفير الأمريكي، سيمونز، قد دعاني إِلىٰ إِفطار مع بيكرينغ في محيط محدود في مقر إِقامته، وكان رئيس القسم المختص بجنوب آسيا في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، كارل ف. إِندرفورت، حاضراً أيضاً، وشرحت لوزير الدولة الأمريكي بالتفصيل في تلك الأيام أن باكستان لا تساند مبادرة السَّلام الصادرة عن الأُمم المتحدة إِلاَّ بشطر من عواطفها، ومع ذلك فهي تتابع بدلاً من ذلك أهدافها الأنانية في أَفغانستان التي تصل إِلىٰ مساندةً من جانب واحد للطالبان. فهي لا تهتم بتوطيد الاستقرار السلمي في البلد، بل تهتم بتأمين نفوذها الخاص علىٰ المدى الطويل. وإِذا كان ثمة بلد يستطيع أن يمارس الضغط اللازم علىٰ باكستان فإِن هذا البلد لا يمكن أن يكون إِلاَّ الولايات المتحدة، لكي تحملها علىٰ ممارسة سياسة متَّزنة تأخذ مصالح الأقليات العرقية والعقائدية بعين الاعتبار أيضاً.

وكان بيكرينغ يستمع إِليَّ من دون أَن ينبس ببنت شفة ومن دون أَن يعارضني، وفي نهاية الحديث وعد بطرح هذه المسألة في مشاوراته مع الحكومة الباكستانية. وفيما بعد أنكرت وزارة الخارجيَّة في إِسلام آباد أَن بيكرينغ قد أحرجها بطرح مسائل تنطوي علىٰ التعارض فيما بينها، ولست أدري هل تصحُّ الرواية الباكستانية، غير أني أريد أَن أستبعد ذلك، وكان ثمة مشكلات

أُخرى في تلك الأيام في مقدمة الاستراتيجيَّة الأمريكية في جنوبي آسيا، ولا سيما سباق التسلُّح النووي في شبه القارة الهندية ومسألة كشمير التي تستعصي علىٰ الحل. ولم يكن يوجد علىٰ جدول أعمال واشنطن أن تعرِّض إِسلام آباد لضغط إِضافي من جرّاء مشكلة يحسبونها ثانوية، مثل أَفغانستان، لمجرد أَن تساعد الأُمم المتحدة بذلك. وكان هذا معروفاً لديَّ أنا أيضاً. ومع ذلك فقد كنتُ ملتزماً أَن أصف للدبلوماسيّ الأمريكي الواسع النفوذ صعوبات مهمتي.

ومنذ الحادي عشر من أيلول 2001 لم يكن بدٌّ من فتح هذه العملية، عملية الموازنة بين المصالح من جديد، وبالقياس إِلىٰ كل من تابع مماطلة باكستان علىٰ مدى عقود من الزمان، يمثِّل التعاون الذي بات وثيقاً من جديد، بين إِسلام آباد وواشنطن، لا مجرد الجانب الحاسم، بل يمثل أيضاً أكثر الجوانب إِثارة للدهشة في الصراع القائم في أَفغانستان، ويبلغ من إِثارته للدهشة أَنَّ المتعاطفين مع تحالف الشمال يطلبون أَن يُؤْذن لهم بالكلام ويتنبّأون أَن يكون قد اختفى وراء الاستعداد الباكستاني للتعاون تكتيك ينطوي علىٰ المكر بوجه خاص من قبل المخابرات الباكستانية، وسيكون علىٰ إِسلام آباد أَن تثبت جِدّية سياستها الجديدة.

obeikandl.com

16

عامل باكستان وإِيران

ويجري في هذا الكتاب عرض السياسة الباكستانية في أَفغانستان، ومصالحها الكبيرة في جبال هندوكوش عرضاً شاملاً. فخلال القتال الذي دام عشر سنين ضد الغزاة السوفييت (1979 ـ 1989) تحمَّلت إِسلام آباد العبء الرئيسي، لا بصفتها حليفاً عسكرياً ومُوَرِّد سلاح للمجاهدين فحسب، بل بصفتها مخيَّم تجميع لملايين اللاجئين الأَفغان الذين يستوطنون حتى اليوم الإِقليم الحدودي في الشمال الغربي وبلوجستان، وازدادوا في الأيام التي يتم فيها تدوين هذا الكتاب، ملايين أُخرى. وكانت باكستان، بحكم كونها حليفة الولايات المتحدة في تحالف بات آخر الأمر مُظَفَّراً، ضد موسكو، «رابحة الحرب» أيضاً والمستفيد السياسيّ من الجهاد، ولم تستطع أَن تستبيح ممارسة سياسة نووية إِلاَّ علىٰ أساس كونها حليفة لا يمكن الاستغناء عنها، لواشنطن ضد الاتحاد السوفييتي، علىٰ أَن هذه السياسة النووية كانت

obeikandl.com

تتعارض تعرضاً لا لبس فيه مع المصالح الأمريكية. أمّا أَن باكستان تلقَّت من الولايات المتحدة ومن الغرب علىٰ وجه الإِجمال، معونة اقتصادية لها شأنها وحافظت علىٰ وجودها بفضل هذه فحسب، فذلك ما لا يكاد يحتاج إِلىٰ مزيد من التفاصيل. ولولا قروض البنك الدولي والمانحين الغربيين، لكان لا بد لباكستان في نهاية التسعينات أَن تعلن حكومتها الإِفلاس.

أمّا ما يعرفه جمهور الناس عن السياسة الإِيرانية في أَفغانستان فأقل من ذلك إِلىٰ حد بعيد. ومنذ ثورة آية الله خميني عام 1979 باتت علاقات هذا البلد الذي كان فيما سلف حليفاً مقرَّباً للولايات المتحدة محمَّلة بالأعباء من جهة الغرب. وبينما تتبوَّأ ألمانيا، وفرنسا التي تتصرّف وعينُها علىٰ استقلالها، تجاه إِيران دور الوسيط علىٰ أية حال تعرضت علاقة النظام الثوري بأمريكا، «دولة الشر»، حتى في أيام «رئيس الإِصلاح» خاتمي، حتى اليوم الحاضر لتدهور بالغ، علىٰ أَن الأوضاع الفعلية تتسم بتعقيد أكبر من أَن يظهر علىٰ الملأ، ولا سيما فيما يتعلق بأَفغانستان.

لقد لبث الناس زمناً طويلاً يفهمون السياسة الأمريكية في أَفغانستان علىٰ أنها انعكاس لسياسة مناوئة لإِيران في المقام الأول، وتقول الأطروحة إِن واشنطن لا يهمها تشجيع نظام الطالبان إِلاَّ علىٰ نحو غير مباشر، وفي الواقع كانت معنية بالاستفادة من وضع جبهتها التقليدي ضد إِيران الشيعية، ولا يقل عن ذلك وضوحاً، لدى إِلقاء نظرة إِلىٰ الوراء علىٰ التسعينات،

obeikandi.com

ليتبيَّن للمرء أَن سياسة إِيران في أَفغانستان كانت تتحكم فيها الخصومة المستمرة مع باكستان، وكانت تؤدي، بصورة جزئية، وظيفة سياسة معادية لباكستان. ومن زاوية النظر الغربية قد تظهر العلاقات بين كلا البلدين الإِسلاميين في مظهر «الأخوة» البالغة، كما كان يُشار إِلىٰ ذلك في البيانات المشتركة الرسمية الصادرة عن كلٍّ من الحكومتين، ولكن كانت تختفي تحت سطح القُربىٰ الدينية ـ الثقافية صراعات مصالح إِقليمية، ولا سيما تلك المصالح ذات السمة الاقتصادية والعسكرية.

وفي هذا الصدد لا ينبغي أَن يظل التناقض بين الاتجاهين العقائديين، السني في باكستان والشيعي في إِيران خارج الاعتبار، إِذ لا يلعب هذا التناقض في سياسة المصالح دوراً أَوَّل بلا ريب، غير أَنَّه يلعب مثل هذا الدور في حالة الجمهور العريض الذي يغلب عليه انخفاض مستوى الثقافة، وفي حالة مئات الألوف من الشباب المتعصبين الذين يتدفقون علىٰ المدارس الشرعية والمساجد وقد أدَّى هذا إِلىٰ أنَّ المسألة انتهت، حتى نهاية التسعينات في باكستان، في كثير من الأحيان إِلىٰ غارات علىٰ الإِيرانيين. وخلال العاملين اللذين قضتهما في باكستان وأَفغانستان (1996 ـ 1997) كانت تحدث المرة بعد المرة أحداث تشهد علىٰ العداء الباعث للفزع، بل الكراهية عند أجزاء واسعة من السكَّان، لطهران. وقد أُشْعِلَت النيران في المؤسَّسات الثقافية الإِيرانية في لاهور وكراتشي، وقتل العاملون فيها، وأصبح طلاب الكلية

الحربية الإِيرانيون الذين كانوا يقيمون في راولبندي للتدريب العسكري، ورجال الأعمال والدبلوماسيون الإِيرانيون، هدفاً للضربات القاتلة من قبل الغوغاء، حتى لقد حذَّرت الصحافة الغربية في بعض الأحيان من «أَفْغَنَةِ باكستان». علىٰ أن تولّي السلطة من قبل رئيس أركان الحرب، الجنرال مُشَرَّف (12 تشرين الأول 1999) وضع حداً في البداية لظاهرات الانحلال من الداخل، التي كانت تسيء إِلىٰ الحياة العامة علىٰ نحو مطرد الزيادة في أيام بنازير بوتو ونواز شريف.

أمّا أَن اللاعب الخفيّ الخصم لإِيران لم يكن الولايات المتحدة، بل كانت باكستان هي التي تلعب لعبتها في أَفغانستان، فذلك ما تبيَّن منذ عامي 1997 ـ 1998 علىٰ أبعد تقدير في مجموعة الدول «6 + 2» (التي تناولناها في موضع آخر، والتي بُعِثَت إِلىٰ الحياة لمساندة جهود السَّلام التي تبذلها الأُمم المتحدة، والتي كانت فيها مواقف واشنطن وطهران تتناقض في كثير من الأحيان تناقضاً صارخاً مع موقف إِسلام آباد، وإِذا كان هناك، أي مكان كان، مكان محدَّد للتعاون السياسي بين الأمريكيين والإِيرانيين، فهو الإِجماع بصدد عمل مجموعة (6 + 2).

ويمكن أَن يتبيَّن، في نظرة إِلىٰ الوراء، أَن الذي كان يتميَّز بروابط أكثر ديمومة بأَفغانستان لم يكن هو باكستان التي يظهر عليها أنها ذات القوة والجبروت الأعلى، التي تحاول أَن توسع منطقة نفوذها وأن تؤمّن لنفسها المكانة والاعتبار عن طريق السوط

الدافع، سوط الطالبان في أَفغانستان، بل كان هذا هو إِيران التي تخطو خطوات أكثر تحفُّظاً وحذراً.

أمّا مدى عمق تجذُّرهما فذلك ما يكشف عنه القرابة في التعبير، وذلك أَن نصف السكَّان الأَفغان، الطاجيك والأوزبك والهزارا، وكثيراً من البشتون يستخدمون لغة الدّاري، وهي شكل من أشكال الفارسية متغيِّر تغييراً طفيفاً، لغة أولى، أَو ثانوية. وكان يجري الحديث في بلاط الملك في كابول بلغة الداري. وبناء علىٰ ذلك كان نصف كل الأَفغان يفهمون، من دون مشكلات، جيرانهم الإِيرانيين، بينما تعد لغة الأكثرية الباكستانية، التي يجري الحديث بها في إِقليم البنجاب، وهي الأوردو، بعيدة المتناول. ولا يشاطر الذين يعيشون في أَفغانستان لغتهم، أي البشتو، سوى الأقلية البشتونية التي أُلْحِقت بباكستان من جراء العمل التعسفي الذي حدث بفعل خط ديوراند (حوالي عشرة ملايين نسمة).

وكان تيار الإِسلام الفكري ينحدر من إِيران منذ أوائل العصور الوسطى إِلىٰ شبه القارة الهندية، ولم يكن يحدث العكس. وكانت أَفغانستان محطة مرحلية لعملية الأَسْلَمة التي كانت تنتشر باتجاه الشرق والتي لم تسكن حدتها إِلاَّ في الصين وفي عالم الجزر الأندونيسية. وكانت أسرة الصفويين الحاكمة الفارسية قد سيطرت علىٰ أجزاء واسعة من أَفغانستان الحالية، وكانت مملكة خراسان قد وَحَّدت علىٰ مدى قرنين من الزمان شرقي فارس وغربي

أَفغانستان وتلقت أَفغانستان عن فارس جماليتها في هندسة العمارة والأدب في العصر الوسيط. وثمة مدن مثل هراة ومزار الشريف يقمن بهندسة عمارتهن التاريخية في تقليد فارسي، وبعض هذه المساجد المكسوة بالقيشاني الملوَّن بلون الفيروز، وهُنَّ شقائق البِيَع في أصفهان ومشهد، حافظن علىٰ بقائهن أعجوبةً بعد الحرب الأهلية، حتى الآن. علىٰ أَن المذهب الشيعي الموجود في غربي أَفغانستان، وقبل كل شيء في وسطها، يذكِّر بالقرون الخوالي من الحياة الدينية المشتركة مع إِيران.

ثم إِن هوية مصالح الولايات المتحدة ومصالح إِيران في أَفغانستان، التي تعد اليوم قليلة التجلّي، ولا تكون إِلاَّ في المستوى الأدنى، كانت في الماضي مكشوفة علىٰ وجه الإِطلاق وبدا للعيان ما كان قد دخل حيّز النسيان. وبعد سقوط الملك الأَفغاني الأخير، ظاهر شاه (1973) ونهاية الملكية الأَفغانية، اعتقد الشاه الإِيراني، محمد رضا بهلوي أَنّه قد حانت اللحظة لبعث الحياة من جديد في مجال نفوذ إِيراني علىٰ أساس الإِمبراطوريات الفارسية السالفة، وكان الهدف في تلك الأيام تعاون اقتصادي وعسكري مركَّز كان يفترض أَن يشمل، إِلىٰ جانب أَفغانستان، شبه القارة الهندية، والخليج، وكانت الولايات المتحدة تساند هذه المخططات علىٰ أنّها وسيلة «صَدّ» موجهة ضد الاتحاد السوڤييتي، والحق أَن وزير الخارجيَّة لم يكن يتابع خطة كسب مجموعة الدول لمصلحة تحالف عسكري، غير أَنَّه رأى في ذلك خطوة إِلىٰ الأمام

لكي يدخل هذه الدول غيرَ مترابطة، في استراتيجيته الموجهة ضد اتحاد سوڤييتي توسُّعي. أما أَفغانستان، حيث كان خليفة ظاهر، داود، مستعداً لتعاون أوثق مع الاتحاد السوڤييتي، فقد كان مجرد عدم الانحياز فيها كسباً كبيراً من وجهة النظر الأمريكية.

ومنذ تلك الأيام قدَّمت إِيران الأسلحة إِلىٰ قبائل في غربي أَفغانستان، وهي أسلحة أفادت في الإِطاحة «بالشيوعي» داود في كابول، مثلما قدمت الأسلحة بعد عشرين عاماً في أيام النظام الثوري، إِذ أفادت في مقاتلة الطالبان الأصوليين الذين رسَّخوا وجودهم في كابول. علىٰ أَن مصالح الدولة الإِيرانية المتمثلة في الحفاظ علىٰ النفوذ لدى جارتها الشرقية، والحيلولة دون تطورات متطرفة تهدّد بالخطر صمدت لأشكال الرفض الاجتماعي المرتبطة بانقلاب كانون الثاني 1979 من دون أَن يمسَّها أذى. وبالطبع فقد كان من نتائج إِقامة نظام الحكم الثوري، حكم الخميني، في طهران، وما انبعث منه من خصومة مع الولايات المتحدة، أَن إِيران لم تتحوّل، خلافاً لباكستان، إِلىٰ حليف من الحلفاء المقربين لواشنطن ضمن إِطار سياسة «صَدّ» الاتحاد السوڤييتي الذي دخل أَفغانستان في العام ذاته. ولا يحتاج الأمر إِلىٰ خيال ليتصوَّر المرء أَن الولايات المتحدة حاولت أَن تطلب من إِيران التي ما زال يقودها الشاه محمد رضا، أداء دور مماثل.

ولكن العلاقات بين طهران وواشنطن تعرضت لتغيُّرات عميقة منذ أيام كانون الثاني تلك التي كانت في عام 1979 حين عاد

الخميني من منفاه في فرنسا إلىٰ طهران، وحتى اللحظة الأخيرة، فبدلاً من تجديد التحالف البهلوي، طوّر نظام الحكم، الذي صارع الاتحاد السوڤييتي الشيوعي إيديولوجياً أول الأمر، في أيام الخميني، منذ منتصف التسعينات تعاوناً براغماتياً مع روسيا في مساندة تحالف الشمال الأَفغاني. وفي نوع من الحرب بالوكالة وقف، منذ ذلك الوقت، الذين يحظون بمساندة إيران (وروسيا والهند)، من الطاجيك، والأوزبك، والهزارا، في مواجهة الطالبان الذين يَلْقَون التشجيع من قبل الولايات المتحدة (ومن قبل الباكستان قبل كل شيء). ووجدت الخصومة الإيرانية الباكستانية في المساندة السياسية والعسكرية للأحزاب الأَفغانية المتعادية تعبيراً عن ذاتها متجدِّداً، وكان من البدهي أَن لا يعترف أحد من الجانبين بمساندة عسكرية لعملائه بصراحة. ثم إن الإرادة المشتركة الهادفة إلىٰ التخلّص من نظام نجيب الله الماركسي الذي كان قد رسّخ أقدامه بعد انسحاب السوڤييت، في كابول، لم تؤدِّ إلىٰ تقارب بين البلدين: إذ كانت هذه النفسيَّة الشديدة الوطأة الناجمة عن عملية التحرير الأمريكية الفاشلة في صحراء تاباس، في عام 1980 كانت ما تزال تحدث آثارها. وحين اجتمعت حكومة المنفى الأَفغانية (حكومة أَفغانستان المؤقتة AIG)، في 15 شباط 1989 في مدينة بيشاور الباكستانية لم تكن تضمّ سوى ممثلين للأحزاب السنية التي كانت تلقى التشجيع من قبل إسلام آباد. أما الأحزاب الشيعية التي تساندها إيران، فلم يكن لها بدٌّ أَن تبحث عن موطنها الخاص.

ونتيجة لذلك شكّلت أحزاب الجهاد الشيعية تحالفاً مماثلاً في مشهد الإيرانية تألف من مجموعات متَشظّية جمة العدد. وبينما كان قادة المجاهدين في الميدان العسكري يدفعون نجيب الله إلىٰ زاوية ضيّقة شيئاً فشيئاً، علىٰ نحو مطرد، كان ينشأ في جبهة الوطن السياسية الانطباع المشؤوم الذي يوحي بوجود حكومتَيْ منفى متخاصمتين، ولم تنتهِ الأمور إلىٰ اندماج محدود للشيعة في الحكومة المؤقتة في بيشاور إلاّ بعد أَن انضمت مجموعات مشهد ذات النفوذ الضئيل إلىٰ حزب الوحدة الإسلامي الشيعي، وكان تغيُّر أهل السلطة في كابول يزداد رجحاناً علىٰ نحو مطرد.

ومنذ إنشاء أَفغانستان الحديثة بزعامة أحمد شاه دُرّاني حوالي منتصف القرن الثامن عشر يعد الشيعة الأَفغان أقلية بين السكّان، مثلما يمثّلون أيضاً، علىٰ النطاق العالمي أقلية في مقابل أهل السنّة، وهم محدودون، في الأساس، بكلا البلدين، إيران والعراق. وحتى في النزاع الحالي علىٰ النفوذ تقوم إيران، في مواجهة باكستان، بدور الشريك الأصغر في كثير من الأحيان، وبينما تطالب باكستان بالنفوذ في أَفغانستان علىٰ وجه الإجمال، لا تحفل إيران، في المقام الأول، إلاّ بحماية الحدود الشرقية والشيعة المستوطنين في غربي أَفغانستان، ولكن هذا لا يعني أَن طهران تدع الخصم الباكستاني يتصرَّف في سائر البلاد دونما عائق. ومثلما تستخدم باكستان أحزاباً معينة بصفة وكلاء لها، تعاونت إيران أيضاً مع بعض الأحزاب السنية مثل الجمعية

الإِسلامية بزعامة العلامة ربّاني، وأحمد شاه مسعود، تعاوناً غير مباشر.

كما اضطلعت طهران أيضاً بإِسهامٍ لها على مَرّ الحرب الأهلية بصفتها مورِّد سلاح ومساعداً لوجِستيّاً (في النقل والإِمداد والتموين)، غير أنها لم تكن، بلا ريب، من حيث مقدرتها الاقتصادية، في وضع يمكِّنها من ممارسة نفوذ يماثل في حجمه نفوذ باكستان ودولة الولايات المتحدة، العظمى ذات التحالف الوثيق مع هذه، في الجهاد. أمّا في محور روسيا ـ إِيران ـ الهند فقد لعبت طهران الطرف الثاني من حيث الأهمية، بعد روسيا (وأهل آسيا الوسطى)، ولكن قبل الهند، بصفتها مُوَرِّداً للسلاح، وحليفاً سياسياً لتحالف الشمال، ولذلك فليس من قبيل المصادفة أَن كل القادة السابقين لتحالف الشمال، تقريباً، وهم العلامة ربّاني والجنرال دُسْتُم، وحكمتيار، وكريم خليلي، هربوا من الطالبان إِلىٰ إِيران، وعاشوا إِمّا في طهران وإِمّا في «المدينة المقدسة» في شرق إِيران، مشهد.

واليوم أيضاً يتوافر لباكستان من النفوذ في أَفغانستان أكثر مما يتوافر لإِيران، وإِسلام آباد هي الحليف الرئيسيّ في عملية الانتقام الأمريكية من الطالبان. ويرى الرئيس مشرَّف أَن الأمريكيين، ومعهم أيضاً، أهم حلفائهم، أي بريطانيا العظمى، وفرنسا، وألمانيا، يخطبون ودَّه. أما طهران فلم يحسب لها حساب أَو دور في سياسة «الصدّ»، الموجَّهة ضد الطالبان، وعلىٰ الأقل لم

يُحْسَب لها دور يمكن تمييزه من الخارج، علىٰ الرغم من أَن وضع المصالح عندها يتطابق مع وضع المصالح عند الأمريكيين إلىٰ مدى أكثر بُعْداً من تطابقه عند الباكستانيين.

وعلىٰ الرغم من تفضيل الباكستانيين من قبل دول الغرب، فمن الممكن أن نلاحظ، من البداية إلىٰ النهاية أَن إيران لم تتوقف قطُّ عن الصراع علىٰ النفوذ في أَفغانستان، وفي السنوات المنصرمنة كانت باكستان تحاول، المرة، بعد الأُخرى، أن تتفوَّق، عن طريق مبادراتها الخاصة في أَفغانستان، وكان كل مشروع حل باكستاني تقريباً يستدعي علىٰ الفور مشروعاً إيرانياً مقابلاً، في الميدان، والنقيض بالنقيض، ولم يكن من النادر أن تحاول كلتاهما إِساءة الظن بمبادرات الطرف المنافس التي تساندها رسمياً في المشاورات الدبلوماسية مع طرف ثالث، مثل دول آسيا الوسطى. وفي صدد مشروعات التنافس التي طرحت في مؤتمرات أَفغانستان، في طهران، في نهاية عام 1996، ومستهل عام 1997، وكذلك في مؤتمر إِسلام آباد المنعقد عام 1998، لفتت الأنظار الخصومات الكامنة، وكانت، بالقياس إلىٰ بلدان الطرف الثالث التي يخطب الطرفان وُدَّها، في بعض الأحيان ممتعة أيضاً.

وكذلك تحدث الخصومة غير المعترف بها آثاراً في مجتمع الدول الإِسلامية الذي ينضوي تحت لواء منظمة المؤتمر الإِسلامي، التي تعمل بِشق النفس من أجل الوصول، في سياستها الخاصة بأَفغانستان، إلىٰ مبادرات سلام مشتركة، أَو، أيضاً، إِلىٰ

obeikandi.com

مجرد بلاغات سياسية. وعلىٰ الرغم من أن منظمة المؤتمر الإِسلامي تُطَالَب، في العديد الجَمّ من قرارات الأُمم المتحدة، بالعمل بالاشتراك مع الأُمم المتحدة من أجل السَّلام في أَفغانستان، فمن النادر أن تكون في الوضع الذي يُؤَهِّلها لذلك، بسبب تناقض المصالح الذي يلازم عضوين هامين فيها.

وكان اتِّسام نظام الطالبان بالتطرُّف منذ غزو كابول (1996)، وتَوَلِّي مادلين أولبرايت وزارة خارجيَّة الولايات المتحدة، والتغيُّر في منصب الرئاسة الإِيرانية، من رفسنجاني، إِلىٰ خاتمي الذي يُعد معتدلاً (1997)، وأخيراً الضربات التي وُجِّهت إِلىٰ نيروبي ودار السلام (1998)، مراحل هامة علىٰ الطريق إِلىٰ تقارب حَذِر بين واشنطن وإِيران، وقد أتاح هذا نشوء تعاون ـ لا ريب في أَنَّه يقتصر علىٰ أَفغانستان ـ بين كلا البلدين. علىٰ أَن الجمهور لم يكد يطَّلع علىٰ هذا.

ثم إِن العملية العقابية الراهنة، من قِبل الولايات المتحدة ضد المنشآت العسكرية للطالبان، وإِسقاط النظام قسراً في كابول علىٰ يد واشنطن، وهي العملية التي كانت منسَّقة مع إِسلام آباد باتجاه الخارج، تثبت بأسلوب متناقض عبثي، من جديد، التطابق الضمني في المصالح بين واشنطن التي تتحمّل كلَّ عِبء الحملة، وطهران التي لا تضطر إِلىٰ إِطلاق طلقة واحدة، وتعود فتلفت الأنظار في المدينة المحرّرة، هراة، بوجودها الاقتصادي والسياسي، وكان الطالبان، منذ صعود نجمهم، يرون في إِيران

واحدة من أعدائهم الرئيسيين. وهذا يمت بصلة إِلىٰ رسوخ جذورهم من ناحية تاريخ الفكر، في مذهب الديوباندية الذي وجد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والذي كان موجهاً ضد الشيعة توجيهاً صارماً، كما يمت بصلة، من ناحية أُخرى، إِلىٰ الصدّ الباكستاني الصادر عن التقاليد الباكستانية لكل المؤثرات غير البشتونية القادمة من الغرب.

ففي مستهل آب، 1998 مثلاً، أقام الطالبان، عند غزو مدينة مزار الشريف الواقعة في شمالي أَفغانستان، والتي كان يسيطر عليها حتى هذه اللحظة، الجنرال الأوزبكي دُسْتُم، ضد ذوي القنصل الإِيراني المقيم هناك، أي ضد الشيعة، مجزرة، وفي هذه المرة لم تكن طهران مستعدة للالتفات إِلىٰ حياتها اليومية مكتوفة الأيدي، فأصرَّت علىٰ تجلية الحدث والحكم علىٰ المذنبين. وطلب إِلىٰ مجلس الأَمن مناقشة المسألة، فساند المطلب الإِيراني، وبعد صمت دام أسابيع، سَلَّم الطالبان في منتصف أيلول بقتل تسعة من الدبلوماسيين الإِيرانيين، ومع ذلك فقد حمّلوا مسؤوليتهم جنوداً بُسَطاء ووعدوا بمعاقبتهم «علىٰ انتهاك القانون الإِسلامي».

ولم ترض طهران بهذا التصريح، وبعد ثلاثة أيام أنذر زعيم إِيران الروحي، آية الله علي خامئني، الطالبان، وباكستان، قائلاً إِنهما يستثيران نزاعاً إِقليمياً. وفي مستهل أوكتوبر 1998 تصاعد الموقف، وحوَّلت طهران فصائل كثيرة من قواتها إِلىٰ الحدود مع

أَفغانستان من أجل مناورة علىٰ ما قيل. ووقف، حيناً من الزمن، خمسة وعشرون ألفاً من قوات الطالبان في مواجهة قوة إِيرانية تتفوَّق عليهم بمقدار ثلاثة أضعاف، وبالنظر إِلىٰ القوة العسكرية الممكنة عند كلٍّ من النظامين (بموجب تصريح صادر عن معهد الدراسات الاستراتيجية المرموق السمعة في لندن)، كان يوجد تحت تصرف إِيران في عام 1997/ 98 قوات مقاتلة يبلغ حجمها 513000 رجل، يقف في مواجهتهم علىٰ الجانب الأَفغاني، بما في ذلك تحالف الشمال، 429,000 رجل، كان ثمة صراع إِقليمي كبير يوشك أَن ينشب. ولأسباب أمنية استدعت طهران دبلوماسيّيها المتمركزين في باكستان، وكان ذلك إِشارة إِلىٰ مدى توتُّر العلاقات بين «الدولتين الإِسلاميتين الشقيقتين»، ولم يكن يترتب علىٰ الطالبان أَن يُعِدّوا أنفسهم لهجوم إِيراني فحسب، بل كان عليهم أيضاً أَن يتخوَّفوا من أَن يتحالف سكَّان هراة والأجزاء الغربية الأُخرى من البلاد، مع الغزاة الإِيرانيين وينظروا إِليهم علىٰ أنهم محرّرين.

وفي هذه اللحظة المفعمة بأكبر الخطر علىٰ نظام الملاّ عمر، رأى هذا نفسه مستعداً، لأول مرة، لاستقبال الإِبراهيمي، المفوّض الخاص للأُمم المتحدة، وهو مسلم، ومارس عمر طوال ثلاث ساعات حِواراً أحادياً من دون أَن يكشف عن روّية وتبصُّر. ومن قندهار تابع المبعوث رحلته إِلىٰ طهران، وبمفاوضات شاقة توصَّل إِلىٰ هدنة، وإِلىٰ تبادل للرهائن المأخوذة بصورة متبادلة.

وبالنظر إِلىٰ تخلُّف قواتهم في العدد لانت قناة الطالبان للمرة الأولى والوحيدة حتى الآن تجاه طهران، فاعتذروا عن المجزرة التي حدثت في مزار الشريف وانسحبوا من الحدود المتاخمة لإِيران.

علىٰ أَن التهديد المؤقت للنظام في قندهار لم يجعله محبّاً للسلام. ولم تكن الصورة التي ظهر بها الطالبان مختلفة عما حدث في تلك الأيام أيضاً، إِذ أعلن الملاّ عمر علىٰ الولايات المتحدة الحرب المقدسة، غير متأثّر بالضربات الانتقامية الأمريكية، وإِذ يظهر الطالبان، في تلك الأيام أيضاً أنهم مقاومون للضغط السياسي والكبت العسكري، علىٰ المدى البعيد. وبعد أَن خفت حدة توتر الوضع علىٰ الحدود الإِيرانية بوقت قصير، بدأت اشتباكات جديدة مع تحالف الشمال الذي بات الآن مؤلَّفاً من مسعود وحده. ذلك لأن الطالبان كانوا قد تقدَّموا منذ ما قبل الأزمة في غربي أَفغانستان للانقضاض علىٰ آخر إِقليم ما زال حرّا في وسط أَفغانستان، وهو إِقليم باميان الصعب المسالك. أما زعيم الهزارا الشيعيّ، كريم خليلي، الذي كانت إِيران تسانده حتى الآن، فلم يكن له بدٌّ أَن يهرب إِلىٰ طهران، حيث كان قد وجد الملاذ في هذه الأثناء كل زعماء تحالف الشمال السابقين تقريباً، وهم العلاَّمة ربّاني، ودُسْتُم، وعبد الملك وحكمتيار، وكان هذا هزيمة منكرة أُخرى بالنسبة لطهران التي فقدت واحداً من محاسيبها الأخيرين.

وبينما كانت طهران تتكبَّد بذلك، في مزار الشريف وباميان، خسارة أرض تتعذر استعادتها، استأنفت باكستان جهودها للظفر بالمزيد من الأرضية السياسيَّة. وكان قد حاولت، منذ عام 1997 أَن تعقد مؤتمراً للأفغان، أَو تجري حواراً «بين الأَفغان»، يماثل ذلك الحوار الذي كانت طهران قد أجرته في نهاية عام 1996 ومستهل عام 1997 مرتين (بنجاح محدود). وفي هذا الصدد رجعت باكستان إِلىٰ طِراز من التفكير الجد، وذلك أنّه لمّا كانت المفاوضات بين الزعماء العسكريين محكوماً عليها بالإِخفاق، فقد اقترحت إِسلام آباد هذه المرة لقاءً بين معلمي القرآن الروحيين (العلماء) سوف ينحني أمراء الحرب المسلمون أمام قراراته ـ وكان هذا هو التوقُّع، كما قيل.

وبالفعل تحقَّق لقاء في السادس والعشرين من نيسان 1998 في إِسلام آباد، وحضره ممثلون عن الأُمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإِسلامي علىٰ المستوى المتوسط. وبالنسبة لباكستان كانت هذه الحفلة التي كانت ثمرة عامين من دبلوماسية البندول العنيدة، نجاحاً عاد عليها بالاحترام فحسب، أمّا إِيران، التي كانت قد ساندت المشروع بشطر من عواطفها فحسب، فكان ذلك بالقياس إِليها هزيمة دبلوماسية، ولكن لم يتحقَّق اختراق في المؤتمر، فاستمرت المشاحنات بغير حدود. ولم يحدث لقاء تالٍ. ومن زاوية النظر في هذه الأيام يعد هذا الحفل من قبيل الأخبار المتنوعة التي طواها النسيان منذ عهد بعيد. وفي تاريخ الخصومة

الباكستانية الإِيرانية ذات الوجوه الكثيرة، حول النفوذ في أَفغانستان يُعَدُّ هذا، في مقابل ذلك، مرحلة تتسم بقوة الإِفادة والبرهان.

أمّا في طهران، فلا بدَّ لسياسة الانتقام الأمريكية الجديدة، التي سنكون شهودها نحن في هذه الحقبة، أَن تبعث شعوراً بالرضى والاغتباط. وفي الوقت الذي تبادر فيه أمريكا إِلىٰ التخلُّص من نظام الطالبان، تنعطف، بعد حقبة طويلة من «الخطأ»، نحو الموقف «الصحيح». وتدبِّر الدولة العظمى لطهران الضعيفة، المزدراة في أمريكا علىٰ وجه الخصوص إِلىٰ حد بعيد، هذا العمل السياسي. وحتى في المستقبل سيكون من الواجب أَن يُحْسَب في أَفغانستان حساب لإِيران، وسيكون من المأمول فيه تهيئة مكان آمن مضمون للأقليات الشيعيَّة والأقليات الناطقة بلغة الداري في إِطار النظام الجديد للبلاد. وسوف يتواصل خصام طهران مع إِسلام آباد بعد عقد الصلح في كابول.

علىٰ أَن الوضع أكثر تعقيداً بالنسبة لإِسلام آباد. وذلك أَن رئيس باكستان أُرْغِم، عن طريق الولايات المتحدة علىٰ نقض سياسة بلاده التقليديَّة في أَفغانستان، وتم سحب المساندة السياسيَّة والعسكريَّة لذلك الذي كان حتى الآن من محاسيب باكستان، وهو نظام الطالبان. وعلىٰ الرغم من تذمُّر القوى الإِسلامية المتطرِّفة في بلاد مشرَّف ذاتها، شارك بحمل عبء في عمليات الأمريكيين، وتخلَّى بذلك عن موقف مبدئي في السياسة الباكستانية في أَفغانستان كانت تمثِّله حكومتا سَلَفَيْه. وهذا التوجُّه الجديد (الذي

obeikandi.com

تحرّكه دوافع تكتيكية علىٰ الأقل) لسياسته لا يمكن أبداً تقديره تقديراً عالياً بما يكفي، وبالاشتراك مع القوة العسكرية الممكنة لدى الولايات المتحدة أثبت أَنَّه العامل الحاسم في التخلّص من نظام الطالبان.

علىٰ أَن الانعطاف الراهن لدى إِسلام آباد لن يغيِّر ثوابت السياسية الباكستانية في أَفغانستان. وهذا سوف يتبيَّن منذ الآن في تصريحات ممثلي الحكومة الباكستانية. ففي حالة النظام الجديد للعلاقات سوف تحرص باكستان، مثلما حرصت في الماضي، علىٰ أَن يكون الذين يحدِّدون السياسة في كابول في المستقبل بشتونيين محافظين، ولا سيما من القوى الموالية لباكستان، مهما تكن تشكيلة الأحزاب التي ينتمون إِليها ومهما يكن الاسم الذي يحملونه. وقد يظل الطالبان حدثاً عابراً في مسار التاريخ الأَفغاني غير أنهم وقفوا إِلىٰ جانب مصالح باكستان الخاصة التي تتسم بالديمومة، وسوف يبحثون، في كابول المستقبل، عن أناس جدد يدافعون عنهم ويتحدَّثون باسمهم.

17

أزمة مزار الشريف

لقد هاجم الطالبان كابول ثلاث مرات، في شباط وتشرين الأوّل من عام 1995، كما غزوها في نيسان/ أيار 1996، ولم يفتتحوها إلاَّ في المحاولة الرابعة، أي في أيلول 1996، ولكن الانتصار علىٰ تحالف الشمال لا يكون كاملاً إلاَّ عندما يتاح لهم التقدّم إلىٰ الشمال، ويحتاج الأمر، مرة أُخرى إلىٰ العديد من المحاولات للاستيلاء علىٰ مزار الشريف، معقل دُسْتُم، ولم يتحقَّق بلوغ هذا الهدف إلاَّ في 8 آب 1998. ويتم الهجوم الأول للطالبان في 19 أيار 1997 ولا أريد أَن أصف هذه الهجمات هنا لمجرد أنني شهدت الأحداث عن كثب، بل أريد ذلك أيضاً لأن مجمل مساحة الخصومات الأَفغانية تتجلّىٰ مع هذه الأزمة في مزار الشريف، كم تجلّت خطوط المصالح السياسيَّة والدوافع الخفية عند الأحزاب، وتوقعاتها، ومخاوفها، كما تتجلّى تحت مرآة ذات

obeikandi.com

بُؤْرة، أجل، بل لأن مسرحية تجلّت بما فيها من الأوغاد الشريرين والمتآمرين والخونة.

ففي ذلك اليوم، المصادف 19 من أيار، تلقيت، بعد انتظار طويل، موعداً لدى مسعود، وهذا القائد هو آمر جبهة الشمال، وحضوره المرئيُّ الظاهر أملاً لا يُستغنى عنه بالنسبة لجنوده تقريباً. ولذلك لا يكون الوصول إِلىٰ الرجل الطاجيكي من أجل المفاوضات معي إِلاَّ بجهد جهيد. وفي الغرب المسيحي سوف يُحْتَفَل مباشرة بعيد العنصرة في يوم الاثنين. ولا يمكن للقليل من إِلقاء الضوء أن يضير ما نزمع عمله، كما أفكر بينما أُقْلِع بالطائرة مع الروسي كابولوف، والعقيد الإِيرلندي هوجان، والمترجم، إِلىٰ طالوقان، والجو في شمالي أَفغانستان باعث للأسى، وكانت دفقات المطر في الأيام الأخيرة قد أحدثت ليونة في مدرج الطيران الاحتياطي، وكانت التعليمات في الأصل تقضي بتحويل وجهة الطائرة إِلىٰ كوندوز.

ولكن قُبَيْل الإِقلاع يقال إِن مدرج الطالوقان قد تم إِصلاحه من جديد، ويرافقنا شعور بعدم الأمان. ومع ذلك فلا نستشعر أَن هذا اليوم سيأتي معه بتحُولات دراماتيكيَّة.

ومن حيث كوني وسيطاً بِتُّ هذه المرّة في حَرَج من أمري. ولا أستطيع أَن أنقل إِلىٰ مسعود إِلاَّ الوعد، بشطر من عواطفي من الملاّ غوث، أَن يتفاهم مع زعيم الطاجيك. ولكن أين يفترض أَن

يتلاقى الأعداء؟ أما إِسلام آباد التي اقترحها وزير خارجيَّة الطالبان فسوف يرفضها مسعود لأسباب تتصل بالأمن الشخصي، لأنه يشتبه في رغبة المخابرات الباكستانية في قتله، وكذلك لا يجوز له أَن يسافر إِلىٰ أشخاباد، أَو إِلىٰ الخليج، لأنه لا يريد أَن يمكث طويلاً بعيداً عن الجبهة. فهل يجب عليَّ أَن أعرض بالفعل حواراً في المنطقة الحرام (الفاصلة بين الجبهتين) في شمال كابول، في خيمة أَو في مُدَرَّعة، كما ناقشت ذلك مع رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر؟ ثم إِن الوقت يداركنا، ومشاوراتي في موسكو حُدِّدَ موعدها بالتاسع من حزيران.

وتتألَّف طالوقان، عاصمة إِقليم طَخار الواقع في شماليّ أَفغانستان، والمتاخم لطاجكستان، من مجموعة من البيوت الطينيَّة الكئيبة. ويجري استثمار الأرض استثماراً مركَّزاً، وفي كل مكان أرى قنوات ريّ اصطناعية، وحقولاً خُضْراً. وحين تحطُّ طائرتي لا يكون مسعود حاضراً بعدُ في المكان، وهو ما كنت أخشاه. ويقال إِنه بقي في الجبهة إِلىٰ أَن يتم إِبلاغه بوصولي، وبعد ذلك فحسب يقلع بالطائرة، ويصرح لي أحد موظفي المراسم بأن القائد لن يصل قبل ساعة. فأطرح البرنامج جانباً وأسأل هل يحق لي أَن أزور العلامة ربّاني من دون إِعلامه سلفاً، ويأتي الجواب فيفيد أَنْ ليس هناك اعتراضات. وعلىٰ هذا ننطلق إِلىٰ مقر ربّاني، وفي الطريق يتم إِبلاغي بأن مسعوداً قد حطت طائرته علىٰ الأرض، ولذلك نعود أدراجنا. وكان القائد ينزل لتوه من طائرة القتال

العمودية الروسية العملاقة، وينفض الغبار عن سرواله مبتسماً ويرجو مني أَن أدخل المضافة، ويكون هاتف الفضائية منصوباً في الحجرة الجانبية لتأمين الاتصال الدائم بالعالم الخارجي.

ويدوم الحوار مع القائد الدَّمِث الرقيق، الذي يبدو دائماً منطوياً علىٰ نفسه، ساعتَيْن. وأنقل إِليه الاقتراح الذي يتضمن لقاءه مع غوث، ويقبل مسعود باقتضاب، من دون أَن يناقش، ولكنه لا يريد، مثلما كنا نخشى، أَن يسافر إِلىٰ إِسلام آباد، ولا إِلىٰ أشخاباد، وأسأله هل يوافق علىٰ اجتماع عند الجبهة، ويجيب مسعود بالإِيجاب، كما يلائمه التاريخ أيضاً، وهو 1/2 حزيران. وأعده بأن أتحدث مجدَّداً مع غوث، وبإِبلاغ دُسْتُم وخليلي بعد ذلك.

ونتحدَّث عن الوضع العسكري. ويقول القائد إِن هجوم الربيع من قِبل الطالبان لم يحدث، وإِنهم تكبَّدوا خسائر فادحة في الهجمات المتفرقة في وادي بانجير وفي إِقليم كابيسا، وإِنهم خسروا أرضاً في إِقليم لاغمن، وإِنه لا بدَّ لهم الآن أَن يحافظوا علىٰ جبهة تمتد عبر أَفغانستان. وهذا يسبِّب مشكلات كبيرة في الإِمداد والتموين، ومرة أُخرى يتهم مسعود باكستان بالتدخّل في القتال، ويقول إِنّه تمَّ، قبل أسبوع، تحويل ألف من الجنود الباكستانيين إِلىٰ كابول، وبَرْوان وكابيسا. ورداً علىٰ سؤالي يؤكد مسعود أَن المسألة لا تتعلَّق بأناس تابعين للجيش، من النظاميين، بل بمشاركين متطوِّعين، شعارهم «تحرير بخارى، المدينة

المقدسة في أوزبكستان»، وأن المشاركين المتطوِّعين قد تمَّ تدريبهم علىٰ يد المخابرات الباكستانية، وأناشد القائد أن يكفَّ عن قصف كابول في المستقبل، وأن لا يضع ألغاماً جديداً ـ وهذا مثار اهتمام الألمان، وأُذَكِّر بعد ذلك بأن حزام الألغام لم يَحُلْ دون سقوط العاصمة في أيدي الطالبان، ويسكت مسعود.

وفجأة يقطع حوارنا حديث هاتفيّ، ويدخل مسعود إِلىٰ الحجرة المجاورة، ويظل باب الاتصال مفتوحاً، ويظل الطاجيكي يتحدَّث عشر دقائق بلغة الدّاري، ويهمس إِليَّ مترجمي قائلاً إِن الذي يتحدث علىٰ النهاية الأخرى من الخط هو الجنرال دُسْتُم. وكان من الواضح أنَّه يوجد مشكلات في مزار الشريف، ويقول إِن مسعوداً قد وعد الجنرال لتوّه بأنه يزمع إِرسال قوات إِلىٰ المدينة، كما يرد في هذا الحديث الهاتفي مراراً اسم الحاكم السابق لهراة، وهو إِسماعيل خان، الذي يعيش لاجئاً في مزار الشريف. ويعود مسعود إِليّ، ويبدو شارد الفكر ذاهلاً عن نفسه، وفجأة يستعجل في إِنهاء لقائنا، وأسأل هل توجد صعوبات في مزار الشريف، ويجيب مسعود بأن أشكالاً جديدة من التوتر قد تَجلَّت بين دُسْتُم وبين حاكم إِقليم فارياب، غول بهلوان، وغول هو شقيق الجنرال رسول بهلوان الذي قُتل في عام 1996، والأخ غير الشقيق للجنرال عبد الملك، مستشار دُسْتُم للشؤون الخارجيَّة، ولكن دُسْتُم يُشْتَبَهُ أيضاً بأن له ضلعاً في قتل الجنرال رسول. وتكون شبكة من العلاقات معقَّدة، ويشرح لي مسعود أنَّه يحافظ علىٰ علاقات طيبة

مع دُسْتُم ومع غول بهلوان علىٰ حد سواء، ولذا فسوف يبعث بوفد إلىٰ مزار الشريف للتوسط بين الاثنين، ومع هذه الكلمات يودعني القائد، وينطلق إلىٰ العلامة ربّاني ليطلعه علىٰ الأحداث التي جرت في مزار الشريف. علىٰ أَن ملاحظاتي حول المفاوضات تُذَكِّر بدراميّة الحوار في تلك الأيام.

وفي رحلة العودة بالطائرة نمارس التكهُّنات حول المخابرة الهاتفية لمسعود، من دون أَن نعثر علىٰ تفسير وفي المساء أمضي متجوِّلاً إلىٰ مخبز أَفغاني في سوق جنّاه، حيث يبيع لاجئو الهزارا الخبز الفلاّحي المستساغ في نشاط كنشاط النحل. علىٰ أَن أبناء صاحب المحل الصغار الودودين يعرفونني. ويحييني أكبرهم وهو يقول: «أنباءٌ سيئة من مزار الشريف» وبينما أقوم أنا بالبحث عن جواب تمرُّ بي، بطريق المصادفة، المتحدثة الصحفية باسم الأُمم المتحدة، سارة رَسْل، في سيارتها، وحين تبصرني في المخبز تُقْبِلُ عليّ وتخبرني أَن الجنرال عبد الملك قد انشق عن دُسْتُم بعشرة آلاف جندي، وانضم إلىٰ الطالبان، وقالت إِن فارياب يرفرف عليها العَلَم الأبيض، وإِن مالكاً قد أَسَر قادة وجنداً لدُسْتُم بأعداد جَمّة، وفيهم الحاكم السابق، إِسماعيل خان.

وتكون جلسة أزمات في دار الأونسما، ويؤكد كابولوف النبأ، علىٰ أَن تبديل مالك لجبهته يزلزل موقف دُسْتُم الذي كان يبدو قائداً لا يُهْزَم حتى الآن. وتخطر ببالي نبوءة روبين رافيل التي قالت إِن دُسْتُم أحرى أَن يُطاحَ به علىٰ يد خصوم داخليين من أَن يُطاحَ به علىٰ يد أعداءٍ خارجيين.

ومن الممكن أَن يكون الاختراق إِلىٰ شمال أَفغانستان من قبل الطالبان قد نجح بتبدُّل التحالفات، كما نظن. وذلك أنهم يحاولون، منذ ثمانية أشهر عبثاً أَن يعبروا ثقب الإِبرة المتمثِّل في نفق سالانج. والآن يبدو أنهم نجحوا في التقدم إِلىٰ المنطقة التي يسيطر عليها دُسْتُم، وكان ذلك، مرة أُخرى، لا عن طريق القتال، بل عن طريق الخيانة، وتحوُّل عبد الملك من جانب إِلىٰ آخر تعرض التعاون الداخلي في تحالف الشمال لأقصى أنواع الخطر، وكان مسعود وحده هو الذي حافظ علىٰ جهاز قوته سليماً. ونتيجة لإِضعاف دُسْتُم تعرَّضت خطوط تموين خليلي في باميان الواقعة في وسط أَفغانستان للحرج.

ولكن إِذا انهار تحالف الشمال خلال ساعات فهل يظل الطالبان مهتمين بحوار لوزير خارجيتهم مع زعماء تحالف الشمال كانوا وعدوا به دُسْتُم ومسعود بعد مفاوضات مكّوكية مجهدة؟ «الله يعلم أَن مهمة السَّلام ما عادت عليّ بالسعادة؟ وذلك أنها تتطوَّر إِلىٰ حظ عاثر ولا شيء غيره»، هذا ما أُدوِّنه في المساء في يوميّاتي.

وتُبَلِّغ الصحافة الباكستانية في 20 أيار عن مزيد من التفاصيل، إِذ صرح عبد الملك في مقابلة له مع هيئة الإِذاعة البريطانية، أَنَّه أسر 500 جندي ومائة جنرال لدُسْتُم، ومعهم أيضاً الحاكم السابق لهراة، وهو يُعِدُّ عشرة آلاف رجل للقتال ضد الأوزبك، ويقول إِن دُسْتُم تمت تنحيته من قبل حزب NIMA

(حركة أَفغانستان الإِسلامية الوطنية)، بسبب «الإِخلاف بالشرف وبسبب ماضيه الشيوعي» من منصب زعيم الحزب. أما ما يمكن للمرء أَن يخرج المرء به من أمثال هذه التصريحات المُدوِّية فيبدو كأن دُسْتُم فقد السيطرة علىٰ باجيز وفارياب، ويذيع راديو الشريعة (كابول) أَن الطالبان اخترقوا الجبهة في باجيز، وزحفوا نحو العاصمة الإِقليمية، فارياب.

وينتشر مستشارِيَّ هنا وهناك، أمّا الياباني تاكاهاشي، مستشاري المختص بالطالبان، فيطير إِلىٰ قندهار، وأكلِّفه بالسِفارة إِلىٰ الملاّ غوث الذي أود أَن ألقاه عما قريب، وأما برتولت فيسافر إِلىٰ كابول من أجل جلسة أزمة للعاملين في تقديم المعونة في الأُمم المتحدة. وفي المساء أدلي بتصريح ـ من دون أَن يُوجَّه اللوم إِليَّ من نيويورك هذه المرة ـ أناشد فيه الأحزاب تجنُّب سفك الدماء والعودة إِلىٰ مائدة المفاوضات. وفي الحادية عشرة يُبْرِق بريندرجاست ويريد أَن يَطَّلع. وكذلك يهتف إِليَّ صحفيّون ويريدون أَن يسمعوا تعليقي، ولكن المعلومات متناقضة. أمّا كابولوف الذي تخرج تقييماته مختلفة ببعض الفروق واللُّوَنيات بما يجعلها أكثر محاباة لدُسْتُم، فقد عَلِم من القنصل العام الروسي في مزار الشريف أَن المدينة ستعود إِلىٰ الدخول تحت سيطرة دُسْتُم، وفي مقابل ذلك يقول العقيد هوجان إِن الجنرال روزي، المستشار العسكري الأهم عند دُسْتُم، قد انضم إِلىٰ عبد الملك، ولا يعرف علىٰ وجه اليقين أي موقف يتخذه

عبد الملك من الطالبان. هل ينظر إِلىٰ نفسه علىٰ أَنَّه حليف لهم مساوٍ لهم في الحقوق، مع تمتُّعه بحُرْمَة معينة، أم يخضع لهم ويدعهم يزحفون إِلىٰ مزار الشريف؟ وإِذا استولى الطالبان علىٰ مزار الشريف يكونون قد اقتربوا من هدفهم، وهو غزو أَفغانستان كلها بخطوة عملاقة.

وفي 21 أيار تعلن الصحافة الباكستانية باغتباط ملموس أَن دُسْتُم قد خسر الأقاليم الأربعة، باجيز، وفارياب، وباقلان، وسامنجان التي استولى عليها الطالبان، وما عاد يوجد تحت أمره سوى بلخ وجزجان، ولكنه يقاتل هناك أيضاً من أجل بقائه، وفي الوقت ذاته مهَّد الطالبان لهجوم عند ممر خيبر، علىٰ حليف دُسْتُم، كريم خليلي، وقالت إِنهم يستغلّون الضعف الراهن في تحالف الشمال لفَرْض المرور باتجاه باميان. وحين نلتقي في الصباح لمناقشة الوضع نعتمد علىٰ التكهُّنات، فمنذ الأمس لا ترد برقيات من مزار الشريف، وقد أخلدت وكالات الأُمم المتحدة هناك إِلىٰ الصمت، وكذلك بات المطار مغلقاً وتُلِحُّ علينا الأمانة العامة في نيويورك أَن نروي لها التفاصيل، وأن نبعث إِليها مواد الخرائط بالفاكس، ولأَنْ تقول الشيء أسهلُ من أَن تفعله.

وعند الظهر تكون مناقشة ثانية. وفي هذه الأثناء تلقى المستشار العسكري البنغلاديشي، مُنَوَّر، اتصالاً من قبل مستشار مجلس الأَمن لوكالات الأُمم المتحدة، الأوسترالي الفظّ، ألان برايملو. وبعد التشاور نتوصَّل إِلىٰ الاستنتاجات المؤقتة التالية:

– [Zahir]

ethnische Friedensinitiative. Soll VN-Mission (4)
unterstützen. Sollen sich in D oder sonst treffen.
Zentrum soll in D errichtet w. Werden Kontakt zu
Ihnen aufnehmen [mit H. allein]! – Ich: VN unterstützt im Prinzip.
Nächstes Mal Delegation, Aug nicht allein. – Ich: frage
nach eventueller Rolle Zahir Shah. Weise auf Rom-Kon-
sultationen. Zahir: mediator, not king. – Massud:
Kommission wird Sie briefen. Meine Haltung: unbezogte
der Afghanen nehmen jeden Friedensversuch an.
[M. telefoniert mit Dostum] L sprechen v. Ismail
Khan. Massud schickt Truppen nach Mazar. – T.-An-?
griff.] – [Treffen mit Z.] f. Polit. Öffnen Vorort Taliban? –
Rabbani: In Duschanbe Anschl. A.+Taj. Taj fürchtet T u.
Grenzproblem. Kürzeres Treffen mit Rafs. wg Erdbeben
ECO hauptsächl. Wi.Fragen. Pipeline + Railway usw nach pol. Lö-
sg. Bil. Türkei Präs, Kasachistan, Turkmen. unterstützen. Nawaz Sh.
bilateral pak. Support for T. I said its problem also for region. Force
them to negotiation. Karimov auf PK. – Ich: pak. Interafghan
Dialog u. mit VN abgestimmt. – Rabb. NS fragt wg SCDA-Teilnah-
me. Rabb. ausweichend. – Ich: Zahir? R: Hauptproblem T+PK, nicht Z]

obeikandl.com

1 ـ يبدو أَن رغبة عبد الملك هي أَن يحتل مكان دُسْتُم في زعامة الحزب ورئاسة الحكومة، وهو يريد أَن يؤمن لنفسه دوراً قائماً بذاته، وهذا يدخله في صراع مع الطالبان الذين يريدون أَن يتخلَّصوا من البُنىٰ القيادية المستقلة في المنطقة التي غَزَوْها، ولن يتسامحوا في وجود حزب NIMA بصفته حزباً مستقلاً، وهذا يدع المرء يستنتج أَن عبد الملك لن يضع قواته تحت إِمرة الطالبان، بل يريد أَن يحتفظ بها عامل قوة خاص به. وبحكم كونه ابناً لأب أوزبكي، وأم بشتونية، كما يكتب كابولوف، ففي وسع مالك أَن يُوَحِّد أعراق شمال أَفغانستان حوله بسهولة أكبر مما يفعل دُسْتُم ذو النسب الأوزبكي. ويضاف إِلىٰ ذلك أَن قرابته من البشتون يمكنها أَن تسهِّل تحالفه مع الطالبان. وفضلاً عن ذلك فعبد الملك لا يُثْقِل كاهله عبء الماضي الشيوعي، علىٰ النقيض من دُسْتُم، بل المسألة علىٰ النقيض: فأخوه نصف الشقيق المقتول، رسول، كان قائداً مرموق السمعة في الحرب ضد السوڤييت.

2 ـ العقيد هوجان يصر علىٰ أَن تظل جبهة باجيز «قائمة»، ويقول إِنها لم تُكْتَسَح من قِبل الطالبان، كما أنهم لم يتقدموا نحو نفق سالانج وممر خيبر. والحق أَنَّه تم الإِبلاغ من أماكن مختلفة، عن اشتباكات بين خصوم دُسْتُم وأتباعه، ولكن الطالبان لم يتمكنوا من الاستفادة من ذلك. أما هوجان فيرى أَن عبد الملك لا يسيطر إلاَّ علىٰ إِقليمي باجيز وفارياب. أمّا الأقاليم الباقية (وهي سامنجان وباقلان، فضلاً عن بَلْخ وجوزجان)، فهي في حوزة دُسْتُم.

obeikandl.com

وتذهب، من جديد، برقية إِلىٰ نيويورك، ويُعْلِم بريندرجاست مجلس الأَمن. وفي تقريري أنتهي إِلىٰ ستنتاج مؤداه أَن الجنرال عبد الملك انشق علىٰ دُسْتُم في الحقيقة، غير أنّه لا يعدُّ، من أجل ذلك، الحليف الجديد للطالبان، ويبدو تصرفه تعاونياً من ناحية، وينطوي علىٰ المجابهة من ناحية أُخرى. وبُعَيْد ذلك يوعز الملاّ غوث إِلىٰ من يسألني هل يستطيع هو أَن يُحَدِّثني غداً، وأَعِدُه بذلك.

ومن قرأ الصحافة في الثاني والعشرين من أيار فلا بدّ له أَن يرتاب في صحة تحليلنا بالأمس فالصحف تقول بالإِجماع إِن عبد الملك يتعاون مع الطالبان، وأن قواتهم غزت عاصمة إِقليم فارياب، ميمنة وزحفت نحو شيبرغان ومزار الشريف. وتقول إِن محاولة وساطة لمسعود أخفقت من جراء عدم استعداد عبد الملك للمصالحة، وإِن عبد الملك سلَّم كل المقاتلين الذين ينتسبون إِلىٰ هراة إِلىٰ الطالبان. ويظل من غير الواضح هل يوجد إِسماعيل خان بينهم. والصحافة تتنبّأ أَن يكون أول ما يحدث أَن يتمرّد السكّان الطاجيك علىٰ مسعود، ويقول الطالبان إِنهم اقتحموا ممر خيبر، صورة قاتمة.

وعند الظهر يعود تاكاهاشي من قندهار ويروي أَن إِسماعيل خان قد تم تسليمه إِلىٰ الطالبان ومرة أُخرى أقعد مع المستشارين لأصمم برقية إِلىٰ نيويورك، وإِذا دبلوماسي شاب، من مُمَثِّليّة الولايات المتحدة ينضم إِلينا علىٰ غير انتظار، ونعلم، وقد تولَّتنا

الدهشة، أَن «عبد الملك، ودُسْتُم، والطالبان يتصلون هاتفياً، في كل يوم، بالسفارة الأمريكية»، وأن هذه تظل أيضاً علىٰ اتصال بمنظمات المعونة الأمريكية في شمالي أَفغانستان. علىٰ أَن شبكة المعلومات العائدة إِلىٰ دولة عظمى أوسع انتشاراً من شبكتنا. أما في مضمار التقييم فالأمريكيون ينتهون بالطبع، كما نقرر، إِلىٰ النتيجة التي انتهينا إِليها، ذاتها.

وعند الظهر أنقل الملاّ غوث من المطار، وأرى في صحبته حاكم البنك المركزي، إِحسان الله إِحسان والمدير العام، فضل الرحمن. كما ألتقي أيضاً بسفير الطالبان الجديد في إِسلام آباد، شهاب الدين ديلاوار، وهو مُلاّ متجهم الوجه لا ينطق كلمة بالإِنكليزية، وعلىٰ النقيض من غوث، الذي يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة ماكرة، بعينه اليمنى السليمة (فاليسرى مكفوفة)، يبدو أَنَّه يرى في كل علامة مودة انتهاكاً له، ونقعد معاً ثلاث ساعات، علىٰ الغداء أولاً، ثم علىٰ مائدة المفاوضات، ويطالب غوث بمعونة غذائية مدعَّمة من الأُمم المتحدة، ويشكو من باكستان التي لا يحق لها أَن تذهب بجزء من مواد الترانزيت الغذائية لاستهلاكها الخاص، وأسأله هل ينبغي لي أَن أتابع العمل علىٰ اللقاء مع مسعود، ويؤكد غوث اهتمامه باللقاء مع هذا القائد في دار الأونسما، وأخبره أَن مسعوداً يرفض المجيء إِلىٰ إِسلام آباد، وأنه أعلن عن استعداده للتحدث مع غوث عند خط الجبهة تحت مظلة الأُمم المتحدة، وإِنني اتفقت معه علىٰ تاريخ هو 1/2

obeikandl.com

من حزيران. ويَعِد غوث بالحديث عن هذا مع الملاّ عمر، ثم استفسر عن إِسماعيل خان، وأين يقيم في الوقت الحاضر، وهل ما زال علىٰ قيد الحياة، ويقول ما من شك في أَنَّه لم يُقْتَل. ثم يسترسل في ذكرياته، ويقول إِنه حاول (أي غوث)، قبل ثلاث سنوات، أَن يكسب حاكم هراة في ذلك الوقت إِلىٰ جانب التعاون مع الطالبان، ورفض إِسماعيل خان.

وبينما تظل الأُمم المتحدة تعترف بالعلاَّمة ربّاني رئيساً أَفغانياً للدولة، تمارس باكستان، علىٰ نحو يزداد انكشافاً باطّراد، سياسة ودِّية تجاه الطالبان. ففي 21 أيار يصرح وزير الخارجيَّة الباكستاني أمام الصحافة بأن حكومة الطالبان باتت في هذه الأثناء تسيطر علىٰ الجزء الأكبر من البلاد، بما في ذلك كابول، وتحرص علىٰ الهدوء والنظام، وأن باكستان ستعترف بها عما قريب.

وفي اليوم التالي أيضاً يبدو أَن الوضع يتطوَّر لصالح الطالبان، إِذ تقول الصحافة إِن الطالبان وقوات عبد الملك شكَّلوا حلقة حصار حول شبيرغان، وأن غول محمَّد بهلوان علىٰ بُعد خمسة كيلومترات من قرية خواجه داكو، مسقط رأس دُسْتُم، وأنه طالب مجدَّداً بإِستقالة هذا الأوزبكي من منصب القائد الأعلى ورئيس حزب NIMA. ومن الواضح أَن تصريح عبد الملك قبل ثلاثة أيام بأن دُسْتُم فقد مناصبه، كانت سابقة لأوانها. وكانت الحرب الكلامية يموج بعضها في بعض، إِذ يقول وزير الإِعلام في قندهار إِن قوات عبد الملك قد اندمجت كل الاندماج في قوات الطالبان،

ويناقض هذا الدكتور عبد الله باسم جمعية الإِسلام. وفي أثناء ذلك تنتقد الصحافة الأُمم المتحدة وترميها بـ «عدم العدالة»، لأنها تأبى علىٰ الطالبان مقعدهم في الجمعية العمومية علىٰ الرغم من أنّهم يسيطرون علىٰ 85٪ من مناطق الدولة، وتطالب الصحف بأن يعلن مقعد أَفغانستان شاغراً. ويصرح متحدث باسم وزارة الخارجيَّة، بأسلوب يبعث علىٰ الاختلاط، أَن أحدث التطورات ستعجِّل بتشكيل «حكومة ذات قاعدة عريضة»، أي حكومة تشمل كل المجموعات العرقيَّة.

وفي 24 أيار ينحسر مَدُّ التهليل الباكستاني أَول الأمر، إِذ ما عادت الصحافة تستطيع أَن تبتدع للطالبان ألواناً جديدة من النجاح، وما زال دُسْتُم مُطْلَق السراح لم تأسره القوات المتمردة، ولم يُقْتَل، أَو يطرد إِلىٰ الخارج مسلوب الشرف. وما زال يسيطر علىٰ بَلْخ وجوزجان، وكذلك يتأخر انقلاب الطاجيك علىٰ مسعود. وما من كلمة حول نفق سالانج وممر خيبر، حيث يتضح أَنَّه ليس هناك انتصارات للقندهاريين يجري الإِبلاغ عنها إِلاَّ أَن السفير ديلاوار يطالب، بصبر نافذ، «بأن تعترف باكستان وباقي المجتمع الدولي بحكومة الطالبان، ويصرح، في ثقة بنفسه، عن طريق مترجمه: «إِن مما يشكِّل إِهانة لأمتنا أَن يرفض أحد، كائناً من كان، الاعتراف بحكومة الطالبان، حتى بعد أحدث التحوُّلات في الأحداث» ويوصي الأُمم المتحدة بقوله إِنها ينبغي لها أَن لا تحابي أحداً في أَفغانستان».

وأسمع، من نيويورك أن وزير الخارجيَّة، جوهر أيوب، قد طلب من الأمين العام أَن يعيد مكتب الأونسما إِلىٰ كابول. علىٰ أَن مما يبعث علىٰ الدهشة مدى الصراحة التي كانت باكستان تجعل بها من نفسها محاميةً عن الطالبان، وكانت مع ذلك تؤجل قرار الاعتراف بحكومتهم، حِرْصاً منها علىٰ أَن لا تعزِل نفسها علىٰ الصعيد الدولي، وكانت مطالبة جوهر منسَّقة مع تصريح لوزير صحة الطالبان، ملاّ عباس، وكان هذا قد طالب وكالات الأُمم المتحدة في العشرين من أيار، في صورة إِنذار أخير، بنقل مقرّها إِلىٰ كابول. وكان مستشاري الفرنسيّ، برتولت قد أشار، في لقائه بالعاملين في تقديم معونات الأُمم المتحدة، في صدد أسئلتهم التي توحي بالقلق، وبروح من الشعور بالواجب، إِلىٰ أَن تحويل مكاتبهم مسألة سياسية، وهي حق محفوظ للأمين العام. وكان كوفي عنان قد أكَّد وجهة النظر هذه بُعَيْد ذلك في حديث له مع وزير الخارجيَّة الباكستاني، جوهر، وكنت قد نقلت من قبل نبأ مشهد برتولت إِلىٰ نيويورك.

وفي ساعة متأخرة من مساء 24 أيار يتصل بي هوجان، هاتفياً، ويبلغني أَن مزار الشريف سقطت بعد هجوم مشترك من قبل الطالبان والجنرال عبد الملك، ويقول إِن الغزاة اقتحموا وكالات الأُمم المتحدة ونهبوها، وبُعَيْد ذلك يأتي اتصال هاتفي من القائم بالأعمال الأَفغاني في إِسلام آباد، الذي يبلغني أَن غَوْثاً يعتزم العودة غداً إِلىٰ قندهار، ويرجو مني أَن يسمح له باستخدام

طائرة الأونسما، وأوافق علىٰ هذا، وألتمس مع ذلك، بالمقابل، الحماية للمستخدمين في الأُمم المتحدة، في مزار الشريف، وأقول إِنني سوف أودع غوثاً في الصباح التالي، في المطار، وأناقش معه بعض المسائل.

وكان يبدو أَن الحملة المظفّرة للحلفاء الجدد تمضي قُدُماً. وفي 25 أيار تبلغني الصحيفة أَن الطالبان والجنرال عبد الملك قد استوليا بالأمس علىٰ شيبرغان، وأن دُسْتُم قد فَرَّ إِلىٰ مكان مجهول. ويُعَيَّن الحاكم الذي كان حتى الآن معيناً من قبل الطالبان، لهراة، وهو الملاّ عبد الرزَّاق الذي تميَّز في الاشتباكات في شمالي أَفغانستان، قائداً أعلىٰ لجيش الشمال، وحاكماً جديداً لِبَلْخ علىٰ أَن تكون عاصمته مزار الشريف. أما جنرالا دُسْتُم، روزي وحافظ الذين توصلت إِلىٰ الإِفراج عنهما قبل نصف عام في إِطار تبادل للأسرى، فيقال إِنهما انقلبا إِلىٰ الطالبان، وأمّا عبد الملك، الذي مَكَّن من انتصارهم بخيانته، فتنقَّل في المراتب «علىٰ نحو بهر الأنظار» ويفيد ملاّ جليل، وستانا كازاي أَنَّه يغدو الممثل الثالث لوزير خارجيَّة الطالبان. وهذا ما تقوله الصحافة، علىٰ الأقل.

وفي ساعة مبكرة من الصباح أودع غَوْثاً وكلاً من مرافِقَيْه، إِحسان الله وفضل الرحمن، في المطار. ونقعد معاً ثلاثة أرباع الساعة، ويعدني غوث بالحرص علىٰ حماية العاملين التابعين للأُمم المتحدة في مزار الشريف، وردّاً علىٰ سؤالي التهكميّ

يؤكد، وهو يبتسم، تعيين «وكيله الثالث، الجديد، عبد الملك». ثم يكرر رجاءه بصدد المعونة الغذائية، وأسأله متى تعترف باكستان بحكومة الطالبان، فيتهرّب غوث من الجواب، ويقول إِن المسألة ما زالت موضع المراجعة، وقد تمّ تبادل السفراء من أجل كل الحاجات الباكستانية، وأُبْلِغ غوثاً بمشاوراتي الوشيكة في طشقند، وموسكو وباريس، وأقول إِنني مستعد لأن أحمل معي، ضمن أمتعتي رسائل محتملة من وزير الخارجيَّة وفي الختام أناشد الطالبان مرة أُخرى أَن يثبتوا، في ساعة النصر، نهوضهم بعبء المسؤولية، وأقول إِن الكيفية التي ستحكم بها الشعوب عليهم موقوفة علىٰ ما يصنعونه بأيديهم، ثم أودِّع غوثاً، بعناق قصير، وأتبادل مع إِحسان الله وفضل الذي يضاهي وجهه وجه الخراف إِلىٰ حد ما، والذي يحمل رزمة من الكتب تحت ذراعه، بعض النكات، ولن أرى كلا الرجلين بعد ذلك. وبعد ثلاثة أيام يقضيان نحبهما.

وحين أعود إِلىٰ الأونسما نناقش الوضع الذي لا يمكن الإِحاطة به بنظرة شاملة. ويصرّ العقيد هوجان بعناده الإِيرلندي علىٰ أَن عبد الملك لم يتنازل عن القيادة العليا للطالبان، ولم يضع قواته تحت إِمرتهم، ويقول إِن الجبهة عند نفق سالانج وممر خيبر ما زالت كما كانت حتى الآن، ويتحدث كابولوف عن اتصال هاتفي للدكتور طالب مع العلاّمة محقق، ويقول إِن هذا قال إِنه ما من أحد من الطالبان يقيم في مزار الشريف، علىٰ أَن التفاؤل

الحازم الذي لا يلوي علىٰ شيء، عند هوجان وكابولوف يغدو بالقياس إِليَّ باعثاً للانقباض علىٰ نحو يزداد زيادة مطَّردة، ومع ذلك أتابع تحليلهما مؤقتاً، ومرة أُخرى تذهب برقية إِلىٰ نيويورك، ومرة أُخرى يفترض أَن يتم إِطلاع مجلس الأَمن، وعند الظهر أنطلق بسيارتي إِلىٰ النُزُل العائلي، ويتصاعد ضغط الدم عندي. وأرقد بضع دقائق علىٰ سريري، هناك أنهض من فراشي علىٰ نداء هاتفي من مدير مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية يقول إِن قوات الجنرال عبد الملك استأنفت نهب مكاتب الأُمم المتحدة في مزار الشريف، وقد سُرِقت معظم سيارات الجيب. وأتحدث عن الوعد الذي بذله لي الملاّ غوث في الصباح، وأوصي بأن تحتكم وكالات الأُمم المتحدة في قندهار إِلىٰ مجلس الشورى، للوفاء بوعد وزير الخارجيَّة. ومما لا ريب فيه أَن الطالبان لا يستطيعون أَن يُلْزِموا الجنرال عبد الملك، ولكنهم حلفاء علىٰ كل حال، ثم يهتف إِليَّ السفير التركي قائلاً إِن خمسين من حملة الجنسية التركية باتوا في عداد المفقودين في مزار الشريف وشيبرغان، وفيهم القنصل العام والعاملون معه، ثم معلم في المدرسة التركية، وأطباء وذووهم، وأطفال أيضاً. ويقول إِن هؤلاء الأفراد يحتمل أَن يكونوا محتجزين بصفة رهائن من قبل عبد الملك، لممارسة الضغط علىٰ أنقرة إِذا ما هرب دُسْتُم إِلىٰ تركيا، كما يخشى السفير. وقال إِن الأُمم المتحدة هي وحدها التي تستطيع أَن تساعد، وأتحدث عن صعوباتي أنا، وأوصي

السفير بأن يتحدث مع الولايات المتحدة، الشريك في حلف الأطلسي، التي تعدُّ الوحيدة التي ما زالت تمارس نفوذاً علىٰ عبد الملك في هذا العَماء.

ويشكر لي السفير، وهو يقدِّم لي بعض المعلومات، ويقول إِن دُسْتُم يقيم في أنقرة، ويلقى رعاية طبية. وإِنه يعاني من عجز في الكليتين وارتفاع في ضغط الدم، ويقول إِن اضطرابات نشبت في طالوقان أضعفت موقف مسعود. وفي الساعة الرابعة يصرح وزير الخارجيَّة، جوهر، بالاعتراف بحكومة الطالبان، قائلاً: «نحن نعتقد أَن الحكومة الجديدة تحقق المعايير اللازمة من أجل اعتراف مُلْزِم (من وجهة نظر القانون الدولي)، وهي تمارس الآن السيطرة الفعلية علىٰ الجزء الأكبر من الأراضي الأَفغانية، بما في ذلك كابول، وتمثِّل كل المجموعات العرقية في ذلك البلد»، ولكن الادعاء الأخير، علىٰ الأقل، يثير الشكوك، وفي المساء أعلم أَن الوضع في وكالات الأمم المتحدة قد خفت حدة توتُّره، ولكن المدرعات الأولى للطالبان تدرج في المدينة.

وباستيلاء الطالبان علىٰ أقاليم الشمال أنشأ الطالبان وضعاً جديداً، إِذ انهار تقسيم البلاد إِلىٰ قسمين، وهو التقسيم الذي وجدته عند تسلُّمي لوظيفتي، وحلَّ محله حكم واحد من قبل الطالبان بحكم الأمر الواقع، وما يأتي الآن إِنما هو مهمة جديدة، تتمثَّل في إِعادة بناء البلاد التي خربتها الحرب، وإِعادة دمج البلاد في كُلٍّ متكامل، لإِنشاء أَفغانستان التي تعود، من جديد، إِلىٰ

احترام حقوق الإِنسان، إِلىٰ عالم الدول، كما أقول لنفسي. وقد ينهض بهذه المهمة مفوَّض جديد للأُمم المتحدة، ولأول مرة أفكر في استقالتي. علىٰ أَن كوني أدين بهذه النهاية لمهمتي إِلىٰ الجنرال عبد الملك دون غيره، وهو من أكثر الشخصيات التي لقيتها في أَفغانستان تألُّقاً، أمر فيه من السخرية ما فيه.

ولكن المسألة لم تصل بعدُ إِلىٰ هذا المدى. ففي 26 أيار جعل الطالبان ممر نفق سالانج، الذي كان دُسْتُم أمر بنفسه، صالحاً للمرور من جديد. وتقدم جنودهم الأوائل، عبر النفق، نحو الشمال. وفي مقابل ذلك تتماسك باميان التي يُحاطُ بها من كل الجوانب. وتكبَّد الطالبان في ممر خيبر خسائر فادحة. وفي إِقليم باقلان انضم إِليهم، فيما يقال، زعيم الإِسماعيليين، نادري، ويعلن الجنرال عبد الملك في مؤتمر صحفي، في مزار الشريف، أَن مدارس البنات سوف تغلق إِلىٰ إِشعار آخر، هل بات الطالبان يُعَرِّضونه للضغط؟ كان الرأي العام العالمي يتحفظ في التعليق. أما موسكو وطهران وجمهوريات آسيا الوسطى فتخلد إِلىٰ الصمت، ولا يرتفع صوت احتجاج علىٰ خيانة الجنرال عبد الملك وربما شعرت هذه البلدان بالارتياح لأن الحرب الأهلية التي دامت خمسة أعوام في جبال هندوكوش تبدو قريبة من نهايتها.

ويزورني هولتسمن، وأكاد أشعر بالامتنان له. وكان من النادر أَن أشعر بأنني أحظى باحترامه وتقديره، كما كنت أشعر في هذه الأيام، وكان ترحيب الأمريكي بي أَنَّه يتهكم قائلاً إِنني بِتُّ منذ

الآن «بلا عمل». وسرعان ما يتم حلُّ مشكلة أَفغانستان، وأردُّ عليه قائلاً بعناد: وهذه هي المسألة علىٰ وجه الدقة. عندما يحوِّل العلامة ربّاني حكومته إِلىٰ الخارج، هنالك فحسب تبدأ المسألة.

ومنذ وقت طويل يتعرّض الأمريكيون لشبهة مؤدّاها أنّهم كانوا ينظرون إِلىٰ تقدم الطالبان بعين الرضى. وهنا أتوقع في الحقيقة أن يعرب المبعوث الآن عن ارتياحه واغتباطه بآخر الأحداث. ومع ذلك فهو يتخذ من الطالبان موقفاً أقرب إِلىٰ الرفض. فمن هو الذي اعترفت به إِسلام آباد في الحقيقة، أَو ما هو الشيء الذي اعترفت به؟ أتراها ترغب، في أَفغانستان، في حكومة علىٰ قاعدة عرقية عريضة، كما قال ذلك وزير الخارجيَّة، أم ترغب في حكومة من الطالبان؟ وأية رغائب يتابعها عبد الملك؟ هل يريد أن يستأنف قيادة النيما، أي حزب دُسْتُم، بصفته تنظيماً مستقلاً، أم يريد أَن يضمه إِلىٰ حركة الطالبان؟ وكان هولتسمن قد أبلغ المفاوض الباكستاني مرشد، علىٰ كل حال، لتوِّه، أَن واشنطن لا تعتزم الاعتراف بالحكومة القائمة في كابول. فالإِدارة الأمريكية تعترف بالدول فحسب، لا بالحكومات، وأن الولايات المتحدة لن تعيد أيضاً افتتاح سفارتها في كابول، وقال إِن حل الصراع في أَفغانستان لا يجوز أَن يكون «وصفة من أجل عدم الاستقرار»، بل إِن اعترافاً بحكومة الطالبان قد يثبت أَنَّه كالطلقة التي تموت قبل أَن تخرج من السلاح. علىٰ أَن بعض القوانين الأمريكية التي تنطوي علىٰ آلية دفاعية مركَّبة في داخلها، لا يمكن تطبيقها إِلاَّ بشرط أَن

obeikandl.com

تكون الولايات المتحدة تعاونت مع حكومة أجنبية تعاوناً رسمياً. وبالقياس إِلىٰ الطالبان هناك ميادين واسعة من المشكلات، كالحشيش، وتجارة السلاح، والإِرهاب، وموضوع «الجنسين»، وقال إِن من الأمور التي تنطوي علىٰ التناقض أَن الاعتراف بحكومة الطالبان يمكن أَن يؤدي إِلىٰ تجميد معونة التنمية لأَفغانستان بسبب هذه الأحوال السيئة. وفي الختام يتنبّأ الأمريكي بالطبع للطالبان بنصر عاجل في شمالي أَفغانستان. وسوف تستفيد الحكومات الغربية «من الأسبوع أَو الأسبوعين القادمين»، (وهي علىٰ ما يبدو، الفترة اللازمة من أجل غزو أَفغانستان بأكملها)، والتي سيكون فيها علىٰ الطالبان أَن يحدثوا أثراً مُلَطِّفاً، مهما تكن فرص النجاح ضئيلة. وقال إِن واشنطن تتوقع أَن تحترم حكومتهم الأعراف الدولية، وإِن معونة التنمية لا تمنح إِلاَّ للبلد الذي يتعامل معها بروح من الشعور بالمسؤولية، وينبغي لهم أَن يتبيَّنوا أَنَّه لا بد لهم، هم أيضاً أَن يمارسوا سياسة حسن الجوار. ويدعني هولتسمن أستشفّ أَن الأمريكيين سوف يقترحون في مجلس الأَمن بياناً رئاسياً تُؤَكَّد فيه هذه الجوانب، كما يتم فيه التأكيد علىٰ المطالبة بحكومة تتمثَّل فيها كل الأعراق و«أَفغان الشتات»، وأعرب عن شكوكي في مسألة هل يعدُّ مثل هذا البيان الصادر عن رئيس مجلس الأَمن وافياً بالغرض. إِنهم يحدثون انطباعاً مؤدّاه أَن الطالبان هم المخاطبون الوحيدون بالمطالب السياسيَّة، ولن يوافق أعضاء آخرون في مجلس الأَمن، مثل روسيا عندما يتم تجاوز

تحالف الشمال بالصمت. ويكرر هولتسمن بأسلوب مقتضب، أَن مسألة المخاطَب الصحيح ستحل عما قريب «حلاً عسكرياً».

وفي 26 أيار يعترف الخليج بحكومة الطالبان، وتليها الإِمارات العربية المتحدة. ويعلن الرئيس ليغاري، الذي كان في زيارة رسمية لأبو ظبي، علىٰ سبيل التهدئة: «بعد أَن يكون الطالبان قد غزوا شمال أَفغانستان لن تفيض الأعمال العدائية علىٰ الدول المجاورة». ويريد وزير الخارجيَّة الباكستاني، جوهر، أَن يقنع المجتمع الدولي، وفي المقام الأول جمهوريات آسيا الوسطى، بضرورة الاعتراف بحكومة الطالبان و(تتولاني الدهشة) إِعادة بناء البلد المخرَّب. وما من شك في أَن إِعادة بناء أَفغانستان ضروري ضرورة قاهرة. ولكن إِذا كانت المسألة تتصل بمبدأ المُسَبِّبين، فستكون باكستان نفسها بين أوائل الدافعين.

وعلىٰ الرغم من أَن الوضع يظل حرجاً إِلىٰ أقصى الحدود بالنسبة للطالبان، فإنه يتضح لنا علىٰ نحو مطرد الزيادة أَن عبد الملك لما يخضع بعدُ للطالبان، بل يحاول الحفاظ علىٰ بُنىٰ دُسْتُم التي تمثِّل قوته. علىٰ أَن المتحدث باسم الطالبان، ملاّ أحمد وكيل، يصرح في مقابلة مع هيئة الإِذاعة البريطانية، بأنه لا مكان لحزب آخر إِلىٰ جانب حركته هو. ويقول إن مآثر الجنرال عبد الملك وأخيه غول في حلولهما محل دُسْتُم هي في الحقيقة «جديرة بالثناء». ولكن لا بدّ لأَفغانستان أَن تُقاد من قبل حكومة مركزية قوية (أي من قبل الطالبان). وفي تناقض مع أخبار

الصحف الباكستانية يتواصل القتال عند نفق سالانج، ويتكبَّد الطالبان خسائر مؤلمة.

وفي 28 أيار يكون مزاج الجريدة الصباحية ما زال متماشياً مع النصر، ويكون العنوان الرئيسي «محادثات سلام بين الطالبان ومسعود»، ويقال إن وزير دفاع الطالبان، ملاّ عبيد الله قد تفاوض مع هذا القائد عن طريق البرق، علىٰ أَن ما هو أهمُّ من ذلك خبر مخبَّأ في داخل الجريدة، يقول: نشبت أمس اشتباكات في مزار الشريف لدى محاولة الطالبان تجريد قوات عبد الملك من السلاح. وإذا صح هذا يشتد تكهُّني بأن عبد الملك سيحافظ علىٰ بقائه بصفة عامل قوة قائم بذاته، ولا يريد أَن يسلِّم القوات.

ومع ذلك تزداد العلائم الدالَّة علىٰ أَن تحالف الشمال علىٰ وشك الانهيار. فقد هرب ربّاني وحكمتيار إِلىٰ طهران، وهرب دُسْتُم إِلىٰ أنقرة، وهناك يعلن بعناد أَنَّه سيعود عما قريب إِلىٰ أَفغانستان ويستأنف القتال، ويقول إن عبد الملك الذي انشقَّ عليه قد رشاه الباكستانيّون. أما وكالات الأُمم المتحدة في مزار الشريف فنعرف منها، عن طريق البرق، أَن اشتباكات عنيفة تدور رحاها في الشوارع، ويقاوم نصف مليون من الهزارا الذين يعيشون لاجئين في ضواحي المدن، الطالبان مقاومة مريرة. ولكن قوات عبد الملك أيضاً يبدو أنها تتصرف ضد القندهاريين، وذلك أن الاشتباكات نشبت لدى محاولة الطالبان تجريد هؤلاء الجند من السلاح. وعند الظهر يكون التحوُّل. ففي الساعة الثانية عشرة تفيد

هيئة الإذاعة البريطانية أن الطالبان قد انسحبوا من مزار الشريف.

وفي جلستنا من أجل الأزمة يتم تسليم برقية في الساعة السادية عشرة من بيل برجْكْويست، الذي رَجَوْتُ منه بالأمس أن يؤمِّن لي موعداً في قندهار. ويبلغني بيل أن الملاّ غوث قد طار في 27 أيار إِلىٰ مزار الشريف ليتفاوض مع عبد الملك، وأسمع الخبر وقد تولاّني القلق. إذا دخل غوث في الاشتباكات فحياته مهدَّدة. وبعد دقائق قلائل يأتي تاكاهاشي من التلفاز الإِيراني بالخبر المفزع المنتشر، وهو أن وزير خارجيَّة الطالبان قد «أعدم» في مزار الشريف، وأن إحسان الله إحسان، والحاكم الجديد لبَلْخ، ملاّ عبد الرزَّاق قضيا نحبهما. علىٰ أن نبأ موت غوث الذي يتحدَّثون عنه يهزُّني، إذ كنت ودّعته قبل ثلاثة أيام، ولم أعرف أحداً من قياديي الطالبان، مثلما عرفته حقّ المعرفة. وما من شك في أَنَّه كان شريك مفاوضات صعب المراس، وكان في بعض الأحيان فظّاً جافِيَ الطبع، غير أَنَّه كان في مضمار التعامل الإِنساني ودوداً ولم يكن يخلو من النكتة. وتولاّني الفزع من بربرية عبد الملك، ومن الواضح أَنَّه اعتقل المبعوثين القادمين من قندهار أثناء المفاوضات، وقتلهم.

وتبلغنا أخبار متناقضة، إذ يروي العقيد هوجان أن الطالبان قد استولوا علىٰ نفق سالانج بكامل طوله، وكانت فصائل من القوات لا يُستهان بها قد عبرت النفق لتوِّها، ولبثت تحتل الطريق البعيد الذي يفضي إِلىٰ بول ـ ي ـ خُمري. وهناك يوجد المقر الرئيسي

لزعيم الإِسماعيليين، نادِري، الذي قالت عنه الصحافة الباكستانية أَنَّه انضم إِلىٰ الطالبان. وفي الساعة السابعة عشرة يروي كابولوف أن مسعوداً وخليليّ تحالفا مع الجنرال عبد الملك ضد الطالبان، وأرجو من كابولوف أن يتصل هاتفياً بالسفير مسعود خليلي في نيودلهي، ويسأله عن مصير غوث لأنني لا أودّ أن أتجاوز وفاته بالصمت. ويرتاب السفير خليلي، وهو من المقرَّبين إِلىٰ أحمد شاه مسعود، في إمكانية إقدام عبد الملك علىٰ إعدام رهينة في مثل هذه الأهمية، «رمياً بالرصاص». ببساطة، علىٰ أن التعليق الرهيب يعطيني الأمل في أن يكون غوث قد جُنِّب أسوأ ما في الأمر. وعند المساء تؤكد هيئة الإِذاعة البريطانية أن الطالبان طُرِدوا من مزار الشريف، ولا كلمة عن وفاة غوث.

ونبعث ببرقيات إِلىٰ كابول، وإِلىٰ المدينة الحدودية الأوزبكية، تِرْمذ لنصل إِلىٰ يقين حول الأحداث في الشمال. أمّا مزار الشريف فلا أستطيع بلوغها، وكذلك ما عاد بايندا، ممثل دُسْتُم يوجد تحت تصرفي. أما الجنرال في السلاح الجوي، الضئيل النمّو، الرشيق القوام، الذي يسره أثناء الحديث أن ينفش شاربيه الكبيرين، فكان قد حوَّل نفسه في الوقت المناسب إِلىٰ واشنطن، ويقال إنه أصبح قائماً بالأعمال في السفارة الأَفغانية. واتصل هاتفياً بالدكتور طالب، ممثل حزب الوحدة، ثم بالقائم بالأعمال الأَفغاني، عبد الوهاب. وفي ساعة متأخرة من المساء أتلقى أول تقرير من مزار الشريف. لقد نُهِبَت مضافة الأُمم

المتحدة وأمام أعين رهط الأُمم المتحدة قُبِضَ علىٰ ناهِبٍ من الجند، وأعدم رمياً بالرصاص. وبعد انسحاب الجند توجَّه غضب الجمهور نحو مستخدمي الأُمم المتحدة، وتنقذهم دورية مسلَّحة.

ويستعيد تحالف الشمال زمام المبادرة. ففي 29 أيار يغزو مسعود بعض البقاع عند مخرج وادي بانجير وعدداً من المرتفعات علىٰ الطريق إِلىٰ نفق سالانج، ويسلِّم الطالبان بخسائر. وإذا صحت معلومات العقيد هوجان، وهي أن آلافاً منهم قد عبروا النفق باتجاه الشمال فهم معرَّضون لخطر انقطاع الإِمداد عنهم. وفي الثلاثين من أيار يتحدث مستشاري العسكري، منوَّر، من كابول عن ضروب أخرى من نجاح مسعود. وذلك أن طائرات الطالبان المقاتلة لم يكن لها بدٌّ أن تقلع من مطار العاصمة المدني، إذ باتت باجرام في مرمى النيران. وفي 30 أيار يعود العلامة ربّاني من دوشنبي، ويلتمس وزير الخارجيَّة، ولايتي، من كوفي عنان أن تتدخّل الأُمم المتحدة بالنظر إِلىٰ الأزمة، ولكن باكستان التي لا ينسجم التدخل مع تصوُّرها، تكبح جماح هذا وتدعي أن الجنرال عبد الملك والطالبان يتفاوضون فيما بينهم، ويتم تعيين عبد الملك، في 29 أيار بصفة رئيس حزب NIMA.

وفي 30 أيار أتناول طعام الإِفطار مع هولتسمن، ويسلم هذا بأن تنبؤه بأن الطالبان يوشكون أن يصلوا إِلىٰ «النصر النهائي» كان سابقاً لأوانه، ويقول إن النكسة التي تعرَّضوا لها تؤكّد أن الصراع في أَفغانستان لن يمكن حسمه عسكرياً، بل لا بدَّ من حله سياسياً،

ويقول إن جهود الأونسما أهم مما كانت في أي وقت مضى، وينبغي أن يظل هدفي متمثلاً في تشكيل حكومة ذات قاعدة عريضة. وأُبْلِغُ هولتسمن أنني حاولت إنجاز تبادل للقتلى والجرحى، وأنني علىٰ اتصال برئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وأنني لم أستطع بعد أن أحقِّق اتصالاً بالجنرال عبد الملك، ويبلغني المبعوث أن لديه موعداً لدى جوهر، وزير الخارجيَّة، وعلىٰ أثر ذلك أُفْضي إِلىٰ الأمريكي بماهية الصعوبات التي واجهتُها لكي ألتقي بوزير الدولة الباكستاني، شَمْشَد، أي أنهم يعلِّلونني بألوان من التهرُّب، منذ أسابيع، وأقول إن باكستان تطالب بمؤتمر لأَفغانستان في إِسلام آباد، وأذاعت في كل مكان أن هذا المشروع منسَّق مع الأُمم المتحدة. ولكن في الحقيقة لم تكن نيويورك مطَّلعة، ولا أنا. وشيئاً فشيئاً ينشأ وضع مستحيل. فإذا كان الباكستانيون غير مستعدين للتنسيق مع الأُمم المتحدة فمن الممكن أن تسمع الصحافة بهذا، ويعد هولتسمن بأن يضع ثقله لصالحي عند جوهر. وفي اليوم التالي أتلقَّى الموعد عند شَمْشَد.

وتُحَرَّر إليَّ ورقة لا أستطيع أن أضمن حجِّيتها، وتبدو لي مع ذلك حقيقية وتتيح لي نظرة إِلىٰ الأسباب الكامنة لتبديلِ الجنرال عبد الملك تحالفه مرتين. ويستفاد منها أن حزب عبد الملك، النيما، والطالبان كانوا ينوون أول الأمر الاتفاق علىٰ أربعة نقاط، وبموجبها كان يفترض إنشاء مجلس عسكري مشترك، كما تقرَّر أن لا يتم تجريد قوات عبد الملك من السلاح قبل تشكيل حكومة

ذات قاعدة عريضة، ووعد الطالبان فوق ذلك بعدم التدخّل في الشؤون الداخليَّة للأقاليم التي يسيطر عليها حزب النيما. وكان يفترض أن تتولَّى لجنة تشكيل وزارة متعددة الأعراق وإعداد دستور والتحضير لانتخابات. وتؤكد الورقة أن الجنرال عبد الملك لم يفكر في وقت من الأوقات في أن يجعل من نفسه تابعاً للطالبان، بل أراد أن يتحالف معهم بصفته عضواً حرّاً في ائتلاف. وعلىٰ الرغم من ذلك حاول الطالبان أن يستبعدوه، وأخفقوا.

وبعد يوم من لقائي بهولتسمن، أي في 31 أيار، ألتقي بشَمْشَد لأول مرة منذ ثلاثة أشهر، ويظهر مودة مرتبطة بضرورة العمل، غير أني ألاحظ عليه أنني لست في موضع الترحيب عنده. وفي البداية أُطْلِعُه علىٰ جهودي من أجل التوصل إلىٰ تنفيذ عملية تبادل للقتلى والجرحى، ويردُّ شَمْشَد بأن أزمة مزار الشريف جاءت مفاجئة بالنسبة لباكستان، وهي ملاحظة لا تتناسب بالطبع مع بيان وزارته في 21 أيار، الذي أفاد أن انهيار قوة دُسْتُم كان متوقَّعاً منذ عام. ويقول وزير الدولة وهو يبرّر القرار الذي أصبحت باكستان بموجبه معزولة علىٰ الصعيد الدولي أن الاعتراف بحكومة الطالبان كان كامناً في منطق مجمل التطوُّر، ثم يشكر لي مساعدة الأُمم المتحدة في إخلاء القنصلية الباكستانية العامة في مزار الشريف، ويقول إن تبادل القتلى والجرحى خطوة هامة من أجل بناء الثقة. ويختتم حديثه بالتطمين المألوف، قائلاً إن باكستان لا تريد أن تقوّض جهود الأُمم المتحدة، بل تساندها (not supplant, but support).

وفي 2 حزيران يتابع مسعود تقدمه نحو كابول، وكان قد استعاد مدينة جبل السراي، ويصل، من هنا إلىٰ مطار باجرام العسكري بالصواريخ، ويسلِّم الطالبان بأن ثلاثة آلاف من الجند حوصروا شمالي النفق، ولا بدَّ أن يتم تزويدهم من الجو، وهي مخاطرة ليست بالسهلة في جبال هندوكوش المكسوَّة بالثلوج أما الزحف شمالاً فسوف يأباه عليهم نادري الذي يواصل تحالفه مع مسعود والهزارا، ويتلقَّى المحاصَرون الأوامر من وزير الإعلام ملاّ مُتَّقي. ويقال إن بعض الصحفيين الذين أوغلوا في التقدُّم إلىٰ الأمام، يجدون أنفسهم مُطَوَّقين.

وفي الثالث من حزيران أطير إلىٰ كابول حيث ألتقي بالسويسري ديكرو، ويخبرني بأن تقديرات اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي تفيد بأن الجنرال عبد الملك يحتجز في مزار الشريف ألفين من الطالبان بصفة أسرى، وهذا عدد هائل بالنسبة للأحوال الأَفغانية، لأن أمراء الحرب لا يدخلون في اتحادات قوية علىٰ الأغلب، بل يدخلون في وحدات صغيرة، ويقال إن الطالبان يحتجزون 800 من الأسرى. وأسأل ديكرو عن مصير حاكم هراة، إسماعيل خان، ويقول إن اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي حاولت أن تزوره في قندهار. وفي اليوم التالي يطير إلىٰ مزار الشريف، ويريد أن يحاول أن يتحدث إلىٰ وزير الخارجيَّة المعتقل ملاّ غوث ـ إذا كان ما زال علىٰ قيد الحياة. ونتَّفق علىٰ أن أعمل جاهداً في قندهار، أيضاً، من أجل زيارة لإسماعيل خان.

وفي وزارة الخارجيَّة ألتقي بعضو مجلس الشورى، الملاّ عبدالله آداد آخوند، وزير الاتصالات، بمعونة ستاناكازي، وأساند مطلب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وأشير، بصورة عشوائية إِلىٰ «اتفاقية جنيف» وأطالب بأن يسمح للصليب الأحمر بالتحدث إِلىٰ إِسماعيل خان. **ويجيب عبدالله آداد، كما هو مألوف، بإجابة لا تفيد** شيئاً: الطالبان يريدون حلاً متفاوَضاً عليه، ويقول إِنهم لم يكسبوا الأقاليم الاثنين والعشرين في أَفغانستان بالقتال، بل بقوة إِقناعهم، والشعب يهلِّل لهم ويهتف، وهؤلاء في الحقيقة ليسوا بالبشتون فحسب، بل ومعهم الطاجيك أيضاً، والأوزبك والهزارا، إِلخ. . . ثم ينتقد روسيا وإِيران والهند ويطالب الأُمم المتحدة بوضع حد لتدخلهن.

وأحاول الحصول من الملاّ، مع ذلك أيضاً، علىٰ بعض المعلومات، فيقول آداد إِنه لا يوجد اتصال مع عبد الملك، وفي السادس والعشرين من أيار فحسب، أي عشية الانقلاب، اتصل الملاّ أحمد وكيل من قندهار بالملاّ غوث، وقال إِن عبد الملك كان حاضراً، وتدخل بُعَيْد ذلك في الحديث الهاتفيّ، وكان الوضع قد أصبح وضعاً لا يمكن الإِحاطة به بنظرة شاملة، وأسأل عن «مذكرة التفاهم المتبادل» الذي تمّ تمرير نصّها إِليّ من قبل حزب النيما. فيجادل آداد في أَنَّه كان هناك اتفاق بين الطالبان وعبد الملك. ومن الواضح أَن غَوْثاً كان قد تفاوض علىٰ اتفاق، ولكن لم يصل إِلىٰ نتيجة، وهذا ما استنتجه من عرض آداد.

وأسأل عن مشروع مؤتمر لأَفغانستان في إِسلام آباد، فيقول آداد إِن الطالبان لم يجرِ إِطلاعهم حتى الآن، وهذا خبر يبعث علىٰ الدهشة بعد أَن كان شَمْشَد قال لي قبل أربعة أيام إِن الطالبان قرَّروا أَن يشاركوا في المؤتمر. وفي النهاية أسأل هل تم إِبلاغ الطالبان بمصير وزير خارجيَّتهم، ويقول آداد إِنه لا يدري. وقال إِن الملاّ عباس والملاّ عبيد الله في مأمن وهما علىٰ الجبهة. وحين أستفسر عن وضع إِسماعيل خان يتجنَّب آداد الإِجابة علىٰ سؤالي، وحين أتطرق إِلىٰ مسألة النساء يقول إِن النساء يتمتعن في الشريعة الإِسلامية بالحق في العمل، ولكنه لا يكشف عمّا يعنيه هذا، وأقول وأنا مستاء إِنني لا أتلقى جواباً واضحاً عن سؤال من الأسئلة، ثم أسأل: هل ينبغي لي أَن أجرب إِجراء اتصال بعبد الملك؟ ويقول آداد بثقة إِنني ينبغي لي أَن أعمل جاهداً علىٰ تبادل القتلى والجرحى.

وفي حديقة اتحاد نوادي الأُمم المتحدة الدولية (UNICA) أعقد مؤتمراً صحفياً، ونقعد في ظل الأشجار إِلىٰ مائدة طويلة، ويقدم الليمونادة، وقد ظهر الكثير من الصحفيين، ومعظمهم من الأمريكيين والبريطانيين، وبعض الأوستراليين أيضاً، شباب يناهزون الثلاثين، وقد تبلَّدت أحاسيسهم إِذ حنكتهم التجربة والمعاناة، وفيهم أثر من السخرية اللاذعة المرّة، لأنهم كلّما توجَّهوا إِلىٰ الجبهة يجازفون بحياتهم، ولا أرى فيهم مراسلاً ألمانياً، وأهل الجرائد حريصون علىٰ أَن يسمعوا «من مصدر له

حُجِّيته» شيئاً عن الأيام الأخيرة الدراميَّة. وذلك أَن الطالبان يتصرَّفون بتحفظ، أَو يعلِّلونهم بالدعاية، وهنا يأتيهم رجل الأُمم المتحدة في المكان الصحيح تماماً، ثم إِنهم يحبّون طريقتي في تسمية الأشياء بأسمائها، بصراحة، وعدم التواري وراء الصيغ الثابتة. وعلىٰ هذا أكرر ما كان قاله آداد، وهو أَن الصراع في أَفغانستان إِنما هو سلسلة من فرص السَّلام التي لم تُنتَهز، وأن الأسابيع الأخيرة أثبتت أَنَّه ما من مجموعة عرقية تستطيع أَن تفرض سيادتها، ولا يستطيع أَن ينهي الحرب الأهلية إِلاَّ نظام يقوم علىٰ توازن عادل للقوى.

وحين أعود إِلىٰ إِسلام آباد في ساعة متأخرة من المساء يهتف إِليَّ كابولوف الذي اتصل هاتفياً بعبد الملك عن طريق باينداا. ويدعوني عبد الملك إِلىٰ مزار الشريف. وأخيراً تأتي إِشارة واضحة. ولكن متى ينبغي لي أَن أطير؟ هل ينبغي لي أَن أؤجل الرحلة المخطَّط لها غداً إِلىٰ قندهار؟ هذا ما سوف أفكر فيه أثناء الليل.

علىٰ أَنَّ القرار يُنتَزَع من يدي. ففي 4 حزيران يبلغ من توتُّر الوضع في مزار الشريف أَن المطار يظل مغلقاً. وينصح لي مفوَّض الأمن في مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية بإِلحاح أَن لا أطير علىٰ مسؤوليتي الخاصة، وكان يدور القتال في شمل كابول أيضاً. ويقول الطالبان إِنهم حقَّقوا مكاسب علىٰ الأرض، ولكن المكانين الهامَّيْن، حبل السراي وجولبهار يظلاَّن في يد

obeikandi.com

مسعود، وفي 5 حزيران أيضاً يتكبَّد الطالبان أمام جبل السراي وجولْبَهار خسائر مريرة، وأقرأ في الجريدة مقالاً رئيسياً للسفيرة الباكستانية التي كانت حتى الآن في واشنطن، وهي الدكتورة مليحة لودهي، وهي من المقرّبات من رئيسة الوزراء المخلوعة بنازير بوتو، وقد صيغ المقال صياغة جريئة، وليس فيه إلاَّ القليل من تملُّق الحكومة. وتكتب الكاتبة حول قرار الاعتراف بحكومة الطالبان، قائلة: «كان قراراً خاطئاً من جانب الدبلوماسية».

وأطير في اليوم ذاته إِلىٰ قندهار، وكنت أشعر بأنني محطّم، وكانت تُلِحُّ علي الحرارة التي تربو علىٰ أربعين درجة. وحتى من الداخل أشعر أنني مستنفد القوى تماماً، ولما كنت لم أستطع بعد أَن أحدث عبد الملك فلم يكن لديَّ شيء جديد أحمله للطالبان، وأنا أعرف سلفاً أَن كل اقتراح ينصُّ علىٰ خطوات مصالحة وتنازلات مرفوضة من قبلهم. واعتزمت أَن أسأل عن إِسماعيل خان، وأن أزوره في السجن إِذا أمكن ذلك. وفي المضافة، حيث سبق لي أَن تفاوضت في كثير من الأحيان، يستقبلني هذه المرة الحاكم محمد حسن، والشاب ذو الوجنتين الشاحبتين، الملاّ جليل، رسولَيْ يوحنا من العصر الوسيط، وأفتتح حديثي بنداء أدعو فيه إِلىٰ العودة إِلىٰ مائدة المفاوضات. ثم أسأل عن مشروع المؤتمر الباكستاني، وأُطْلِعهم علىٰ جهودي من أجل تبادل القتلى والجرحى. وأسأل أيضاً كيف يبدو الموقف العسكري في شمالي كابول. وفي النهاية أتطرق إِلىٰ مصير إِسماعيل خان. ثم وجبة هزيلة.

ويجيب حسن بكليشهات معروفة ما عدت أُدَوِّنها أبداً، إذ أحفظها غيباً، ولا يغدو أوضح إلاّ في صدد مزار الشريف. ويقول إن الخائن عبد الملك دعا الطالبان أول الأمر ضيوفاً ثم أغار عليهم، وتلى ذلك مآخذ شديدة علىٰ موسكو وطهران، ويقول مترجمي: «علىٰ أَن إِيران أسوأ بعدُ من المجرم مسعود». وقال إِن كليهما ينبغي أَن يُتَّهما علانية. ويمكن أَن يُلاَحظ علىٰ الحاكم الإِحباطُ من جراء النكسة في شماليّ أَفغانستان. وأصغي في صبر. وبعد هنيهة أقاطعه وأتدخل قائلاً: «إِن الأهمّ من الجدل المذهبي العلني، لأنه سيستثير جدلاً مذهبياً مضاداً، هو التفكير في المفاوضات، ولكن حسن يظل، مجدَّداً، يوجه السباب إِلىٰ «المجرم عبد الملك» مدة عشرين دقيقة، قائلاً إِنه لا بدّ من توجيه الاتهام إِليه أمام الرأي العام العالمي. ويقول إِنه بعد تنحية دُسْتُم بات تحرير أَفغانستان في متناول اليد، ولكن عبد الملك أحبط عملية وضع حد للحرب الأهلية، بالخيانة. ثم يشكو من تدخّل إِيران الذي ينطوي علىٰ «قلة الحياء». وأطرح بعض الأسئلة فيما بين ذلك مجدَّداً، والآن يؤكد حسن أيضاً أَنَّه لم يجر إِطْلاعه علىٰ مشروع المؤتمر الباكستاني، ويقول إِنه لا يعلم أيضاً ما الذي جرى لغوث ومرافقيه، وأنه ينبغي لي أَن ألتمس تحرير هؤلاء الأسرى لدى شخص مهم جداً (VIP)، وحين ألتمس ثلاث مرات أَن تتاح لي زيارة إِسماعيل خان لأسباب إِنسانية، يسأل حسن في سوء ظن، ما الذي أزمع الحديث معه فيه، ثم يرفض رغبتي، وحين

أطلب أَن تزور اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي السجين، كما تنصُ علىٰ هذا الاتفاقيات الدولية، يجيب حسن قائلاً إِن مثل هذه «عديمة الفائدة».

ونمسك عن الحديث، إذ تسمَّم جو الحوار بسوء الظن، وما عاد يمكن تبادل كلمة معقولة مع الطالبان منذ تبديل عبد الملك المزدوج لجبهته. إنهم لا يستطيعون أَن يدركوا أَن «الانتصار النهائي» قد أفلت من أيديهم في اللحظة الأخيرة، وباتت كراهيتهم لعبد الملك ولحلفائه الحقيقيين أَو المقدَّرين كراهية لا يُكْبَح جماحها. وفي 8 حزيران استقرَّت الجبهة. وبعد ثلاثة أسابيع من سقوط دُسْتُم يسير خط القتال من جديد حيث كان من قبل، بل تمكَّن مسعود من تقريب موقعه إِلىٰ كابول، والطالبان يواجهون مشكلات لوجستية كبيرة في صدد تزويد جيشهم المحاصَر في شمالي نفق سالانج من الجو.

obeikandl.com

18

ظاهر شاه واللوياجيركا

في التاسع من حزيران، 1997، أطير إلىٰ طشقند، حيث ألتقي بوكيل وزير الخارجيَّة، إرجاشيف ومستشار الرئيس ذو النفوذ الواسع، نوروف. أما الرئيس كريموف، الذي استقبلني في العام المنصرم فهو، علىٰ ما يقال، في رحلة في الخارج، وربما كان متكدِّر المزاج أيضاً بعض الشيء، لأنني كرَّست نفسي لديه من أجل مطلب إنساني يتصل «بالخائن» عبد الملك ـ وهو استيراد أدوية من أوزبكستان. وعلىٰ الرغم من هذا تسير محادثاتي سيراً مستحسناً. وأُحِسُّ مجدَّداً بهَمِّ هذا البلد الذي لم يخرج إلىٰ الاستقلال إلاَّ قبل سنين قلائل، وقلقه في مواجهة الطالبان الزاحفين، وتخشى أوزبكستان من الوقوع في مأزق، إذ تتهدَّدها إيديولوجية الطالبان الإسلامية المتطرفة التي تؤثِّر علىٰ أمنها الداخلي من ناحية، كما يتهددها من ناحية أُخرى خطر ذلك البلد الفائق القوة وخطر اضطرارها إلىٰ دعوته إلىٰ العودة إلىٰ البلاد،

obeikandl.com

وهي التي لم تتحرر من وصايته إلاَّ في عام 1990. أما أَن الرئيس كريموف يلتمس، في هذا الوضع، القرب من الولايات المتحدة فذلك ما تبيَّن في الماضي، حين كانت أوزبكستان البلد الوحيد في آسيا الوسطى الذي ساند الخطة الأمريكية الخاصة بفرض حظر علىٰ توريد الأسلحة إِلىٰ أَفغانستان. وفي الوقت الحاضر يتجلى التنسيق بين واشنطن وطشقند مجدَّداً، إذ سلَّمت أوزبكستان للولايات المتحدة باستخدام المنشآت العسكرية علىٰ أراضيها بحكم كونها البلد الوحيد المجاور لأَفغانستان الذي يفعل ذلك.

وفي موسكو أتشاور من جديد مع وكيل وزير الخارجيَّة، بوزو واليوك، إذ يستقبلني في قصر الضيافة الحكومي، وهو قصر من قصور المدينة غير مألوف الشكل، يرجع إِلىٰ سَوّا موروسوف الصناعية السابقة، أنشىء في القرن التاسع عشر، وتمَّ تجديده منذ عهد قريب بعد نشوب حريق.

ويقول كابولوف الذي يصحبني، إن من الشرف أَن أتمتَّع بالرعاية هنا. وفي الآونة الأخيرة رَحَّب وزير الخارجيَّة، بريماكوف، في قصر موروسوف، بزميلته الأمريكية أولبرايت، ويؤكِّد بوسو واليك أَن بلاده ترفض تقطيع أوصال أَفغانستان، وأن نكسة الطالبان في مزار الشريف أظهرت أَنَّه ما من عرق واحد يستطيع أَن يسيطر علىٰ الأعراق الباقية. وينقل الروسي عن اتفاق الدول السبع الكبار GUS صدر في 24 أيار 1997، وجاء فيه أَن هذه الاتفاقية حول الأمن الجماعي تُطَبَّق في حالة وجود تهديد للحدود

الخارجيَّة المشتركة. ويقول الوزير بالإنكليزية: «سوف نتصرَّف بأقصى قدر من التصميم» ويضيف إلىٰ ذلك بلهجة تنبؤية تقريباً: «وليست روسيا وحدها، بل دول الخليج، وأوروبا، بل الولايات المتحدة ذاتها، لَسْنَ في مأمن من الإرهاب» ويلي ذلك وجبة سمك غنية في صالة طعام علىٰ مائدة مغطَّاة تغطية احتفالية. ويقدَّم فيما بين ذلك شراب شديد التركيز. وفي فناء القصر نتصافح حرارة، وبعد ثلاث سنوات يبلغني أَن هذا الدبلوماسي البارع الذي يحقق المكاسب من الوجهة الإِنسانية قضى نحبه في مرحلة مبكرة.

ثم تكون جولة قصيرة في أنحاء موسكو. ويريني كابولوف مرتفع لينين فوق المدينة، ونتوقف عند كنيسة صغيرة، وهي مطلية بالأخضر الذي يحاكي لون العشب تُتَوِّجُها قبة ذهبية. وهنا يقام حفل زفاف علىٰ وجه الخصوص. وثمة صورة كأن رساماً انطباعياً رسمها: أربعة من الشباب تعلَّقت لفائف السيجارة في زوايا أفواههم، يستندون إلىٰ شجرة. وتقف العروس علىٰ المرج في الشمس، وتنتف شيئاً ما في ثنيات ثوب العرس الأبيض. أما أبو العروس فيقعد في العشب، ويحك رأسه، وربما كان يتولاه العجب من لامبالاة الشباب. والعريس يرتدي ثوب خروج قديم الزيّ. وحين يلاحظ نظرتي يفارق الشجرة ويرقص مع العروس رقصة البولكا. وتحاول العروس أَن تظهر بمظهر المَهيبة الوقورة. علىٰ أَن ما يلفت نظري مقدار ما تتسم به الروسيات الصبايا من إشراق لون البشرة والحُسْن.

وفي باريس يستقبلني الأمين العام في الكي دورسيه، المسيو برتراند دوفورك، وهو رجل له جمجمة فلاح تخلّف في النفس انطباعاً ثابتاً، وما من شك في أنَّه واحد من أكثر الدبلوماسيين في وزارة الخارجيَّة الفرنسية حنكة وخبرة، سبق له أَن خدم في موسكو، وبون، وروما، سفيراً. ويرافقني مستشاري برتولت الذي كان يعمل في روما تابعاً لدوفورك، وأشرح للأمين العام أن التصوُّر الخاص بالمفاوضات بما انتهت إليه حتى الآن، في أَفغانستان من قبل الأُمم المتحدة لم يسفر إِلاَّ عن القليل من النجاح، ولذلك فلا بدّ لنا أَن نغيِّر طريقتنا في التصرّف. ولكن في هذا الموضع أُعَدِّل اقتراحي الذي كان ماثلاً حتى الآن. وذلك أَنَّه لما كانت الولايات المتحدة (وبالتالي روسيا) لا توجدان تحت التصرُّف من حيث كونهما «بلدين قياديين»، فالبديل هو الاتحاد الأوروبي، وربما يرد في الاعتبار أيضاً فرنسا وألمانيا، علىٰ المدى الطويل من حيث كونهما مجموعة مساندة. وأسرد علىٰ الأمين العام أفكاري، ويصغي إليَّ دوفورك باهتمام ويوجّه إحدى العاملات معه للتدقيق في هذا المشروع.

ثم أحاول، في بون أيضاً، كسب التأييد لمفهوم «البلد القيادي»، وأن أكسب ألمانيا التي تتمتع بسمعة رفيعة المستوى لدى معظم الأَفغان، لتكون شريكاً للأُمم المتحدة، ويَعِدُ وزير الدولة، هارتمن، بمناقشة هذا الاقتراح مع وزير الخارجيَّة كينكِل، ويلتمس مني أن أصوغ تصوُّري خطياً، وبكل السرعة أحمل إِلىٰ

وزير الدولة خطتي علىٰ الورق، في ساعة متأخرة من المساء، في حجرة الانتظار الخاصة به. وبعد ذلك يشكو، بالطبع، رئيس قسم جنوب آسيا لأنني لم أُشْرِكه عن طريق «المشاركة في التوقيع» لدى صياغتي لمفهومي، مع ملاحظة أَنَّه اقتراح من قِبل الأُمم المتحدة.

ولكن علىٰ الرغم مما أحدثت لدى دفورك وهارتمن من لَفْتٍ للانتباه، فأنا لن أتلقَّى أبداً جواباً رسمياً عن اقتراحاتي، بل لن يتم حتى إطلاع السفارتين، الألمانية والفرنسية، في إِسلام آباد، علىٰ مشاوراتي في عاصمتيهما، كما سأقرر فيما بعد، وربما انتهت خطتي التي كانت علىٰ أية حال منسَّقة مع الأمين العام للأُمم المتحدة، إِلىٰ الإِحباط في كِلتا الوزارتين بسبب أصحاب الهواجس المترددين.

وفي 27 حزيران أصل إِلىٰ روما، المحطة الأخيرة في سفري، وهناك سأقابل الملك السابق ظاهر شاه. وقد استبدّ بي الفضول للتعرُّف علىٰ البشتوني ذي الثمانين حَوْلاً، والمنتمي إِلىٰ قبيلة محمد زاي، والذي ما زال يحافظ، في صورة مظهره النبيل علىٰ مكانة منصبه السابق. فمنذ عام 1973 يعيش ظاهر في المنفى بروما. ويزعم ناقدوه أَنَّه فقد الصلة بواقع بلاده السياسيّ. ولكن ما من شك في أَنَّه كان في تلك الأيام ما زال يستقبل سيلاً دافقاً من الزوار الموالين للملك القادمين من أَفغانستان الذين يُؤَمِّلون أَن يمسك الملك أخيراً بزمام مبادرة للسلام. ومنذ عام 1993 كان هذا قد اقترح في الحقيقة مؤتمراً كبيراً للقبائل (اللوياجيركا) يفترض أَن

تتم فيه صياغة دستور لأَفغانستان حرة مستقلة. ورحَّب الأَفغان المحافظون بالخطة، كما رحَّب بها بعض الأحزاب المتحاربة، ولكن الآخرين، مثل الطاجيكيين، والعلاَّمة ربّاني ومسعود، وقبل كل شيء الطالبان، عارضوا الفكرة، وأنا أيضاً كان لي موقف أقرب إِلىٰ التشكُّك تجاه الخطة. وعلىٰ الرغم من ذلك أودُّ التعرّف علىٰ الرجل الذي يحدث بعض الانطباعات في النفس، وأن أتأكّد هل يمكن كسبه إِلىٰ جانب مبادرة للسلام.

أما اليوم فقد تغيَّرت الأحوال تغيُّراً عميقاً، وبالنظر إِلىٰ العَماء السياسي الذي دخلت فيه أَفغانستان بعد ست سنوات من حكم الطالبان، وكذلك بالنظر إِلىٰ استبدال محتمل لنظام الطالبان، قد يمثل الملك الواهن مناط الأمل الوحيد في السَّلام، الذي تبقَّى للبلاد. أما خصومه الإِيديولوجيون حتى الآن، وهم الطالبان، فيبدو أنهم يتوجهون نحو نهايتهم السياسية والعسكرية. وأمّا جبهة الدفاع العائدة إِلىٰ تحالف الشمال الطاجيكي فقد تزعزعت من جراء سنوات من حرب العصابات، وموت مسعود وسحب الثقة من العلامة ربّاني. ولـمّا كان ظاهر شاه ربما يكون قد نضج في المستقبل القريب لدور هام، وستشهد المناقشة حول لوياجيركا، علىٰ كل حال، زخماً جديداً، فأنا أودّ أَن أعبِّر عن مضمون لقائي في تلك الأيام.

وإذاً ففي السابع والعشرين من حزيران عام 1997 ينتظرني برتولت في مطار فيوميشينو. وهذا الفرنسي يعرف روما

obeikandl.com

الكلاسيكية، غير أَنَّه يعرف أيضاً الحارات والمطاعم الخلاّبة، مثلما يعرف جيب صُدَيْريّة. وهو يتكلم، بالطبع، بإيطالية يُحْسَد عليها، وننطلق إِلىٰ فندق قديم الطراز بالقرب من جدار أوريليان. علىٰ أن قاعة الاستقبال تبهر النفس بمجموعة أثاثها ذي الأسلوب المتميِّز، وبقماش القطيفة الأحمر الداكن، والسجّاد، ولكن قفص المصعد الضيق يئنّ ويلهب. وحجرتي صغيرة ومظلمة ومصابيح السقف لا تكاد تضيء نفسها، علىٰ أن الرَّحْض بالماء في دورة المياه لا يحقق «تدفُّقاً مفاجئاً» وحتى المنضدة مفتقدة، وهكذا أضطر إِلىٰ أن أكتب أوراقي من أجل المفاوضات علىٰ ركبتيّ، وكانت تجثم علىٰ روما حرارة لا تطاق، واستحمُّ بالدوش، وأتنزه حول مجموعة المنازل، وأعود أدراجي والعرق يتصبَّب مني.

وكان برتولت الفائق النشاط قد اتفق في هذه الأثناء مع الأمير مصطفى، كبير أبناء أخ الملك ظاهر، وهو رجل مديد القامة، بدين إِلىٰ حد ما، في الثلاثين، درس علوم السياسة في كندا، ويعيش مع جده منذ عام 1991، وينطلق بنا إِلىٰ ڤيللا الملك. علىٰ أن الشوارع الهامة التي تخرج من المدينة مكتظة جداً. ونحتاج إِلىٰ ساعة لنبلغ مقر الملك، وينتظرنا في الدهليز بعض السادة المسنين، عبد الستار، أستاذ الشريعة الإِسلامية في جامعة مكة، وابن حمي الملك الذي يبدو متفكِّراً، وهو الجنرال عبد الولي، ثم سلطان محمود غازي، وهو ابن عم الملك يعيش في الولايات المتحدة، ثم المستشار عبد المجيد عزيز الذي كنت لقيته في

جنيف، وأمين سر الملك، وزيري، والشابان الوحيدان هما الأميران مصطفى ونادر.

وبعد بضع دقائق يُقْبِل ظاهر شاه، وهو سيد مديد القامة، أهيف القوام، لوجهه ظل جانبي حاد الملامح، علىٰ أن ابن الثلاثة والثمانين يقف منتصب القامة علىٰ وجه التأكيد ويحييني بصوت خفيض، بالفرنسية، ثم يتحوّل إِلىٰ لغة البلاط التقليديَّة، لغة الداري، ويترجم الجنرال عبد الولي بفرنسية مركبة بعناية.

ويبدأ ظاهر بعرض مستفيض، ويقول إن كلا الحزبين المتحاربين بات يعي عبثية القتال. وبذلك تنفتح أمام الأُمم المتحدة الفرصة من أجل عملية سلام. ويشكر لي شخصياً أيضاً عملي، قائلاً إن الصداقة الألمانية ـ الأَفغانية «شيء في قلوبنا»، وفي مقابل ذلك تتسم العلاقات مع باكستان بأنها «ذات طبيعة متقلِّبة، وأثناء الجهاد استوعبت باكستان الكثير من اللاجئين الأَفغان، وهو ممتنّ لذلك. وكذلك تعد باكستان عاملاً هاماً في حل النزاع، ويقول إنه قام بجسّ النبض مراراً لدى إِسلام آباد فأرسل إِلىٰ هناك سلطان محمود أولاً، ثم العلامة صراط، وأخيراً الجنرال عبد الولي للتحدَّث في أشكال التعاون، وقد زاره وزير الخارجيَّة الباكستاني السابق، سردار آصف علي مراراً في روما، ولكن الاتصال انقطع مع الأسف في أيام حكومة نوّاز. ويذكِّر ظاهر بخطته للسلام العائدة إِلىٰ عام 1993، التي تتطلع إِلىٰ لوياجيركا علىٰ طريق يتألَّف من ثلاث مراحل، ويقول إن من أراد

أن يحكم أَفغانستان فهو يحتاج إِلىٰ المشروعية، وهو يفكر في الوقت الحاضر في ماهية الخطوات التي ينبغي القيام بها، ولذلك تعد زيارتي مهمة.

ويتدخل صراط ويوجه اللوم لأنني لم آتِ إِلىٰ روما إِلاَّ الآن لزيارة الملك. ويقول أيضاً إنه دعا في أيامه لدى روبين رافِل(!) إِلىٰ أن يُعَيَّن ألمانيٌّ خلفاً للمستيري، فالأَفغان يثقون بالألمان، ويقول إنه متشكّك بصدد فرص نجاحي بالطبع، وذلك أن أَفغانستان رفعت من جدول الأعمال الدولي منذ عقد اتفاقيات جنيف عام 1988، ويطالب بتدخل أقوى من قبل مجلس الأَمن. وأعترض بقولي إن أعضاءه يجري إِطْلاعهم بصورة منتظمة. أما الأعضاء الخمسة الدائمون فأنا أقيم معهم اتصالاً دائماً. ويواصل صراط اقتراحاته المعروفة منذ عهد بعيد: ينبغي للأُمم المتحدة أن تضع حداً للتدخل الأجنبي، وأن تعقد مؤتمراً للسلام في مكان محايد، وأن تمارس الضغط (علىٰ مَنْ؟)، ويصوغ بكلمات أُخرى، صياغة شكلية، ما أسمعه أنا من كل حدب وصوب، ومع ذلك فلا تقدِّم أيٌّ من هذه الصياغات معلومات جديدة بالقياس إليّ، كما لا تقدم، من باب أولى، تصوُّراً للمفاوضات يبشر بالنجاح.

ويأتي للكلام بعده عبد الماجد، فيحذرني من مخابرات الدول المجاورة التي سبق أن خَرَّبت عمل بينون سيڤان ومحمود المستيري. وليس عنده شيء جديد حقاً يقوله، ومن الواضح أَنَّه

يفترض أن يأتي كلٌّ منهم إِلىٰ دوره للكلام. ويفسح الملك لهم المجال، غير أني ألاحظ أَنَّه يبدو وقد انتابه التوتر شيئاً فشيئاً، ومن الواضح أن الحديث الطويل يرهقه. وفي بعض الأحيان أعتقد أنني أقرأ في وجهه أثراً من الاستياء من المستشارين الذين يحبون الثرثرة. وفي النهاية يريد الأمير مصطفى أيضاً أن لا يظل في الصفوف الخلفية، ويكرر قائلاً إن فكرة اللوياجيركا لا بُدَّ من بعث الحياة فيها أما كيف أظفر بتأييد الطالبان لهذه فلا يقول لي هذا، مع الأسف.

وأستعرض جهود الوساطة التي بُذِلَت حتى الآن، وأقول إن قرارات الجمعية العامة تنص بصراحة علىٰ الاستفادة من هيئات الحسم التقليدية، وهذا يهدف إِلىٰ لوياجيركا. ولكن كيف يمكن تنفيذ اجتماع قَبَلي؟ والأُمم المتحدة لا تستطيع أن تفرض سلاماً علىٰ الأَفغان، ولا تستطيع أن تفرض لوياجيركا أيضاً. وبأسلوب لا يخلو من أفكار كامنة دفينة، أصف المشكلات التي يترتب عليَّ أن أواجهها في كل يوم، والتي ربما كان هؤلاء السياسيون في منفاهم، لا يملكون تصوُّراً عنها. ولكيلا أكدِّر مزاج الملك، أنهي حديثي ببعض عبارات المجاملة، وحين أتجه نحو صراط أشير إِلىٰ الاهتمام الجديد من جانب مجلس الأَمن، بأَفغانستان، وقراره الصادر في 22 تشرين الأول، ومشاوراتي في موسكو.

ويؤكد ظاهر مرة أخرى أَنَّه يثق ثقة كاملة بالأُمم المتحدة، وبي. ويقول إنه لا توجد صيغة سحرية (clef magique) لحل النزاع

في أَفغانستان، ولا بد للمرء أن يسير خطوة خطوة. وفي هذه الأثناء تكون الساعة قد بلغت الحادية والعشرين، ويبدو الملك مُتْعَباً، ويرافقني إِلىٰ الباب.

وعند الوداع ألتمس من ظاهر شاه نسخة من خطته للسلام يوقعها لي، ويناولني إياها مبتسماً. وأقرأ فيها أثناء رحلة العودة، والخطة مؤرخة في 17 كانون الثاني 1993، ولم يجر منذ ذلك الوقت ملاءمتها مع اللحظة الراهنة، وهي تنصُّ، في خطوتها الأولى، علىٰ تأسيس «لجنة تمهيدية». ثم تُوَجَّه الدعوة، بمساندة الأُمم المتحدة إِلىٰ «مؤتمر قَبَلي خاص بالأزمات» (لوياجيركا للطوارىء) ويفترض في هذا المؤتمر، مرة أُخرى، أن يقيم المؤتمر القبلي النهائي، وينبغي لهذا المؤتمر أن يصوغ دستوراً ويعيِّن حكومة.

وقد أرسل الملك ظاهر، علىٰ قدر ما أعلم، في مستهل تموز 1995 ابن حميه، الجنرال عبد الولي، إِلىٰ باكستان، للتحضير للوياجيركا علىٰ أساس خطة السَّلام الموضوعة عام 1993. وفي البداية تساند باكستان هذا المشروع، غير أنها تتابع مع ذلك نواياها الخاصة. علىٰ أن المخابرات الباكستانية تأمل من مبادرة عبد الولي تطابقاً في المصالح بين الطالبان من ناحية، وبين حكمتيار والقوى البشتونية الأُخرى من ناحية ثانية، وهم الذين يفترض أنهم يريدون تشديد الضغط علىٰ نظام ربّاني الطاجيكي، ولكن عبد الولي ليس مستعداً لأن يلعَب بورقة الطالبان، بل يحاول، علىٰ النقيض من

A
PRACTICAL SOLUTION TO HELP SOLVE THE ONGOING PROBLEM IN OUR HOMELAND.

AS

PROPOSED BY HIS MAJESTY,
MOHAMMAD ZAHER SHAH,
FORMER KING OF AFGHANISTAN.

ROME, JANUARY 17, 1993.

obeikandi.com

IN THE NAME OF GOD THE MERCIFUL, THE COMPASSIONATE

For fourteen years, one of the longest and most bloody conflicts in modern times has caused deep misery, pain, and sorrow for the people of Afghanistan. This conflict has already left over one million Afghans dead. Tens of thousands have been handicapped or disabled. The fightining has forced millions of our fellow countrymen to flee their homes. Millions of Afghans still live in refugee camps in Pakistan and Iran. Many others have sought sanctuary in India, Europe, the United States and elsewhere.

This long and bitter conflict has destroyed both the public and the private infrastructure of Afghanistan; Health care, education, and other social amenities are virtually non-existent for the vast majority of the Afghan people. The economy of the nation has totally collapsed.

The long suffering people of Afghanistan are tired of the on-going conflict in their ancestral homeland, which now threatens the very existence of our nation; and we should not and cannot let it continue.

They want to see an ending to it; an ending that guarantees their legitimate rights and national unity in an Islamic and indivisible, free and independent Afghanistan.

The events of the past three years have clearly demonstrated the total lack of consideration for our national interest; decisions are being taken without reference to the Afghan people, a selfish struggle for political power continues and foreign interferences prevail.

As a result of which, untold suffering and destruction have taken place. It is now high time that the will of the people should be respected and all efforts should be focused towards attaining an equitable and practical solution acceptable to the majority of our nation.

What is required to end the tragedy in Afghanistan is the development and the promotion of a legitimate political process that can help the people of Afghanistan exercise their free will to achieve this noble objective.

Recognizing the vital necessity for such a process, I, as a lifelong servant of the Afghan people, therefore propose a practical programme to help resolve the on-going conflict in our homeland.

On the basis of Islamic and national responsibilities, I propose this programme to assist the people of Afghanistan to achieve success in their long struggle for peace and self-determination.

The programme that I now propose is a multi-stage process, designed to conclude with the creation of a new broad-based government in Afghanistan; an elected government that is seen as legitimate and acceptable to the vast majority of the Afghan people and credible for the international community, especially for those who stand ready to help the people of Afghanistan in their efforts to rebuild our country, long raveged by war.

Holding in high esteem the great Islamic, national, and traditional values of the Afghan people, the first major step of the programme I am proposing is the convocation of an ***Emergency Grand Assembly*** of the Afghan people (an ***Emergency Loya Jirga*** of the Afghan people).

The primary purpose of this Emergency Loya Jirga is to provide the genuine representatives of all Afghan elements an oppurtunity to participate in the election of a Head of State and the ratification of a provisional government, proposed by the newly elected Head of State to govern in our beloved homeland, until United Nations supervised elections can be held to choose a new Afghan Government.

The process I am proposing begins with the formation of an Organizing Committee of prominent, influencial Afghans through an inter-Afghan dialogue and understanding to assist in developing a plan for the convocation of an Emergency Loya Jirga.

Respecting the free will of the Afghan people, I propose that this Emergency Loya Jirga be accomplished as part of the following three-phase programme:

1. Formation of an Organizing Committee of prominent, credible, widely respected, and influential Afghans through a United Nations supported inter-Afghan dialogue, to help develop a plan for an Emergency Loya Jirga of the Afghan people.

   This plan, developed with the close cooperation of the United Nations Secretary-General, should pave the ground for a well-organized and credible Emergency Loya Jirga.

   The Organizing Committee should then assist the United Nations in obtaining both the support and the agreements needed to implement its plan for the convocation of the Emergency Loya Jirga from all sides involved in the Afghan conflict, and others in the international community, interested in seeing peace and self-determination restored to the people of Afghanistan.

2. Following up with the plan developed during the first phase of this proposed programme, the Organizing Committee can then convene the Emergency Loya Jirga.

   As I have already noted, this assembly will elect a Head of State and ratify a provisional government proposed by this head of State to govern in Afghanistan, until United Nations supervised elections can be held to choose a new Afghan Government.

   Delegates in the Emergency Loya Jirga will also define the functions and the duties of the Provisional Government and the duration of its term of office.

obeikandi.com

-3-

While governing the country during its term of office, the main tasks and responsibilities of the provisional Government will be to draft the new constitution, restore order, ensure security, and create the conditions needed to help the people of Afghanistan begin the task of rebuilding the country and encourage a return of Afghan refugees from abroad. In addition, during its term of office, the provisional Government will have the task of drafting rules and preparing a schedule for United Nations supervised elections.

3. When the provisional Government has accomplished the tasks and the resposibilities entrusted to it by the Emergency Loya Jirga, the Head of State will then call a traditional *Loya Jirga* of Afghan people.

The tasks of this Jirga will be to discuss and ratify the draft constitution and approve the proposed rules and schedule for United Nations supervised elections developed and submitted by the provisional Government.

These elections will then provide the people of Afghanistan an opportunity to exercise their free will and their legitimate right to have their own elected Head of State and Government.

I believe that with the completion of this step-by-step political process which I am proposing at this critical moment in Afghan history, the Muslim and freedom-loving people of our beloved homeland will achieve a revival of the Islamic, national, political and social values that bind us together as one nation. The successful conclusion of this programme will ensure a restoration of the peace, tranquility, and coexistence needed in Afghanistan to protect the welfare and dignity of our valorous people.

I pray to God Almighty to help the Afghan nation succeed in accomplishing this Islamic, national, and humane mission.

خطة السلام التي وضعها الملك السابق في 17 كانون الثاني 1993، والتي سلّمها إليّ ظاهر شاه في روما، في 27 حزيران 1997.

obeikandl.com

ذلك، أن يتوسط بين القندهاريين وربّاني، وبذلك يفقِد أهميته بالنسبة إِلىٰ إسلام آباد، ولكن حكمتيار وربّاني أيضاً يرفضان وساطته، ولا يُوَفَّق عبد الولي حتى في السفر إِلىٰ كابول، ويعود أدراجه في آب إِلىٰ روما خالي الوفاض.

وأنفض يدي من الورقة وقد تولاّني شيء من خيبة الأمل. إن خطة ظاهر للسلام قد تعمل عملها في محيط مسالم، ولكن ليس في بلد تسود فيه شرائع الحرب.

واللوياجيركا (جيركا بمعنى حلقة، أي بمعنى كون المشاركين فيها أنداداً متساوين) تستعيد مكانتها اليوم من جديد عند الكثيرين، بمعناها الحرفي، أي بصفتها «طريق الملك»، إِلىٰ الحل للصراع في أَفغانستان. ففي 24/ 25 تشرين الأول 2001، يلتقي في بيشاور أعداد جَمّة من «الأعيان» الأَفغان المستقلين. وكان قد دعاهم بيرجيلاني، وهدفه كسب تأييد الملك للدعوة إِلىٰ لوياجيركا. وفي اليوم التالي (26 تشرين الأول) يُعْلَن أَن أحد المؤيِّدين الرئيسيين للفكرة، وهو القائد عبد الحق، «أُعْدِم» في ظروف لم يَجْرِ استجلاؤها، في أَفغانستان. وتشير المظاهر إِلىٰ أَنَّه قاد، علىٰ مسؤوليته الخاصة عملية قوة صِدام ضد الطالبان الذين كان يريد أَن ينشىء ضدهم، عند قندهار، جبهة ثانية، ولا يُعْرَف هل كانت عمليته الحافلة بالمخاطر منسَّقة مع الأمريكيين الذين أرادوا بذلك أَن يخفِّفوا الضغط علىٰ تحالف الشمال الضعيف. وتروي

الصحف الفرنسية أَن عبد الحق حُكِمَ عليه بالإِعدام في عملية محاكمة مختصرة، بتهمة الخيانة العظمى، ثم شُنِق. وبذلك لقي هذه القائد البشتوني الجريء، الذي يُشاد به أثناء الجهاد، والذي كان كثيراً ما ينظر إِلىٰ الخصم في عينه وهو في ميدان المعركة، نهايةً غير مشرفة.

ولْنورِدْ بضع كلمات في شرح اللوياجيركا، بالنظر إِلىٰ المناقشة المتصلة بقضايا الساعة حول اجتماع قَبَلي كبير، إِذ أقيم آخر اجتماع من هذا القبيل، علىٰ قدر ما أعلم، قبل نحو 15 عاماً.

والمؤتمر القبليّ الكبير في أَفغانستان وسيلة تقليدية للعثور علىٰ القرار تذكِّر باتخاذ القرار الشعبي في الديمقراطيات المباشرة، مثل سويسرا، أَو شعب التِّنغ في المجتمعات الجرمانية السابقة علىٰ العهد الديمقراطي. ويفيد فهم التاريخ الأَفغاني أَن أول ملك لأَفغانستان الحديثة، وهو أحمد شاه دُراني، اختير في مؤتمر لوياجيركا زعيماً لقبيلة عبدلي. أمّا من الناحية الرسمية فقد أنشئت مؤسسة اللوياجيركا في أيام الملك عبد الرحمن (1880 ـ 1901)، الذي يدين هو بتنصيبه لمؤتمر قَبَلي كهذا. ويجب أَن يلاحظ في هذا الصدد أَن اللوياجيركا لا يفترض أنها، حسب فهمها في تلك الأيام، كانت تتمتع بسلطة مستقلّة، غير مرتبطة بالملك، أَو تَحُدُّ من مكانته، بل كان يُقْصَد بها تأمين قرارات الملك تجاه القبائل

وتجاه حملة الألقاب الروحية. وكان يقع علىٰ الملك تحديد الموضوعات التي تطرح في «جدول الأعمال»، ولم يكن يدخل في اختصاص أعضاء اللوياجيركا حق مبادرة كهذا.

وكان الملك أمان الله قد دعا أيضاً إِلىٰ مؤتمر لوياجيركا في عام 1928 بعد رحلة موسَّعة في آسيا وكان الثالث في أيام حكمه. ليدعو إِلىٰ أفكار التحديث التي خرج بها من العالم الخارجي، ومع ذلك فقد أخفق وأُطيح به بُعَيْد ذلك. ولم تستطع المؤتمرات القَبَلية أَن تحول دون الإِطاحة به. وفي الدستور الذي صدر في أيام الملك نادر شاه عام 1931 تم الاعتراف صراحة بمؤسسة اللوياجيركا، وطلب الملك ظاهر شاه في عام 1963 إِقرار إِصلاح دستوري أساسي عن طريق اللوياجيركا، ودعا خليفته، الرئيس داود، مراراً إِلىٰ مؤتمر لوياجيركا، وكان المؤتمر الأخير في عام 1977، قبيل قتله، وحتى الرئيس الماركسي، نجيب الله لجأ، مرة أخرى إِلىٰ هذه الوسيلة، وفي تشرين الثاني 1987 طرح دستور (مصمَّم من قبل المستشارين السوفييت) من أجل «جمهورية أَفغانستان الشعبية» يتعلق بلوياجيركا (موجَّهة) من أجل إِصداره.

obeikandi.com

السجل التاريخي لمؤتمرات اللوياجيركا في تاريخ أَفغانستان الحديث حتى الغزو السوڤييتي

1747 أحمد شاه دراني، مؤسس أَفغانستان الحديثة، ينتخب ملكاً في مؤتمر لوياجيركا في قندهار ويُنادى بأَفغانستان دولةً مستقلة ذات سيادة.

1879 الأمير شير علي خان يدعو، في مزار الشريف إِلىٰ مؤتمر لوياجيركا لتحديد سياسة ضد التدخل الأجنبي.

1915 الأمير حبيب الله خان يوعز، في مؤتمر لوياجيركا، بتأكيد حياد أَفغانستان في الحرب العالمية الأولى.

1923 (جلال آباد) 1924 و1928 (في باغمان) الملك أمان الله يوعز باتخاذ القرار في ثلاثة مؤتمرات لوياجيركا بصدد مسائل هامة في السياسة الداخليّة والخارجيّة (بما في ذلك تحديث جهاز الدولة).

1930 الملك نادر يدعو إِلىٰ مؤتمر لوياجيركا في كابول للبتّ في مسائل في السياسة الداخليّة والخارجيّة.

1941 الملك ظاهر شاه يطلب، في مؤتمر لوياجيركا تأكيد حياد أَفغانستان في الحرب العالمية الثانية.

1954 مؤتمر لوياجيركا للقبائل البشتونية علىٰ كلا طَرَفَيْ خط دوراند، يطالب باكستان بـ «إِعادة توحيد» البشتون.

1955 مؤتمر لوياجيركا يؤكد حق البشتون الذين يعيشون في باكستان، في «تقرير المصير» (أي الانضمام إِلىٰ أَفغانستان).

1956 الملك ظاهر شاه يطلب من مؤتمر لوياجيركا تفويضه عقد صفقات تسلُّح في الاتحاد السوڤييتي لأول مرة.

1964 الملك ظاهر شاه يدعو إِلىٰ مؤتمر لوياجيركا لإِصدار الدستور الجديد، الليبرالي، لأَفغانستان.

1977 رئيس الدولة محمد داود يطلب إِصدار الدستور الجديد، (الرئاسي) لأَفغانستان في مؤتمر لوياجيركا وتثبيته في منصب رئيس الدولة.

أما بين الأَفغان في هذه الأيام فأهمية اللوياجيركا مُتَنازَع فيها، فحكمتيار الذي ينتسب حسب معرفتي، إِلىٰ قبيلة بشتونية ضئيلة الأهمية، يعدُّ عند كثير من الأَفغان الوطنيين «باكستانياً»، وما كان له أَن يتوقع إِلاَّ القليل من المساندة من قبل مؤتمر للقبائل، وكان يحارب مفهومه علىٰ الدوام، ويطالب بدلاً منه، بانتخابات حرّة في أَفغانستان، بروح الديمقراطيات الغربية تقريباً، لتكون وسيلة لتكوين الإِرادة السياسية، وكان يعلِّل نفسه فيها، علىٰ ما يبدو بنجاح كبير، وكذلك كان معظم ممثلي الأقليات (الطاجيك، والأوزبك، والهزارا)، يرفض فريق منهم اللوياجيركا، ولا سيما العلاَّمة ربّاني وفريق يساندها بشطر من عواطفه (مسعود)، لأن هذه المؤتمرات تنعكس فيها تقاليد بشتونية وادعاءات حق بشتونية في السيادة. ثم إِن الطالبان بدورهم يأخذون مآخذ علىٰ اللوياجيركا علىٰ الرغم من أنهم انتخبوا زعيمهم هم، الملاّ عمر، في أبريل 1996 في مؤتمر قبلي. ولكن بعد غزو كابول ما عادوا يرون المشروعية القبلية ضرورية لسيطرتهم بالقوة، بل كانوا يعدّون المناقشة الصريحة لنظامهم التعسفي أمراً خطيراً. ويضاف إِلىٰ ذلك أنهم ينتمون في أغلبيتهم الكبرى إِلىٰ أقاليم جنوب أَفغانستان الثلاثة: قندهار، وأوروزجان، وهلماند، وهم خليقون أَن يتحوَّلوا إِلىٰ أقلية في مؤتمر قبلي يشارك فيه كل البشتون. وَيَرِد في الأنباء من كابول أَن العلامة ربّاني قد أعلن مجدَّداً عن تحفُّظات حيال مبادرة لظاهر شاه، وفي 16 تشرين الثاني 2001 يصرِّح بأنه ليس

لديه ما يعترض به علىٰ عودة للملك السابق، إذا جاء «أفغانياً بسيطاً». وهذا علىٰ وجه الخصوص لا يعدُّ علامة علىٰ استعداد ربّاني للإذعان لقرارات محتملة تصدر عن مؤتمر قبلي يدعو ظاهر شاه.

وكذلك أعرب وكيل وزارة الخارجيَّة الروسية، بوسو واليوك، خلال استشاراتي في موسكو عن عدم تقديره لإمكانات عقد مؤتمر لوياجيركا. واللاعبون الرئيسيّون الآن، علىٰ كل حال، في جبال هندوكوش هم أمراء الحرب، لا من يُسَمَّوْن بالمستقلين، وسياسيّو المنفى العاطلين، والذين يتسمون بمثالية الدوافع وهم مع ذلك قليلو الخبرة والحنكة في السياسة، من المثقفين وأهل الفن.

ومع ذلك فبالنظر إلىٰ الوضع المَيْؤوس منه في أَفغانستان، كانت خطة الدعوة إلىٰ مؤتمر لوياجيركا ما تَفْتَأُ تُناقَش المرة بعد الأُخرى، ويُعْهَد إليها بحل كل المشكلات، كأنها مُنْقِذ يتنَزَّلُ من السماء في ساعة المحنة، علىٰ أنها لم تتحقَّق بالطبع أبداً. وحتى في أيام مفاوض الأُمم المتحدة، ديجيو كوردوفيز، الذي أبرمت في أيامه الاتفاقية الخاصة بانسحاب القوات السوفيتية، كان كثيراً ما يجري التفكير في مسألة أَلا ينبغي أَن يُدْعى ظاهر شاه، بحكم كونه السلطة الوحيدة المعترف بها علىٰ النطاق العام، إلىٰ اجتماع قبليّ كبير. علىٰ أَن آخر مؤتمر لوياجيركا، وطني حسب علمي، يستحق هذا الاسم دُعِيَ إليه بُعَيْد بدء الغزو السوفيتي في مستهل كانون الثاني 1980 عن طريق زعيم قبيلة الياردان، محمد عمر

بابراكزاي. وبالنظر إلىٰ التهديد المشترك من قبل موسكو لقي المؤتمر إقبالاً كبيراً. وتمّ الوصول إلىٰ درجة عالية من الإجماع، وتخلّىٰ المؤتمر عن مفهوم دولة إسلامية في وسط آسيا وطالب بنية اتحادية أكثر مرونة واسترخاءاً من أجل أفغانستان ما بعد الحرب، ورُفِضَت المذاهب الأصولية المتشددة رفضاً شديداً، ودعا المؤتمر، بدلاً من ذلك، إلىٰ إسلام لا مذهبي سوف يحترم كل التيارات الفكرية (الشرعية) في البلاد، وما من شك في أن اللجنة الوطنية المعيَّنة من قبل اللوياجيركا أخفقت في الشهور التالية من جراء مقاومة الأصوليين الأفغان، وفيهم حكمتيار، ورُعاتهم الباكستانيين، ولا سيما المخابرات الباكستانية، كما وضعت السيطرة العسكرية السوڤييتية التي سرعان ما فرضت نفسها علىٰ البلاد بأسرها، نهاية للمشروع الجليل.

وكذلك ظهرت في عام 1997، مرة أُخرى، فكرة حل مشكلات أفغانستان عن طريق لوياجيركا، وكانت المبادرة هذه المرة من قبل قائد المجاهدين البشتونيين السابق عبد الحق، الأخ الأصغر لحاكم جلال آباد المذكور آنفاً، حاجي عبد القادر. وكان عبد الحق ينتمي إلىٰ حزب يونس خالص (الحزب الإسلامي، 2)، كما كان ذلك، بالمناسبة، شأن الكثيرين أيضاً من الطالبان القياديين، وكان هذا القائد قد كَوَّن لنفسه اسماً، بحكم كونه المحارب القديم أثناء الحرب ضد الاتحاد السوڤييتي، وأقام علاقات وثيقة ببعض الشخصيات، التي تقلدت فيما بعد مناصب

رفيعة في الولايات المتحدة، وكان منهم رئيس لجنة الشؤون الخارجيَّة في مجلس الشيوخ الأمريكي، جيسي هيلمز، وسفير الأُمم المتحدة، بيل ريتشاردسون الذي أصبح فيما بعد وزيراً للطاقة في عهد الرئيس كلينتون، ومنهم أيضاً رئيسة قسم جنوب آسيا في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، روبين رافيل التي قتل زوجها، سفير الولايات المتحدة في تلك الأيام في إِسلام آباد، مع رئيس الدولة الباكستاني، ضياء الحق، عام 1988 في حادث سقوط طائرة، وكذلك خَلَفُها في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، رئيس القسم الجديد، كارل ف. إِندرفورت، إِذ كان هؤلاء من معارف هذا القائد، بل كانوا علىٰ صداقة معه. وحين شرع عبد الحق في عمليته في عام 1997، وجمع حواليه أول الأمر، في إِسلام آباد، مجموعة من الأَفغان «المستقلين»، لقي عند هؤلاء الأمريكيين مساندة صريحة.

أما أنا نفسي فكنت لا أرى إِلاَّ القليل مما يمكن كسبه من هذه المبادرة، مهما تكن بدت جديرة بالترحيب لدى الوهلة الأولى. والحق أنني استقبلت عبد الحق مراراً في دار الأونسما، ولكن تبيَّن لي علىٰ وجه السرعة كم كان «المستقلّون» متنازعين فيما بينهم، وأنّه لم يكن يوجد بين ممثلي العشائر هؤلاء، من الكيلانيين، والكرزاي، والمجدِّدين، إِلخ... أحد يتنازل للآخر أَو يعطيه الأولية، ولم يكونوا يستطيعون، حتى في طور التأسيس، أَن يتفقوا علىٰ رئيس لهم. وكان يضاف إِلىٰ الصعوبات الكبيرة

obeikandl.com

التي واجهت أمراء الحرب في تلك الأيام في صدد تنفيذ القرارات الناجزة الصادرة عن مؤتمر القبائل، بعدُ صعوبات من صنع محلي حكمت علىٰ المشروع بالإِخفاق فيما أرى.

وحتى ما كان يأمله المتقدِّمون بالمبادرة، وهو الأثر الناجم عن كرة الثلج (snowball effect) والذي سوف يزداد بموجبه عدد الأنصار علىٰ نحو متواصل، وسوف يتضخّم في النهاية ليصل إِلىٰ حجم يؤثِّر علىٰ الطالبان، لم يظهر. أما أَن الشائعة أفادت أَن شركة دلتا للنفط، وهي شريكة مؤلَّفة من اتحاد من المؤسسات في (UNOCAL)، التي أرادت أَن تمدد خطأً لأنابيب الغاز الباطني عبر أَفغانستان تموِّل عبد الحق، فذلك ما لم يكن ملائماً لكسب تأييدي للمشروع. وكان حميد كرزاي، وهو نائب وزير خارجيَّة سابق في أيام الرئيس مجدِّدي قد أَسَرَّ إِليّ وهو نفسه قندهاري، منذ وقت طويل، أَنَّه حاول أَن يحمِّسني من أجل مشروعهم. وعلىٰ كل حال فقد أدت الأحاديث المتعددة مع كرزاي إِلىٰ أَن هذه المجموعة التأم شملها في مجال فرانكفورت. وقد كنت أتمنى لو أَن وفداً من هؤلاء الأَفغان الراغبين في السَّلام استُقْبِل بعد ذلك في وزارة الخارجيَّة، إِذاً لكانت لفتةً تعبِّر عن حسن النية وما كانت لتكلِّف ألمانيا شيئاً. ولكن بون كانت تتوارى وراء بيان صحفي يهدىء الخواطر، وارتحل الأَفغان من جديد من دون أَن يتحدثوا إِلىٰ ممثل للحكومة الاتحادية، وضاعت الفرصة السانحة لإِظهار قليل من الظل الجانبي للألمان في سياسة أَفغانستان الدولية.

obeikandi.com

ولم تُخْفِق فكرة اللوياجيركا في منتصف التسعينات من جراء الافتقار إلىٰ المساندة من قبل الأُمم المتحدة ولا من جراء تحفظي الباطني، أبداً، بل من جراء موقف الطالبان الذين كانوا يصرحون لي علىٰ الدوام بأنهم لن يشاركوا أبداً في لوياجيركا، ولن يلقوا بالاً إلىٰ مقرراته. ويقولون إن مفهوم المؤتمر القبلي تجاوزه الزمن من الناحية السياسية، والآن كانت المسألة تتوقف علىٰ الأحزاب المتحاربة، لا علىٰ مؤتمر لشيوخ القبائل ورجال الدين في القرى. ومن أجل ذلك رأيت أَن المشروع غير ممكن التنفيذ في تلك الأيام في ظل الظروف المحيطة السائدة.

وما من شك في أنني كنت أحاذر من رفض وسيلة أَفغانية تقليدية من وسائل العثور علىٰ قرار حاسم سبق ذكره وإِقراره، من حيث المعنى والدلالة، فقرارات سابقة للأُمم المتحدة، دفعةً واحدة. بل الأحرى أنني ساندت في هذا الاتجاه الخارجي، علىٰ قدر ما أمكنني ذلك. علىٰ أَن مستشار الأونسما الفرنسي، برتولت، وهو من العاملين معي الذين يتسمون بغنىً فائق في الأفكار، يدافع عن المشروع بحرارة، وكان أيضاً هو الذي كان دفعني إِلىٰ زيارة الملك في روما، وإِلىٰ أَن أَسْبُرَ لديه إِمكانيات عقد مؤتمر لوياجيركا، ولم يكن من الممكن أَن يدخل في إِطار رغبتي أَن أعامل هذا الفرنسيّ الذي ينطوي علىٰ دوافع سامية، بجفاء. ولم يكن لي بدٌّ، بالطبع، أَن أُلْجم حماسته في بعض الأحيان، وأن أحذِّره من المغامرة بسلطة الأمين العام في مخاطرة لا أفسح لها في تصوّري إِلاَّ القليل من فرص النجاح.

وكنت علىٰ بيِّنة من أنني لم أُمَهِّدْ، بتشكُّكي، لخيبة أمل برتولت في بعض الأحيان فحسب، بل لم أَحْظَ إلاَّ بالقليل من التعاطف من جانب سفير الولايات المتحدة الأمريكي، بيل ريتشاردسون، علىٰ وجه الخصوص، ومن قبل نائب الكونجرس، روراباخر. وقد شكا ريتشاردسون، ذات مرة، مما يقال عن خمولي وقلة نشاطي، ولكن من دون أن يلقى آذاناً صاغية، بالطبع.

ومن المعروف حتى اليوم أَن المسألة لم تنته حتى اليوم إلىٰ الدعوة إلىٰ لوياجيركا، والملك الذي بلغ في هذه الأثناء السابعة والثمانين لم يعد إلىٰ أَفغانستان، ومن أجل ذلك أجد ما يؤكد لي صحة شكوكي التي كان قائمة في تلك الأيام، مع الأسف، علىٰ أَن الأسئلة الحاسمة: ما هي الشخصية الأَفغانية التي تتمتع بالسلطة المعترف بها من قبل كل لأحزاب (أَو معظمها) لكي تدعو إلىٰ مؤتمر لوياجيركا؟ وفي أي مكان يمكن أَن ينعقد هذا المؤتمر، من دون أَن يتعرَّض لمؤثرات أجنبية؟ وكيف يمكن لمقرراته أَن تُنفَّذ في بلد زَلْزَلَتْهُ الحرب الأهلية؟ هذه الأسئلة لم تجرِ الإِجابة عليها حتى الحادي عشر من أيلول 2001 الذي يمكن أَن يثبت أَنَّه حدٌّ فاصل في تاريخ أَفغانستان المعاصر.

وبالطبع فإِذا قُدِّر لممثلي الأَفغان، وفي مقدمتهم ممثلو حكومة ربّاني الجديدة، بالنظر إلىٰ الوضع الذي تتمثَّل فيه محنة الوجود والبقاء التي تمر بها البلاد، أَن يقفوا معاً، صفاً واحداً ذات

مرة في تاريخهم الحافل جداً بالنزاع والخصومة والعنف، فستتوافر فرصة من أجل مؤتمر لوياجيركا. علىٰ أن الملك الشيخ قد تتوافر له، في ظل الظروف الجديدة، إمكانية دعوة زعماء القبائل إلىٰ وضع ميثاق أعظم أفغاني (Magna Charta) يشمل وثيقة التأسيس لأَفغانستان المستقبل التي تشمل كل الأعراق ويحترم الحقوق الأساسية الواردة في ميثاق الأُمم المتحدة، مثلما يحترم التقاليد الإسلامية. ولكن لا بدّ لمؤتمر اللوياجيركا الذي يُفْتَرَض أَن يعترف به الأَفغان هيئةَ حسم تتمتع بالمشروعية، أَن يظل في أيدي الأَفغان علىٰ أَن الأُمم المتحدة وحدها هي التي تستطيع أَن تتدخل في مجريات أموره، مُعَدِّلة ومُلَطِّفة.

obeikandl.com

obeikandl.com

19

الجنرال عبد الملك

لقد أصبح الجنرال عبد الملك بهلوان اليوم منسياً خارج أَفغانستان. ويعيش ابن الأربعين حولاً في طهران عيشة الضنك، متقاعداً سياسياً في سن مبكِّرة، وعندما يكتب تاريخ أَفغانستان الحديثة ذات مرة فسيكون من المُسْتَيْقَن أَن يُفْسَح له مكان خال من المجد، بصفته «ذبّاح الطالبان»، والخائن لقائده دُسْتُم، أي أَنَّه سيكون علىٰ أية حال انتهازياً برّاقاً متعدد الألوان. ولكن عندما يتأمل المرء المكان وجرائم القتل في بلاط الملك الأَفغاني، حيث كان الأخ ينهض في وجه أخيه، والعمّ في وجه ابن أخيه، والقبيلة في وجه القبيلة، وهراة في وجه كابول، عندما يضع المرء نصب عينيه، مثلاً، السنوات الدامية الممتدة بين عامَيْ 1863 و1880، حين زحف البريطانيون في غمرة النزاع العائلي في البلاط، مما وحَّد الأَفغان علىٰ الفور، وجرى ذبح المبعوث من لندن في قلعة بالاحِصار مع كل مرافقيه، عندما يتذكر المرء هذه المسرحيات في

obeikandl.com

التاريخ الأحدث فربما لن يرى في فظائع عبد الملك سوى أنموذج السلوك التقليدي عند الحكام الأفغان.

وفي 19 أيار 1997 تمرّد عبد الملك علىٰ الجنرال دُسْتُم وتحالف مع الطالبان ضده، ويفرُّ دُسْتُم إلىٰ تركيا. علىٰ أن تحالف الشمال، الذي كان، علىٰ أية حال، قد دُحِر إلىٰ مجال آخذ في التقلُّص في الشمال، يتزعزع في حصونه، وبعد يومين يخرج عبد الملك علىٰ التحالف الجديد، ويخاف أن يطارده الطالبان أنفسهم فيعتقل مبعوثيهم الذين يقيمون من أجل المفاوضات، ومن أجل الصلاة عند ضريح الخليفة في مزار الشريف، ويقتل المبعوثين الذين استحوذ عليهم، ويقيم لقوات الطالبان، بالاشتراك مع الهزارا الشيعيين، الذين يتعطشون إلىٰ الانتقام بسبب قتل زعيمهم السابق، مزاري، حمام دم. وتظل جريمته مكتومة زمناً طويلاً. ويتولّى الطالبان الفزع إلىٰ أقصى الحدود، وينهالون عليّ، لكي أتدخَّل لدى عبد الملك، ولا يتجلّى مدى الفظائع إلاَّ بعد أن يعود دُسْتُم في نهاية أيلول من المنفى، ويطرد عبد الملك، ويأمر بفتح القبور الجماعية.

وعندما أرتحل مع برتولت إلىٰ مزار الشريف لكي أتفاوض علىٰ هدنة مع الحاكم الجديد، عبد الملك، يكون ذلك في العاشر من تموز 1997، أي في الحقبة الواقعة بين كلا الحدثين. وقبل ذلك بأسبوعين، عندما كنت أجري مشاورات في باريس، كان أوكيلو قد طار إلىٰ مزار الشريف بتكليف مني. وفي تلك الأيام

كان عبد الملك يتبجّح قائلاً إِنه أسر في تحوُّله من طرفٍ إِلىٰ آخر، من 6000 إِلىٰ 7000 من الطالبان، كما وقع في قبضته أربعمائة من الجند الباكستانيين، وفيهم بعض الضباط. وحين يسأل أوكيلو عن وزير الخارجيَّة المفقود، الملاّ غوث، يؤكد عبد الملك أَن هذا الأسير بحالة حسنة. ولكن رجاء أوكيلو أَن يتحدث إِلىٰ غوث، يُقابَل بالرفض. وبدلاً من ذلك يطالب عبد الملك بأن يقوم مراقبون دوليّون بزيارة الأسرى الباكستانيين لتثبيت إدانة إِسلام آباد بالجرم المشهود، أي جرم التدخل العسكري. وحين يردُّ أوكيلو علىٰ الفور قائلاً إِنه يريد هو نفسه أن يرى الباكستانيين، يتراجع عبد الملك، قائلاً إِنه لا بدّ من إِجراء «تحضيرات تقنية»، ويقول إِن المعتقلين موزعون علىٰ أقاليم مختلفة من أجل أَمْنِهِم.

وفي هذا اليوم القائظ من أيام تموز نضطر أول الأمر إِلىٰ إِصلاح طائرتنا البيتش كرافت بسبب خلل أصاب المحرك. وفي درجة حرارة تبلغ 42 في الظل ننتظر ساعتين علىٰ حافة مَدْرَج الإِقلاع، وكنت أنوي أول الأمر أَن أتحدث، في مزار الشريف، إِلىٰ العلامة ربّاني ثم مع القانوني، وإِلىٰ ممثل مسعود، وإِلىٰ وزير الخارجيَّة غفورزاي، وأخيراً مع الجنرال عبد الملك، وأعتزم السؤال عن الأسرى الذين أظهر كثيراً من القلق علىٰ مصيرهم، عن غوث وإِحسان الله، كما أريد أَن أسأل هل تتوافر فرصة لمؤتمر لوياجيركا ظاهر شاه وعبد الحق. ومن الواضح عندي أَن

obeikandi.com

تحالف الشمال يشن هجمات حادة علىٰ باكستان، وسوف يطالبني بالتشهير بتدخُلها العسكري علانية. أمّا أَن مثل هذه الخطوة خليقة أن تؤدي إِلىٰ مزيد من التصعيد فذلك أمر لا ريب فيه. وكان وزير الخارجيَّة جوهر قد أكَّد في موسكو أَنَّه لا يوجد في أَفغانستان جندي باكستاني واحد.

ويستقبلني ربّاني في حضور ناديري، زعيم الإِسماعيليين. وكما كان متوقعاً، يشكو من الحكومة في إِسلام آباد، ويقول إِن حكومته قد أسرت مئات من الجند الباكستانيين، ولكن هيئة الأُمم المتحدة تلتزم الصمت. وأحذر من افتتاح مسرح حرب جديدة، هي حرب الدعاية. وأقول إِنني حين أتّهم إِسلام آباد علانية بالتدخل العسكري فسوف توجه مآخذ مماثلة علىٰ إِيران، وعلىٰ الهند وروسيا. وسوف يتصاعد نزاع الكلمات. وهذا أمر لن يجدي عملية السَّلام، بل علىٰ النقيض، إِذ سوف تنتظر باكستان مجرد ذريعة لوقف التعاون مع الأونسما تماماً ثم ألتقي بالقانوني، والقانوني أيضاً يقول بصراحة إِن إِسلام آباد تساند، من الوجهة الرسمية جهود الأُمم المتحدة، وفي الواقع تتابع أهدافها الخاصة، وترسل قوات إِلىٰ أَفغانستان، والقانوني يرفض تسليم الأسرى من الطالبان، ويقول إِن الحجاج الذين يتحدثون عنهم قائلين إِنهم يحجون إِلىٰ قبر الخليفة علي كانوا في الحقيقة جنوداً. ويؤكد القانوني أَنَّه التقى في قطر بالعلامة صراط، مستشار الملك، وتحدث إِليه حول خطة ظاهر المرحلية، ويقول إِن مسعوداً لا

يعارض مؤتمر اللوياجيركا أَو عودة الملك، ولكن يجب أن تجسِّد اللوياجيركا «إرادة الشعب»، كما يقول بأسلوب ملتبس. أمّا ما يتصل بمبادرة القائد عبد الحق فيعرب عن رأيه بأسلوب المتحاشي المتملِّص، وأسأل عن المكان الذي بقي فيه الملاّ غوث، وهل تراه ما زال حيّاً؟، ويرد القانوني بقوله إِن في وسعي أن أتحدث في هذا مع الجنرال عبد الملك. غير أَنَّه ينصح لي، بصفته صديقاً، أَلاّ أُلحّ في هذه المسألة.

أما وزير خارجيَّة تحالف الشمال، وهو غفورزاي من معارفي القدامى، وأحد البشتونيين القلائل من قبيلة محمدزاي المرموقة السمعة في حكومة رباني الطاجيكية، فيستقبلني في خلوة بيني وبينه. وفي البداية نناقش الوضع في نيويورك. ويحسب غفورزاي حسابه علىٰ أساس أَن لجنة التصديق (لجنة أوراق الاعتماد أجلت مسألة التمثيل الأَفغاني مراراً، وأن تحالف الشمال سيكون من حقه، بذلك، أَن يواصل التحدث في الجمعية العمومية، ويقول إِنه لكي تتغيَّر مسألة المقعد يحتاج الأمر إِلىٰ أغلبية الثلثين، وهي أغلبية لن تستطيع باكستان أَن تحققها أبداً، وأؤكد مرة أُخرى أَن الأُمم المتحدة تمارس الحياد الصارم تجاه الأحزاب الأَفغانية، وإِن شكَّ في ذلك غفورزاي في بعض الأحيان في تصريحاته أمام الجمعية العامة. ويقول إِن حرب الدعاية مع باكستان لن تفضي إِلىٰ شيء، كما أَن الأمين العام للأُمم المتحدة لن يسلّم بهذا مقابل توجيه الاتهام إِلىٰ باكستان بحكم كونها طرفاً وحيداً (في التدخّل).

ثم نتحدث عن فرص عقد مؤتمر لوياجيركا. أما غفورزاي فيتميّز في معسكره هو بين المستعدين للإصلاح (مسعود، وعبد الملك، والخليلي) و«الأصوليين» (رباني، سياف، حكمتيار). أما المستعدون للإصلاح فكانوا يريدون أَن يشكِّلوا حكومة انتقالية مؤلفة من التكنوقراط. وأما أحزاب الجهاد فكان يفترض أَن تتم الاستعاضة عنها بأحزاب حديثة، ليبرالية، محافظة، متديّنة. ولا يجوز، بحال من الأحوال للحكومة الانتقالية أَن تطيل أجل «نظام ربّاني»، ويشير غفورزاي إلىٰ أن الحديث يدور حوله ليكون رئيساً لوزراء الحكومة المقبلة، ويقول إِنه سيزور الملك في روما ويلتمس منه المساندة. وقال إِنه يمكن تحريك عملية السَّلام عن طريق مؤتمر لوياجيركا. وحين أسأل هل يشارك الطالبان فيها يقول غفورزاي إِنهم حين ينأَوْن بأنفسهم عن اللوياجيركا يثبت أمام الرأي العام العالمي من هو الذي يحول دون السَّلام. وعندئذ يفترض فيهم أَن يكشفوا عن طريق أقصر إلىٰ السَّلام. وأردُّ أنا بسخرية لاذعة: «طريق الحرب». وأسأل، حتى غفورزاي أيضاً عن ملا غوث، ويجيب وزير الخارجيَّة قائلاً إِنه ينطلق من كون غوث ما زال علىٰ قيد الحياة.

ثم أقف لأول مرة، في مواجهة الحاكم الجديد، الجنرال عبد الملك. وما من شك في أننا سبق أَن التقينا من قبل، وكانت المرة الأولى في عام 1994 في بون، وفي تلك الأيام ظهر في حلة من المخمل، ولحيته الصغيرة في وجهه المستدير، الشاحب،

العجينيّ إِلىٰ حد ما، قد بولغ في أناقتها، وهو يبتسم ابتسامة جذابة، وفيه أثر من الإِعجاب بنفسه. وما من أحد كان يأخذه مأخذ الجد تماماً، وكان يبدو كأنه المثال الأنموذجي لـ «جنرال الشوكولاته» إِذا شئنا أَن نستعمل تعبير المسيو برتولت. وحتى عندما رحلت بعد ذلك إِلىٰ مزار الشريف رأيته، وما زال يقف في الحلقة الثانية، ولم يكن يحق له أَن يتدخّل في الحديث بصفته مستشار دُسْتُم. أما الآن فقد أطاح بهذا، وسوّىٰ حساباً عائلياً قديماً، وهو قتل أخيه غير الشقيق علىٰ يد الجنرال الأوزبكي، والرجل ذو السبعة والثلاثين حولاً في ثياب مدنية، هي حُلّة ذات صف واحد من الأزرار، وربطة عنق، ويذكِّر وهو يبتسم بلقائنا في بون، ولكن المتاعب لا تلبث أَن تنهال علىٰ باكستان بعد ذلك، وهي التي تجد نفسها من الوجهة العملية في حالة حرب مع تحالف الشمال. وأوكيلو، مستشاري، يقول إِنه رأى الأسرى الباكستانيين، ومع ذلك فلم تتّهم الأُمم المتحدة إِسلام آباد علانية بالتدخل. والطيارون يُستَنفَدون عند الطالبان شيئاً فشيئاً، لأن تحالف الشمال أسر خمسة وعشرين منهم. والآن «تُسَلِّف» إِسلام آباد طيّاريها هي إِلىٰ قندهار.

بسم الله الرحمن الرحیم

دولت اسلامی افغانستان

وزارت امور خارجه

شماره: 7-7-96

مورخ :

To: Dr. Norbert Holl, UNSMA Representative Afghanistan.

Excellency.

I on behalf of the I. G. of Afghanistan request the UNSMA to find out about our prisoners in the North. I have send you a letter about this last week and once again respectfully give this task to your E.

you know that they (Northern A.) said that there were 1000/ prisoners with them. We know that many Talibans are daily murdered in the north.

thanks and regards.

Mullah Abdul Jalil
Foreign Minister
I.G. Afghanistan

مذكرة بخط اليد من وزير خارجيّة الطالبان، ملاّ أحمد جليل، في 7 تموز، 1997 يعرب فيها الطالبان عن قلقهم حيال قتل جنودهم من قبل تحالف الشمال.

oberkanal.com

وأنصح مجدَّداً بعدم إِشعال حرب دعاية مع باكستان، وأحيل إِلىٰ تصريح وزير الخارجيَّة جوهر من موسكو الذي يقول فيه إِن إِسلام آباد لن تعترف أبداً بأن جنودها في أَفغانستان قاتلوا علىٰ الجبهة، بل علىٰ النقيض: سوف تقول إِن الجنود الإِيرانيين ساندوا تحالف الشمال، كما كنت أرى أيضاً أَن من غير المرجح أَن يكون مجلس الأَمن مستعداً لأن يتَّهم بلداً بعينه بالتدخّل، وكان في الماضي أدان التدخل الأجنبي بوجه عام فحسب، لسبب وجيه. فمن يتهم بلداناً بعينها يفتح علبة الشرور، وأن من الواجب علينا أَن نركِّز طاقاتنا علىٰ المُضيّ هناك في جهودنا من أجل الهدنة، حيث قوطعت من جراء الانقلابات التي حدثت في 19 أيار. أما عبد الملك ففي وسع المرء أَن يقرأ خيبة الأمل في وجهه، ويرد بسؤالٍ وهو غير مصدِّق: «وإِذاً فالأُمم المتحدة لن تتهم باكستان؟» ومن الظاهر للعيان أَنَّه لم يأتِ بأوكيلو إِلىٰ ميمنة إِلاَّ من أجل هذا الغرض، ويمضي قائلاً إِنه قد أُسِر بالأمس أربعون من الطالبان وسبعة من الباكستانيين، وإِذاً فكم من البراهين تحتاج الأُمم المتحدة لكي تتهم باكستان بالتدخل؟ إِنني أؤكد أَن الأمين العام يتم إِطلاعه علىٰ كل الحقائق علىٰ نحو متواصل.

وألتمس من عبد الملك ثلاث مرات أَن تُتاح لي رؤية الملاّ غوث ومرافقيه ويتعلّل عبد الملك بأن «غضب السكّان سيتوجه ضده»، وأسأله لماذا يفترض أَن الغضب سيتوجه ضد مبعوثي الأمين العام للأُمم المتحدة. ويصرّ عبد الملك علىٰ ادعائه، بسمّه

وناره، ويتغير جوّ اللطف والمجاملة، وينتهي لقاؤنا بتحية وداع شكلية.

وفي الخامس والعشرين من تموز تفيد الصحافة أَن الملاّ غوث قد ظهر من جديد، وهو يقول إِن عبد الملك لم يأسرْه أبداً، بل الأحرى أَنَّه أتيح له أَن يتوارى عن الأنظار في وسط الفوضى العامة، وأن يشق طريقه، علىٰ مسؤوليته، من مزار الشريف إِلىٰ كوندوز، ولكي لا يُعْرَف من قبل الطاجيك علىٰ أَنَّه واحد من الطالبان حلق لحيته، ولم يقطع طريق المشي علىٰ الأقدام، الذي يبلغ طوله 200 كم، إِلاَّ في الليل، ويصرح غوث بأنه لا يعرف ماذا جرى لأعضاء وفده، إِحسان الله وفضل الرحمن وعبد الحق.

وإِذا الجنرال عبد الملك يقف الآن مكشوفاً مُعَرَّىٰ. فقبل شهرين كان يتبجَّح بأنه أسر غوثاً، ومع ذلك فقد كان، أثناء زيارتي الأخيرة في مزار الشريف يتصرف كأنه يستحوذ علىٰ هذه الرهينة الهامة.

وتُسْتأْنَف الحرب، ويتقدم مسعود نحو كابول. وفي 31 تموز يقف علىٰ بعد عشرين كيلومتراً قبل العاصمة، التي ضحّى بها قبل عشرة أشهر من دون قتال لأسباب لم تجر تجليتها أبداً، ويصرِّح بأنه سيستعيد المدينة خلال أسبوع، ولكن عبد الملك يمسك قواته في مزار الشريف ويرفض مساندة مسعود أمام كابول. ومرة أُخرى تكون الأولوية للخصومة الشخصية علىٰ القتال المشترك ضد

الطالبان، ذلك لأن عبد الملك يعرف أَن هذا القائد إِذا استولى علىٰ المدينة فسوف يتغيَّر توازن القوى داخل تحالف الشمال لصالح الطاجيك.

ولكن الأحداث الجديدة تكشف عن مدى هشاشة انتصار التحالف في الواقع. ففي 8 أيلول 1997 يبدِّل قائد محلي غير ذي أهمية، من قادة حزب النيما (NIMA)، في بلدة طاشقُرغان، علىٰ بعد 25 كيلومتراً إِلىٰ الشرق من مزار الشريف، الطرف الذي يقف إِلىٰ جانبه. وكان الطالبان قد رشَوْه، وينشق الرجل عن الجنرال عبد الملك، ويحذو حذوه قادة آخرون في شانتول (إِلىٰ الجنوب الغربي من بلخ)، وشاربولاك (إِلىٰ الغرب من مزار الشريف) ثم يثور السكَّان البشتونيون، في إِقليم سامنجان، علىٰ أثر ذلك، علىٰ الأوزبكي عبد الملك، وخلال 48 ساعة تغدو مزار الشريف مطوَّقة، ويحظى الطالبان مجدَّداً باليد العليا، وتزحف قواتهم علىٰ مزار الشريف، ويفاجأ مستشاري العسكري، المقدَّم لو، بالأحداث، ويكون شاهد عيان علىٰ اشتباكات دموية في الشوارع، وعمليات نهب وجرائم. ويتربّص في مكانه أسابيع مع مستخدم آخر من مستخدمي الأُمم المتحدة، قبل أَن يتاح لنا أَن نُقْلِع بكليهما في طائرة عمودية حربية تابعة لتحالف الشمال. وفي الثلاثين من أيلول يغزو الطالبان مطار مزار الشريف، ويقفون بذلك علىٰ بعد عشرة كيلومترات من المدينة، التي تسلِّمها قوات عبد الملك بغير حماية.

ويرى دُسْتُم أَنّه قد آنت لحظة العودة إِلىٰ أَفغانستان، فيحتل مقرَّه الرئيسي في شيبرغان، ويبدأ، في 1 تشرين الأول بهجوم تخفيف للعبء، علىٰ مزار الشريف، وفي اليوم التالي يكون الطالبان قد وصلوا إِلىٰ قلب المدينة. وفي هذا اليوم تنداح أمواج جبهة القتال مرتين متجاوزة الملجأ الذي يتربَّص فيه المقدَّم لو مع مرافقه. وفي الخامس من تشرين الأول يكون التحوُّل، ومرة أُخرى يغيِّر قائد قد تمَّ شراؤه، الطرف الذي يقف معه. وفي هذه المرة يخون الطالبان، ويستعيد دُسْتُم مطار مزار الشريف. وفي الأيام التالية يتم دحر الطالبان مع تكبيدهم خسائر فادحة، وإِخراجهم من إِقليم بَلْخ، وفي نهاية تشرين الأول يكون دُسْتُم قد استعاد مكانته رئيساً للنما (NIMA) وقائداً أعلىٰ من جديد. ويهرب الجنرال عبد الملك مع أسرته إِلىٰ إِيران.

وتتعالى الأصوات شيئاً فشيئاً، بالمآخذ التي تفيد أَن عبد الملك لم يُعْدِم، في أزمة مزار الشريف الأولى، في أيار 1997، المبعوثين ذوي الأهمية السياسية فحسب، بل أَعْدَم أيضاً آلافاً من جند الطالبان البسطاء إِعداماً جماعياً سريعاً. ويقوم ممثلو اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي بالتدقيق في الوضع، ويرتحل إِلىٰ أَفغانستان مراسل الأُمم المتحدة لشؤون حقوق الإِنسان، وهو البروفسور شون هاي بايك، الكوري، إِلىٰ مزار الشريف، ويُدْلي الأمين العام للأُمم المتحدة بتصريح يدين فيه عمليات القتل الجماعي وفي هذه الأثناء يثبت أَن حاكم المصرف

المركزي، ملا إِحسان الله، والمدير العام لوزارة الخارجيَّة، فضل الرحمن، ووزير الطيران في حكومة الطالبان، ملاّ عبد الرزاق، الذين كنت تفاوضت معهم قبيل رحلتهم المشؤومة إِلىٰ مزار الشريف، قضوا نحبهم في غمرة الاشتباكات الأولى.

وفي مستهل تشرين الثاني يأمر الجنرال دُسْتُم بفتح القبور الجماعية في مزار الشريف، ويعرضها علىٰ العاملين معي في الأونسما، ولم يكن دُسْتُم معنياً بالعثور علىٰ الحقيقة، بل بنزع الثقة من خصمه عبد الملك. ويوجه هذا، من المنفى الإِيراني رسالة إِلىٰ الأمين العام للأُمم المتحدة، ينفي فيها عن نفسه كل المآخذ، ويتهم، بدلاً من ذلك، خصمه دُسْتُم. ولكن الجنرال عبد الملك لن يتخلَّص أبداً من الشبهة الثقيلة، وهي إِقدامه، خلال الأيام القلائل من تبديل تحالفه الانتهازي، علىٰ قتل الطالبان بالمئات، إِن لم يكن ذلك بالألوف.

obeikandl.com

obeikandl.com

20

بعثة الإِبراهيمي

علىٰ أَن أزمة أيار في مزار الشريف، وما تلاها من نظام الحكم المروِّع في أيام الجنرال عبد الملك وزحف مسعود علىٰ كابول في تموز 1997، كل هذا يكشف عن أَن نداءات الأُمم المتحدة من أجل السَّلام كانت تتردَّد أصداؤها من دون أَن تلقى أذناً صاغية. ويستأنف أمراء الحرب اشتباكاتهم من دون أَن يحفلوا كثيراً بجهودي من أجل التوصُّل إِلىٰ هدنة، وهذا ما يزيد في قناعتي بأن الأَفغان لن يعودوا إِلىٰ السَّلام بدافع من قوتهم الخاصة، ولا بدّ أَن يأتي الدافع من الخارج، علىٰ أَن جهودي لكسب تأييد الولايات المتحدة بصفتها «بلداً قيادياً»، لم تثمر. ولم تدفع محادثاتي في باريس وبون، الحكومتين هناك، إِلىٰ مساندة مبادرات السَّلام الصادرة عن الأُمم المتحدة بالتزام قومي ظاهر، ومع ذلك فأنا لا أستسلم للهزيمة، وكانت تخطر ببالي، في كل يوم علىٰ حدة، صيغ جديدة لإِمكانية تشكيل تحالف دولي من أجل السَّلام.

obeikandl.com

وينتاب الأمين العام، عنان القلق (تقلد منصبه منذ 1 كانون الثاني، وتمّ إطلاعه من قبلي، في 7 نيسان على الحرب الأهلية في جبال هندوكوش) لغياب خطوات التقدم في باكستان. أما باكستان فتثير الشبهة بأنني بِتُّ مُسْتَهْلَكاً، ولا بدّ من استبدالي، فَتُطَبِّقُ حيالي الطريقة ذاتها التي طُبِّقت مع كلٍّ من أسلافي: ففي البداية يُؤَمَّن لمفاوض الأمم المتحدة تعاون وثيق، ولكن بمجرد أن يتبيَّن أَنَّه لا يمثل المصالح الباكستانية على وجه الخصوص، بل يدخل في تصوُّره، بحكم كونه وسيطاً، مواقف الأحزاب والدول الأخرى أيضاً، تشرع إسلام آباد في تقويض عمل المبعوث وتحجب الثقة عن تكامله، ثم تمارس في النهاية عملية استبداله. على أن الأمور لن تسير على نحو أفضل بالنسبة لخليفتي، المفاوض اللاحق، الأخضر الإبراهيمي، وذلك أن إضعاف الشخص والمنصب يتمّان وراء حجاب من الدخان يتكوَّن من الكلمات الوديّة، الرقيقة المُجامِلة، ولا يمارس النقد تجاهي علانية، بل يجري الحديث في الخُلوة عن الصعوبة الهائلة، إن لم يجر الاعتراف بانعدام المخرج من وضع أفغانستان بأسلوب ينطوي على الرثاء والتعاطف.

وكان النقد المبرَّر بالموضوعية، حيال عملي، قد واكبني بالطبع منذ البداية، وكنت خليقاً أن أكون قائد مفاوضات غير صالح لو أنني سمحت لنفسي أن تتزعزع من جراء ذلك. على أن المزعج في المسألة لم يكن يتمثل في تصميم الأمين العام على أن

يكلف رجلاً جديداً يعرفه منذ وقت طويل ويضع فيه ثقة كبيرة، بل كان هذا عدم شفافية الأحداث في إِسلام آباد ونيويورك، التي ظلت أوَّل الأمر مَضْنوناً بها علىٰ المعنيين بها. علىٰ أن سمعة الأونسما ومبادرة السَّلام التي كلفني بها الأمين العام بطرس غالي، والتي حظيت منذ ذلك الوقت، من قبل مجلس الأَمن والجمعية العمومية بالمؤازرة والدعم، في العديد من القرارات، لحق بها الضرر من جراء تفريغ وظيفتي من مضمونها.

ثم إِن الشائعة التي تفيد أَن الأمين العام يريد أَن يستبدلني، تتناهىٰ إِلىٰ مسمعي أول مرة في 17 تموز 1997، وذلك علىٰ وجه الخصوص عند السفير الإِيطالي الذي كنت أقوم بزيارة ودية له، وأسأل في نيويورك عن بريندرجاست، مستشاراً وقد فوجئت، فإِذا هو لا يعرف شيئاً، علىٰ أَن قسمه السياسي الذي أتعاون معه لم يقترح استبدالي علىٰ أية حال. أما العاملون معي الذين انتابهم الاضطراب والقلق فيستخدمون قنوات معلومات حكوماتهم. وسرعان ما نستيقن أَن الدافع في نيويورك إِنما نجم عن باكستان، وكما يكون ذلك دائماً. ويلتقط الأمين العام هذا. وفي 23 تموز يُنْقَل إِليَّ من نيويورك نبأ صحفي من الأمانة العامة في نيويورك، وفيه يُعْلَن تعيين وزير الخارجيَّة الجزائري السابق، الأخضر الإِبراهيمي مفوَّضاً خاصاً لأَفغانستان، ويفترض أَن يقوم الإِبراهيمي بتقييم الوضع في أَفغانستان خلال «بعثة وقت وجيز» ويرفع إِلىٰ الأمين العام مقترحاته لحل النزاع. أمّا ما سوف تصير

إِليه الأونسما، وما سوف أصير إِليه فذلك ما لا يكشف عنه التصريح.

وتعمد الصحيفة الباكستانية «بريد الحدود» إلىٰ عزف اللحن الجديد بثقة من يصيب الهدف في الصميم: «في لفتة ظاهرة للعيان تشير إِلىٰ عدم الثقة بنوربرت هول، عيَّن الأمين العام للأُمم المتحدة دبلوماسياً جزائرياً رفيع المستوى مستشاراً له من أجل كل جوانب الحرب والسَّلام في أَفغانستان، وفي نيويورك يحتج السفير آيْتِل علىٰ الانتقاص من أَهْلِيَّتي. ويحمل هذا الأمين العام علىٰ التصريح بأنه يتمتع بالحق في صرف اللجان الخاصة في أي وقت. وفي بون يصرح وزير الخارجيَّة، كينكل بأنه «يقف ورائي».

علىٰ أَن النبأ الصحفي القادم من نيويورك يتزامن مع رسالة أرسلها إِلىٰ بريندرجاست، وكنت قد لبثت أياماً بطولها أعالج بالتنقيح، وأصوغ أفكاري من أجل التصرف المستقبلي، وأؤكد مرة أُخرى أنَّ الدافع لا بد أَن يأتي من الخارج. ولما كانت واشنطن، وباريس وبون لم تستجب لاقتراحاتي فمن الواجب الآن أَن يتم النظر في صيغة أكبر، وأقترح مجموعة من سبع دول (أمريكا، روسيا، الباكستان، إِيران، أوزبكستان، والدولتان «الباعثتان للاستقرار»، ألمانيا واليابان) يفترض أَن تساند جهود الأُمم المتحدة. ويجب أَن يكون الهدف الماثل وراء تصرفها المشترك حظر السلاح، وفي النهاية أيضاً حظر الوقود. ولما كان تعاون المجموعة يغدو عسيراً من جراء التعارض التقليدي بين

المصالح فلا بد، في خطوة أولى، من جسّ النبض علىٰ نحو ثنائي الجانب بين كل الدول الأعضاء علىٰ حدة (مثل باكستان وإيران) لمعرفة ماهية العقبات التي تواجه الوصول إلىٰ إجماع، ولا بد لهذه الدول أن تحدد «مطاليبها» إلىٰ حد ما.

ثم إنني أقترح إعلان مقعد أفغانستان في المرحلة الانتقالية شاغراً، وهذا من شأنه أن يزيد من الضغط علىٰ تحالف الشمال للدخول في الحوار مع الطالبان من دون شروط مسبقة (تجريد كابول من السلاح)، وأن يزيد في حَفْزِ الطالبان إلىٰ التخلّي عن تبادل الأسرى من حيث كونه شرطاً مسبقاً للمفاوضات. علىٰ أنني لن أتلقى أبداً جواباً عن رسالتي.

وفي 15 آب يدخل الإبراهيمي بصحبة الموظف الياباني في الأمم المتحدة، كاواباتا، إسلام آباد ويكون انطباعي الأول: كتِفان محنيّتان انحناءاً يسيراً، ورجل في الستين، ووجه متخدِّد، وابتسامة جافة حول زاويتي الفم، ولغة حَذِرة بصوت خفيض، وقد مارس الدبلوماسي المحنَّك عملياته بنجاح في بعثات سلام سابقة في زائير، وفي جنوب أفريقيا، وفي اليمن وهايتي بصفة عامة، وتعاون مع كوفي عنان في بعض بعثات السَّلام. ويقابلني المفوض الخاص بمودة، ومع ذلك فهو يثبت أَنَّه شخصية منغلقة علىٰ وجه العموم، يطيل التفكير والنظر في الأمور علىٰ ما يبدو، وقد شارك الإبراهيمي وهو شاب في الكفاح من أجل الاستقلال مع جبهة التحرير الوطني (FLN)، ومثَّل حركة التحرير في إندونيسيا

وأصبح بعد ذلك وزير خارجيَّة لبلاده. وهو يعيش منذ بضع سنين في باريس وحين ننطلق معاً في في السيارة إلىٰ فندق ماريوت، وسرعان ما يتبيَّن من خلال الحديث أننا درسنا، كلانا، في الوقت نفسه، في باريس، أمّا هو فكانت دراسته، بالطبع، في معهد مرموق للعلوم السياسية، وأمّا أنا ففي كلية الحقوق الأكثر تواضعاً.

وفي خلوة بيننا يسلِّم الجزائري بأنه لم يسبق له بعدُ وجود في أَفغانستان، ولا حتى في باكستان. وكان قد اختتم لتوِّه بعثة في هايتي. والآن لا بدَّ له أَن يطَّلع علىٰ ملف أَفغانستان المعقد إطلاعاً عميقاً. وفي البداية يتعلّم أسماء أهم أمراء الحرب فيحفظها غيباً، ثم يرسِّخ في ذاكرته الجغرافية السياسية للبلاد، والتحالفات والجبهات. وما من شك في أَن هذا الجزائري يتمتع باطلاع واسع علىٰ شؤون العالم الإِسلامي، ولا سيما العربيّ، وتلك نتيجة لنشاطه السابق بصفته وزيراً للخارجيَّة، ولعمله في الجامعة العربية. ويحاول ذات مرة أَن يحمل الطالبان علىٰ نفسية أكثر رَوِيّة وتبصُّراً بالتفاوض معهم بالعربية. ولكنه يضطر إِلىٰ الكفّ عن تجربته بسرعة، من جديد، لأن معلومات المُلاَّت اللغوية ضئيلة إِلىٰ حد ما. وذات مرة يعترف الإِبراهيمي بأنه إِذا تصرَّف في حالة البعثات السابقة بأسلوب ناجح فقد كان يدين بالفضل في ذلك أيضاً إِلىٰ مصادفة سعيدة ساقته في اللحظة المناسبة إِلىٰ منطقة أزمات.

ويقيم الإِبراهيمي مدة أسبوعين في الإِقليم. ويتحدث، في صحبتي، إِلىٰ كل الباكستانيين القياديين، إِلىٰ رئيس الدولة ليغاري، وإِلىٰ وزير الخارجيَّة جوهر أيوب، وإِلىٰ وزير الدولة شَمْشَد (الذي يتوارى مني منذ شهور) وإِلىٰ رئيس الأركان العام الواسع النفوذ، كرامات. وقد استبعدت في لقاءين مع ممثلي المخابرات الباكستانية، لأن رئيس المخابرات يرغب في حديث في خلوة ثنائية. ثم تفضي بنا جولة أول الأمر إِلىٰ قندهار، حيث يأمل الإِبراهيمي عبثاً أَن يتم استقباله من قبل الملاّ عمر. علىٰ أن الرفض يعني بالنسبة لباكستان فضحاً وتعرية، لأن الرئيس ليغاري شخصياً كان وعد الإِبراهيمي أَن يكرِّس نفسه من أجل تحقُّق الحوار، وهكذا يقتصر الأمر علىٰ اللقاء مع حسن وجليل، الذي يتطوَّر، هنيهة من الزمن، تطوُّراً غريباً يبلغ منه أَن الإِبراهيمي، يبدأ، في غمرة محنته، في التحدث عن شخصية متقلِّبة المزاج تركية، يقال لها جحا، وكان الطالبان يهزون برؤوسهم في حيرة.

ونتابع انطلاقنا بالطائرة إِلىٰ مزار الشريف، حيث يستقبلنا الجنرال عبد الملك و«رئيس الوزراء» الذي عُيِّن حديثاً لتحالف الشمال، وهو غفورزاي، واحداً إِثر الآخر. وعند الوداع نَتصافح، ونتواعد علىٰ لقاء آخر قريب، ولكن هذا الحديث في مزار الشريف، سيكون بالنسبة لي، آخر لقاء مع هذا البشتوني الدَمِث الرقيق، الذي يتعرض بعد يومين لحادث سقوط طائرة قاتل.

ثم ينتهي بنا المطاف إِلىٰ باميان، حيث نتحدث إِلىٰ رئيس الهزارا، كريم خليلي، ويتاح لي أَن أشاهد، مرة أخيرة، تماثيل بوذا غير المخرَّبة، والمنحوتة في الصخر، ويلي ذلك محادثات في أشخاباد مع رئيس تركمانستان (نيجاسوف)، وفي طشقند مع الرئيس كريموف، وفي دوشنبي مع الرئيس الطاجيكي رحمونوف. ويبلُغُني، في دوشنبي، في 22 آب، ما يبعث علىٰ فزعي وهو أَن غفورزاي قضى نحبه في حادث تحطُّم طائرة في يوكاولانج، وفي اليوم الأسبق، وبالنسبة لتحالف الشمال يحدث موت هذا البشتوني المعتدل، ذو الخبرة الدولية، ثغرة لم يجرِ سدُّها بعد ذلك أبداً. ويدفن في مزار الشريف. علىٰ أَن رغبتي في زيارة قبره تنتهي إِلىٰ الإِحباط من جراء الاشتباكات المتجددة في الشمال.

علىٰ أننا لا نخرج من المشاورات إِلاَّ بالقليل مما يلهمنا شيئاً ما، أما الإِبراهيمي فربما كان للمحادثات عنده جاذبية الشيء الجديد، غير أني أحس، في مقابل ذلك، بتكرار مواقف مقَوْلبة ذات نمط ثابت، من حيث كونها مُتْعِبة وباعثة للإِحباط. وأنقل، بالطبع، من الحوار مع الجنرال كرامات، أنَّ هذا الخبير العسكري أيضاً يمثِّل وجهة النظر القائلة إِن من الممكن مراقبة حظر الأسلحة علىٰ الحدود الباكستانية، إِذ لا يوجد إِلاَّ القليل من نقاط العبور، التي يمكن نقل المعدّات الثقيلة عن طريقها. وكان من الممتع بالقياس إِليَّ الإِقامة القصيرة في دوشنبي التي لم أكن عرفتها حتى الآن. والمدينة تتميّز من جراء الحرب الأهلية المتواصلة منذ زمن

طويل، والحياة غير آمنة، والمدرَّعات تراقب الشوارع العريضة في داخل المدينة. ولكن خلال الساعات الأربع والعشرين التي نقضيها في العاصمة المضطربة يجري سَحْلُ عدد من الضباط الطاجيكيين من قبل الانقلابيين، أَو يقتلون في الشارع المكشوف أما الرئيس رحمانوف، الذي يعيش في مقر شديد التحصين، ويبدل مكان إِقامته في كثير من الأحيان كما أسمع، فلا يذكِّرني بنشأته الشيوعية الخالصة تماماً، وبمظهره الرياضي، بنجيب الله فحسب، وهو الذي كان في النهاية أيضاً سيداً علىٰ مجرد بضعة أنساق من شوارع في كابول.

وفي الثلاثين من آب يغادر الإِبراهيمي إِسلام آباد من جديد ويطير إِلىٰ طهران، ويصحبه إِلىٰ هناك وكيلي أوكيلو، وبعد شهر يُطْلِع الإِبراهيمي الأمين العام ومجلس الأَمن علىٰ أحداث جولته، وفي اليوم التالي (1 تشرين الأول)، يدعو، لأول مرة، المجموعة (6 + 2) للاجتماع، ويتم إِحداث تحفُّز جديد في جهود الأُمم المتحدة من أجل السَّلام.

وعلىٰ الرغم من أَن بعثة الإِبراهيمي تنتقص من مكانتي وعملي انتقاصاً كبيراً، فقد عملت جاهداً علىٰ أَن لا أسمح بظهور أشكال من التوتُّر الشخصي بيننا أثناء الرحلة المشتركة وبعدها أيضاً، وكذلك عاملني الإِبراهيمي معاملة حسنة. وبهذه المناسبة فقد كان مما ينطوي علىٰ الدروس بالنسبة إليَّ أَن أصغي إِلىٰ المفوَّض الخاص في محادثاته، وذلك أَن الإبراهيمي لم يكن

يستخفي وراء الصيغ الشكلية الفارغة إلاَّ فيما ندر، بل كان يستطيع أَن يغدو واضحاً بصورة مطلقة تجاه شركائه في الحوار. وحتى تجاه الباكستانيين كان يحافظ علىٰ مسافة أمان بينه وبينهم، علىٰ الرغم من أن إسلام آباد دعته بصفة «ضيف رسمي» وعاملته معاملة مهذَّبة، ربما علىٰ افتراض أن تتمكن من أن تعدِّل موقف المبعوث الـ gewieft بما يلائم مصلحتها. وسرعان ما سيتَّخذ الإبراهيمي تجاه باكستان موقف المواجهة ذاته الذي انتهى الأمر بي أنا أيضاً إلىٰ اتخاذه. وبعد خروجي من مكتب مفوض أَفغانستان التقيت بالإبراهيمي مرة أُخرى من أجل حديث ودّي، وكنا قد اتصلنا مراراً، أحدنا بالآخر، هاتفياً، وحين استقال هو ذاته بعد عام ونصف، أكدت له تعاطفي ببرقية، أيضاً.

وكان الإبراهيمي يتحدث دائماً بأسلوب هادىء موضوعي، ومن دون أي ادعاء للحق في الحديث عن نفسه وعن إمكانيات الأُمم المتحدة في العمل والتصرُّف. وذات مرة يدلي بملاحظة إليَّ قائلاً إن الأُمم المتحدة قد زُجَّ بها، في غير إنصاف، في موقف لا يمكنها معه إِلاَّ أن تخسر. وقال إن الدول الأكثر قوةً في مطالبتها بالتزام سياسي من قبل الأُمم المتحدة تعرف علىٰ وجه الدقة أنها تضع هذه المنظمة هناك أمام مشكلة لا سبيل إلىٰ حلها، أما المقصود بهذه الدول، وقد كنت في هذا الصدد علىٰ بينة من أمري مع الإبراهيمي فهي بعض الدول المجاورة لأَفغانستان، والدول الكبرى أيضاً. وأمّا اقتراحي أنا بالدعوة إلىٰ اجتماع مجموعة

واسعة من «البلدان القيادية»، أَو «مجموعة الدعم»، فقد أطلعت عليه المفوَّض الخاص في البداية علىٰ الفور. وأعرب الإبراهيمي عن موقف لا يؤيد تصوُّري، ومع ذلك فقد اقترح فيما بعد، علىٰ الأمين العام، وأذكر ذلك بإيجاز ـ بنفسه إعدادَ مجموعة مماثلة، في صيغة «6 + 2» ويجري الحديث عن هذه في موضع آخر. ولكن التعامل الودّي الذي نحرص عليه أثناء إقامتنا في الإِقليم، لا يغيِّر شيئاً في استنتاج أن محور الثقل في جهود الأُمم المتحدة من أجل السَّلام ينتقل منذ الآن إِلىٰ نيويورك. والحق أن الأونسما يتم الحِفاظ عليها موقعاً محلياً للمراقبة من دون اختصاص محدد.

ومع ذلك لا تكاد مقترحاتنا من أجل التصرُّف التالي تجد في المستقبل صدىً لها في الأمانة العامة. ومن المؤسف أَنَّه لا يتم إطلاعنا أيضاً علىٰ مبادرات الإبراهيمي إِلاَّ علىٰ نحو متفرِّق، من نيويورك، وينتشر شعور بالشلل في الحقبة التالية في نفوس العاملين معي، ينتابني أنا أيضاً شيئاً فشيئاً. ونشعر أن الأمانة العامة لا تعود تحفل بنا، وهذا لا يقتصر عليَّ فحسب، بل يشمل أيضاً الدبلوماسيين من ذوي التأهيل العالي من فرنسا والولايات المتحدة وروسيا واليابان، إذ يصعب علىٰ هؤلاء أن يبتلعوا ذلك أَو يهضموه، كما ترفض اقتراحات الرحلات من أجل العمل من قبل مستشارِيَّ في نيويورك، أَو لا تتاح لهم علىٰ الإِطلاق، ولا تتحقق رغبتي في التشاور مع طهران، علىٰ الرغم من أن الحكومة الإِيرانية تُلِحّ عليَّ مراراً أن أقوم بزيارة لوزير الخارجيَّة الجديد خرّازي.

وكنت أنوي، منذ بداية نشاطي لدى الأُمم المتحدة، أن أعود إِلىٰ وزارة الخارجيَّة في مستهل العام 1998. وكنت قد أطلعت الأمين العام، بطرس غالي علىٰ هذه الخطة مثلما أطلعت وزارة الخارجيَّة. ولكن الأجل الذي حدَّدْتُه لنفسي في البداية، سرعان ما يدخل حيِّز النسيان، وسَرْعان ما تستحوذ عليَّ المهمّات التي كانت تنتظرني في أَفغانستان. وعلىٰ الرغم من أشكال الإِحباط التي شَهِدْتُها أثناء التعامل مع أمراء الحرب في كل يوم، فإن هذه الأشكال من خيبة الأمل ـ المرتبطة بالظروف السياسية ـ ليست هي التي تنبِّهني الآن إِلىٰ وجوب الاستقالة. فمنذ نيسان 1997 كنت اقترحت علىٰ الأمين العام تصوُّراً جديداً لتصرُّف الأُمم المتحدة، وانتظرت أن يُعْهَدَ إليّ بتنفيذه، وبدلاً من ذلك أَراني مقصوراً علىٰ دور المتفرِّج، من جديد.

وفي الأول من تشرين الأول 1997 أقدِّم إِلىٰ الأمين العام، كوفي عنان، استقالتي، وكذلك ينهي الفرنسيّ برتولت، والياباني تاكاهاشي عملهم في هذا التاريخ، وينصرف الأمريكي شيفر ديكر بُعَيْد ذلك. وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول يعلن الأمين العام علىٰ لسان المتحدث الصحفي باسمه، فْريد إيكهارت أَنَّه يقبل استقالتي مع الأسف. ومنذ التاسع من هذا الشهر كانت ليندا بيركِن، القائمة بأعمال رئيس قسم آسيا، قد هتفت إليّ، وأَسِفَت لخروجي، وبعد ذلك بيوم تصل برقية من بريندرجاست إِلىٰ الأونسما، وفيها يعبِّر عن تعاطفه بكلمات نبيلة ويؤكد كلاهما أَنَّه

ما من أحد في نيويورك فكَّر في صَرْفي نتيجة لبعثة الإبراهيمي، بل يريد القوم، علىٰ النقيض من ذلك، اقتراح تمديد عقدي اعتباراً من 1 كانون الثاني 1998، وبهذه المناسبة فأمور بريندرجاست تجري علىٰ نحو مماثل لأحوالي، وكان هو أيضاً قد فقد اختصاصه الذي كان حتى الآن، في الصراع في أَفغانستان، بحكم الأمر الواقع، إذ بات هذا يعود إِلىٰ المفوَّض الخاص الجديد.

obeikandl.com

obeikandl.com

21

انحلال الدولة أم الفراغ

قبل بضع سنوات كرست حلقة دراسية في بون، في العلوم السياسية، نفسها لمسألة «انحلال الدولة». وتم البحث، من خلال أربعة أمثلة من الحالات، في مسألة هل يمكن للمرء أَن يشخِّص انهيار مجتمعات منظمة تنظيماً علىٰ أساس دولة. وأكبَّت الأدمغة الذكية أثناء المناقشة علىٰ المرضى المصابين بعلة قاتلة. وكان القوم يكادون يعتقدون أنّهم يرون جَرّاحين ينفذون عملياتهم بالمبضع الذي يعمل عمله في الأطراف. وكانت أَفغانستان من الدول الأربع المصابة بمرض قاتل. ولدى مناقشة الوضع في جبال هندوكوش، قلتُ في تلك الأيام إِنني لا أعرف إِلىٰ هذا المدى ما الذي تعنيه الدولة الآخذة في الانحلال، وما هي المقاييس التي لا بدّ أَن تلبّيها لكي يمكن تشخيص حالتها بأنها انحلال دولة. وبالنسبة إِليَّ يُصاغ السؤال علىٰ نحو مختلف، وهو: هل نستطيع أَن نتحمَّل تقبُّل انحلال الدولة في أَفغانستان وأن ننظر إِلىٰ موت

obeikandl.com

هذا البلد مكتوفي الأيدي، أم ليس مما يدعم مصالحنا أَن نحول دون انهيار وشيك محتمل، ونتجنَّب فراغاً خطيراً في السلطة فوق الجسر البري بين شبه القارة الهندية وآسيا الوسطى.

وفي الواقع فإِن أَفغانستان تماثل، منذ وقت طويل، جماعة عاجزة عن التصرّف في الاتجاه الخارجي وفي الاتجاه الداخلي أيضاً، إِلىٰ حد بعيد، وقد باتت، منذ سقوط الملك ظاهر شاه مقيَّدة محصورة في خياراتها السياسيَّة بقدر مطرد الزيادة، وقد خسرت هذه الخيارات في هذه الأثناء خسارة كاملة تقريباً. فعلىٰ مدى خمس سنوات بعد غزو كابول كان مجال التصرّف في السياسة الخارجيَّة عند نظام الطالبان قد ضاق إِلىٰ حد بلغ منه أَنَّه ما عاد في وسعه بعدُ إِلاَّ أَن يختار بين كفاح لا أمل فيه ضد دولة عظمى وبين الاستسلام بلا قيد ولا شرط أمام تحالف الشمال. وفي هذه الأثناء يكون هؤلاء قد باتت لهم قدمٌ راسخة في العاصمة، وباتوا يرون لأنفسهم، مُمَثَّلين في شخص «الرئيس» ربّاني الذي نوديَ به حديثاً، الحق في أَن يُعامَلوا علىٰ أنهم حكومة لها استقلالها الكامل. وفي الواقع كان مجال تصرفهم أيضاً قد ضاق حتى وصل إِلىٰ مجرد مسألة البقاء علىٰ قيد الحياة. وفي هذه المرة ما عادت المسألة تتصل بالتهديد العسكري، بل بالتهديد السياسيّ. ذلك لأن الخصومات التقليديَّة بين الأعراق وبين أحزاب المقاومة السابقة تبدو كأنها توشك أَن تنشب من جديد. ويحاول ربّاني، عن طريق المناداة بنفسه رئيساً، أَن يُرْجع عجلة

obeikandl.com

التاريخ خمس سنوات إلىٰ الوراء، ويَرُدَّ أفغانستان إلىٰ الوضع الذي أدّى إلىٰ نشوء الطالبان في مستهل حركة احتجاج مفهومة.

علىٰ أن البشر سرعان ما ولّوا الأدبار بعد ذلك هاربين من الطالبان الذين كان يُهَلَّلُ لهم ويُهْتَفُ أول الأمر. وفَرَغت مساحات واسعة من الأراضي إلىٰ الشمال من كابول التي كان يستغلها الفلاحون الطاجيك في ظل حكم الطالبان، وازداد عدد اللاجئين المحشورين في باكستان، وإيران، خلال أربعة أسابيع، من مليونين ونصف المليون إلىٰ خمسة ملايين، وثمة ملايين أُخرى من الذين اجتُثّوا من جذورهم يعيشون عيش الضنك والكفاف في مساحات ضيقة مجدبة، ويهددهم الموت من الجوع في الشتاء القادم، ولا يظلون أحياء منذ عهد بعيد إلاّ بمساندة المانحين الدوليين.

لقد أدى سقوط الملك (1973) والنظم التي تلته، ذات الفظاظة الآخذة في الازدياد، مروراً بداود وحتى الرؤساء الماركسيين، إلىٰ تضييق مجال سيادة أفغانستان شيئاً فشيئاً حتى بات يقتصر علىٰ من يتلقّى أوامر موسكو. ولكن سقوط نجيب الله أيضاً (1992) لم يوسّع نطاق مقدرة البلاد السياسية علىٰ التصرُّف، ولم يكن ربّاني يمارس سياسة خارجيَّة فعلية، وكان، وهو الذي استهلكته سياسة الحفاظ علىٰ السلطة، يستثمر طاقاته في محاولة توسيع نظام حكمه الهشّ الذي يعد (في نواته) وحيد العِرق، بحيث يشمل ائتلافيين من أقليات عرقية أُخرى، ويرسِّخ أقدام

حكمه ليتحول إِلىٰ تحالف عام مناهض للطالبان. وفي خط مُوازٍ لهذا، كان يعمل جاهداً علىٰ العثور علىٰ تسوية مؤقتة مع باكستان ليؤمِّن تجارة الترانزيت التي لا يستغنى عنها من كراتشي، وكويتا، وبيشاور. أمّا العمليات الأُخرى المتصلة بالسياسة الخارجيَّة التقليدية، كما يكون، مثلاً، في إِطار منظمة المؤتمر الإِسلامي، فكان يفتقر إِلىٰ القدرة عليها.

وحين ورث الطالبان ربّاني من ناحية السلطة السياسية، وأنشأوا نظامهم في كابول، اقتصرت سياستهم أيضاً علىٰ توسيع المجال الذي يسيطرون عليه داخل أَفغانستان، وعلىٰ محاولة الحصول علىٰ الاعتراف الدولي بالمقعد المخصص لأَفغانستان في الجمعية العمومية، ولم يكن من الممكن الحديث عن سياسة خارجيَّة للطالبان تتجاوز هذا. وحتى بالنسبة لباكستان، التي كانت تَمثل من ناحية الحليفَ الذي لا يستغنى عنه من الناحية العسكرية والمالية ـ التكنولوجية، وكانت، من الناحية الأُخرى، ما تفتأ تُذَكِّر بحدود إِمكانات نفوذها وتأثيرها، لم يكن في وسع المرء أَن يَتَبيَّن سياسة خارجيَّة مخطّطة لأجل طويل، عند القندهاريين، بل كان المرء أقرب إِلىٰ أَن يَتبيَّن سياسة مرتجلة تتم ملاءمتها مع الحاجات اليومية. وعلىٰ قدر ما كانت العلاقات بإِسلام آباد وببعض البلدان الأُخرى تتقلَّص، وكانت حكومة الطالبان ترى نفسها معزولة آخر الأمر نتيجة لأحداث 11 أيلول 2001، نضبت أيضاً آخر وُسَطاء العمل في السياسة الخارجيَّة التي كانت (Parameter) موجودة حتى الآن تحت تصرُّف أَفغانستان.

وإذاً فلسنا، بناء علىٰ ذلك، ونحن في جبال هندوكوش، في صدد دولة آخذة في الانحلال في الحقيقة (لأن هذه الدولة تواصل حياتها من حيث كونها فكرة، من دون أن تضيرها الحرب الأهلية ولا تتعرض لحركة انفصالية تجعل بقاءها موضع التساؤل)، ولكن هذه الجماعة باتت عاجزة عن التصرُّف وباتت مجرد موضوع للسياسة الخارجيَّة لدول الطرف الثالث. وذلك أَن الفراغ الذي طرأ في جنوبي آسيا الوسطى يجتذب المصالح الأجنبية. علىٰ أن الخوف من اللاشيء في السياسة لا يَعْدَمُ مفعوله أيضاً. ثم إِن أشد أشكال مظاهر تغلغل المؤثرات الخارجيَّة كان الغزو السوڤييتي في نهاية عام 1979، ولكن بعد انسحاب السوڤييت عام 1989، تبدأ الدول المجاورة الباقية، من قديمةٍ كالباكستان وإِيران، وحديثة التكوين مثل جمهوريات آسيا الوسطى، تنتبه إِلىٰ مصالحها بحدة تزداد أَو تنقص من حيث التغطية أَو الانكشاف. وبلغ التطوُّر ذروته في موقف تحولت فيه أَفغانستان إِلىٰ هدف لهجوم الضربات الانتقامية الأمريكية، وكان الفراغ في السلطة السياسية الذي تكوَّن علىٰ أرضها قد تحوَّل إِلىٰ ميدان عمل للملاحقة الدولية بالعقوبات الخاصة بالإِرهاب. وكانت محاولات تحالف الشمال أَن يفرض من جديد، علىٰ الرغم من كل التصريحات التوكيدية، انفراد مجموعة السكَّان الطاجيكية بالسيطرة خليقة أَن تطيل أمد شلل أَفغانستان السياسي الذي كانت تعاني منه حتى الآن عن طريق نزاع جديد، وتحول بينها وبين أَن تتبوّأ مكانها في المجتمع الدولي.

وعلىٰ الرغم من كل شيء لا يجوز أَن نتخلّى عن الأمل في أَن تستعيد هذه الدولة السقيمة حتى الموت صحتها، وفي انبعاث أَفغانستان محايدة، ومع ذلك فهي غير مرتبطة بأحد، ومحافظة علىٰ شخصيتها الإِسلامية وتقاليدها، مع احترامها لحقوق الإِنسان. وهذا هو الهدف الذي تتابعه الأُمم المتحدة، والذي لم يفقد شيئاً من إِلزاميّته. علىٰ أَن المناقشة التي تدور حول ما يقال من انحلال الدولة لا تفضي، في الممارسة السياسية، إِلىٰ شيء بعدها. والمسألة تتعلّق بالتمكُّن من المهامّ التي تظل قائمة في هذا المجال الجيوستراتيجي في المستقبل أيضاً، بصرف النظر عن بقاء الطالبان أَو زوالهم. ولا بد من الحفاظ علىٰ وظيفة أَفغانستان من حيث هي مِفْصل ضيق يربط شبه القارة الهندية بمجال آسيا الوسطى، ومن حيث هي جسر تنطلق فوقه الأعمال التجارية منذ آلاف السنين، ولا بدّ من شدِّ أزرها.

وفي هذا الصدد تستطيع ألمانيا أيضاً أَن تلعب دوراً. وقد سبقت الإِشارة إِلىٰ الأوراق الرابحة التي توجد تحت تصرُّفها، ربما من دون أَن تعي ذلك حقاً. وكذلك يصح في أَفغانستان قولهم إِن التاجر يجري علىٰ أثر المبشِّر، وفي عصرنا الحربي الحاضر قد ينبغي للمرء أَن يقول، بلا ريب: إِن التاجر يجري علىٰ أثر جندي النخبة. وينبغي للعلاقات الوثيقة في مضمار السياسة الثقافية، التي كانت ذات مرة قائمة بين بلدينا، أَن تُبْعَث فيها الحياة من جديد. وفي كثير من الأحاديث مع الأَفغان، ومع الألمان

أيضاً، مع أطباء، وأساتذة جامعات، ورجال أعمال، كنت أحس بشرارة من تلك الصداقة التي ربطت فيما مضى، ألمانيا بأَفغانستان.

obeikandl.com

obeikandl.com

22

أسامة بن لادن ومشكلة أَفغانستان

أيُّ نفوذ كان هذا الذي يتمتع به أسامة بن لادن، مع كل الشر المستطير الذي يحتمله سكَّان أَفغانستان في هذه الأسابيع؟

فمنذ الحادي عشر من أيلول 2001 تحوَّل أسامة إِلىٰ هدف لهجوم السياسة الدولية المناهضة للإِرهاب. ولكن هذه السياسة، إِذا تناولناها بمعناها الصارم الدقيق ليست موجهة ضد أَفغانستان علىٰ وجه التخصيص، وقد يبدو هذا التقرير غريباً في لحظة تتعرض فيها البلاد التي وجد فيها أسامة الملاذ والمهرب، لضربات انتقامية، لأن حكومتها التي كانت قائمة حتى الآن لم تسلِّم هذا المطلوب. علىٰ أَن مناقشة مبسَّطة لموضوع أَفغانستان ضربت صفحاً عن التفريق بين الفاعل وبلد إِقامته، إِلىٰ حد بعيد.

ولكن إِذا لم يكن لهذا وجود فكيف سيكون من الممكن تفسير أَن الولايات المتحدة كانت ما تزال، حتى عام 1998 تطمح

obeikandi.com

إِلىٰ تسوية مؤقتة مع الطالبان، علىٰ الرغم من أنّه كان معروفاً منذ عام 1996، أنَّ أسامة وجد ملاذاً في أفغانستان؟ كما كان ينبغي التذكير بأنه بعد وصوله إِلىٰ أفغانستان لم يجد ملاذاً لدى تلاميذ مدارس القرآن أول الأمر، بل وجده عند حاكم نانجارهار، حاجي عبد القادر، وإِلىٰ حين أيضاً، عند حكمتيار، الذي كان علىٰ أية حال رئيساً لوزراء العلامة ربّاني رئيس الدولة المعترف بها دولياً. وعلىٰ كل حال فإِن أسامة ينشىء مقرّه الرئيسي المحصَّن، لا في قندهار، بل في جلال آباد، وفي رواية أُخرى أَنَّه وجد ملاذه في القطاع النائي، تورا بورا، في إِقليم كونار المتاخم لباكستان، أي في نوريستان الوعرة المسالك التي لا يتمتع الطالبان حتى اليوم إِلاَّ بقبضة محدودة عليها. وحتى حين وجد هذا الإِرهابي آخر الأمر مأوى لدى الطالبان (منذ أيلول 1996) لم يلعب دوراً أبداً، علىٰ قدر ما يمكن أَن نقرّر، في جهاز القيادة، حتى نهاية عام2000، وحتى في العامين اللذين كنت خلالهما أتولى المسؤولية عن بعثة الأُمم المتحدة للسلام في أفغانستان، لم يلعب عامل أسامة بن لادن دوراً حاسماً، ولم يذكر اسمه في أيٍّ من مفاوضاتي مع الأمريكيين أَو تحالف الشمال، أَو تجرِ مطالبة بتسليمه أَو التخلّص منه، ولم يُشِر عليَّ في أية لحظة، أيُّ طرف من الأطراف أَو يلتمس مني أَن أستفسر عن مكان إِقامة أسامة أَو أطالب بتسليمه من قبل الطالبان، بل الأحرى أَن الموضوع الوحيد في مفاوضاتي مع الطالبان، علىٰ سبيل الحصر هو التوصُّل إِلىٰ

موافقتهم علىٰ حل تفاوضيّ للصراع في أَفغانستان، وإِلىٰ احترام فعليّ علىٰ وجه العموم لحقوق الإِنسان.

ولذلك يبدو، بموجب هذا، أَن من الحق أَن يفرِّق المرء بين كلا العاملين، وتأثيراتهما في الأزمة الراهنة في أَفغانستان، أي بين الملاّ عمر وحركة الطالبان التي تعود إِليه من ناحية، وبين أسامة بن لادن ومقاتليه، من ناحية أُخرى. فعندما يلقى القبض، مثلاً، علىٰ أسامة بن لادن غداً، أَو يُتاح له أَن يهرب إِلىٰ بلد آخر، فسوف يأخذ معه مشكلة الإِرهاب الدولي التي يُمثِّلها في شخصه، وفي النظرة الغربية قد تتطابق صورتا العدوَّيْن، صورة أسامة، وصورة نظام طالبان، ولكن ظل بالقياس إِلىٰ الأغلبية الساحقة من الأَفغان رجلاً غريباً عن البلاد، لا يختلف عن الإِرهابيين المحترفين من العربي الذين قاتلوا ضد السوڤييت، مع المجاهدين جنباً إِلىٰ جنب، ولا يغير من شخصية أسامة شيئاً قواته العرقية التدميرية، ومَسْكَنَتُه، وإِعراضه عن الدنيا.

فمشكلة أسامة بن لادن هي مشكلة شكل من أشكال الإِرهاب الفردي موجّهٍ أول الأمر ضد الولايات المتحدة ونظام قِيَمها الليبراليّ، وما يقال عن عقليتها المعادية للإِسلام ونفوذها العالمي الذي لا جدال فيه، وإِرادتها في القيادة. وينسب إِليه فوق ذلك أَنَّه يدرِّب في معسكرات تدريبيه مقاتلين يفترض أَن يُهْرَعوا إِلىٰ معونة إِخوانهم في العقيدة في المناطق الإِسلامية الأُخرى، حيث يكون ذكر كشمير ذات الموقع القريب هو الأكثر تواتراً من حيث كونها

ميداناً حربياً لمقاتلي أسامة، والأجدر بالتصديق. ولكن لما كان أسامة يتدخل بقوّاته، كما تفيد وجهات نظر متعددة، في أقاليم أُخرى من أقاليم الأزمات، فإنه يبدو كأنه يتنامى ليأخذ دوراً كدور صدام حسين جديد أَو قذافي جديد وهما اللذان يشتبه فيهما، إلىٰ حين، من قبل عالم الغرب، بتورطهما في كل الأزمات الدولية.

وفي مقابل ذلك لم تكن سياسة الطالبان، منذ البداية، موجهة ضد الأمريكان بحال من الأحوال، بل ظل تلاميذ مدارس القرآن، علىٰ النقيض من ذلك، يسعون إلىٰ أَن يُعْتَرَف بهم من قبل الولايات المتحدة، قوة سياسية أول الأمر، ثم حكومة شرعية لأَفغانستان. ومنذ حزيران 1996 أرسلوا وفدا برئاسة «وزير خارجيتهم» السابق، ملاّ غوث، إلىٰ واشنطن، ليقفوا أمام مجلس الشيوخ الأمريكي إلىٰ جانب قضيتهم. وفي السنوات اللاحقة، ولا سيما منذ سقوط كابول، تمّ استقبال رجال رفيعي المستوى من الطالبان في وزارة الخارجيَّة الأمريكية، من قبل روبين رافيل، رئيسة القسم المختص بجنوب آسيا، ومن قِبَل خَلَفِها كارل ف. إندرفورت، وما عاد يمكن الحصول علىٰ اعترافٍ كان، حتى هذه اللحظة، من نصيب ممثلي تحالف الشمال. علىٰ أَن روبين رافيل، وهي دبلوماسية محنّكة، أجابت، علىٰ كل حال، عن رسالة وجهها وزير الخارجيَّة ملاّ غوث في خريف عام 1996، إلىٰ وزير الخارجيَّة وارن كريستوفر، إجابة صحيحة باسمه، وهي لفتة من لفتات التهذيب تقارب، في إطار التعامل بين الدول، الاعتراف

الرسمي. وظل التعاون وتوازي المصالح بين الأمريكيين والطالبان، وقتاً طويلاً، يتميّزان ببناء خط للغاز الطبيعي من قبل شركة بترول كاليفورنيا (UNOCAL) علَّقت عليه قندهار، والباكستان أيضاً، بل والهند، توقُّعات اقتصادية كبيرة. وقد جادل الأمريكيون مراراً في كونهم يتأثَّرون في سياستهم حيال أَفغانستان بمصالح شركة الأونوكال (UNOCAL)، ولكن هذه الشركة عرفت كيف تكسب إلىٰ جانبها أمريكيين يتمتعون بنفوذ سياسي معين، وعلىٰ كل حال بشبكة واسعة من العلاقات، مثل السفير السابق أوكلي، في إِسلام آباد، أَو المستشار الأسبق لوسيط الأُمم المتحدة، محمود المستيري، وهو شارلي سانتوس، الذي سبق أَن عمل، منذ نهاية الثمانينيات في خدمة كوردوفيز، مفوَّض أَفغانستان، في صورة لوبي، وقد تولتني الدهشة إِذ بلغني، في عام 1997، أَن دراسة لمركز الأبحاث المتعلقة بأَفغانستان في جامعة نبراسكا، الذي يديره أحد مستشارِيَّ الأمريكيين، تمَّ تمويلها من قبل شركة بترول كاليفورنيا. وعلىٰ الرغم من أَنَّه لا يمكن التدليل علىٰ وجود تأثير مباشر للمؤسسة الكاليفورنية علىٰ القرارات السياسية الخاصة بالطالبان أَو الأمريكيين، فليس من الممكن، مع ذلك، أَن يتجاهل المرء أنهم طوَّروا في السنوات الواقعة بين 1996 و1998 نشاطاً قوياً من أنشطة اللوبي. وقد التقيت، أنا، في عام 1997، بنائب رئيس شركة البترول الكاليفورنية، وشرحت له أَن مشروعاً لخط الأنابيب لا يمكن تنفيذه إِلاَّ ضمن محيط مسالم. وبدا أَن

نائب الرئيس، ماري ميلر، يشاطرني وجهة نظري، وحين ازدادت حدة توتر العلاقات بين واشنطن وأسامة والطالبان إلىٰ الحد الحرج تبيَّن كم كان هذا التحذير مُحِقّاً.

وكثيراً ما شكا الطالبان من أَن الولايات المتحدة أهملت أَفغانستان، بعد أَن ضرب المجاهدون الاتحاد السوفييتي الضربة القاتلة. وحتى في أيام الأزمة، قبل اندلاع الأعمال العدائية مباشرة، في السابع من تشرين الأول، 2001، حاول الطالبان أَن يَدْرَؤوا عن أنفسهم ضربة الولايات المتحدة الانتقامية بعَرْض تسليم أسامة بن لادن بشروط معينة تتمثَّل في إجراء الدعوى تبعاً لقواعد الشريعة. ولا يعنيني هنا تقدير مقترحات قُصِد بها أَن تكون تكتيكيّة، كما هو ظاهر للعيان، فوق قدرها، وكانت تخدم غرض كسب الوقت، ومع ذلك فيبدو أَن الفرق واضح بين سلوك قيادة الطالبان المبني علىٰ مرونة معيَّنة وبين سلوك أسامة، الذي لم يكن مستعداً، في أي وقت من الأوقات للكفّ عن مواجهاته التي لا تبالي بشيء، مع الولايات المتحدة.

علىٰ أَن سياسة الطالبان أسهمت أيضاً، من خلال وضعها، موضع التنفيذ عملياً، إسهاماً كبيراً في «تصدير» الإرهاب إلىٰ مناطق الصراع المتاخمة لهم، ومع ذلك فمن العسير تقديم البرهان علىٰ أَنَّه كان يكمن في «إنتاج» الإمكانات الانقلابية و«تصديرها» الشرطُ الحَصْرِيُّ لوجود نظام الطالبان، بل الأحرى أَن يرى المرء هذا الشرط الحصري يتمثل، علىٰ قدر ما تتبيَّن للمرء مآرب

الطالبان، في غزو أَفغانستان كلها وإِنشاء دولة إِسلامية ربانية، حيث يترتَّب أَن تبقى مفتوحةً مسألةُ هل تلازم هذه الإِيديولوجيةَ الدينية إِرادة تبشير يمكن أَن تتجلَّى فيما بعد في صورة توسُّع للنظام يتخطى الحدود، بالنظر إِلىٰ إِخفاقهم الذي يمكن التنبُّؤ به.

وقد ظل سلوك الطالبان زمناً طويلاً يتميَّز بتناقضات في المبادىء يصعب تفسيرها، فقد فرضوا، من ناحية أولى، في مسألة النساء وحقوق الإِنسان، إِيديولوجيتهم المتصلّبة، الغريبة عن الواقع، ولم يتورَّعوا، في آذار 2001، عن «قتل» تماثيل بوذا الشهيرة، علىٰ الرغم من الاحتجاج علىٰ النطاق العالمي، وحاولوا، من ناحية أُخرى، منذ غزو كابول، أَن يتوصَّلوا إِلىٰ تسوية مؤقتة مع هيئة الأُمم المتحدة، فإِمّا أَن تعترف بهم ممثلين شرعيين لأَفغانستان، وإِمّا أَن تدع مسألة المقعد في الأُمم المتحدة مفتوحة علىٰ الأقل، وذلك بالوسائل الدبلوماسية الموجودة تحت تصرفهم. وفي نهاية كانون الأول 1999 ومستهل كانون الثاني 2000 قاموا بإِسهامٍ لهم في إِنهاء عملية أخذ رهائن علىٰ ظهر طائرة تابعة للخطوط الجَوية الهندية من دون إِراقة دماء. وقد عاد إِنقاذ 155 مسافراً ظلوا ثمانية أيام في مطار قندهار من دون تزويد، علىٰ الطالبان، بالثناء الصريح من قبل وزير الخارجيَّة الهندي ياسوات سنج، الذي سافر إِلىٰ قندهار، وبالاعتراف الصامت من قبل بلدان أخرى، وإِن لم تكن ترحِّب بالنظام السياسي للطالبان.

كما يمكن أَن يقال أيضاً إِن الولايات المتحدة صنَّفت نظام الطالبان، في بدايته، ولا سيما منذ غزو كابول، بإِعطاء الحكام الجدد صفة «عامل سياسي مهم» ولم تُضْفِ عليهم بحال من الأحوال صفة خصم لا بد من إِبادته علىٰ كل الأحوال. وقد بات هذا معروفاً لديَّ من خلال كثير من الأحاديث مع الدبلوماسيين الأمريكيين في إِسلام آباد أَو واشنطن، بل كان يجري تذكيري، في كثير من الأحيان بوجوب عدم إِهمال مصالح الطالبان في مقابل مصالح تحالف الشمال ـ وهذا عَكْس كامل للموقف الراهن. بناء علىٰ ذلك لم تكن المسألة بالنسبة إِلينا، في صدد علاقة الولايات المتحدة بالطالبان، مسألة عِظَم مستمر، بل مسألةُ عمليةٍ كانت في البداية تتطوَّر علىٰ نحو غامض، وكانت تكمن فيها علىٰ وجه الإِطلاق فرصة إِجراء مُقاصَّة بين المصالح، ثم ازدادت حِدَّتها فيما بعد تحت تأثير مسائل مختلفة من النزاع المستعصي علىٰ الحل، منها «موضوع الجنسين»، وخطر الحشيش، ورفض تسليم أسامة، حتى وصلت إِلىٰ حرب اقتصادية، ولم تبلغ ذروتها إِلاَّ في الحادي عشر من أيلول في إِطار نوبة الضربات في نيويورك وواشنطن.

وبينما كانت تتوافر للطالبان، بناءً علىٰ ذلك، منذ نشوئهم في عام 1994، وحتى ضربات نيروبي ودار السلام، فرص سانحة لتطوير العلاقات مع واشنطن، وهي العلاقات التي لم يكن عامل أسامة بن لادن يلعب فيها دوراً حاسماً، لم يكن لهم بدٌّ، فيما بعد، أَن يحيطوا علماً بأن مصير هذا الرجل قد تحوَّل إِلىٰ ورقة

اختبار (مثل عبّاد الشمس) للسياسة الأمريكية تجاه الطالبان، وقد حاولوا منذ ذلك الوقت، أَن يسلكوا طريقاً ثالثاً بين مواجهة الولايات المتحدة مواجهة غير مشروطة، بأسامة وبين تسليمه إِلىٰ واشنطن بلا شروط، وهو، حسب التقليد الأَفغاني، طريق المداورة والخداع، والكذب، والوعد الزائف. علىٰ أَن سجل ألوان التهرُّب طويل.

فقد جاء، مثلاً، منذ 13 شباط 1999، في وسائل الإِعلام الدولية، أَن الطالبان قد رضخوا للضغط الأمريكي والبريطاني، وحظروا علىٰ أسامة استقبال الزوار أَو إِجراء أَية اتصالات مع العالم الخارجي، أي أنهم فرضوا عليه قيوداً ما من شك في أنها بدت غير كافية أبداً في نظر الأمريكيين وفيما يشبه التأكيد طالب كارل ف. إِندرفورت، المفوَّض الأمريكي لشؤون جنوب آسيا، في 18 شباط، مجدَّداً، بتسليم أسامة، بينما أشارت وزيرة الخارجيَّة أولبرايت (نقلاً عن آسيا ويك) إِلىٰ أَن الطالبان يمكنهم أَن يدخلوا في حسبانهم، في حالة تسليمه، الاعتراف الرسميّ، والقبول من قبل هيئة الأُمم المتحدة (هل بذل الأمريكيون بالفعل كل هذه الوعد البعيدة المدى، ولا سيما باسم الأُمم المتحدة؟) وعلىٰ أثر ذلك أعلن المتحدث باسم الطالبان قوله بالصيغة المعروفة: «أسامة بن لادن يستطيع أَن يغادر أَفغانستان عندما يشاء، وليس لنا اعتراض علىٰ ذلك».

وينقضي منذ ذلك الوقت عامان ونصف من دون أَن يتلقى

الأمريكيون من الطالبان أكثر من ألوان التهرُّب والوعود الفارغة. وحتى العقوبات الاقتصادية الأمريكية المفروضة في تموز 1999 لم تؤثِّر علىٰ الطالبان. وتطالب وزيرة الخارجيَّة، أولبرايت، مجدَّداً، في 26 تشرين الأول 1999 بتسليم أسامة من قبل حكومة الطالبان علىٰ أَن يكون ذلك شرطاً أولياً من أجل «تطبيع للعلاقات». وبعد ثلاثة أيام تنشر كابول شائعة مفادها أَن بن لادن قد التمس من الملاّ عمر حراسة مأمونة للوصول إلىٰ بلد ثالث. ومن الواضح أَنَّه كان يفترض بهذه الطريقة تحويل مسار التهديد الوارد من مجلس الأَمن، وإِنهاء العقوبات الاقتصادية علىٰ أَفغانستان من جانبه. وعلىٰ الرغم من ذلك تدخل العقوبات في 14 تشرين الثاني 1999 حيّز التنفيذ، لأن الطالبان لم يسلموا الإِرهابي حتى هذه اللحظة. ومن المفهوم أَن الأمريكيين ما عادوا يريدون أَن يسمعوا بهذه الصيغ الأُخرى من الحلول الوسط، بل يريدون آخر الأمر أَن يروا أعمالاً.

ولا ريب في أَنَّه ما من أحد يستطيع أَن يقول علىٰ وجه اليقين لماذا يتضامن الطالبان، في السراء والضراء مع أسامة، وهو في الحقيقة أخوهم في العقيدة وحليف عقائدي لهم، ولكنه يعدُّ مع ذلك غريباً عن البلد والعشيرة، أي أَنَّه «عربي». ولا يكاد يمكن تصوُّر أَن المال كان هو الدافع الحاسم، فيما يقال. فما من إِنسان فرد، مهما يكن موسراً، كما يقال عن أسامة، يستطيع أَن يموِّل حرب عصابات. أَوَكان الشعور بالامتنان لدوره في الجهاد؟ ولكن

الحديث لم يكن يَرِد بعدُ عن أسامة أثناء الاحتلال السوفييتي لأَفغانستان. أتراه «فضله» في غزو أَفغانستان من قبل الطالبان؟ لقد عاد في حزيران 1996 إِلىٰ أَفغانستان، وبعد ثلاثة أشهر سقطت كابول في أيدي الطالبان. أَوَكانت توجد علاقة ما؟ هذا السياق لم يجر عرضه علىٰ نحو مقنع أبداً. ولم يجر الحديث أبداً عن مقاتلي أسامة الذين تدخَّلوا في الحرب الأهلية. وكنت أقمت في هذا الوقت في أَفغانستان وأجريت كثيراً من الأحاديث مع أمراء الحرب. وبذلك خرجت بقناعة مؤدّاها أَن أسامة لم يتدخل سياسياً في النزاع إِلىٰ جانب حزب من الأحزاب، وتحالف منذ البداية مع الطالبان، بمجرد أَن ثبت انتصارهم. وكان من قبلُ قد تلقى الحماية كما ذُكِر آنفاً، من الأحزاب التي كانت علىٰ خصومة مع الطالبان.

أتراها في النهاية قرابة في الفكر، في فكر شرير، موجَّه نحو الإِفساد اللامبالي وتدمير الخصم المبني علىٰ ازدراء البشر، هي التي تربط بين الملاّ عمر وأسامة؟ هذا التفسير لا يرضي. إِنه يبسِّط المسألة بأفظع طريقة. ولكن إِذا كانت المسألة تتمثَّل بالفعل في الكراهية التعصبية وإِرادة الصمود والجَلَد عند رجلين يسوقان أَفغانستان إِلىٰ الوبال، فهل كان أتباع الملاّ عمر يحافظون علىٰ الولاء لزعيمهم حتى اللحظة الأخيرة؟ أم هل كان الجسد الذي كان حتى الآن متجانساً ومتلاحماً كالحديد، في حركة الطالبان، يكشف عن صدوع؟ وكثيراً ما جرى التكهُّن بتشكُّل أجنحة في

صفوف القندهاريين، ولكن لم يمكن إِثبات وجود أمثال هذه الأجنحة أبداً.

وربما كانت أكثر الظاهرات لفتاً للأنظار في هذا المجتمع الأَفغاني، وهذه الطبقة الرائعة من المحاربين ذوي اللحىٰ، والابتسامات الودية، والقادرين مع ذلك علىٰ كل عمل من أعمال العنف، استحالة التغلغل في أعماقها، ولم توجد بين الطالبان خيانة، أَو هرب إِلىٰ العدوّ، ولا تسرُّب إِيديولوجي من الخارج، ولم يَرْتَشِ عضو في القيادة ذات يوم، أَو يُشْتَرَ، أَو يَجْرِ إقناعه بالانفتاح علىٰ أحد من الواقفين في الخارج. وحتى أولئك الطالبان الذين جُرِّدوا من السلطة من قبل الملاّ عمر، أَو عُزِلوا سياسياً، أَو شُهِّرَ بهم علىٰ الملأ، كالملاّ غوث، وزير الخارجيَّة السابق أخلدوا إِلىٰ الصمت بعد ذلك، ولم يبدُ أَن عميلاً أمريكياً أَو إِيرانياً، أَو روسياً نجح ذات مرة في فكّ أسرار نظام الأمر عند القندهاريين أَو عند أسامة بن لادن.

ولكن ما يفزعنا، ليس مجرد الانغلاق التنظيمي في أجهزة السلطة، فإِن ما هو أكثر من ذلك بعدُ، هو الانغلاق الذهني في النظام، إِنه يفزعنا، نحن أهل الغرب الذين رُبّينا علىٰ الانفتاح علىٰ الحديث والتخاطب، بل إِنّ هذا الاستعصاء علىٰ التغلغل في نظام دولة ربّما أَثَّر فينا. وعندما تنهال الآن ضربات الغرب الانتقامية علىٰ المدن الأَفغانية كما ينهال البَرَد، فإِنما يكمن في ذلك الاعترافُ بأن الوسائل الأُخرى لتجنُّب الصراع لم تُحْدِث

مفعولها. وكان نابليون نفسه، وهو الكورسيكي المحنّك في صناعة الحرب قد اضطر إِلىٰ أَن يدفع ثمن حرب العصابات في إِسبانيا ـ وهناك نشأ هذا المفهوم ـ آلافاً من القتلى، مثلما تكبَّد السوفييت ثمن زحفهم إِلىٰ أَفغانستان، بعد مائة وخمسين عاماً، أكثر من مائة ألف قتيل وجريح. فكيف سيكون حال الأمريكيين وحلفائهم عندما يقاتلون الإِرهاب في المستقبل، في جبال هندوكوش، وفي البقاع الصحراوية ومَغارات الجبال، وهو عدوٌّ لا وجهَ له؟ وذلك أَن الإِرهاب، و«القاعدة» (شبكة أسامة) لا تحتاج إِلىٰ جهاز حكومة، ولا إِلىٰ رموز دولة، ولا إِلىٰ قواتٍ ترتدي البَزّات الرسمية، لا تحتاج إِلىٰ تلك الرموز المرئية، رموز السلطة، التي يمكنها أَن تفيد المهاجم الذي يتمتَّع بالتسليح العالي في صورة أهداف وتجعل الدول الغربية، بِبُناها الاجتماعية المعقدة، أكثر قابلية للإِصابة والجَرْح علىٰ نحو لا تكافؤ فيه ولا مساواة. ثم إِن جنود التحالف الغربي لا يستطيعون أيضاً، مثلما أوصى بذلك مقاتل حرب العصابات، ماوْ، فيما سلف، أَن يسبحوا في بحر أَفغانستان كما تفعل الأسماك، وسيظلون علىٰ الدوام مرئيين بالنسبة لخصومهم، وعلىٰ هذا فقد تفضي المسألة في أَفغانستان، علىٰ الرغم من ضروب النجاح العسكري التي أحرزها التحالف الغربي، في النهاية، إِلىٰ مواجهات تطول وتطول، بين بُنىً سياسية مرئية وغير مرئية.

obeikandl.com

23

تحالف الشمال

لم يصل الطالبان إِلىٰ درجة عالية من الشهرة العالمية، وإِن كانت غير مجيدة، إِلاَّ منذ غزو كابول (1996) علىٰ أبعد تقدير. ولكن الجمهور لم يطَّلِع علىٰ خصومهم، وهم ما يسمى بتحالف الشمال، إِلاَّ حين أصابت الضربات الأمريكية الانتقامية نظام الطالبان. ومنذ ذلك الوقت بات تحالف الشمال ينظر إليه علىٰ أَنَّه حليف للولايات المتحدة، كانت قوّاته الأرضية تنفذ العمليات الأرضية وتستعيد الأرض التي خسرها في السنوات المنصرمة، لصالح الطالبان، في نوع من تقاسم العمل، بينما كان التحالف الغربي يقدم المساندة الضرورية من الجو. وفي بعض العواصم أتيح أيضاً أَن ينبعث الأملُ في أَن يشكِّل هذا التحالف النواة من أجل حكومة «ديمقراطية»، أكثر إِنسانية علىٰ أية حال. ومع ذلك فالنظرة الأدق إِلىٰ تاريخ هذا التحالف تكشف عن مدى ضعف

obeikandl.com

هؤلاء المشاركين في اللعبة في المسرحية الأَفغانية ومدى انطوائهم علىٰ النزوات المفاجئة التي لا يمكن حُسْبانها سلفاً.

لقد انبثق تحالف الشمال من بقايا حكومة ربّاني السابقة وربّاني هو الذي انتخب منها في حزيران 1992 من قبل أهم مجموعات المقاومة، لمدة أربعة أشهر، رئيساً لدولة أَفغانستان، أما حلفاؤه السابقون فقد وقف جزء منهم ضده فيما بعد، وطُرِد جزء آخر منهم فيما بعد من قبل الطالبان. علىٰ أَن تحالف الشمال ما عاد له وجود بالمعنى الأصلي للكلمة، منذ أيلول 1998، حين لاذ بالفرار خليلي، زعيم الهزارا، وكان الحليف الأخير المتبقّي، لأحمد شاه مسعود. ومنذ ذلك الوقت، بات ما يسمى بتحالف الشمال لا يتألف إِلاَّ من حزب واحد من الأحزاب التي كانت في الأصل ثلاثة.

أما تاريخ ما قبل حكومة برهان الدين ربّاني فيسرد علىٰ وجه السرعة: ففي 16 أيار 1985، وفي ذروة قتال المجاهدين ضد الغزاة السوفييت، اتفقت أهم مجموعات المقاومة في بيشاور، علىٰ إِنشاء تحالف من سبعة أحزاب، وتمثَّل في هذا التحالف برهان الدين ربّاني (الجمعية الإِسلامية) ويونس خالص (الحزب الإِسلامي ـ 2) وحكمتيار (الحزب الإِسلامي ـ 1) وسيّاف (الاتحاد الإِسلامي) وبيرجيلاني (NIFA)، ومحمدي (حركة الانقلاب الإِسلامي) ومجدِّدي (حركة التحرير الوطني لأَفغانستان). ولم تشارك الأحزاب الشيعية ببيشاور، ولذلك

أسَّست في مدينة مشهد الإِيرانية، ائتلافاً مماثلاً، وهو بالطبع شديد التشرذُم، لم يكتسب وزنه الخاص به إِلاَّ عندما اتحدت معظم الأحزاب المُتَشَظِّية في حزب الوحدة (حِزبي وَحْدَت) الذي كان مزاري أول زعيم له.

وفي 23 شباط 1989، أي بعد أسبوع من انسحاب السوڤييت من أَفغانستان تشكل تحالف الأحزاب السبعة في بيشاور، بصفته حكومة منفى (الحكومة الأَفغانية المؤقتة). وأسندت الرئاسة الشكلية إِلىٰ عالم القرآن، العلاَّمة مجدِّدي الذي يرجع أصل عائلته المرموق إِلىٰ الجزيرة العربية، ولم يكن له بدٌّ أَن يقدم الكثير من الضحايا خلال حكم الإِرهاب الشيوعي، وبالطبع فإِن مجدِّدي لم ينتخب بسبب مرتبته الروحية أَو الفكرية، بل انتخب في المقام الأول، لأنه لم يكن قائداً عسكرياً شديد البأس. والحق أَن حكومته كانت تلقى استحسان الغرب، والمساندة السياسيَّة من قبل باكستان، ومع ذلك فقد كانت، في وجودها، توهم بوجود اتفاق لم يكن له وجود في الواقع، وكانت توجد بين «أعضاء الحكومة» المتفرِّقين، عداوة لدودة، ومثال ذلك العداوة التي كانت بين حكمتيار وأحمد شاه مسعود، القائد المتحالف مع ربّاني، وهي عداوة لم تكن تتورَّع عن الاشتباكات المكشوفة، بل لم تكن تتورَّع عن الضربات القاتلة، وكان ينشب في كل يوم تقريباً النزاعُ حول مسألة المقياس الذي ينبغي أَن يتم بموجبه توزيع توريدات الأسلحة بين المجاهدين، وكان ينشب بالطبع، من باب أولى،

حول المشكلة الطويلة الأجل، وهي مشكلة مَنْ يُفْتَرَضُ أن يتولى السلطة في أَفغانستان المستقبل، المتحرِّرة. أمّا حكمتيار البشتوني، ذو النزوات المفاجئة التي لا يمكن حسبانها سلفاً، والذي يعيش في المنفى منذ عام 1996، في طهران، فكان يُعَدُّ، أثناء الجهاد «الفائز بالحَظْوة عند الغرب». وكان، بحكم كونه «أصولياً»، فيما يقال، يبدو في نظر إِسلام آباد أيضاً، وفي نظر المخابرات الباكستانية (ISI) بمثابة ضمان لأن تمارس أَفغانستان، بعد تحررها، سياسة موالية لباكستان. وهكذا ظل، علىٰ مدى طويل، يحظى بالجزء الرئيسيّ من توريدات الأسلحة الأمريكية. وأمّا الطاجيكي مسعود، الذي كان، في مقابل ذلك، يعدُّ «وطنياً» فكان موضع الإِهمال.

وبعد سقوط نجيب الله (16 نيسان 1992) انهارت الواجهة التي توحي بالاتفاق، بسرعة. والحق أَن الحكومة الأَفغانية المؤقتة نقلت مقرها بعد أسبوع إِلىٰ كابول، ومع ذلك فلم تستطع أَن تتفق إلاّ علىٰ مجددي، مرشح الحل الوسط، الضعيف، الذي لم تكن توجد قوات تحت تصرفه، وبالتالي لم يكن خليقاً أَن يقف عائقاً في وجه تقسيم حاسم للسلطة. ولذلك أُسْنِدت إِليه، في 24 نيسان 1992، القيادة الشكلية مدة شهرين، لحكومة المجاهدين «الحرة» الأولى، هذه، وبعد شهرين استقال مجدِّدي بموجب الاتفاق، وترك منصبه لربّاني الذي كان منصوصاً عليه بصفته خلفاً له. وكان يفترض في هذا أَن يمارس قيادة الحكومة المؤقتة مدة أربعة أشهر،

وكان يفترض، حتى ذلك الوقت، أَن يتم تشكيل حكومة نهائية. وبالنظر إِلىٰ عدم اتفاق الأحزاب تم تمديد أجل ولاية ربّاني، في 24 تشرين الأول 1992، مرة ثانية، مدة شهرين، ولكن في نهاية عام 1992، تشتَّت شمل حكومة المجاهدين المؤقتة في كابول نهائياً، ورأى ربّاني أَن الأوان قد آن لكي يمدِّد مدة بقائه في منصبه تمديداً استبدادياً، ولمّا لم يكن من الممكن التوصل إِلىٰ اتفاق علىٰ خلف له، فقد أوعز الرئيس إِلىٰ اجتماعات تعقدها المحكمة العليا أَو إِلىٰ اجتماعات يديرها أناس يُدْعَوْن لغرض خاص، وتتألف من زعماء القبائل، والسياسيين ورجال الدين الإِسلامي بتثبيته في منصبه مراراً. علىٰ أَن تصرف ربّاني الاستبدادي، الذي لم تعترف به مجموعات المجاهدين الأُخرى أَدَّىٰ إِلىٰ نشوب حرب أهلية دامية منذ كانون الثاني 1993، بين أطراف الائتلاف الذي كان قائماً حتى الآن، ولا سيما في كابول الذي كانت قد خرجت من الحرب ضد السوفييت من دون أَن تلحق بها خسائر كبيرة. وما من شك في أَن ربّاني قد نجح، أيضاً، في كونه ما زال يرفع صوته حتى اليوم، بصفته الممثل «الشرعي» لبلاده في الجمعية العمومية، بالنظر إِلىٰ افتقاد البديل، ويستمر الاعتراف به، علىٰ مضض، من قبل المجتمع الدولي. أما منظمة الدول الإِسلامية (OIC) المنقسمة علىٰ نفسها في مسألة أَفغانستان، والتي ينتمي إِليها حوالي ثلث المجتمع الدولي، فقد أعلنت بالطبع، مقعد أَفغانستان شاغراً في عام 1997، علىٰ النقيض من الأُمم المتحدة.

وكان الأَفغان يحسون أَن حكومة الرئيس ربّاني، التي كانت تأسست في 24 حزيران 1992 في كابول، علىٰ أنها قيادة تهيمن عليها الأقلية العرقية الطاجيكية. وكان يكمن في هذا، وما زال يكمن حتى اليوم، ضعفها الرئيسي. ويمثل الطاجيك نحو 15٪ من السكّان، وهم يقتصرون، في منطقة استيطانهم، إِلىٰ حد بعيد، علىٰ الشمال الشرقي المتاخم لطاجكستان ولا يعدون في إِطار فهم التاريخ الأَفغاني، القبيلة التي يخرج منها الملوك. ونتيجة لهذه المعضلة النفسية السياسية نشبت، منذ كانون الثاني 1993، أيْ قبل ظهور الطالبان بزمن طويل، اشتباكات عنيفة حول السيادة علىٰ كابول لم يصمد فيها الرئيس ربّاني إِلاَّ بفضل كفاءة «رَجُلِه القوي» الاستراتيجي اللامع، ووزير دفاعه، أحمد شاه مسعود.

أما الجنرال الأوزبكي، دُسْتُم، الذي لا ينتمي إِلىٰ حكومة بيشاور بالطبع، بحكم كونه عاملاً بصفة جنرال في خدمة الرئيس الشيوعي نجيب الله، ومع ذلك فقد ظل علىٰ المسرح السياسي، بعد سقوط هذا الرئيس وأسس في مزار الشريف الواقعة في الشمال الأَفغاني «مملكة جزئية» مستقلة، فقد انضمَّ في كلتا السنتين التاليتين، مع حكمتيار إِلىٰ تحالفات حربية متبدِّلة كانت موجهة، حيناً من الزمن، ضد ربّاني، وكانت تسانده حيناً آخر. ولما كان ربّاني يعرف الحقيقة القائلة إِن حكومته التي تتشكل في جوهرها من الطاجيك، لا بد أن توضع علىٰ قاعدة أعرض لِتُرَسِّخ جذورها، فقد حاول أن يعثر علىٰ قادة راغبين في التعاون من

obeikandi.com

أعراق أُخرى، ومن البشتون أيضاً، قدر الإمكان. وسرعان ما بات ينتمي، من زعماء الأحزاب البشتونيين، سيّاف، والزعيم الشيعي أكبري، اللذين كان كلاهما، بالطبع، لا يتمتع إلاّ بقدر ضئيل من النفوذ العسكري، إِلىٰ التحالف الحكومي المقلقل في كابول. وفي أيار 1996 اقترح ربّاني علىٰ حاكم نانجارهار البشتوني، حاجي عبد القادر، أن يدخل في حكومته وزيراً للخارجيَّة، ولكن عبد القادر، الذي كان أنشأ لنفسه في جلال آباد «مملكة» صغيرة خاصة به، رفض. علىٰ أن هذا زاد من أهمية النجاح الذي تمّ حين دخل حكمتيار، الذي كان يناصبه العداء حتى ذلك الوقت، رئيساً للوزراء في حكومة ربّاني، ومع ذلك أخفقت أول الأمر جهوده في كسب القائد الأوزبكي دُسْتُم وحليفه الشيعي، كريم خليلي (باميان) إِلىٰ جانبه.

علىٰ أن غزو كابول من قبل الطالبان في 27 أيلول 1996 وضع نهاية لهذه الخطط. وبعد طرد ربّاني وتقدُّم الطالبان أخذ مفهوم «تحالف الشمال» غير الرسمي يستحكم ويتأصَّل، وهو ما بات لا يشير، بالطبع إِلىٰ حكومة الظل برئاسة ربّاني، وهي الحكومة التي انتقلت في البداية إِلىٰ كوندوز، ثم انسحبت إِلىٰ مزار الشريف، بمقدار ما يشير إِلىٰ التحالف القتالي الذي انخرط فيه مسعود ودُسْتُم وخليلي تحت وطأة التطور العسكري، الآن، آخر الأمر. وفي 11 تشرين الأول 1996 أسَّسوا في مزار الشريف المجلس الأعلىٰ للدفاع عن أَفغانستان (SCDA)، وبالطبع فإِن المجلس

الأعلىٰ للدفاع عن أَفغانستان لم يُفْضِ إِلىٰ ما هو أكثر من اتحاد مُقَلْقَل، مرتبط بغرض معين. ولم يتمكن من التغلب علىٰ الخصومات المتواصلة بين أعضائه، ولم ينته الأمر إِلىٰ تنسيق مُقْنِع لجهود الدفاع مع المساندة المتبادلة بين أمراء الحرب، وحتى في الحقبة التالية اقتصر مسعود علىٰ حملات من حين إِلىٰ آخر، علىٰ كابول، وعلىٰ الدفاع عن وادي بانجير. أما دُسْتُم فقد رَسَّخ قدمه في معقلَيْه في الشمال الأَفغاني، مزار الشريف، وشيبرغان، بينما كان زعيم الهزارا، كريم خليلي، الذي كان واقعاً إِلىٰ حد ما في مَصَدّ الرياح السياسية لهذين الكبيرين، يسيطر علىٰ إِقليم باميان في وسط أَفغانستان. ومنذ نهاية عام 1997 هبط مستوى وظيفة ربّاني إِلىٰ مستوى «رئيس دولة اسميّ» تحت رحمة مسعود، وكان يحكم في حصون يهرب إِليها، وأفلت آخر الأمر من الطالبان الزاحفين وراءه، إِلىٰ طهران، التي كانت علىٰ الأرجح، العاصمة الوحيدة علىٰ نطاق العالم التي كان ما زال يُحْتَرم فيها بصفته رئيس دولة.

وحين تمرَّد الجنرال عبد الملك في 19 أيار 1997 علىٰ دُسْتُم، وطَرَدَ هذا إِلىٰ حين، وتبوّأ مكانه في التحالف، غيَّر تحالف الشمال في 3 حزيران 1997، اسمه، وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت: الجبهة الإِسلامية المتحدة لإِنقاذ أَفغانستان (United Islamic front for the salvation of Afganistan)، وهو اسم سريع الزوال، دخل حيّز النسيان منذ زمن طويل.

ولم يُكْتَب لهذه الجبهة بقاء. والحق أن الجنرال دُسْتُم عاد في

أيلول 1997 من منفاه في أنقرة وطرد خصمه عبد الملك (الذي هرب إلىٰ مشهد الإيرانية)، ولكنه لم يستطع، ومسعود معه، أن يحولا دون تحقيق ضروب أُخرى من النجاح، من قبل الطالبان. ففي 8 آب 1998 غزا القندهاريون معقل دُسْتُم، مزار الشريف، وبعد أربعة أيام غزَوْا طالوقان، العاصمة الواقعة في طاخار، الإقليم الشمالي الشرقي. وبذلك أتيح لهم اختراق حاسم مكّنهم من دخول شمالي أفغانستان الذي يسيطر عليه مسعود. وفي 14 أيلول 1998 غزوا باميان أيضاً، وفرَّ دُسْتُم، وربّاني وخليلي إلىٰ إيران.

وبذلك انحلّ «تحالف الشمال بالمعنى الأصلي للكلمة. وما عاد لـ «حلفائه» وجود. والحق أن مسعوداً استأنف القتال ضد الطالبان وحده علىٰ مدى كان يزداد بُعداً علىٰ نحو مطرد، مدحوراً صوب الشمال، حتى مقتله، في العاشر من أيلول 2001، ولكن وضعه كان يبدو آخر الأمر حرجاً. ولم يغيِّر من ذلك شيئاً أيضاً أَنَّه ظل مناط الآمال بالنسبة لبعض الحكومات الغربية، ودُعِي حتى في مستهل نيسان 2001، لزيارة رسمية لباريس، وإلىٰ البرلمان الأوروبي في شتراسبورغ. علىٰ أن موته وضع نهاية لكل التكهنات حول الدور المستقبلي لهذا الرجل الذي يتسم بهالة الزعامة ولكنه لم يكن ناجحاً.

وكانت أحداث الحادي عشر من أيلول وحملة العقاب الأمريكية ضد الطالبان هي وحدها التي عادت علىٰ أولئك

المقاتلين الذين باتوا الآن يقاتلون في ظل خليفة مسعود، الجنرال فهيم، بتخفيف العبء الذي كانوا في حاجة ماسة إِليه. وبالنظر إِلىٰ التطور الجديد، كانت المسألة مسألة وقت فحسب، ريثما يعود أمراء الحرب السابقون من المنفى، ويحاولون إِعادة إِقامة نظامهم القديم في ظل حماية القوة العسكرية الأمريكية. وكان يمكن رؤية العلامة ربّاني منذ 5 تشرين الثاني عام 2001 في الوقفة غير المعتادة بالنسبة إِليه، وقفة القائد العسكري الذي يستعرض جيشاً، علىٰ شاشة التلفاز، وأُعْلِن عن وجود دُسْتُم في مزار الشريف أول مرة في الثاني عشر من تشرين الثاني، ولكن لم يُعْلَم شيء عن كريم خليلي حتى الآن. ولكن لما كانت باميان قد خسرها الطالبان أيضاً فمن الممكن أن يتكهن المرء بأن خليلي عاد إِلىٰ هناك. وبناء علىٰ ذلك التأم شمل أطراف الائتلاف السابق مرة أُخرى، ولكنهم لم يعودوا إِلىٰ الاتحاد من أجل ذلك بحال من الأحوال.

ذلك لأن مسألة قابلية التصديق السياسية في «تحالف الشمال» هذا باتت تُطْرَح الآن بحكم كونها الحاملة المستقبليّة لسلطة الحكومة. علىٰ أَن التاريخ المتقلِّب للتحالف القتاليّ المُقلْقَل يكشف عن هشاشته السياسية وأحادية الجانب فيه من الوجهة العرقية وهنا لا يمكن الإِدلاء بالتحذير المُلِحّ بما يكفي، من محاولة إِجراء تجربة الطالبان الآن، مجدَّداً، بنذر معكوسة. فبصرف النظر عن ضعفه العسكري والمستوى الهابط في تنظيمه،

وفقدان قائده الذي تحفّ به هالة الزعامة، والذي لم تُخْدَش هالته بعد من الناحية النفسية، وهو مسعود «أسد وادي بانجير»، وهو الضعف الذي لا يكاد يؤهل «تحالف الشمال» لأن يكون حليفاً عسكرياً للولايات المتحدة، فإن أشكال عجزه السياسي الدائمة المستمرة هي التي تجعله، قبل كل شيء، يبدو غير مناسب لتشكيل الحكومة في أفغانستان محررة من حكم الطالبان. أمّا إعادة حكومة ربّاني فلا هي في مصلحة أَفغانستان، ولا هي في مصلحة الولايات المتحدة (والمجتمع الدولي). وذلك أَن نطاق النفوذ والتقبُّل السيكولوجي للطاجيك ينتهيان عند كابول. أما الجنوب الذي يستوطنه البشتون فلن يتلاحم مع حكومة يترأسها ربّاني، مثلما لم يتقبَّل الطاجيك، والأوزبك، والتركمان، والهزارا، في الماضي حكومة من الطالبان. ومن الأمور المفهومة أَنَّه لا يكاد يوجد في الوقت الحاضر، بالنسبة للولايات المتحدة وحلفائها، بديل أكثر إِقناعاً من تحالف الشمال في بقاياه التي ما زال لها وجود. ولكن المرء سيضطر، علىٰ وجه الخصوص في صدد عملية انتقامية موجهة ضد الإِرهاب، وتُخاض باسم حقوق الإِنسان، إلىٰ أَن يُسائل نفسه كيف يبدو ميزان حقوق الإِنسان عند حكومة ربّاني السابقة، ثمَّ ألم يكن سجناء لا يُحْصَوْن عدداً يملأن سجون كابول في عهد هذا الرئيس أيضاً، لأسباب سياسية وعرقية. وإذا كان الغرب يتطلَّع إلىٰ أَن يقيم في أَفغانستان نظام حكم ضعيف مكرس لخدمة أشكال النفوذ الأجنبيّ فسيكون ربّاني

مرشحاً مناسباً بلا ريب. ولكن ستظل هناك مسألة أُخرى من دون حل، وهي هل يخدم ارتقاؤه سدة الحكم من جديد السلام بين الأعراق والاستقرار الطويل الأجل في أَفغانستان.

لقد ضيَّع العلاَّمة ربّاني، خلال السنوات الأربع التي حكم فيها رئيساً في كابول معترفاً به علىٰ النطاق العالمي (1992 إلىٰ 1996)، فرصة تأسيس قيادة تضم كل المجموعات العرقية، وكان هذا خليقاً، علىٰ الأرجح، أَن يؤدي، في النتيجة الأخيرة، إِلىٰ أَن يضطر إِلىٰ تسليم السلطة إِلىٰ زعيم بشتوني، ولكن ربّاني كان يفتقر، من أجل ذلك، إِلىٰ شخصية الزعيم التاريخي الكبير المهيب. وبدلاً من ذلك كان يتصرَّف بتكتيك معيَّن ليثبت دعائم نظام حكم طاجيكي لم تكن أغلبية الأَفغان تتقبَّله علىٰ أَنَّه حكومتها. ولقد دحض التاريخ تجربته، وما كان يُفْتَرَض فيه أَن يضطر إِلىٰ دحضه مرة أُخرى مع اقتران ذلك بسفك دماء السكَّان. ولا بدَّ من إِنهاء تقسيم أَفغانستان علىٰ طول خطوط الاختلاف العرقي، وإِلاَّ فلن تجد البلاد سلاماً دائماً. ولذلك فإِن الحكومة المشكَّلة، مجدَّداً، من الطاجيك، أَو الحكومة التي يهيمن عليها الطاجيك ما كانت لتحقق إِلاَّ الارتياح القصير الأجل.

وما من شك في أَن من الواجب أيضاً، أَن يكون الطاجيك ممثَّلين في حكومة مستقبلية، ولكن بصفة شريك بين شركاء متعددين، وما كان لهم أَن يَدَّعوا لأنفسهم الحق الذي يمكن فرضه في الدور القيادي في أَفغانستان المستقبل، علىٰ أساس المعطيات

العرقية القائمة، وعلىٰ أساس التقاليد الأَفغانية، وحتى إِذا كان النجاح في الحرب أفضى إِلىٰ كونهم، بصفتهم المجموعة الأقوى نسبياً داخل تحالف الشمال، صمدوا للمواجهة مع الطالبان، وذلك، بالطبع، بفضل مسعود في المقام الأول، وهو الذي ما عاد حياً. علىٰ أَن تقدير قوتهم النسبية فوق قدرها في إِطار عملية توطيد السَّلام في البلاد التي أعقبت ذلك، خليقٌ أَن ينطوي علىٰ عواقب وخيمة.

obeikandl.com

24

دور الأُمم المتحدة

عندما ظهر المفوض الخاص للأُمم المتحدة لشؤون أَفغانستان، الأخضر الإِبراهيمي، في 1 تشرين الأول 2001، في إِسلام آباد، أمام الصحافة العالمية، وكان علىٰ ما يبدو خالي الوفاض، وقد عُهِد إِليه بمهمة لا أمل في نجاحها، كان في ظهوره، مع ذلك، ما يعطي إِشارة إِلىٰ تطور ينطوي علىٰ الأمل: وذلك أَن الأمين العام للأُمم المتحدة كان قد وَقَفَ، في نهاية عام 1999، جهوده من أجل الوساطة، وأعيد إِلىٰ منصبه السابق، وأعلنت الأُمم المتحدة، حتى في لحظة كانت الاشتباكات فيها تموج وتضطرم من دون مخرج ينطوي علىٰ اليقين، انسحابها إِلىٰ الحَلَبة السياسية. أمّا أَن الطالبان أعلنوا في اليوم ذاته أنهم غير مستعدين للسماح للمفاوض بالدخول، فقد أصبح في هذه الأثناء لا صلة له بالموضوع، وما عادت المسألة تتوقف علىٰ الطالبان، وقد أبلغ سفيرهم في إِسلام آباد في تلك الأيام أَن قندهار ترفض

obeikandl.com

الوساطات الدولية، وأنه لا بدَّ للأَفغان أَن يحلّوا مشكلاتهم بأنفسهم. وهذا التصريح أيضاً دخل حيِّز النسيان. ولم يكن الإِبراهيمي، مع ذلك، مجهولاً عند القندهاريين، وكان قد أجرى، فيما بين 1997 و1998، بتكليف من الأمين العام للأُمم المتحدة، مراراً، مفاوضات مع الطالبان، ومع سائر الأحزاب المتحاربة. وفي رحلته الأولى خلال الإِقليم، في آب 1997، صَحِبْتُه، كما هو موصوف في الفصل العشرين من هذا الكتاب.

وعندما أضيف، في هذا الموضع، بعض الملاحظات حول جهود السَّلام المبذولة من قبل الأُمم المتحدة، في أَفغانستان، فإِنما يحدث هذا لأن عملي في خدمة الأُمم المتحدة أتاح لي نظرة متعمِّقة في المفاوضات والتصوُّرات التي باتت لا تُعْرَفُ إِلاَّ قليلاً عند الجمهور، ولم تكن، بالطبع أيضاً، مصحوبة بعمليات استعراضية دراماتيكية، مثل ضربات الأمريكيين الانتقامية الراهنة، ضد الطالبان. وقد يفضل المرء أَن ينتقل، عبر جهود الأُمم المتحدة، إِلىٰ جدول أعمالها؛ لأن هذه الجهود لم تُفْضِ إِلاَّ إِلىٰ قليل، حسبما تشير كل المظاهر، علىٰ الرغم من أَنَّه كان يعمل في السنوات الخمس عشرة الأخيرة بعض الرجال الأكفاء من ذوي الدوافع النبيلة، في جبال هندوكوش بتكليف من المنظمة العالمية. ولكن يُظَنُّ أَن مبادراتهم كان محكوماً عليها بالإِخفاق سلفاً، إِذ لم يكُنْ، لا المجاهدون والطالبان، ولا مشجعوهم الأجانب بعد انسحاب السوفييت (15 شباط 1989) وسقوط نجيب الله (16

نيسان 1992)، علىٰ استعداد للاكتفاء بنصف انتصار أحرزوه في ميدان المعركة. وفي نظرة إلىٰ الوراء كانت المسألة تبدو كَأَنْ لم توجد، في أي لحظة من اللحظات، فرصة حقيقية للمصالحة الوطنية.

وعندما أقول إن المنظمة العالمية في أَفغانستان لم تُفْضِ إلاَّ إلىٰ قليل، فلا ينبغي أَن يفوت نظرنا أَنَّه تحقق، تحت إشراف المفاوض المعروف جيداً، دييجو كوردوڤيز، في عام 1988، عقد اتفاقية جنيف حول انسحاب القوات السوڤييتية، ولكن هذه الاتفاقية الحاسمة للغاية بالنسبة لمصير أَفغانستان، وبالمعنى الأوسع أيضاً، بالنسبة لتوطيد الاستقرار في العلاقات بين الشرق والغرب، لا ينبغي أَن تعزى، في المقام الأول، لبراعة المفاوض وجهده وكَدْحِه، فحسب، بل إلىٰ التوجُّه الجديد للسياسة الخارجيَّة السوڤييتية في عهد الرئيس غورباتشوف.

ولا بُدَّ، في صدد التقدير الموضوعي لإمكانات التصرّف المتوافرة لدى الأُمم المتحدة، ونتائج هذه الإمكانات، من تسجيل عدد من الحقائق بحكم كونها من أشكال «البراعة الاجتماعية أَو اللباقة» التي لا بدّ أَن يعترف ببقائها في عالم السياسة، علىٰ الرغم من الدراماتيكية الراهنة في الأحداث اليومية:

1 ـ لقد حافظت هيئة الأُمم المتحدة، بحكم كونها المرجع الوحيد في السياسة العالمية، علىٰ مدى عشرين عاماً، علىٰ تصوُّرها لأَفغانستان، مستقلةً، محبة للسلام، ملتزمة بحقوق

الإِنسان، ولا سيما في وقت كان العالم الحرُّ فيه ما زال لا يستطيع أَن ينظر إِلىٰ النهاية الوشيكة للسيطرة السوفييتية علىٰ أَفغانستان علىٰ أنها يقين بحال من الأحوال.

2 ـ وقد صممت الأُمم المتحدة، بحكم كونها المؤسسة الدولية الوحيدة ذات السلطة، تصوُّراً للسلام من أجل أَفغانستان تم تدعيمه علىٰ مدى السنين في العديد من قرارات مجلس الأَمن والجمعية العمومية. وما من شك في أَن المشاركين الآخرين في اللعبة، مثل الأربعة الكبار، الولايات المتحدة وروسيا، وباكستان وإِيران قد حدَّدت سياستها في أَفغانستان، ولكن السياسات الوطنية لم يكن لها مفعول أَو اعتبار إِلاَّ بالنسبة لكلِّ حكومة من الحكومات علىٰ حدة، غير أنها كثيراً ما تُرْفَض من قبل الآخرين علىٰ أنها سياسات لا يمكن التوفيق بينها وبين مصالحها وأهدافها الخاصة. وفضلاً عن ذلك فإِن هيئة الأُمم المتحدة هي وحدها التي يتوافر لديها عدد كبير من الخبراء في شؤون أَفغانستان علىٰ كل الأصعدة، وهم موجودون تحت تصرفها في حالة استئناف مبادرة للسلام، ويستطيعون أَن يلجأوا إِلىٰ تجاربهم السابقة.

3 ـ تكشف التجربة عن أَن الأَفغان لا يثقون بنزاهة دولة من الدول المهتمة أَو عدم انحيازها، حتى ولا بالدول التي تسمى «أصدقاء أَفغانستان» (الولايات المتحدة، وروسيا، وباكستان، وإِيران)، بل يثقون بنزاهة الأُمم المتحدة فحسب، وهي التي تمسُّ

obeikandi.com

الحاجة إِليها لتقوم بدور وساطة بعيدٍ عن المنفعة الخاصة، وتنهي الحرب الأهلية.

4 ـ وفي هذا الوقت ما زالت الدولة الأمريكية العظمى تفرض ما يحدث في جبال هندوكوش. علىٰ أن الحدود باتت تتميَّز معالمها فيما يتعلق بتأثير يقتصر علىٰ العمليات العسكرية. أمّا مسألة كيف ينبغي حل النزاع الأَفغاني سياسياً، ومن ينبغي أَن يشارك في الحل، بَلْ من ينبغي أَن يتولى القيادة هنا، فهي مطروحة منذ عودة ربّاني، بكامل إِشكاليّتها. وواشنطن تعلم أنها لا تملك المقوِّمات السياسية التي تمكِّنها من أَن تظل عقوداً من السنين، تمارس وصايتها علىٰ بلد تُعَدُّ أهميته آخر الأمر محدودة بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية العالمية. وبمجرد أَن تتحقَّق أهداف التدخل العسكري سوف يحوَّل اهتمام الولايات المتحدة إِلىٰ مهمات جديدة. ومنذ الآن يتبَيَّن في تصريحات الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته، أَن مصير أَفغانستان ستتحول مسؤوليته، علىٰ المدى الطويل، إِلىٰ الأمم المتحدة، مرة أُخرى.

علىٰ أَن البُنى التنظيميّة التي أنشأتها الأُمم المتحدة علىٰ مدى السنوات الخمس عشرة المنصرمة لكي تدفع جهود السَّلام في أَفغانستان إِلىٰ الأمام، كثيرة ومتنوعة، وقد كانت في بعض الأحيان تكاد تتعذَّر الإِحاطة بها بنظرة شاملة، وقد تكشف عن سبب البحث غير المأمون عن الطريق الواعد بالنجاح في أرض وعرة المسالك. فبعد انسحاب قوات الغزو الروسية كانت هناك أول

obeikandi.com

الأمر منشأتان تابعتان للأُمم المتحدة في أَفغانستان، وهما مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية (UNOCHA)، ومكتب الأمين العام لأَفغانستان وباكستان (OSGAP)، الذي يفترض أَن يدير عملية السَّلام. ولمّا كانت أَفغانستان تلقَّت معونة إِنسانية لا يستهان بها، ولم تبق أجزاء كبيرة من سكَّانها علىٰ قيد الحياة إِلاَّ بفضل هذه المعونة، فإِن منظمة مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانية تظل موجودة حتى اليوم. وتعدّ إِحدى الثوابت التنظيمية الطويلة الأجل للأُمم المتحدة ويلقى عملها مساندة من قبل منظمات أُخرى تابعة للأُمم المتحدة، مثل مكتب المفوض السامي لشؤون اللاجئين (UNHCR) وبرنامج الغذاء العالمي (WFP) ومنظمة الصحة العالمية (WHO) وبرنامج الأُمم المتحدة الإِنمائي (UNDP). ويقع علىٰ منظمة UNOCHA، بحكم كونها أقدم المؤسسات التابعة للأُمم المتحدة في أَفغانستان، واجب تنسيق عمليات المعونة، وهي تقدم ما يسمى بالمنسِّق المحلي الذي يعد الأول بين أنداد متساوين بين مدراء المنظمة، والمتحدث المشترك باسمهم.

أما الجهود السياسية من أجل حل سلميّ فكانت تترتَّب سلفاً علىٰ مؤسسة تمارس عملياتها بصفة مستقلة عن المعونة الإِنسانية، وكان اسمها، كما ذُكِر، في البداية OSGAP. ومما أسهم في إِدخال الفوضى الظَّرْف المتمثل في أَن منظمتي OSGAP وUNOCHA أُدخلتا في اتحاد جمع بين العاملين في كِلْتَيْهما، أول الأمر. وكان المدير المشترك لكلتا المؤسستين، حتى تموز 1992،

موظف الأُمم المتحدة القبرصي، بينون سيفان، وأعقب هذا الرجل الديناميكي الدبلوماسي اليوناني ستوريوس موسوريس الذي اقتصر، من حيث الجوهر، علىٰ مراقبة التطورات السياسية وتحليلها. وفي مستهل عام 1994 تمَّ، بقرار من الجمعية العمومية للأُمم المتحدة، إنشاء البعثة الخاصة للأُمم المتحدة من أجل أَفغانستان (UNSMA). وبهذه الخطوة كان يُفْتَرَض أَن يتم التعبير عن أنَّ مجهودات السَّلام ليست من اختصاص الأمين العام وحده بل هي اختصاص الأُمم المتحدة إِجمالاً. وفي 11 شباط 1994 عُيِّن وزير الخارجيَّة التونسي السابق، محمود المستيري، أول مدير للأونسما. وكان، مثل سَلَفَيْه، مختصاً بكلٍّ من المعونة الإِنسانية والمفاوضات السياسية أيضاً. ولكن المستيري أوضح منذ البداية أَنَّه يريد التركيز علىٰ المفاوضات السياسية. ولذلك تولى الاختصاص بالمعونة الإِنسانية، بعض الوقت أيضاً. موسوريس الذي أحيل علىٰ التقاعد في مستهل عام 1995. والآن تمَّ الفصل بين منظمتي UNOCHA، OSGAP والأونسما من حيث العاملين والمكان، كما أُعْفِي مكتب الأمين العام لأَفغانستان من اختصاصه بباكستان، وبات يدعى، منذ الآن فصاعداً، مجرد OSGA، أما الأونسما فنقلت، فوق هذا، مقرها من إِسلام آباد إِلىٰ جلال آباد لتظهر التزام الأُمم المتحدة المُدَعَّم بالحضور في المكان.

وبموجب هذا ظلت منظمات ثلاث مختلفة، تابعة للأُمم المتحدة يعملن معاً، جنباً إِلىٰ جنب من دون أَن يتم تمييز

اختصاص كلٍّ منها عن اختصاص الأخريات في كل التفاصيل، علىٰ أَن هذا الظرف الذي لم يكن مُرْضِياً انتهى في 1 تموز 1996، حين انصهرت الأونسما مع منظمة OSGA في بوتقة واحدة. وتوقفت منظمة OSGA عن الوجود، وبات الاختصاص في مفاوضات السَّلام الآن يعود إِلىٰ الأونسما علىٰ سبيل الحصر، وهي التي حُوِّلت إِدارتها إِليّ في 29 حزيران 1996. وكان المستيري قد استقال في 28 أيار 1996. أما أنا فقد ظللت أمارس مهام منصبي حتى 31 كانون الأول 1997.

وفي أيلول 1997 بدأت مجموعة من الدول باتت تعرف باسم «6 + 2» في مساندة جهود الأُمم المتحدة من أجل السَّلام، وكان في المجموعة دول الجوار الجغرافي الستة لأَفغانستان، أي باكستان وإِيران وتركمانستان وأوزبكستان والصين، وكذلك الدولتان العظميان، الولايات المتحدة وروسيا. وكان يتم تنسيق جلساتها من قبل وزير الخارجيَّة الجزائري ومفوض أَفغانستان المعيَّن حديثاً، من قبل الأمين العام، الأخضر الإِبراهيمي. ومنذ ذلك الوقت كان يكمن محور الثقل في مفاوضات السَّلام في نيويورك، مرة أُخرى، وفي السنتين التاليتين اجتمعت مجموعة «6 + 2» مراراً، ومع ذلك لم تتمكن دولها من الاتفاق علىٰ الإِجراءات اللازمة لإِنهاء أحداث القتال (حظر الوقود، الحكومة المتعددة الأعراق).

وفي تموز 1999 التقى ممثلو كل الأحزاب الأَفغانية

المتحاربة، برئاسة الإِبراهيمي في طشقند. وكان أعضاء مجموعة «6 + 2» مُمَثَّلين عن طريق مراقبين. وعَقِب المفاوضات أعلن المتحدث باسم الطالبان، وهو عضو مجلس الشورى ملاّ متقي، أَن محاولة ترتيب لقاء من أجل السَّلام بحضور الأمريكيين، كان عملاً «أحمق»، كما سلَّم الإِبراهيمي أيضاً بأن المحادثات كانت أقرب إِلىٰ أَن تتسم بـ «أهمية رمزية». وبعد إِخفاق آخر وَقَفَ جهوده في 20 تشرين الأول 1999 إِلىٰ إِشعار آخر، وكان قد انتهى إِلىٰ الإِحباط، من حيث الجوهر علىٰ صخرة عقبتين: أولهما موقف باكستان التي طالبت في الحقيقة بفرض حظر السلاح علىٰ أَفغانستان (لأن هذا الحظر لا يكاد يضر الطالبان بالنظر إِلىٰ المعطيات الطوبوغرافية، علىٰ حين كان خليقاً أَن يضعف تحالف الشمال إِلىٰ حد بعيد)، ومع ذلك فقد رفضت فرض حظر الوقود الأكثر فعالية بعد، والذي كان خليقاً أَن يمسَّ كلا الحزبين المتحاربين، أي الطالبان أيضاً، علىٰ حدِّ سواء، وكان خليقاً أن ينهي الاشتباكات التي تترافق بالحركة والانتقال، رفضاً شديداً لا هوادة فيه، والثاني رفض الطالبان الباعث للإِحباط، التَّزَحْزُح عن سياستهم، سياسة كل شيء أَو لا شيء، ورفضهم الاتفاق مع تحالف الشمال علىٰ تشكيل حكومة متعددة الأعراق. ومنذ هذه النكسة صرفت الأُمم المتحدة النظر عن مبادرات التفاوض النوعية، وباتت تقتصر، في أَفغانستان، من الناحية الجوهرية، علىٰ تقديم المعونة النوعية.

وبذلك تم وضع نهاية لجهود الأُمم المتحدة من أجل تسوية النزاع «من الخارج» علىٰ أن مشروع النقاط الخمس الذي وضعه الإبراهيمي، ومؤتمر أَفغانستان الدولي الأول في بطرسبرج في نهاية تشرين الثاني 2001، يكشفان عن تصميم الأُمم المتحدة علىٰ تخفيف حدة الأحداث الدراماتيكية في جبال هندوكوش بطريقة سلمية. وإذا قُدِّر للمجموعة «6 + 2» أن يُخصَّص لها في المستقبل دور في جهود الأُمم المتحدة فليس بالمستبعد بالطبع أن تعود مواقع الجبهات السابقة أدراجها داخل هذا الترتيب الوضعي Konfiguration. ولئن كانت باكستان في الماضي هي التي تعزل نفسها في كثير من الأحيان، بسياستها الموالية للطالبان تجاه السبعة الآخرين، فمن الممكن في المستقبل، لروسيا وإِيران، وهما الحليفتان التقليديتان لتحالف الشمال، أن تقفا في وجه تحالف مصالح أمريكي باكستاني لن يقبل بوجود هيمنة طاجيكية تزعزع استقرار البلاد.

علىٰ أن الأهداف الطويلة الأجل للأُمم المتحدة بصدد تسوية للمشكلة الأَفغانية مسجَّلة في قرارات جمَّة العدد، تسجيلاً لا يتسم بالطبع بالخطوط المرسومة رَسْماً حادّاً، بل في إِطار التزام عام يفترض أن يُسَهِّل التكيُّف مع التطوُّرات السياسية. ويتمثَّل هدف الأُمم المتحدة، بموجب نص القرار الخاص بأَفغانستان الصادر عن الجمعية العمومية في كانون الأول 1997، والذي يُسْتَشْهَد هنا بأمثلة منه، في «تحريك عملية تفاوض تؤدي إِلىٰ تشكيل حكومة

انتقالية تعد تمثيليَّة بحجمها الكامل، مبنية علىٰ قاعدة عريضة، من أجل الوحدة الوطنية». وعلىٰ نحو مماثل يطالب قرار مجلس الأمن الصادر في 16 كانون الأول 1997، الأحزاب بافتتاح «حوار سياسي من دون شروط مسبقة، يهدف إِلىٰ مصالحة وطنية وتسوية سياسية دائمة للصراع، وتشكيل حكومة مبنية علىٰ قاعدة عريضة، تمثيلية أُنموذَجية تحمي حقوق كل الأَفغان وتلبّي التزامات أَفغانستان الدولية».

أما في القرارات السابقة للجمعية العمومية (ومثالها قرار كانون الأول 1994) فهناك تطلُّع إِلىٰ حكومة انتقالية يفترض أن تسيطر علىٰ القوات الوطنية، إِلىٰ أن تتهيأ الظروف المواتية لانتخابات حرة ونزيهة في طول البلاد وعرضها. ويعد هذا القرار وسيلة لتحقيق هذه الشروط. «لإِنشاء بُنىً تقليدية من أجل صنع القرار، مثل المؤتمر الكبير، وبصريح العبارة كما يرد في القرار بالإِنكليزية (traditional decision-making structures, such as a grand assembly) وبذلك يحظى بالاستحسان مفهوم المؤتمر القبلي الكبير، أي مؤتمر اللوياجيركا، علىٰ النحو الذي تمت التوصية به في هذه الأيام من قبل بعض «الأَفغان المستقلين»، ولا سيما الملك السابق ظاهر شاه، بحكمِ كون ذلك طريقاً للسلام، وبحكم كونه خياراً بين خيارات عديدة.

ومن زاوية النظر الحالية يبدو أنَّ مما هو جدير بالملاحظة أن خطر الإِرهاب وأسامة بن لادن، لا يُذْكَران، وحتى في التقرير

الدوري للأمين العام للأُمم المتحدة حول أَفغانستان، بتاريخ تشرين الأول 1998، الذي لا يقدم، بناءً علىٰ ذلك إلاَّ بعد شهرين من الضربات ضد سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام (7 آب)، تُستعرَض الضربات في الحقيقة، ولكن لا يُشار إِلىٰ فاعلها المفترَض، أسامة بن لادن. وفي تلك اللحظة كانت الآمال القوية للأمانة العامة للأُمم المتحدة ومجلس الأَمن ما زالت معلقة علىٰ المفاوضات في إِطار مجموعة «6 + 2»، علىٰ الرغم من أَنَّه بات من المعروف أن باكستان في إِطار مجموعة الثمانية تعارض سياسة إِجماع تجاه الطالبان. وفي تلك الأيام تراجعت مشكلة أسامة في مواجهة هذه الآمال.

وفي 18 تشرين الأول 1999 قرّر مجلس الأمن، بناءً علىٰ اقتراح من الولايات المتحدة (وكذلك من كندا، وهولندا، وروسيا وسلوڤينيا، والمملكة المتحدة)، مطالبة الطالبان، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأُمم المتحدة، «بتسليم أسامة بن لادن إِلىٰ الجهات المناسبة في بلد يمكن أن يُقَدَّم فيه إِلىٰ المحكمة»، وفي الوقت ذاته هدد مجلس الأَمن، في حالة الرفض، بتجميد الأرصدة الأجنبية للطالبان، وحظر الإِقلاع والهبوط علىٰ الطائرات التي تعود إِلىٰ الطالبان.

وكما هو معروف، فإِن القرار رقم 1299 (1999) لم يحدث أثراً علىٰ النظام القائم في كابول، بحيث دخلت العقوبات الاقتصادية التي ما زالت حتى اليوم سارية المفعول، حيّز التنفيذ في 14 تشرين الثاني 1999.

أما حقيقة أن مجلس الأَمن لم يتناول مشكلة أسامة بن لادن إلاّ في تشرين الأول 1999، فهي إشارة أُخرى إلىٰ أن مسألة تسليم الإرهابيين لم تتحوَّل، في سياسة واشنطن في أَفغانستان، إلىٰ مطلب مركزيّ إلاّ علىٰ نحو تدريجيّ، وهو مطلب طغىٰ علىٰ المصالح الباقية في أَفغانستان.

أما أهداف التفاوض البعيدة الأجل التي حددتها لنفسها منظمات الأُمم المتحدة، فما زالت حتى اليوم بعيدة عن التحقيق. وحتى الهدف القريب، وهو الاتفاق علىٰ هدنة، لم يتحقق أبداً، وأما تبادل الأسرى والجرحى فقد تحقق في بعض الأحيان علىٰ أفضل الأحوال. وما من شك في أن جهود السَّلام المستقبلية أيضاً سيترتَّب عليها أن تستهدي بهذه الدلائل أيضاً، بالنظر إلىٰ عدم وجود ما هو أفضل، وما من أحد سيقبل أن يتحمّل علىٰ عاتقه بعد التخلص من نظام الطالبان، مسؤولية توطيد السَّلام في أَفغانستان من خلال مفاوضات تدوم سنين ويتوقَّع أن تكون مجهدة. وذلك أن أمثال هذا النوع من الجهود تقع، بالنسبة لحساب التكاليف والجدوى، خارج إطار المنظور الطويل الأجل للسياسة الأمريكية في جنوب آسيا. وبالقياس إلىٰ واشنطن قد يكون أسامة بن لادن والطالبان، آخر الأمر، ظاهرة عابرة، ترسَّبت علىٰ المدى الطويل من جراء مشكلات استراتيجية الأمن الإقليمي في هذا الإقليم غير المستقر، مثل سباق التسلُّح النووي، وقضية كشمير، وضبط التوازن بين الدول العظمى، الولايات المتحدة وروسيا والصين.

وحتى نشر الجنود ذوو الخوذات الزرق يحتاج إِلىٰ ألوان من التفكير، بعد اضطرار الطالبان إِلىٰ إِخلاء موقعهم الذي يتمتعون فيه بحق الفيتو، وذلك أَن إِرسال قوات السَّلام التابعة للأُمم المتحدة لا يكون له معنى، بالطبع إِلاَّ في حالة أَفغانستانِ وطَّدَ السلام فيها دعائمه، ولا يمكن أَن تكون مهمتها تحقيق أهداف الحرب التي يتابعها التحالف الغربي ضد الإِرهاب، والخوذات الزُرق المخصَّصة لأَفغانستان ينبغي تجنيدها من بلدان إِسلامية معتدلة يكون جنودها أقرب إِلىٰ أَن يكونوا مقبولين من جانب السكَّان الأفغان من جنود دول حلف الأطلسي مهما يكن هؤلاء بارعين.

وفي صدد كل الإِجراءات المستقبلية التي تتخذها الأُمم المتحدة، لا يمكننا، في كثير من الأحيان، أَن نذكِّر التذكير الكافي، بما تمّ تدوينه في ديباجة ميثاق الأُمم المتحدة باللهجة المنبرية التي تحدث بها الأجداد في عام 1945: «صيانة الأجيال القادمة من سياط الحرب، التي عادت علىٰ البشرية بآلام لا توصف، مرتين خلال فترة حياتنا...». وفي الاتجاه نفسه يهدف نداء الأمين العام في 1 تشرين الأول 2001 إِلىٰ إِنهاء الغارات بالقنابل علىٰ المدن الأَفغانية في أقرب وقت ممكن. وفي الوقت ذاته أعلن كوفي عنان أَن الأُمم المتحدة تواجه في أَفغانستان تحدِّياً من أكبر التحديات في تاريخها.

وذلك أَن الشتاء الوشيك والإِمداد غير الكافي أبداً بالمواد

الغذائية لمناطق واسعة من أَفغانستان يحملان علىٰ التخوُّف من كارثة إِنسانية في جبال هندوكوش لا يمكن التخفيف من وطأة آلامها إلاَّ عندما تُفْتَح أمام الأُمم المتحدة ومؤسسات المعونة الدولية الأُخرى من دون مماطلة، طرق النقل في أنحاء البلاد. وإِذا نظرنا إِلىٰ المسألة من الناحية الإِحصائية فإِن أَفغانستان يتوافر لديها حوالي 2600 كم من الشوارع المعبَّدة بالإِسفلت، وليس هذا بالكثير بالقياس إِلىٰ مساحة الدولة الضخمة (تكاد تصل إِلىٰ ضعف مساحة ألمانيا)، ولا يوجد كيلومتر واحد بحالة جيدة. ولذلك تحتاج الطرق الزراعية وطرق الإِمداد، حاجة ملحَّة، إِلىٰ الترميم.

والتاريخ يعيد نفسه، كما نقول في ألمانيا، علىٰ أَن الفرنسيين يصوغون هذا صياغة أكثر سخرية: «l'histoire beggye!» أي أَن التاريخ يقول كلمته مرتين، شَأْنَ من يتلعثم. أجل، إِنه يقول كل شيء مرتين. لقد أخذوا وسيط الأُمم المتحدة الهامّ، كوردوفيز، في ظل الرئيس ميخائيل غورباتشوف، حصاد سلام دَسِم لأَفغانستان عندما توصَّل في عام 1988، إِلىٰ اتفاقية جنيف حول سحب القوات السوڤييتية، وربما أتيح للإِبراهيمي، بعد أربعة عشر عاماً، وفي ظل الرئيس الأمريكي جورج بوش، توطيد السَّلام الذي طال الشوق إِليه، في أَفغانستان.

obeikandl.com

obeikandl.com

25

نظرة إِلى الماضي وإِطلالة على المستقبل

ولننظر، مرة أُخرى إِلىٰ أَفغانستان، في عودة إِلىٰ ماضيها، وإِلىٰ الأمام، في إِطلالة علىٰ مستقبلها.

وقد يكون من الممكن أَن يحسّ المرء بحجم نيويورك، حتى بعد سنين، في إِطار تاريخ الحرب الأهلية الأَفغانية، إِحساسَه ببداية مرحلة جديدة فريدة في نوعها. وما من شك في أَن هذا يعدُّ الاقتناع السائد في الأسابيع الراهنة، ولكن كما أَن المأساة تبدو اليوم فادحة تحزُّ في النفوس فإِن مفعولها الذي يكبح جماح اندفاعها السياسيّ المتهوِّر، ويَعِظ ويلفت النظر لن يدوم بلا نهاية. وحتى في المستقبل لن يتمّ طبخ سياسة أَفغانستان في خلاء مفرَّغ من الهواء، بل يرتكز علىٰ وقائع الماضي وتجاريبه.

وما زالت الحرب في جبال هندوكوش تستلزم ضحاياها حتى اليوم، ويظل يوجد بين هؤلاء الضحايا، المرة، بعد الأُخرى، أناس عرفتهم شخصياً، أَو كانوا يتعاونون مع الأونسما تعاوناً

وثيقاً. ففي عملية انتقامية من الهجوم بالصواريخ علىٰ معسكر تدريب لأسامة بن لادن، في 20 آب 1998، أطلق الرصاص، في اليوم التالي، علىٰ مستشار عسكري للأونسما، وهو الإِيطالي كارمين كالو من قبل دورية شرطة من الطالبان، وهو داخل سيارة جيب تابعة للأُمم المتحدة، في كابول، ومات متأثّراً بجراحه. أما المستشار الفرنسي الذي كان يقعد إِلىٰ جانبه، وهو خليفة برتولت، فقد أصيب بجراح في العملية الانتقامية. وبعد عام، أي في 14 تموز 1999، أُرْدِيَ بالرصاص والد حميد كرزاي، عبد الأحد، الذي كنت لقيته في واشنطن في بداية بعثتي مباشرة، في شارع مكشوف في كويتا، حين كان الرجل المكفوف يقوده صبيّ من يده إِلىٰ منزله وهو في المسجد بعد صلاة العشاء، وكان ممثلاً مرموق السمعة «للمستقبلين»، وكان سابقاً رئيس البرلمان في عهد الملك ظاهر، وكان يتمتع بالسمعة الحسنة عند كثير من الأَفغان، وما من شك في أَنَّه كان خليقاً أَن يلعب دوراً هاماً في حلّ سلميّ للصراع. أمّا القتلى الآخرون الذين سبق لي أَن تفاوضت معهم في كثير من الأحيان، مثل أحمد شاه مسعود، وغفورزاي، وعبد الحق فقد سبق الحديث عنهم في موضع آخر.

لقد هرب الملايين من الأَفغان منذ بداية الضربات الانتقامية الأمريكية، وسوف يضاف إِلىٰ الملايين الثلاثة من اللاجئين الذين يعيشون حياة الضنك منذ عشرين عاماً، في المخيمات الباكستانية، والإِيرانية، مئات الآلاف من الآخرين، ومرة أُخرى تهدِّد المجاعة

أكثر الناس فقراً. والشتاء علىٰ الأبواب. وفي أراضي أَفغانستان الجبلية يضرب الشتاء أجزاءاً كبيرة من السكّان بقسوة بالغة. وبالنسبة إِلىٰ الكثيرين فإِن البَرْد الذي يصل إِلىٰ 20 تحت الصفر يعني حكماً بالإِعدام. علىٰ أن أحدث نداء للأمين العام للأُمم المتحدة ذَكَّر بأن ما يتعرض للخطر ليس مجرد مصير أمراء الحرب المهووسين بالسلطة في أَفغانستان، بل هو حياة شعب بأسره، ظلَّ علىٰ مدى اثنتين وعشرين عاماً يعاني من وطأة القتال في كل جبهاته، ولا بدَّ له أَن يشهد، حربه الخاصة، حرب الثلاثين عاماً، في صورتها المنقولة إِلىٰ حاضرنا.

علىٰ أَن عزل النظام القائم في كابول وقندهار لم يجعل هذا النظام أكثر ليناً ومطاوعة، بل علىٰ النقيض. فعلىٰ الرغم من الاحتجاجات علىٰ النطاق العالمي، لا من قبل الغرب فحسب، بل من قبل البلدان الإِسلامية والبوذية، أمر الزعيم «الروحي» للطالبان، الذي ظل يدع الناس يشيرون إِليه باسم «أمير المؤمنين»، في منتصف آذار 2001، بنسف تماثيل بوذا الشهيرة في باميان علىٰ أنها صور أصنام تتنافى مع الإِسلام. وتمت التضحية بجزء لا سبيل إِلىٰ استعادته من تراث حضارة البشرية الذي يخرج عن حدود المقول. علىٰ أَن النظام في هذه الأيام يبرهن علىٰ ابتعادٍ عن الواقع مماثل لهذا في مسألة تسليم الإِرهابي المُفْتَرَض أسامة بن لادن. وحين وُضِع الملاّ عمر بين خيارين: كفّ الرجل الخطير ومنظمته عن إِلحاق الأذى أَو تعريض البلاد لخطر عواقب حرب

وخيمة، أظهر الملاّ عمر استهانة مماثلة بالبشر مَيَّزته، حسب ملاحظتي، في كل القرارات الهامة تقريباً، منذ البداية. ثم إن الازدراء الذي كان يلقاه نظامه الذي كان قائماً حتى الآن، علىٰ النطاق العالمي، حمل دول الخليج والإمارات العربية المتحدة علىٰ قطع العلاقات الدبلوماسية مع كابول. وبذلك تظل باكستان الشريك الأجنبي الوحيد، الذي لا بدَّ له أَن يضع نصب عينيه أَنَّه هو الذي مَكَّن لحركة الطالبان علىٰ وجه الإِطلاق، بادىء ذي بدء واستخدمها من أجل أهدافه السياسية.

لقد قرأت في الجريدة اليومية الفرنسية منذ بعض الوقت أَن الصراع في أَفغانستان هو «آخر الحروب الرومانسية» في عصرنا، ولا أُقدِّر هذا التعبير، ومع ذلك فهو يتحدَّانا أَن نفكّر ونتأمَّل. هل يستطيع المرء أَن يسمي الصراع في أَفغانستان «صراعاً رومانسياً» من باب الجد، عندما يطوف المرء في البلد ويكون قد رأى القتلى، والمشوَّهين، والمصابين، وشهد يأس اللاجئين، وعندما يفكر في فِعْلة نيويورك المُرَوِّعة؟

ربما كان في وسع المرء أَن يقول إن الصراع في أَفغانستان يعاند شرائع القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين الذي يُسْتَهَلُّ الآن، وهو يبدو، في إِطار شبكة تشمل العالم، من أشكال التوافق أَو الاعتماد المتبادَل (Interdependenz)، مثل جسم غريب في خضم الصراع الذي يمزِّق الأعصاب من جرّاء المصالح المتصارعة، مثل نقطة عربية تبدو غير متحركة. إِنها المِفْصل

الواقع بين شبه القارة الهندية في جنوب آسيا، بما فيها من مليار ونصف المليار من البشر، وبين «البطن الرخو»، بطن الدولة الروسية العظمى. وفي حالة الصراع من أجل الهيمنة في هذا الجزء من العالم الذي تنازع فيه البريطانيون والروس قبل مائة عام، في إِطار «اللعبة الكبرى» تتعلق المسألة بما هو أكثر من عدم التبصُّر عن طبقة متخلِّفة من المحاربين، إِنّها تتعلق بمصالح جيو ـ استراتيجية لا يستهان بها، وبمصالح اقتصادية تعد ذات أهمية حيوية تقريباً بالنسبة لشبه القارة الهندية الفقيرة بالطاقة. ومن أجل ذلك تقوم دول الجوار بما يمكنها عمله لتوجيه المصائر في أَفغانستان لصالحها. ومع ذلك فقد ظلت الحرب الأهلية، طوال سنين، تحدث آثارها بطريقة غريبة في السياسة الدولية، بطريقة هي موضع الترحيب، وكأنّها سوف تستمر بعدُ أيضاً، بفعل ديناميَّتها الخاصة، المُهْلِكة، إِلىٰ أَن يمكن جمع دول الجوار إِلىٰ مائدة وإِلزامهم بصيغة سلام. أمّا ما يمكن أَن تكون الدولة العظمى الأمريكية قد فَصلت فيه قبل الحادي عشر من أيلول، فقد بدا أَنَّه لا يحدث آثاره إِلاَّ في دوافع آخذة في التناقص في جبال هندوكوش النائية المنغلقة عن العالم. وفي الواقع لا بدّ للولايات المتحدة أَن تأخذ علىٰ نفسها أنها ظلت زمناً طويلاً، تقف من الطالبان موقفاً ينطوي علىٰ حسن النية، إِن لم يكن ملتبساً، وترى أَنَّه لا بدّ لها أَن تدخلهم في حساباتها، من دون هواجس، علىٰ أنهم «عام سياسي هام»، ولم تمارس واشنطن

حيال تلاميذ مدارس القرآن النقد الواضح إلاَّ في صدد «موضوع الجنسين».

وهكذا كانت المسألة تتخذ حتى الآن مظهراً يوحي بأن بلداً صغيراً ضعيفاً في وسعه أَن يعاند الدولة الأمريكية العظمى، وكأن إِحدى الصراعات الأخيرة في العصر الحاضر يُفْصَل فيها هنا، عند همزة الوصل بين جنوبي آسيا ووسطها، يُفْصَل فيها تبعاً للقواعد التي كانت تحكم العصور الوسطى في أوروبا. فهناك تقاليد عرقية، ودينية، واجتماعية يناطح بعضها بعضاً علىٰ نحو لا سبيل معه إِلىٰ مصالحة ويجري الصراع بينها إِلىٰ درجة استنفاد قوى السكَّان. علىٰ أَن مثال أَفغانستان يعلمنا مدى قدرة شعب علىٰ المعاناة. ولم تكن هذه علامة السخرية اللاذعة، بل كانت آية التمرُّد، والغضب والعجز، أَن تكون بعض الحكومات قد اتخذت حتى الآن وجهة النظر القائلة إنه لا بدَّ للمرء أَن يفرض حجراً صحياً علىٰ البلد المريض، لكي يهلك بوبائه هو.

والأرجح أَن المذاهب المطبوعة بطابع التقاليد والتجاريب الغربية ما زالت غير صالحة للتطبيق علىٰ أَفغانستان في الوقت الحاضر. فالديمقراطية والانتخابات العامة ومشروعية الحكومة، وسيادة القانون ـ هذه كلمات لا مضمون لها عند كثير من الأَفغان، ولا يقتصر هذا علىٰ أمراء الحرب الذين يضحون بالبشر من أجل مزايا شخصية، أَو من جراء إِرادة السلطة عندهم من دون مراعاة لأي اعتبار آخر، وحتى بالنسبة لسكَّان الريف، والبسطاء من الناس

في المدن، بغض النظر عن طبقة عليا متنوِّرة ضئيلة للغاية، صامتة منذ عهد بعيد، أو مهاجرة إلىٰ الغرب، تسيطر قِيَم تقليديَّة علىٰ حياة المجتمع، وفي مقدمة هذه القِيَم جميعاً، الانتماء إلىٰ أسرة، أو عشيرة، أو قبيلة، أو إلىٰ مذهب ديني، يجب الدفاع عن نقائه بالسلاح. وإذا كان قدر كبير كهذا من مفاهيم السلام في أفغانستان قد أخفق، وقدر كبير كهذا من المحاولات العبثية من قبل مفاوضين بارعين قد تمَّ القيام به، فالمسألة تتعلَّق عندئذ بأن كلا الجانبين، جانب الحداثة المتنوِّرة المرتبطة بالنزعة العالمية السياسية، وجانب الشعب الأفغاني المتمسّك بتقاليده، يتحدثان باللغة ذاتها، بل يوجد عند كلٍّ منهما كلمات تفضي إلىٰ دلالة متباينة. علىٰ أن سمات الهوية المألوفة في كل بلدان الأرض، والخاصة بكل دولة علىٰ حدة، كالعَلَم، والعملة الموحَّدة، واللغة، وإقليم الدولة، والعاصمة ـ هذا كله يبدو أنَّه مفتقد في أفغانستان، أو لا يوجد إلاَّ في صورة متخلِّفة. وفي البلد الذي تمتد خطوط معيشته علىٰ طول كتلٍ من الجبال لا سبيل إلىٰ التغلُّب عليها، ووديان يتعذر الوصول إليها، وصحارى معادية للإنسان، تنعكس المطالبة «ببناء حديث للأمة» إذ تصطدم بعدم الفهم عند السكَّان ثم ترتد عنه، ارتداد الكرة إذ ترتطم بحاجز. وكانت القوة الفعلية عند الطالبان لا تستند إلىٰ تسليحهم العسكري، كلاّ، ولا إلىٰ مساندتهم من قبل الباكستان أو الحكومات ذات العقلية المماثلة، علىٰ الإطلاق، بل إلىٰ التوافق

obeikandl.com

بين الأطروحات الأساسية وبين أنموذج السلوك السائد لدى أجزاء كبيرة من السكّان. فلا التعاون السياسي، ولا الضغط العسكري، سيخفِّفان وحدهما من وطأة مشكلة حقوق الإنسان في أَفغانستان، بل هي وسيلة الشفاء التي تحدث مفعولها شيئاً فشيئاً، وهي إندماج منظومة القِيَم السائدة علىٰ النطاق العالمي. وحتى الشعوب الآسيوية وقفت من ظاهرة هذه الحرب التي تخاض بطريق تنتهك الأصول والقواعد، والتي يقال إِنها «رومانسية»، وقفة المذهول. أما العالم الإِسلامي فلم يَرَ نفسه تنعكس في صرامة تلاميذ مدارس القرآن إِلاَّ انعكاساً مشوَّهاً. ومع ذلك فلم يكن أحد حتى الآن علىٰ استعداد لأن يضع حدّاً للقتل علىٰ نحو دائم. وكان يبدو كَأَنْ لا بد للنار أَن تحطِّم حتى البقايا التي يصدر عنها البصيص، والتي يمكن أَن تُداس بالأقدام.

علىٰ أَن التطوُّر الراهن، ولا سيما مبادرة الأُمم المتحدة المتجدِّدة، يبرهنان علىٰ أَن الباعث إِلىٰ المصالحة الوطنية لا يمكن أَن يأتي إِلاَّ من الخارج. أما شعب أَفغانستان المنكود الحظّ فيبدو كأنما أُوصِدَت عليه حلقة شيطانية، من العنف والعنف المضاد، وما عاد قادراً علىٰ الوصول إِلىٰ السَّلام بقدرته الخاصة. ولكن مع كل الفظاظة التي تُخاض بها هذه الحرب الأهلية، ويتم بها إِخضاع البشر للقهر تعد أَفغانستان، إِذا ما قيست بالمقاييس الدولية، دولة ضعيفة سريعة العطب. ولما كانت تفتقر إِلىٰ منفذ إِلىٰ البحر، وليس لديها كيلومتر واحد من الخطوط الحديدية، ولا ثروات

باطنية تستحق الذكر، ولا حلفاء أقوياء، فهي تعتمد علىٰ الإمداد من الخارج، حتى فيما يتعلّق بحاجتها من الأسلحة «الحديثة» علىٰ وجه الإطلاق ـ والطاقة، من أجل خوض الحرب. والمفتاح لحل الصراع يكمن في باكستان، ولكن لكي يمكن تعديل نفسيّة باكستان لصالح الروِّية والتبصُّر، تمسُّ الحاجة إلىٰ ضغط قوي لا تستطيع أَن تمارسه إلاَّ واشنطن مرة أخرى. لقد ظلت أمريكا زمناً طويلاً تتردَّد في ممارسة هذا الضغط، إذ كانت تتمتع بالمرتبة الأولى مصالحُ استراتيجيّةٌ من أنواع شتى في مجمل إقليم جنوب آسيا. فهنا كانت توجد في مضمار السياسة العالمية مشكلات أخرى لا بدّ من حصرها ضمن حدود معينة، في صدد سباق التسلُّح النووي بين بلدين متعاديين، وفي صدد الصراع الكشميريّ الذي يكاد يتعذَّر حله، وفي صدد توازن القوى بين العملاقين، الصيني والروسيّ. ولكن التهديد الإرهابي تنامى، منذ مأساة نيويورك التي تنطلق من أَفغانستان، حتى بلغ هو ذاته بُعْداً استراتيجيّاً. وسوف يرغم هذا الولايات المتحدة وباكستان المتحالفة معها علىٰ التفكير في أولويات جديدة في أَفغانستان.

ويبقىٰ أَن نأمل أَلاّ يسبق التطوُّرُ العسكريُّ التطوُّرَ السياسي، ولا بدّ، في نهاية العملية التأديبية من أَن يكون ثمة مفهوم حل سياسي، وإلاَّ فلن تسفر الضربات الانتقامية إلاَّ عن إرهاب جديد وعدم استقرار جديد. ومن الأمور الباعثة للسعادة، التي حدثت نتيجة للعمل الجنوني في 11 أيلول 2001 أَن المسألة انتهت إلىٰ

مبادرة جديدة للسلام من الأُمم المتحدة، وأنا علىٰ يقين أَن مسؤولي الأُمم المتحدة سوف يدخلون في حسبانهم النظرات والآراء التي نجمت في هذا الصدد، والتي تم اكتسابها في السنين المنصرمة:

1 ـ مع كَسْر احتكار السلطة من قبل الطالبان سوف يفقد هؤلاء أيضاً موقعهم السياسي الذي يمنحهم حق استعمال الفيتو السياسي، وبذلك يمكن من جديد إِدخال تلك التصوُّرات الخاصة بالحل التي كانت غير ممكنة التنفيذ طالما كان الطالبان يُملون قواعد اللعبة. وهذا ينطبق بوجه خاص علىٰ مفهوم اللوياجيركا، وعلىٰ وظيفة حافزة مؤقتة للملك السابق. فعلىٰ النقيض من المحاولات السابقة للملك السابق، التي كانت تتم بشطرٍ من عواطفه، يبدو الآن لأول مرة يريد أَن يرى فرصة واقعية لبلاده تحمله علىٰ أَن يتصرف تصرف المصمِّم الحازم، وما انتهى حتى الآن إِلىٰ الإِخفاق من جراء مقاومة الطالبان التي لا تلين قناتها، قد يكون الآن طريقاً سالكاً من أجل توطيد السَّلام في نظام قائم علىٰ تعدد الأعراق.

2 ـ قد يكون مما ينطوي علىٰ العواقب الوخيمة ممارسة سياسة مبنية علىٰ إِعادة الأحوال القديمة، وردّ عجلة التطور إِلىٰ اللحظة السابقة علىٰ غزو كابول من قبل الطالبان. علىٰ أَن محاولة إِحلال الرئيس ربّاني ذي الانتماء الطاجيكي في منصبه القديم (الذي يجري التنازع فيه منذ نهاية عام 1992)، والمحافظة علىٰ

وضعه لن تفضي إلاَّ إلىٰ شقاق جديد، ثم إن «إعادة إنشاء» الدول الجزئية، العائدة للجنرال دُسْتُم أَو لزعيم الهزارا، خليلي، لن تكون في خدمة مصالح الأمة بمجموعها، ومثلما لم تتقبَّل الأقليات المتحدة في إطار المعارضة، وهي الطاجيك، والأوزبك، والهزارا وأقليات الآخرين في السنوات الخمس الأخيرة نظام الطالبان المطبوع بالطابع البشتوني لن يقبل البشتون في المستقبل بالتبعية لحكومة من هذه الأقليات. ثم إن تجربة الملوك ذوي الأصل الطاجيكي لم تنجح في تاريخ أَفغانستان. ولذلك ينبغي الموافقة علىٰ التصريحات الباكستانية بأن الطالبان قد لا يُفْتَقدون تماماً في عصر ما بعد الطالبان، ما دامت التيارات الفكرية الإسلامية المحافظة، ذات الأغلبية البشتونية، علىٰ النحو الذي تمثلت به حتى الآن ـ مشوَّهة بلا ريب ـ في أعين كثير من الأَفغان، من قبل الطالبان، سوف تمسّ الحاجة إليها في المستقبل أيضاً داخل إطار الطيف الاجتماعي للدولة بأسرها.

3 ـ لا يمكننا إلاَّ التحذير من النقل غير النقديّ لآليات الحكومة «الديمقراطية» إلىٰ أفغانستان، ويجب أَن يؤخذ في الحسبان أَنَّه لا يوجد حتى الآن في أَفغانستان أحزاب بالمعنى الديمقراطي، وذلك أَن ما يُسَمَّى بالأحزاب التي تشكلت منها الحكومة المؤقتة في بيشاور قبل عام 1992، إنما كانت أُطُراً زخرفية للفصائل المحاربة التي لم تكن تتباين فيما بينها علىٰ كل حال إلاَّ في كفاءتها، لا في جوعها إلىٰ السلطة. وإذا قُدِّر

للأحزاب بمعناها الديمقراطيّ أَن تشارك في تشكيل مستقبل البلاد فلا يمكن، بناءً علىٰ هذا، اللجوء إِلىٰ الأحزاب الموجودة حتى الآن، بل تمسُّ الحاجة إِلىٰ تأسيسٍ وإِنشاء متأنٍّ لأمثال هذه التنظيمات، ولا سيما رسوخ جذورها في وعي السكّان.

4 ـ لا بدّ للمشاركين في اللعبة الدولية، وهم الأربعة الكبار، الولايات المتحدة وروسيا والباكستان وإِيران، من مقاومة إِغراء تحديد مناطق نفوذ، علنية أَو خفيّة، في أَفغانستان والحق أَن السَّلام في أَفغانستان لا يمكن إِنشاؤه إِلاَّ بمعونة من الخارج، ولكن لا بدّ أَن يكون سلام الأَفغان، ولا يجوز أَن يُفْرَض من دول الطرف الثالث ذات الاهتمام بالبلاد. ويجب أَن يخصص للأُمم المتحدة مجدَّداً دورٌ بحكم كونها وسيطاً، في عمليات تصويت محتملة، ضمن محيط الأربعة الكبار. ومثال ذلك ما يكون في العلاقة الصعبة بين واشنطن وطهران.

5 ـ إِن الضربة الانتقامية العسكرية من قِبل الولايات المتحدة ضد الطالبان تُفْهَم من قبل الكثيرين، وحتى من قِبل الحلفاء الأوروبيين (فرنسا) علىٰ أنها حالة تطبيقية أُخرى لتصرف أمريكي من جانب واحد، تبعاً لرغائبها وتصوُّرَاتها، وهو أمر يتناقض مع فكرة احتكار القوة للأُمم المتحدة، وذلك أَنَّه لا المجتمع الدوليّ، ولا حتى مجلس الأَمن يجري إِشراكهما في الاستراتيجيّة الأمريكية، أَو إِطلاعهما عليها، بل يتم إِطلاع عدد ضئيل من الحلفاء تبعاً لدرجة استعدادهم للتعاون. وهذا أمر قد يستعصي

علىٰ الفهم ما دامت المسألة تتعلّق بظلم من جانب الولايات المتحدة ترتكبه من باب الانتقام. وما من شك في أَن المسألة تغدو ذات إِشكالية بمجرد أَن تفضي العملية العسكرية إِلىٰ مفهوم سياسيّ يهدف إِلىٰ أَن يتم التحكُّم في مستقبل دولة مستقلة عضو في الأُمم المتحدة.

6 ـ ومع نهاية حكم الطالبان ينتهي أيضاً، في سياق آخر وضعهم المتميز بإِمكان استعمال الفيتو الذي كان حتى الآن لا يمكن التغلّب عليه: وذلك بنشر الخوذات الزُّرق. وقد سبق أَن نُوقش نشر هؤلاء في الأُمم المتحدة عام 1996 بهدف التوصل، بعد سقوط كابول، أيضاً، إِلىٰ هدنة بين الأحزاب، وإِلىٰ مفاوضات تُعْقِبها حول تشكيل حكومة متعددة الأعراق. وكان يُفْتَرَض في الخوذات الزرق في تلك الأيام أَن تكون حاجزاً بين خطوط القتال، وأن تسهم في تخفيف حدة أشكال التوتر. وقد انتهى أمر نشر قوات السَّلام إِلىٰ الإِخفاق من جراء عقبتين: اعتراض الولايات المتحدة التي رفضت في تلك الأيام كل إِرسال جديد للقوات المحافظة علىٰ السَّلام، ومقاومة الطالبان الذين شعروا أنهم سيتعرضون لإِعاقة توسُّعهم العسكري من جراء نشر قوات محايدة. وكلتا العقبتين تبدوان وقد أزيلتا أَو أصبحتا قابلتين للإِزالة، ثم إِن نشر الخوذات الزرق، علىٰ أَن يكونوا، قدر الإِمكان، من الدول الإِسلامية المعتدلة، خليق أَن يسهم في استقرار المناخ الملائم للهدنة وفيما بعدُ أيضاً لمحادثات تتعلق بتشكيل الحكومة ومفاوضات خاصة بالدستور.

7 ـ المعونة الإِنسانية لها أهميتها، ولا سيما في أَفغانستان، حيث لا يظل الملايين من البشر علىٰ قيد الحياة إلاَّ بفضل المساندة الدولية، علىٰ أنّها لن تحل المشكلات السياسية في البلاد. وحتى المعونة البالغة السخاء لا تستطيع أَن تقوم مقام التصوُّر السياسي. ولكن لا يجوز لها أن تموِّه غيابَ مثل هذا التصور.

علىٰ أنَّ مما ينطوي على التناقض أَن حجم نيويورك يمكن أَن يعود علىٰ أفغانستان بخير. وما زال المرء لا يأمل في سلام دائم، ولا سيما بالنظر إِلىٰ الخصومات القديمة بين الأعراق، التي عُدْنا نلمس آثارها من جديد، ولكن هناك محاولة جديدة يجري القيام بها. وقد تُعينُ أيضاً علىٰ النجاح فكرةً لم أستطع أَن أتيحَ لها فرصةً خلال نشاطي في خدمة الأُمم المتحدة في ظل الظروف السائدة في تلك الأيام، وهي فكرة مؤتمر للقبائل، مؤتمر لوياجيركا يمكن فيه وضع ميثاق أعظم (Magna Chasta) لأَفغانستان يتوطّد فيه السَّلام، حسب التقليد الأَفغاني، من الأَفغان للأَفغان. وقد أدخلت قرارات الأُمم المتحدة في حسبانها، منذ الأيام الأولى، «الطريق التقليدي لاتخاذ القرار» في محيط سياسي يتحقق فيه الاستقرار عن طريق نشر قوات السَّلام.

وفي حالة التوطيد النهائي للسلام في البلاد سيكون من الواجب حل المشكلات المتأصِّلة، التي يمكن للمرء أَن يميِّزها بحكم كونها من ثوابت الصراع، بصرف النظر عن تشكُّلات

السلطة المتبدِّلة في كثير من الأحيان بين يوم وآخر. ويجب العثور علىٰ جواب عن مسألة العلاقات بين الأعراق وسط سكَّان متعددي الأعراق ومسألة التغلب علىٰ الصراع الكامل والمحتمل بين الإِسلام والتفكير العشائري، وبين البُنىٰ القبلية والإِقطاعية، وأخيراً فإِن المسألة تتعلّق بالاندماج الحَذِر لمجتمع إِسلامي محافظ، في الحداثة.

obeikandl.com

فهرست الرموز والاختصارات

الحكومة الأَفغانية المؤقتة	AIC
اللجنة الدولية للصليب الأحمر	IKRK
المخابرات الباكستانية	ISI
دائرة الاستخبارات الوطنية الأَفغانية	KHAD
المنظمة اللاحكومية	NGO
منظمة المؤتمر الإِسلامي	OIG
منظمة الأمن والتعاون في أوروبا	OSGAP
الخمسة الدائمون في مجلس الأمن الدولي	P5
برنامج الأُمم المتحدة الإِنمائي	UNDP
المفوَّض السامي لشؤون اللاجئين	UNHCR
الاتحاد الدولي لنوادي الأُمم المتحدة	UNICA
هيئة الأُمم المتحدة	UNO
مكتب الأُمم المتحدة لتنسيق المعونة الإِنسانيّة	UNOCHA
بعثة الأُمم المتحدة الخاصة لأَفغانستان	UNSMA
برنامج الغذاء العالمي	WFP
منظمة الصحة العالمية	WHO
المجلس الأعلى للدفاع عن أَفغانستان	SCDA
الجبهة الإِسلامية المتحدة لإِنقاذ أَفغانستان	UIFSA

obeikandl.com

obeikandl.com

الجدول الزمني للحوادث

1979، 27، 12 زحف القوات السوڤييتية علىٰ أَفغانستان.

1985 تأسيس تحالف الأحزاب السبعة المؤلف من أهم مجموعات المقاومة الأَفغانية، وأعضاؤه: ربّاني (الجمعية الإِسلامية، وحكمتيار (الحزب الإِسلامي))، وخالص (الحزب الإِسلامي ـ 2)، وسيّاف (الاتحاد الإِسلامي، باراي آزاديبه أفغانستان) وجيلاني (ماهازملّي إِسلامي)، ومحمدي (الحركة الإِنقلابية الإِسلامية في أَفغانستان)، ومجدّدي (جبهة مِلّي نجاة أَفغانستان).

1988، 14، 4 التوقيع علىٰ اتفاقية جنيف حول انسحاب القوات السوڤييتية بين أَفغانستان وباكستان، ومعهما الدولتان الضامنتان (الاتحاد السوڤييتي والولايات المتحدة).

1989، 15، 2 أواخر القوات السوڤييتية تغادر أَفغانستان.

23، 2 تشكيل الحكومة الأَفغانية المؤقتة (AIG) بيشاور من قبل تحالف الأحزاب السبعة السنية، ومن دون مشاركة الأحزاب الشيعية.

1992، 16، 4 الإِطاحة بآخر رئيس شيوعي، وهو نجيب الله، ولجوؤه إِلىٰ مبنى تابع للأُمم المتحدة في كابول.

24، 4 الحكومة الأَفغانية المؤقتة تؤسس قيادة جديدة برئاسة مجددي رئيساً انتقالياً (ولايته حتى 28، 6) ويليه ربّاني الذي ينتخب لمدة أربعة أشهر.

25، 4 أحمد شاه مسعود يغزو العاصمة الأَفغانية، والحكومة تنقل مقرّها إِلىٰ كابول.

28، 6 ربّاني يصبح رئيساً بعد تخلي مجددي عن منصبه.

29، 12 مؤتمر للشورى يمدِّد ولاية ربّاني عامين، ولا يحظى هذا بالاعتراف من قبل بعض أحزاب المقاومة. وعلىٰ أثر ذلك.

1993 في كانون الثاني، نشوب الحرب الأهلية، الجنرال الأوزبكي دُسْتُم الذي لا ينتمي إلىٰ الحكومة، يحاول غزو كابول، فيطرده مسعود.

17، 1، خطة السَّلام من قبل الملك السابق ظاهر شاه.

1994، 1، 1 بعد تغيير دُسْتُم وحكمتيار لتحالفهما، معارك طاحنة من جديد، من أجل كابول.

بداية تشرين الثاني: ظهور الطالبان لأول مرة بقيادة الملاّ عمر، وغزوهم قندهار وطردهم القادة المحليين.

28، 12 انتهاء رئاسة ربّاني بموجب اتفاقية الحكومة المؤقتة، ومنذ ذلك الوقت يجري تمديدها من قبل ربّاني مراراً، ومن جانب واحد، وما زالت تُمارَس حتى اليوم.

1995، 13، 3 وقوع قائد الهزارا أسيراً لدى الطالبان، وقتله، ويصبح خَلَفُه الشيعي كريم خليلي.

4، 9 الطالبان يغزون مدينة هراة، غربي أَفغانستان ويطردون الحاكم، إسماعيل خان.

1996 في حزيران يغادر أسامة بن لادن السودان ويتخذ لنفسه معسكراً في جلال آباد.

4، 6 حكمتيار يغدو رئيساً للوزاء في حكومة ربّاني.

29، 6 تعيين المؤلف مفوَّضاً لشؤون أَفغانستان.

26/ 27، 9 في المحاولة الرابعة يغزو الطالبان كابول، وينقل العلامة ربّاني الحكومة إلىٰ كوندوز، وفي الأسابيع التالية تأسيس «تحالف الشمال» الموجه ضد الطالبان، بين مسعود ودُسْتُم والخليلي.

5، 11 رئيس الدولة الباكستاني يعفي حكومة بنازير بوتو، ويقيم حكومة انتقالية برئاسة خالد لمدة ثلاثة أشهر.

1997، 3، 2: انتخابات برلمانية في باكستان، نوّاز شريف يصبح رئيساً جديداً للوزراء.

19، 5: أزمة مزار الشريف الأولى، تمرُّد الجنرال عبد الملك على دُسْتُم. الطالبان يحتلون مدينة مزار الشريف احتلالاً عابراً، ومع ذلك يُطردون بعدها من قبل عبد الملك. دُسْتُم يهرب، وفي 25، 5 تعترف باكستان بحكومة الطالبان في كابول، وإِسلام آباد. وفي مزار الشريف يرتكب الهزارا مجزرة في الطالبان الأسرى، انتقاماً من قتل مازاري (عام 1995).

28، 7: الأمين العام للأُمم المتحدة يطلع رئيس الجمعية العمومية ورئيس مجلس الأَمن على تعيين المفوض الخاص لأَفغانستان، الأخضر الإِبراهيمي.

9، 9: أزمة مزار الشريف الثانية، الجنرال دُسْتُم يعود إِلىٰ مزار الشريف، دحر هجوم متجدد للطالبان. عبد الملك يهرب إِلىٰ مشهد (إِيران).

31، 12 المؤلف ينهي ولايته بصفته مفوَّضاً خاصاً لأَفغانستان.

1998، 26، 4 إِخفاق اجتماع لعلماء الدين تديره باكستان، في إِسلام آباد لتسوية الصراع الأَفغانستاني.

11، و13، 5: تجارب نووية هندية، تليها تجارب باكستانية في 28 و31، 5. إِدانة كلا الدولتين من قبل مجلس الأَمن التابع للأُمم المتحدة. الولايات المتحدة تفرض عقوبات اقتصادية علىٰ إِسلام آباد ونيودلهي. صندوق النقد الدولي يقوم بوقف المدفوعات إِلىٰ باكستان. وقف معونة التنمية الغربية إِلىٰ كلتا الدولتين. أزمة اقتصادية في باكستان.

7، 8 الضربة الإِرهابية ضد السفارتين الأمريكيتين في دار السَّلام، ونيروبي، الاشتباه في كون المسبِّب أسامة بن لادن.

8، 8: الطالبان يغزون مزار الشريف، ويُقْتَل في أثناء ذلك تسعة من التابعين للقنصلية الإِيرانية. مجزرة يقوم بها الطالبان ضد الهزارا.

21، 8 ضربة الولايات المتحدة ضد معسكر تدريب لأسامة بن لادن في جنوب أَفغانستان.

1، 9 بدء «مناورة عسكرية» إِيرانية علىٰ الحدود مع أَفغانستان. خطر اشتباكات مسلحة مع الطالبان. وساطة مفاوض الأُمم المتحدة، الإِبراهيمي (بداية تشرين الأول).

13، 9: الطالبان يغزون باميان. خليلي يهرب إِلىٰ طهران.

21، 9: لقاء مجموعة «6 + 2» علىٰ مستوى وزراء الخارجيَّة، برئاسة الأمين العام للأُمم المتحدة، كوفي عنان في نيويورك ينتهي من دون نتيجة.

7، 7: الولايات المتحدة تصدر عقوبات اقتصادية ضد الطالبان لرفضهم تسليم أسامة بن لادن.

12، 10، : رئيس الأركان الباكستاني، الجنرال مشرف، يطيح برئيس الوزراء نواز شريف، ويصبح رئيساً جديداً للدولة.

20، 10: المفوض العام للأُمم المتحدة، الإِبراهيمي يقف جهود وساطته ضمن مجموعة «6 + 2».

14، 11: مجلس الأَمن التابع للأُمم المتحدة يفرض عقوبات ضد الطالبان لرفضهم تسليم أسامة بن لادن.

2001، 14، 2: إِقليم باميان الذي يغزوه مسعودبصورة عابرة يعود إِلىٰ أيدي الطالبان.

28، 2: الملاّ عمر يصدر مرسوماً ـ بتحطيم أصنام بوذا المنافية للإِسلام في باميان، التي يتم نسفها علىٰ الرغم من الاحتجاجات علىٰ النطاق العالمي.

6/7، 4: استقبال أحمد شاه مسعود في باريس وشتراسبورج.

10، 9: أحمد شاه مسعود يُقْتَل غيلةً.

11، 9: ضربة إرهابية لمركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاغون، ويُعَدُّ المسبِّب أسامة بن لادن. الملاّ عمر يرفض تسليمه.

22، 9: الرئيس بوش يرفع العقوبات الاقتصادية المفروضة علىٰ الهند وباكستان. والإمارات العربية المتحدة والعربية السعودية تقطعان العلاقات مع الطالبان الذين ما عادوا يُعْتَرَف بهم الآن إلاً من قبل باكستان.

7، 10: بدء الغارات الجوية الأمريكية علىٰ مواقع الطالبان.

9، 11: تحالف الشمال يستعيد مدينة مزار الشريف بمساندة جوية أمريكية، وفي 11، 11، تقع هراة وطالوقان في يده من جديد.

13، 11: الطالبان يُخْلون كابول، وتحالف الشمال يتقدم إليها.

15، 11: مجلس الأَمن يقر خطة النقاط الخمس الموضوعة من قبل الأُمم المتحدة من أجل حكومة انتقالية في أَفغانستان.

17، 11: برهان الدين ربّاني يثبِّت حقه في منصب رئيس الدولة.

27، 11 ـ 5 ـ 12: مؤتمر أَفغانستان في بيترزبرج، بالقرب من بون.

obeikandl.com